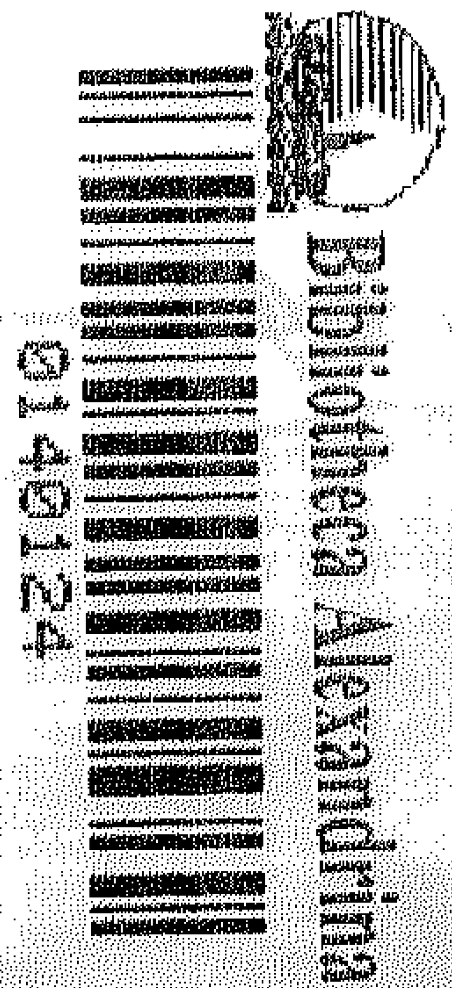
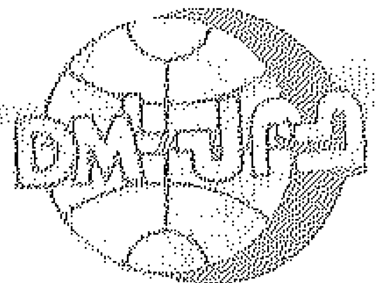
حنفي المحلاوي

أوراق في السياسة والحب والحرب

ثلاثون كتابا أثارت الرأي العام في مصر


Bibliotheca Alexandrina
0140124



الدار المصرية اللبنانية

أوراق في السياسة
والحب
والحرب



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت ـ تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣ برقيا : دار شادو ـ ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING-PUBLISHING-DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT st p.o. Box: 2022- CAIRO. EGYPT PHONE: 3936743-3923525 CABLE: DARSHADO

حنفي المحلاوي

أوراق في السياسة والحب والحرب

ثلاثون كتابًا أثارت الرأي العام في مصر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

« صدق الله العظيم »

المقدمـــة

ها أنا ألف وأدور من جديد.. داخل دروب العقل، وفى بطون إمهات المعاجم وقواميس اللغة.. باحثاً ومنقباً عن كلمات وعبارات تصلح كى تكون مُدخلاً لمقدمة كتاب نقدمه عبر هذه الأوراق. نلتقى فيه مرة أخرى بأمهات الكتب التى عرضنا لها وقدمناها على صفحات جريدة الوفد على مدى أكثر من عامين.

كانت فكرة ثم تبلورت وكبرت بعد نقاش طويل وكساها اللحم.. وحين جاء الموعد إتفقنا كى يرى هذا الجهد النور، سيراً على سُنن المعرفة. لنعيد ما بدأناه هناك. ولكن بشكل مختلف وبإسلوب آخر، وبتبويب سهل.

لقد عكفت طويلاً، وعشت لحظات يشوبها القلق مستعرضاً هذا الكم الهائل من الكتب التى قدمنا لها، وعرضناها فى صفحات جريدة الوفد خلال العامين الماضيين، كى نختار منها ما يصلح ليكون ضيفاً جديداً. ولكن فى مكان مختلف وعرض آخر.

هنا عبر صفحات هذا الكتاب الذى طالما حلمنا به ليرى النور.. نقدمه موسوعة ثقافية متكاملة، متنوعة أو إن شئت قل إنه مكتبة متنقلة تضم أو يضم (أى الكتاب) بين صفحاته أكثر من ثلاثين كتاباً فى مختلف فروع المعرفة. ولحظات القلق التى تحدثنا عنها منذ لحظات.. مصدرها الخوف من سوء الإختيار، وعدم التوفيق فى التبويب، والحكم فى النهاية متروك لتقدير القارىء.

بدأنا الفكرة بإختيار خمسون كتاباً، ولسوف تتعجبون حين تعلمون أن عدد الكتب التى عرضنا لها خلال العامين الماضيين بلغت ما يقرب من المائتى كتاب. هذا الإختيار ليس معناه أبداً أننا نفاضل من حيث الفكرة أو الإسلوب بين كتاب وآخر أو بين مؤلف وغيره، وإنما كنا حريصين على أن يكون هناك نوع من التآلف بين الشكل والمضمون. إن كل ما قدمنا له من كتب وموضوعات عبر صفحات الوفد، هى بحق مجموعة من أهم الكتب الثقافية وأكثرها

رواجاً، بل وأكثرها إثارة للجدل والنقاش داخل تجمعات المثقفين، لذا كانت لحظات القلق تختفى ثم سرعان ما تعود إلى الظهور، آملاً فى إستمرارنا على طريق حُسن الإختيار لنصل فى نهاية الأمر إلى تبويب جديد لكتاب متنوع المادة، فيه كل ما يمكن أن يحتاجه القارىء المثقف من شئون سياسية ودينية وإقتصادية وإجتماعية، حتى الحرب والحب كانا لهما نصيب طيب فى هذا الإختيار.

لقد عشنا أيامنا بطولها نتنقل بين إختيار وآخر، نتابع ونبحث عما يمكن أن يقوله هذا الكاتب، ولماذا نختاره دون غيره؟، رغم إيمانى الشديد ورغبتى المؤكدة فى أن يضم الكتاب الذى نحلم بأن يرى النور ــ والذى هو بين يديك الآن ــ كل الكتب التى عرضناها وقدمناها وتشرفنا بمعرفة مولفيها. ولكن وجدنا فى الأمر إستحالة.. لأسباب عديدة.. بعضها فنى والبعض الآخر إقتصادى. وكان لنا وبعد العديد من المداولات والجولات الإستشارية، هذا الكم من الكتب التى يمكن أن يضمها الكتاب المختار. لقد وصل عدد الكتب التى إستقر الرأى عليها، ثلاثون كتاباً. وإنها فى نظرنا تجربة، ربما تكون الأولى من نوعها، وإذا ما حازت فى النفس الإعجاب وفى العقل التأثير المطلوب، سيكون لنا معكم لقاءات ولقاءات قد تطول وقد تقصر حسب نوعية الموضوع الذى نعرض له.

ألم أقل لكم فى بداية الحديث، إن الموقف صعب والإختيار كان عسيراً والبحث عن كلمات تصلح مقدمة لهذا العمل الضخم ليست هينة. ولكن بدعوات أمى هناك، وبحبات العرق التى طالما صاحبتنى خلال هذه الجولة، وبثقتى فى الله، أعتبر هذا العمل الضخم نوع من المشاركة المتواضعة فى تقديم وجبة ثقافية شاملة لكل قراء اللغة العربية وغيرها من لغات العالم.

إننى أكرر من جديد وعبر هذا المنبر الأبيض، بل وأقر أن أحلى لحظات عمرى قد قضيتها ولازلت مع الكتب التى تصلنى تباعاً وأقوم بإختيار بعضها لعرضه هناك، وأعترف بنوع نادر من الجميل الذى يظل فى عنقى ما حييت، لكل هؤلاء المؤلفين الذين شاركوا بكلماتهم فى هذا الكتاب، وبغيرهم ممن ألتقى بهم أسبوعياً عبر صفحات الوفد.

إن سعادتى تصل إلى مداها حين أجد كتاباً ينتظرنى، وكلمات إهداء من المؤلف.. ولا أغالى حين أقول أنها عندى أغلى من الذهب، ولو أسعفتنى المقدرة لحفظتها فى خزائن البنوك. لأن كلمات الإهداء التى يسطرها المؤلف ويبعث بها إلينا، تُعد شهادة تقدير ووسام أعلقه فوق صدر الحياة الثقافية.

لكم العذر منى على التطويل فى التقديم، ولكنها حكاية حياتنا الثقافية التى لا تنتهى بإنتهاء العمر.

وبقى لنا أن نتعرف سوياً على ملامح الكتاب الذى سنعيش مع فصوله بعد لحظات.

الكتاب يحتوى على ستة فصول هم ...

● **الفصل الأول: بعنوان أوراق سياسية ..**

ومن خلاله نتعرف على أحدث وأكثر الكتب التى أثارت جدلاً ونقاشاً فى مجال السياسة العربية والدولية فهو يحدثنا على سبيل المثال عن الإنتفاضة الفلسطينية بأقلام كتاب لهم باع طويل ودراية فى هذا المجال. ثم حديث آخر عن الإرهاب الذى تمارسه إسرائيل فى منطقتنا العربية. وكذلك حديث ذو شجون عن لبنان وايران ومستقبل العالم بعد عشر سنوات.

● **الفصل الثانى: بعنوان أوراق فى الدين والشريعة ..**

وهو عبارة عن جولة واسعة شاملة نرى من خلالها المؤامرات التى يدبرها أعداء الإسلام لإيذاء بيت الله الحرام، كعبته المشرفة. وكذلك الألغام والصعوبات التى يضعها هؤلاء الأعداء فى طريق إنطلاق الدعوة الإسلامية من جديد. ليس هذا فقط بل نتعرف من خلال هذا الفصل على أصول الضمان الاجتماعى فى الإسلام وكذلك حديث حرية الرأى.

● **أما الفصل الثالث: وعنوانه أوراق فى الطب والإدمان ..**

فهو جولة طبية بها حديث هام وخطير عن الإيدز والمخدرات وكيفية المواجهة والتحدى ووسائل العلاج والمقاومة.

● **ونأتى إلى الفصل الرابع: وهو بعنوان شخصيات وتراجم ..**

وفيه نلتقى بالعديد من الشخصيات المصرية وغير المصرية .. تاريخهم .. وحياتهم .. والدور الذى لعبوه وجعلهم مصدر خصب للمؤلفين، يكتبون عنهم وعن سيرتهم.

● **ثم الفصل الخامس: وعنوانه أوراق فى الفكر والاجتماع والإقتصاد ..**

وهو بحق حديث طيب فيه نتعرف على النيل ومستقبله ومحنة الاقتصاد المصرى وخطوات التنمية ومفهوم الحب وكذلك صاحب الجلالة التليفزيون.

● **وأخيراً الفصل السادس: الأوراق العسكرية ..**

إنه حديث يطول ويقصر ونحن بحاجة إلى حُسن الإصغاء لما فيه، فهو يتناول الحروب المحدودة والشاملة وكذلك الترسانة النووية الإسرائيلية.

إننى أدعو الله أن أكون قد وفقت فى توصيل كلماتى إلى قلوبكم مع إعتذارى الشديد. إن كنت قد أطلت عليكم.

حنفى المحلاوى

الفصل الأول

أوراق سياسية

- الانتفاضة الفلسطينية ـ تاريخ وحاضر ومستقبل

د. رشيدة مهران ـ حلقتان.

- ١٩٩٩ نصر بلا حرب.

ريتشارد نيكسون ـ حلقتان.

- الارهابيون الأوائل ـ جيراننا الجدد

وجيه أبو ذكرى

- صفحات من النضال الفلسطيني

الأميرة دينا عبد الحميد

- ايران بين التاج والعمامة

أحمد مهابه

- لبنان .. إنهيار أم إنتحار

محمود أحمد

- الانتفاضة والدولة الفلسطينية

لطفي الخولي

الانتفاضة الفلسطينية أمس واليوم وغداً(١)

أى ورقة ولو قصاصة صغيرة تتناول بالحديث الثورة الفلسطينية أو الانتفاضة وتقع بين يدى آخذها بحنان بالغ.. وأكاد أضعها بين رموش العين.. بالإضافة إلى تلك العلاقة الغريبة التى سرعان ما تنشأ بينى وبين هذه الورقة التى تحمل لى رياح الثورة الفلسطينية العظيمة.. وعبثاً حاولت البحث عن تعليل مريح لتلك الحفاوة.. فلم أجد.. وأخيراً استقر الرأى عندى.. أن السبب هو فى البداية والنهاية يتعلق برغبة شعب أسير، ذاق مرارة الهوان يريد أن يتخلص من عذاب الأسر وبغض هذا الهوان.

والحقيقة أننى لم أشغل البال كثيراً فى البحث عن السبب طالما أن الهدف نبيل والشعور إنسانى فى أعلى مراتبه؛ لذا حينما وصلنى كتاب الدكتورة رشيدة مهران التى خصصته بجميع أوراقه للحديث الهام عن الانتفاضة الفلسطينية تاريخ وحاضر ومستقبل.. أنزلته عندى منزلة طيبة.. واحتضنته.. واصطحبته معى أينما ذهبت.. واحتلفت بما جاء به احتفالاً خاصاً.. وأردت أن يشاركنا القارىء العزيز فى هذه الحفاوة وهذا التكريم، فتوكلت على الله من أجل تقديم كل ما جاء به فى حلقتين أعرضهما هنا.. فليسمح لى القارىء أن أبدأ معه رحلتى عبر هذا العرض والتقديم.. وليكن عند حُسن ظنى من تقبله الدعوة للمشاركة فى هذا التكريم.

---

(١) الانتفاضة الفلسطينية تاريخ وحاضر ومستقبل ـ د. رشيدة مهران ـ حلقتان نشرا بالوفد: الأولى فى ١٩ أبريل ١٩٨٩.

الكتاب فى سطور قليلة:

يحمل غلاف الكتاب.. لوحة تتوقف أمامها كثيراً؛ لأنها مل كل سمات الثورة الفلسطينية والانتفاضة التى زلزلت كيان الوجود الصهيونى.. هذه السمات تتلخص فى كومة من الحجارة يحملها شاب فلسطينى ليقذف بها رءوس اليهود حتى تطير ويتخلص من شرهم! ثم تطالعك فى الصفحة التى تلى الغلاف مباشرة صورة للزعيم الفلسطينى الراحل أبى جهاد، وعبارة قوية تقول «شهيد الانتفاضة وروحها الباقية» ولانلبث أن نقلب صفحات الكتاب لنعرف طريق البداية، ونضع أيدينا على أهم ما جاء به؛ ليحظى بشرف التقديم خلال هذا العرض وعلى هذه الصفحة.

وقبل أن نبدأ رحلة التفصيل والتفسير يقول الفهرس: إن الكتاب عبارة عن ثلاثة أبواب استغرقت كل أوراق الكتاب التى بلغت ثلاثمائة صفحة. ولعل تركيزنا هنا سوف يكون على البابين الأول والثانى باعتبارهما المفتاح الذى أبحث ونبحث عنه جميعاً؛ لنعرف الشىء الكثير عن تلك الانتفاضة أو ثورة الحجارة التى حيرت كل العالم وفرضت احترام العدو قبل الصديق.

على هامش التاريخ:

حين نقلب صفحات الباب الأول من الكتاب الذى بين أيدينا نكتشف أنه يحتوى على ثلاثة فصول كلها تدور حول معنى واحد هو الانتفاضة الفلسطينية ومن أين بدأت؟! ولا شك أن ذلك يوحى بأنه سيكون لنا معه العديد من الوقفات خلال لقطات التاريخ، لنلم أولاً بجذور الجهاد الفلسطينى فى الأرض المحتلة حيث الثورات الفلسطينية المتعاقبة وحتى تأسيس حركة التحرير الوطنى «فتح» ومولد الثورة الكبرى. ثم انتقال العمل العسكرى الفدائى إلى الأرض المحتلة بعد الخروج الفلسطينى من لبنان عام ١٩٨٢، أيضاً سيكون لنا وقفة طويلة مع دور منظمة التحرير فى تفجير ودعم هذه الانتفاضة.

والكاتبة مشكورة تحاول جاهدة ومن خلال الوثائق أن تنقل لنا جذور الكفاح الفلسطينى منذ بداية ظهور النوايا الطامعة لليهود فى فلسطين.. وعن البداية تقول: «إن تاريخ فلسطين

الحبيبة يشكل في التاريخ الإنساني ملحمة حق وبطولة وصمود وفداء وارتباط الإنسان بأرضه إلى درجة الموت ومهما بعدت بينه وبينها المسافات أو حتى لو لم تطأها أقدامه من قبل أو نظرت عيناه سماءها » .

وللأمانة في العرض سيكون لنا مع المؤلفة الدكتورة رشيدة مهران وقفات قد تطول أو تقصر على ناصية التاريخ لنعرف أو على الأقل لنتذكر معها هذا التاريخ الفلسطيني المشرف .

البداية .. حركات الاستعمار:

لقد اكتسب الشعب الفلسطيني الطبيعة المقاومة حين اتضحت أطماع اليهود في أرضه عندما بدأ الاستعمار الغربي للوطن العربي بدءاً من حملة نابليون على مصر والشام عام ١٧٩٨ وزادت أهمية موقع فلسطين بحفر قناة السويس وفتحها للملاحة عام ١٨٦٩ ، وتآمرت بريطانيا على احتلال مصر، كما أرادت أن تحمى هذه القناة بإعلان انتدابها على فلسطين بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، كما واصلت بريطانيا تآمرها بأن سهلت للصهاينة استعمار فلسطين واستيطانها وإنشاء الكيان الصهيوني !!

وكما ذكرت سابقاً لن أستطيع أن أفرد كل هذه المساحة للحديث عن تاريخ الغزوة اليهودية لفلسطين ودور الأهالي في المقاومة ورفض هذا الاحتلال ، إلا أنني سأحاول جاهداً أن أشير إلى لقطات تاريخية على سبيل التذكر قبل الدخول في تفاصيل الانتفاضة ؛ لأن هذا التاريخ مرتبط بحق بظهور هذه الانتفاضة التي هي محل حديثنا خلال هاتين الحلقتين من العرض والتقديم .

● حين نبتت الفكرة الصهيونية وبدأت الخطوات العملية لتمكينها من أرض الواقع ووقعت الهجرة الصهيونية الأولى عام ١٨٨٢ بدأ العرب يفتحون أعينهم واستنفرت الطبيعة الفلسطينية المقاومة .

● بدأت الصدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهاينة عام ١٨٨٦ عندما هاجموا قراهم المغتصبة التي أجلوا عنها رغم إرادتهم .

● في شهر نوفمبر ١٩٠٩ تم تشكيل منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضي لليهود .

● وفي عام ١٩١٠ أصبح هذا الطلب عاماً بالفعل ، وأصبحت المعارضة عربية وفلسطينية ، ومما أدى إلى تقويتها انعقاد أول مؤتمر عربي في باريس .. كان من أهم نتائجه امتلاء النفوس بمشاعر الثورة والعداء لهؤلاء الذين جاءوا يسلبون الأرض .

● ومع اقتراب وقوع الحرب العالمية الأولى كان لابد من أن يجرى ترتيب الأوضاع .. حيث كانت الفكرة الصهيونية قد أرست نواياها على أرض فلسطين بحلول عام ١٩١٤ وهو عام الحرب.

● معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٥ ثم وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ الذى ينص على إنشاء وطن قومى لليهود.

الفلسطينيون ينتفضون:

وكما كان لنا وقفات قصيرة من إشارات التاريخ الفلسطينى أيضاً سنفرد هنا الحديث عن بدايات الانتفاضة الفلسطينية .. وكيف كان لها السبق فى مقاومة الاحتلال الإنجليزى والرغبة الصهيونية فى ابتلاع الأرض المقدسة كوطن لليهود.. وعن هذه البداية تقول المؤلفة: «وبعد إصدار وعد بلفور أطلقت بريطانيا لنفسها العنان بكل ما يخص فلسطين وأصبحت هى الدولة الوحيدة الملتزمة بتنفيذ هذا الوعد واتخاذ كل التسهيلات اللازمة لإقامة الوطن القومى لليهود» بجانب ذلك تقول: «إن فترة الانتداب البريطانى تعد من أسوأ الفترات من حيث أعمال العنف المتبادل والخيانة والانحياز والتآمر.. إذ زادت الأحوال سوءاً فى فلسطين وابتليت البلاد بنوع جديد من الاحتلال .. كما أصبحت البلاد مرتعا للإرهاب الصهيونى» .

وليسمح لى القارىء أن أركز له تاريخ الانتفاضة الفلسطينية منذ هذا التوقيت فى نقاط .. وحتى نصل معاً إلى الحديث عن الثورة الكبرى .. ثورة الحجارة .

● شبت الإنتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٢٠ فى شكل مظاهرات معادية للصهيونية على أثر الإعلان عن وعد بلفور المشئوم .. هذه المظاهرة شارك فيها ٤٠ ألف مواطن بقيادة الشيخ موسى كاظم الحسينى .

● فى الثامن من شهر مارس عام ١٩٢٠ أيضاً قامت مظاهرة كبيرة أخرى بطريقة عنيفة خاصة وإنه فى اليوم الأول من نفس الشهر قامت مجموعتان مسلحتان من الفلسطينيين بهجوم كبير على مستوطنتين قرب الحدود السورية .

● فى شهر مايو عام ١٩٢٠ تفجرت فى مدينة يافا انتفاضة هائلة وصلت إلى حد تسميتها ثورة يافا على أثر تزايد الهجرات اليهودية .

● فى عام ١٩٢٩ سجلت الأحداث التى وقعت تحت اسم الانتفاضة الشعبية الثانية والتى قامت ضد التحديات التى قام بها اليهود لاستثارة الفلسطينيين وجرح مشاعرهم الدينية .

● السنوات الواقعة بين عامى ٣٠ و٣٦ لم تكن هادئة ، فقد تميزت بانتفاضات متعددة ووقوع صدامات وظهور زعامات فلسطينية .

● لجأ الفلسطينيون ولأول مرة للحجارة كسلاح ضد الصهاينة الذين كان أغلبهم مسلحين بالبنادق ولجأ بعضهم إلى إطلاق النار.

الثورة الكبرى:

وعندما جاء عام ١٩٣٦ هبت ثورة عارمة عمت جميع أنحاء البلاد الفلسطينية، وقد دأب الكتاب والمؤرخون على تسميتها بالثورة الكبرى، حيث كان كل ما جرى منذ عام ١٩٣٠ تمهيداً لهذه الثورة التى انتفض فيها الوطن الفلسطينى من أدناه إلى أقصاه، وربما تميزت هذه الانتفاضة أيضاً علاوة على قوتها وامتدادها بالوجود العربى الذى أضفى على القضية كلها الصبغة العربية.. ففى شهر أبريل من عام ١٩٦ وعلى أثر الاعتداءات الصهيونية على السكان الآمنين وقتل العديد منهم، دعت اللجنة القومية التى تألفت فى المدن والقرى الفلسطينية دعت إلى استنكار أعمال الصهاينة التعسفية.. وتناول الإضراب جميع مظاهر العمل التجارى والصناعى والمدارس وعم الإضراب مختلف مظاهر العمل فى البلاد. ودعت اللجنة العليا إلى الإضراب الشامل.. وحددت مطالب البلاد الأساسية كما يلى:

- منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً.
- منع انتقال الأراضى العربية إلى اليهود.
- إنشاء حكومة وطنية ومسئولة أمام مجلس نيابى.

ولقد امتد لهيب هذه الثورة حتى عام ١٩٣٩ حين أعلنت الحرب العالمية الثانية، وعلى أثر ذلك راحت هذه الثورة بكل تضحياتها وشهدائها وخسائرها المادية فى طيات السكون الذى خيم على فلسطين مع فجر الحر العالمية!!

اليهود من ضحايا النازى:

وبرغم أن الثوار الفلسطينيين قد أنهكهم ط.ل القتال رشدة المجابهة مع السلطات البريطانية والعصابات اليهودية، إلا أن النية كانت متجهة إلى إعادة التسليح واستمرار الأعمال القتالية.. وحركات المقاومة وبعث روح الثورة من جديد، ولكن الوقت كان قد فات، وبحكم الظروف العصيبة التى كان يحياها الثوار وقعت بينهم بذور الفتنة، وكانت قواهم قد استنفدت طوال سنين الكفاح وما زاد الأمر سواء هو اختفاء القيادات المؤثرة سواء بالاستشهاد أو الاضطرار إلى الفرار.

بجانب ذلك فقد حان الوقت لتنفيذ المؤامرة بحذافيرها وساعد على ذلك انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا وظهور أمريكا بكل وضوح على مسرح السياسة الدولية. ولذلك قامت لجنة أمريكية إنجليزية مشتركة عام ١٩٠٦ بزيارة فلسطين ودراسة أوضاعها من حيث الهجرة اليهودية ومسألة بيع الأرض، وأوصت هذه اللجنة للأسف بدخول ١٠ آلاف يهودى من ضحايا النازى إلى فلسطين.. وكانت قراراتها بمثابة نكسة كبيرة لقضية الشعب الفلسطينى.. حيث أضاعت

مكاسب الثورة والانتفاضة التى عادت من نقطة البدء!! وللأسف لقد ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين فى نوفمبر عام ١٩٤٧.

فلسطين وأهلها بعد إعلان الدولة اليهودية:

وكما نجحنا سابقاً فى إجمال تاريخ النضال الفلسطينى فى نقاط.. سوف نستمر فى استخدام نفس الطريقة لإماطة اللثام عن بقية هذا التاريخ خاصة بعد الإعلان عن قيام إسرائيل..

● ففى عشية إعلان الدولة اليهودية تم إخراج مليون لاجىء فلسطينى من فلسطين إلى حدود البلدان العربية وبالذات لبنان والأردن وسوريا، وحين نجاح قرار التقسيم وإقراره من الأمم المتحدة رفض العرب ودفعت سبع دول عربية بجيوشها لتقاتل إسرائيل وتحرر فلسطين.

●دخلت الجيوش العربية فلسطين وهى على درجة من الضعف والتفكك بحيث لم تنجح فى تحقيق شىء وخرجت تجر أذيال الهزيمة والخيبة، وقد ضاعت فلسطين من بين أيدى سبع دول وجيوش عربية!!

● كانت نكبة عام ١٩٤٨ ضربة قاضية لآمال الشعب الفلسطينى وضربة كبيرة لكل العرب حيث كان من آثارها زرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى.

● تأخر انبثاق حركة ثورية تحررية إلى عام ١٩٦٥ حين تكونت حركة «فتح» حركة التحرير الفلسطينية.. ولقد تأخرت هذه الحركة فى الظهور على أرض فلسطين حيث مضت السنون بعد نكبة عام ١٩٤٨ والشعب الفلسطينى يتلمس موضع قدم فى الشتات الذى دفع إليه.. أما من بقى فى أرض فلسطين تحت الحكم الإسرائيلى فلم يكن أيضاً قد استطاع بعد أن يلتقط أنفاسه!! ولقد استغرق الأمر هذه السنوات الطويلة حتى تمكن الشباب الفلسطينى من تنظيم نفسه والاقتراب من بعضه البعض فى شكل تكتلات وتجمعات فلسطينية.

حركة فتح والكفاح المسلح:

كانت فى البداية تتكون من عدد من الشباب المخلص الثورى.. الذين لم يتجاوز عددهم أصابع اليد، وكان أبرزهم الزعيم الكبير ياسر عرفات.. ويعتبر ميلاد حركة فتح انتفاضة عظمى فى حياة الشعب الفلسطينى الذى لم تذهب برشده فظاعة النكبة ولا الواقع الأليم لوجود الثورة فى الشتات. كما قامت بجانب حركة فتح هذه بعض منظمات فدائية أخرى نادت كلها بتحرير فلسطين.. إلا أن فتح تميزت عن غيرها بإعلان استراتيجيتها الثابتة منذ إنشائها وحتى الآن وهى اعتماد حرب شعبية طويلة الأمد لتحرير فلسطين.. والثورة حتى النصر.. ثورة فلسطينية عربية خالصة.

وبالنسبة لتوقيت إعلان قيام هذه المنظمة .. فقد تكونت فى عام ١٩٦٤ بقرار قمة عربى وباقتراح من جمال عبدالناصر وافقت جميع الدول العربية على إقامة هذه المنظمة حتى تضمن تجمع الفلسطينيين بأراضيها بصورة ظاهرة .. ومنذ عام ١٩٦٥ أعلن مبدأ الكفاح المسلح ونزل ياسر عرفات نفسه إلى حدود فلسطين فى أول دورية عسكرية تهاجم إسرائيل .. وكان ذلك إيذانا ببداية المقاومة الفلسطينية المنظمة ضد إسرائيل .

وحين قامت حرب ١٩٦٧ بين الدول العربية وإسرائيل التى انتهت بتلك الهزيمة النكراء للدول العربية المشتركة فيها .. مثلت تلك الحرب هى الأخرى نكبة كبيرة فى سلسلة النكبات التى حطت على الشعب الفلسطينى ، إذ استولت إسرائيل على بقية الأراضى الفلسطينية بالضفة وقطاع غزة والقدس الشرقية . ولقد طالت الشعب الفلسطينى الخسارة الكبير بعد وقوع هذه الحرب حيث ضاعت بقية أراضيه ، ولكن حدث كأحد الفوائد القليلة للحرب أن تحقق أول التحام بين الثورة التى تكونت فى الشتات وبين الشعب الفلسطينى فى الداخل .

لقد نزل ياسر عرفات إلى أرضه المحتلة لتحقيق هذا الالتحام وليرفع من روح الشعب المقهور .. ولقد استطاع فى المدة التى قضاها متخفياً أن يبث الأمل بين مواطنيه ، وأن يجذبهم للثورة التى تمثل الأمل الوحيد لهم فى النجاة . وعندما اطمأن على أن الناس بخير وأن الثورة بخير وعلى إمكانية صمودها خرج كما دخل متخفياً دون أن يشعر به أحد .. ومنذ ذلك اليوم لم يعد هناك فاصل بين ثوار الداخل والخارج ، بل تم التنسيق بينهم واللقاءات المنتظمة أيضاً . وفى عام ١٩٦٨ وهو العام التالى للهزيمة كان الفلسطينيون ينشرون قواعدهم الفدائية على نهر الأردن .

المقاومة الفلسطينية فى كل مكان :

بعد أن نجح الفلسطينيون فى نشر قواعدهم الفدائية على طول نهر الأردن كبداية عملية للمقاومة المسلحة للعدو الإسرائيلى ، شنت إسرائيل هجوماً كبيراً بقصد تدمير هذه القواعد .. وفى موقعة الكرامة ، التى استمرت على مدى ١٥ ساعة تحطمت أسطورة جيش إسرائيل ، حيث لم يتمكن هذا الجيش من تدمير هذه القواعد ، كما تم أول التحام بالسلاح الأبيض بين الفلسطينيين وبين جنود إسرائيل .. ولقد هزت معركة الكرامة هذه الوجدان العربى كله بعد أن كان قد انكسر تحت ثقل هزيمة ١٩٦٧ .. وقدمت الثورة الفلسطينية إلى الجماهير العربية كأمل جديد فى رفع نير الهزيمة عن كاهل العرب ، بالإضافة إلى أنها رفعت من روح الجماهير الفلسطينية فى الداخل وأنعشت فيها الأمل بأن هناك من يتولى القتال عنها فى حركة منظمة وقيادة قوية . وانهال المتطوعون على حركة فتح بعد معركة الكرامة .. ولكن الثورة الفلسطينية انكفأت على نفسها بعد أحداث الأردن الدامية عام ١٩٧٠ .. ومن بعدها خرجت قوات الثورة

الفلسطينية من الأردن إلى جبل الشيخ على الحدود بين لبنان وسوريا .. ولقد لجأت الثورة إلى لبنان حيث حصلت على اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ الذى أتاح لها التواجد الشرعى على الأراضى اللبنانية ، حيث كبرت المقاومة الفلسطينية ، وساعدها على القوة هذا المد الجماهيرى الكبير الذى أحاطتها به جماهير الشعب اللبنانى .. بالإضافة إلى تركيز الثورة بشكل كبير فى الأرض المحتلة وخاصة فى قطاع غزة .

العمل الفدائى والخروج من لبنان :

وعندما خرجت قوات الثورة الفلسطينية من لبنان عام ١٩٨٢ ظن العدو الاسرائيلى أنه قد قضى على القوة الضاربة لمنظمة التحرير بتفرق أفرادها بين عدة دول عربية تبعد بها عن خط المواجهة معه .. ولكن منظمة التحرير قد بددت هذا الظن حين عمدت إلى طريقة انبعاث ذكية فعززت وجودها الشرعى على ساحة السياسة الدولية ، ووجودها السياسى بالاستناد إلى اتفاق عمان الذى خرج بها من متاهات العزلة بعد الخروج من لبنان ، وأثبتت فاعلية وجودها حين نقلت عملها العسكرى إلى داخل الوطن المحتل ، حيث نقلت ساحة المواجهة إلى داخل فلسطين .

فقد شهدت الأراضى المحتلة خلال العامين ١٩٨٥ و١٩٨٦ تصعيداً ملموساً للعمل العسكرى ضد الاحتلال ، وحين كثفت أعمال المقاومة فى داخل الوطن المحتل كان على القائمين عليها تقدير التعامل مع أجهزة أمن متطورة تتسم بالحداثة والمهارة ؛ لذلك كان لابد من تطوير أسلوب العمل الفدائى أيضاً !!

الانتفاضة الفلسطينية أمس واليوم وغداً(٢)

بالحديث عن الأعمال الفدائية لرجال المقاومة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة.. نكون قد وصلنا مع الكاتبة إلى الحديث عن مرحلة جديدة فى الصراع الدائر بين الفلسطينيين أصحاب الأرض وبين إسرائيل العدو المحتل.. هذا الحديث الذى من خلاله سنتعرف على أوجه هذه المقاومة التى ــ وكما تقول الكاتبة ــ قد فرضت على الفلسطينيين أنفسهم بعد أن أقفلت كافة الجبهات؛ العربية فى وجه العمل الفدائى، وبقيت لها جبهة واحدة هى أهم الجبهات لأنها الجبهة الداخلية، الأرض التى هى لب الصراع.

وعن ذلك تقول الكاتبة بتفاصيل أكثر: لقد استطاعت المقاومة أن تحدد مجال انتشار فعالية العدو، وتحدد أيضاً نقاط الضعف داخل جهاز الشاباك نفسه وهو جهاز أمن الحماية، كما استطاعت أن تصل بعملياتها إلى ما هو أدق وأكثر أمناً فى قلب إسرائيل، ولقد أتقن المقاتل الفلسطينى كيف يواجه مخططات التجسس داخل الوطن وتحمل النتائج مهما كان الثمن.

بل أكثر من ذلك تقول: إن نمو العمل الفدائى داخل الأرض المحتلة قد أقلق أجهزة الأمن بقدر ما رفع من روح الشعب الفلسطينى.. وإن المقاومة الأخطر والأعنف للاحتلال لم يواجهها الإسرائيليون بعد، بل إنهم سيواجهونها فى الفترة القادمة على أيدى الجيل الفلسطينى الشاب.

---

(٢) الحلقة الثانية بتاريخ ٢٦ ابريل ١٩٨٩.

تصادف وأنا أعد العدة لكتابة الحلقة الثانية فى عرض هذا الكتاب.. أن مرت ذكرى يوم الأرض المحتلة.. وماصاحب هذه الذكرى من المزيد من الدماء الزكية التى أريقت على أرض فلسطين. مظاهرات هنا وهناك.. ضحايا وجثث لكل الأعمار.. ومازالت الانتفاضة مشتعلة بل وتزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم.. ولعلها المصادفة الطيبة.. التى جعلتنى أفرد هذه الحلقة لحديث طويل عن الانتفاضة الفلسطينية فى ذكرى يوم الأرض.

وليسمح لى القارىء فى أن استعرض معه بقية محتويات الكتاب من الفهرس.. إذ ربما لاتتيح لنا المساحة التى نتحرك فيها عرض كل ما جاء به.. المهم أن يلم القارىء المحترم بكل ما فى الكتاب من مادة. لقد توقفنا بك عند نهاية الفصل الثانى من الباب الأول الذى حدثناك فيه عن انتقال العمل العسكرى الفدائى إلى الأرض المحتلة بعد الخروج الفلسطينى من لبنان عام ١٩٨٢.

ثم يهل علينا الفصل الثالث الذى تحدثت فيه الكاتبة عن دور منظمة التحرير فى تفجير ودعم الانتفاضة.. ثم الباب الثانى.. وهو يحوى ثلاثة فصول أيضاً، ويتناول الباب كله الحديث عن الانتفاضة وتأثيرها على الكيان الإسرائيلى فى مجال الأمن الداخلى.. وتأثيرها كذلك على الاقتصاد الإسرائيلى، ثم يأتى الحديث عن انقسام الحكم حول الانتفاضة وكسب رأى عام مؤيد للفلسطينيين. أما الباب الثالث فهو عن الانتفاضة ودورها السياسى.. من خلال ثلاثة فصول تدور كلها حول الدور السياسى على الصعيد العربى ثم على الصعيد الدولى وأخيراً مرحلة تحقيق الدولة المستقلة.

وتحاول المؤلفة من خلال الحديث القادم أن تثبت لنا وللعالم أن هناك وحدة للكفاح والتحام الثورة بين مواطن الداخل والخارج، بعدما عددت لنا المراحل التى مرت بها الانتفاضة الفلسطينية حتى يوم تفجيرها عام ١٩٨٧ وحتى الآن. كما تعدد لنا الأسباب الحقيقية التى أدت إلى اندلاع الانتفاضة وأسباب استمراريتها حتى اليوم.. وعن ذلك تقول: «ولقد توافرت الدوافع للشعب الفلسطينى.. وإن كان التوقيت الملغوم كثيراً ما توافر.. إلا أنه فى هذه المرة قد توافر بشكل زائد حين شعر الشعب الفلسطينى بظلم دولى وظلم عربى وظلم المحتل».

لقد شعر الشعب الفلسطيني أن العملاقين قد أغمضا عيونهما عن قضيته العادلة، واعتبرا ذلك كله ليس من القضايا الملحة !! فقد تواترت الأنباء بأن قمة جورباتشوف وريجان قد أهملت قضية الشرق الأوسط وحقوق الشعب الفلسطيني وموضوع المؤتمر الدولي. وكان الظلم العربي في شهر نوفمبر عام ١٩٨٧ والتحديات الصامتة التي واجهت منظمة التحرير.. ومنذ اللحظة الأولى حين لم يلق رئيس منظمة التحرير استقبالاً أسوة بكل الرؤساء والملوك القادمين بجانب المحاولات العديدة التي عمدت لعزل منظمة التحرير وإبعادها عن المشاركة في اتخاذ القرار. ولقد تفجرت المظاهرات بالفعل عند ملاحظة عدم إجراء مراسم الاستقبال بما يليق برئيس منظمة التحرير. ولكن القيادة الوطنية في الداخل وبتدخل ياسر عرفات شخصياً أجلت الانتفاضة !! أما الظلم الإسرائيلي المتمثل في الاحتلال فهو معروف منذ اليوم الأول للنكبة. ولكن في هذه الأيام طفح الكيل بعد كل الممارسات اللاإنسانية التي طبقها الاحتلال وبعد سياسة القبضة الحديدية التي يحيطه بها.

الرسالة المشهورة وتوقيت بدء الانتفاضة:

يعد ياسر عرفات بحق الروح النابضة للشعب الفلسطيني، وهو الوحيد القادر على التأثير حتى بنبرات صوته على الجماهير، لقد أعطى ياسر عرفات شحنة نورانية لجماهير الشعب الفلسطيني ضمنها رسالة مفتوحة إلى الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة. لقد رأى القائمون أن يوجه هذه الرسالة في هذا الوقت بالذات وفي يوم ١٧ أكتوبر عام ١٩٨٧ وأن يحيط رسالته هذه بسياج من التركيز والإشهار ويكفل لها الذيوع في وسط حملة إعلامية هائلة.

وتقول هذه الرسالة في بعض فقراتها «العالم كله يتطلع إليكم باحترام وأنتم تواصلون التحدي للعدو الصهيوني المتغطرس الإرهابي الذي يحاول عبثاً تجاهل قوة الحقيقة الفلسطينية ممثلة بهذا الزخم النضالي والإبداع الكفاحي لانتفاضتكم الجسور.. هذه الحقيقة الفلسطينية لا يمكن لأحد أن يتجاهلها أو يتخطاها أو يقفز فوقها.. ولقد لبى الشعب الفسطيني النداء في يوم الثامن من ديسمبر من عام ١٩٨٧. ولقد وقفت النظم بكل إمكاناتها خلف الانتفاضة باعتبارها انتفاضة حياة وبعث.. وقفت وراء كل طفل يحمل حجراً، وكل امرأة تفقد عزيزاً من أهلها، وخلف كل شاب يقاوم الاحتلال وخلف كل رجل أو كهل يعلن الاضراب، ويعلن الاحتجاج ويمتنع عن عمل أو يغلق محله.

أبو جهاد دينامو الانتفاضة في الداخل:

لقد كان الشهيد أبو جهاد دينامو لا يتوقف في رعاية شئون الأرض المحتلة والتنسيق مع الأهالي بالصلة الدائمة في كل شئونهم.. ولذلك كان مطلوباً من السلطات الإسرائيلية لهذا النشاط المدمر بالنسبة لها، لقد كان يدير القطاع الغربي الخاص بشئون الأرض المحتلة بكفاءة

ومهارة جعلت له مكاناً ووضعاً مميزاً ينسحب على المنظمة ككل، كما كان يضطلع أيضاً بالمهام العسكرية والفدائية بالداخل، وكان القائمون بالاحتلال يعرفون أن أغلبية العمليات الفدائية التى تقع من تخطيط وصنع أبى جهاد، وحين بدأت الانتفاضة كان أهالى فلسطين يعرفون أنهم مدعمون كل الدعم من المنظمة التى تحمل المسئولية الكاملة لمطالب الشعب الفلسطينى المشروعة وتحقيقها، ولقد كان أبو جهاد روحاً خلاقة فى مسار الانتفاضة، وكان بكل اتصالاته وكل جهوده متفاعلاً مع الجماهير الثائرة التى تواجه سلطات الاحتلال، وإمعاناً فى دفع الانتفاضة المعنوى خطط أبو جهاد لعملية فدائية كبرى لإعطاء الدليل للشعب الثائر أنَّ إسرائيل ليست هى القوة التى لا تقهر، وكانت هذه العملية الكبيرة التى استهدفت مفاعل ديمونة النووى الإسرائيلى.

سفينة العودة والثورة داخل الأرض المحتلة:

كان الجهد الإعلامى مكثفاً لماله من تأثير فى الرأى العام العالمى وكسب التأييد الدولى لكفاح الشعب الفلسطينى، وكانت فكرة سفينة العودة بلا شك جزءاً من معركة إعلامية تخوضها الثورة فى الداخل والخارج، وكان الهدف الأساسى نفسياً يحيى رمز العودة فى نفوس الشعب بالداخل.. لقد كان الهدف معنوياً أكثر مما هو واقعى، وهذا فى حد ذاته مكسب كبير.. حيث أعلنت منظمة التحرير فى ١٩٨٨/٢/٨ أن مساعدين بالكونجرس الأمريكى وعدداً من الاسرائيليين وأسقفا فرنسياً سيكونون بين حوالى ٢٠٠ شخصية يستقلون سفينة العودة التى ستقل فلسطينيين مبعدين إلى وطنهم، وجاء هذا التصريح على لسان بسام أبو شريف مستشار ياسر عرفات الذى قال فى مؤتمر صحفى: إن سفينة العودة ستبحر باتجاه ميناء حيفا بفلسطين المحتلة إلى رحلة يتوقع أن تستغرق خمسة أيام.

ضغوط مستمرة على حكومة اليونان:

وقد قامت فى وجه فكرة سفينة العودة حرب سرية بين المنظمة فى عدة عواصم وبين إسرائيل وأمريكا من أجل منع قيام هذه الرحلة، إذ قامت أمريكا بضغوط مستمرة على الحكومة اليونانية وعلى ملاك السفينة التى كانت ستستأجرها المنظمة لإلغاء اتفاق تأجير السفينة، كما نجحت قبل ذلك بتهديد مالكى السفينة سليفربالوما التى ألغت بدورها رحلتها، ورغم هذا فإن المنظمة كانت مصممة على استئجار السفينة.. وعلى قيام الرحلة.. واشترت سفينة بالفعل وجن جنون إسرائيل فقد اقتربت الفكرة من التحقيقَ، وقد كشفت إذاعة الجيش الإسرائيلى النقاب عن أن إسرائيل أجرت اتصالات عاجلة مع الإدارة الأمريكية بشأن سفينة العودة، وقد عارضت الإدارة الأمريكية اقتراحاً إسرائيلياً تقدم به وزير الحرب الإسرائيلى

إسحق رابين يقضى بأن يسمح سلاح البحرية الإسرائيلى لسفينة العودة بالدخول إلى المياه الاقليمية الإسرائيلية حيث يبادر إلى إغراق السفينة ومن عليها..

ولكن الإرهاب الإسرائيلى هو الإرهاب.. فقد امتدت يد التخريب إلى السفينة وهى رأسية فى ميناء لارنكا فارغة ولكنها شامخة تنتظر ركابها.. نسفت إسرائيل سفينة العودة، ولكنها لم تنسف الفكرة التى هى أساس تكوين الثورة الفلسطينية.

الانتفاضة وتأثيرها على الكيان الإسرائيلى:

ولاشك أن الكاتبة تبذل الجهد الخارق كى تصل بنا إلى المعرفة الكاملة المتعلقة بموضوع الانتفاضة.. ليس فقط كمظهر من مظاهر الثورة التى استخدمت فيها الحجارة ربما لأول مرة فى التاريخ.. بل تأثير هذه الثورة وهذه الانتفاضة على الكيان الإسرائيلى من نواح عديدة أهمها الناحية الأمنية والناحية الاقتصادية، ولسوف نفرد هنا البقية الباقية من المساحة التى بين أيدينا كى تحدثنا الكاتبة عن هذا التأثير الذى تركته الانتفاضة على الحياة داخل إسرائيل.

خلخلة الأمن الإسرائيلى:

حينما هبت الانتفاضة الفلسطينية الشعبية فى الثامن من ديسمبر ١٩٨٧ كان هذا إيذانا بخلخلة النظام الأمنى الإسرائيلى.. وسقوط نظرية الأمن التى تتباهى بها دائماً الدولة العبرية.. وحقيقة أن الثورات والانتفاضات والأعمال الفدائية لم تنقطع فى يوم ما عن الأرض الفلسطينية، ولكن هذه الانتفاضة جاءت بجمع شعبى ومد جماهيرى لم يسبق له مثيل، وحين تضطر سلطات الاحتلال إلى مواجهة يومية مع جماهير الشعب الثائرة فإن هذا لابد أن يزعزع قواها ويهددها فى صميم وجودها فوق هذه الأرض.

والدليل القوى الذى تستند عليه الكاتبة فى تأثير هذه الانتفاضة على أمن إسرائيل الداخلى قولها «لقد حققت إسرائيل كل ضرباتها خارج حدودها حيث إنها تمتلك القوة العسكرية الكبيرة.. أما هذا السرطان المستشرى فى الداخل فكل المؤشرات تشير إلى أنها لن تنجو منه، وتأتى المواجهة اليومية لتربك السلطة وتعرض أمن المواطنين وتهز بأجهزة الأمن كله حتى تسود الفوضى كل شىء، فلا أمن ولا أمان فكيف تسير الأمور» ؟!

سجل وقائع سقوط نظرية الأمن:

ونحن فى مجال عرض كيفية سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية وخلخلة الأمن الداخلى من وقائع أحداث الانتفاضة الشعبية الفلسطينية، لن نستطيع أن نسجل كل الأحداث اليومية وإلا لاحتجنا إلى مجلدات كبيرة لا كتاب واحد.. وأى كتاب هذا الذى يستطيع أن يتابع نبض

الجماهير الثائرة السريع ؟ لذلك فنحاول عرض بعض الوقائع التى نستطيع أن نلمس من خلالها مدى الاضطراب والفوضى والخوف إلى حد الذعر والخسائر الذى بثته الجماهير الفلسطينية بين المغتصبين الذين أقاموا دولتهم فى فلسطين على حساب أصحاب الحقوق الشرعية.

● فمثلاً: يوم ٨٧/٢/٩ بلغ عدد الضحايا للأعمال التى قامت بها سلطات الاحتلال الإسرائيلى ضد سكان مخيم جباليا للاجئين بقطاع غزة شهيدين وثلاثين جريحا. وقد فرضت سلطات الاحتلال نظام حظر تجول على المخيم، لكن الفلسطينيين لم يخضعوا لهذا الأمر واستمروا فى التظاهر، واشتبكوا مع جنود الاحتلال فى أزقة المخيم.

فى ٩ ديسمبر كان قد استمر حظر تجول فرضته السلطات الإسرائيلية على مدينة غزة على التوالى خاصة بعد مقتل يهودى فى المدينة التى تحتلها إسرئيل على أيدى فدائيين فلسطينيين. وكان شيمون بيريز قد اقترح نزع سلاح قطاع غزة المحتل فى مناقشة ساخنة مع أعضاء يمينيين فى الكنيست يطالبون بضم القطاع إلى إسرائيل رداً على حادث القتل.

● فى ٨٧/١٢/١١ استمرت الانتفاضة بقوة رداً على الممارسات القمعية لسلطات الاحتلال. وأعلنت إسرائيل أن ٣فلسطينيين بينهم فتاة قد استشهدوا برصاص الجنود الإسرائيليين فى مخيم بلاطة بالقرب من نابلس، وقد سقط الشهداء الثلاثة خلال المظاهرات.

● وفى ٨٧/١٢/١٦ دخلت الانتفاضة منعطفاً جديداً حيث بدأ الفلسطينييون شن هجمات انتحارية بالسكاكين ضد دوريات الاحتلال فى حين استدعت إسرائيل عشرات الدبابات والمدرعات والطائرات إلى قطاع غزة، وبدأت تستخدم الشاحنات لقتل المتظاهرين.

وفى اعتراف غير مباشر بعدم قدرة الاحتلال على السيطرة على الانتفاضة قال وزير الحرب الإسرائيلى إسحق رابين: إن الموقف محزن للفلسطينيين والإسرائيليين.

● يوم ١٩٨٨/٢/٨ صرح رابين وحاييم بارليف أمام الكنيست الإسرائيلى أنهما متشائمان من نهاية قريبة للمواجهة مع المواطنين الفلسطينيين الذين يصعدون انتفاضاتهم يوماً بعد يوم.

● أعلنت إسرائيل أنها تعتمد على التحرك الأمريكى لوقف الانتفاضة، واعترفت بفشل جميع إجراءاتها.. وأن الانتفاضة التى بدأت فى ديسمبر الماضى عام ٨٧ ستتواصل بشكل تصاعدى، واستطاعوا أن يعيدوا القضية الفلسطينية إلى مركز الصدارة وجذب الرأى العام العالمى.

وبعد اختيارنا لهذه النماذج التى عرضتها الكاتبة لتوضح لنا مدى تأثير الانتفاضة على كيان الأمة الإسرائيلى.. تنهى حديثها خلال هذا الفصل بقولها: «ويكفى أن يشعر كل القائمين

بالأمر فى الكيان الإسرائيلى أنهم يواجهون ثورة حقيقية وشعباً ثائراً صامداً متمسكاً بحقه فى الحياة، وكان هذا وباعترافهم جميعاً، وأيضاً الاعتراف الأكبر وهو أنهم حقيقة فى مأزق يواجهون عوامل التصدع والانهيار.

الانتفاضة والاقتصاد الإسرائيلى:

مما لاشك فيه أن ما يجرى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة منذ أول اندلاع الانتفاضة الشعبية الفلسطينية فى الثامن من ديسمبر ١٩٨٧ شيء مهول. ولابد أن تحدث انعكاساته على الكيان الإسرائيلى وعلى جميع الساحات هزة بركانية جبارة يتصدع لها أساس ذلك البناء غير الشرعى.

وتكاد التغييرات والخسائر التى طرأت على هذا الكيان تعرض نفسها على أى من الملاحظين أو المراقبين أو المهتمين بمسيرة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فالاضطرابات والإتلافات المادية والنتائج المترتبة على عدم الاستقرار وخلخلة الأمن فى الداخل لابد أن تمس الدولة العبرية فى أهم شرايينها.

وكما نعرف فإن الاقتصاد عصب أى دولة.. وقد رأينا قوات الغزو الإسرائيلية وهى تسارع بالانسحاب من لبنان بعد غزوتها الشهيرة عام ٨٢ لضرب منظمة التحرير هناك.. لأن بقاء جنودها فى لبنان كان يكلفها يومياً أكثر من مليون دولار، الأمر الذى كان يشكل ضربة قوية لهذا الاقتصاد لا تحتمله الإمكانات الإسرائيلية المعتمدة أكثر ما تعتمد على المعونات والقروض والاتفاقيات مع أمريكا. وبلاشك فإن هذه المواجهة اليومية الدائمة على مدى عشرة شهور للآن تشكل استنزافاً مادياً مهولاً لاقتصاد إسرائيل.

ميزانية حرب لمواجهة الانتفاضة:

لقد اضطرت إسرائيل إلى وضع ميزانية حرب لمواجهة الانتفاضة على ما فى ميزانية الحرب من نفقات باهظة ومرهقة فى نفس الوقت. وميزانية الحرب دائماً هى أعلى وأكثر الميزانيات تكلفة فى الميزان الاقتصادى لأية دولة. إن هذه الحرب الأهلية لا يقتصر تأثيرها الضار على حجم التكلفة فقط، ولكنها تمس وسائل ومصادر الدعم الاقتصادى فى الصميم. كما يكون تأثيرها على العنصر البشرى كبيراً أيضاً حيث تؤدى إلى خلق نوع من عدم الاستقرار ينعكس بشدة على الإنتاج.

الكيان الصهيونى والعمالة الفلسطينية:

إن الآثار التى أحدثتها الانتفاضة فى الأراضى المحتلة ناجمة فى الأساس عن تلك العلاقة الاستعمارية بين الاقتصاد الإسرائيلى، واقتصاد المناطق المحتلة.. وتتجلى هذه العلاقة بأوضح

صورها فى استخدام ١٠٠ ألف عامل من المناطق المحتلة فى فروع الاقتصاد الإسرائيلى المختلفة.

ويشكل هؤلاء نحو ٣٥٪ من طاقة العمل المدنية فى المناطق المحتلة.. وهناك تقديرات تشير إلى أن عدد هؤلاء العمال يصل إلى ١٥٠ ألف عامل. وقد شن الكيان الصهيونى حملة مسعورة ضد هؤلاء العمال فى الجليل والمثلث والنقب، وتمثلت هذه الحملة فى فصل المئات من العمال الفلسطينيين فى المصانع والشركات، واعترفت المصادر بأن عمليات الفصل جاءت إثر تضامن المواطنين الفلسطينيين مع إخوانهم فى الضفة الغربية وإعلان الإضراب العام استنكاراً للأساليب الوحشية التى تمارسها سلطات الاحتلال ضد المواطنين الفلسطينيين.

الانتفاضة فاقت كل التوقعات:

ولعل خير نهاية لهذه الجولة الهامة من رحلتنا فى هذه الحلقة مع الكتاب الذى بين أيدينا.. كلمات الكاتبة عن انقسام الحكم حول الانتفاضة، وكيف أنها كسبت رأياً عاماً مؤيداً للفلسطينيين. وعن ذلك تقول: إن الانتفاضة الفلسطينية قد فاقت كل التوقعات والحسابات الإسرائيلية والعربية على حد سواء لتضع نفسها كحقيقة حيوية معاشة على الأرض. ولاشك أن معطيات الانتفاضة قد شقت الاستراتيجية الإسرائيلية ونبتت فى وسطها كشوكة مؤلمة دامية لهذا الكيان العنصرى البغيض.

أضواء على أمريكا الجديدة
خلال مائة عام قادمـــة (١)

حين يصلنى أى كتاب جديد ، وأتصدى له بالعرض والتقديم ، وأتعامل معه أولاً بالإحساس .. بمعنى .. الإحساس بموضوع الكتاب والإحساس بالمؤلف أو الكاتب . هذا الإحساس الذى كثيراً ما أقدمه أولاً على العقل .. يفيد فى تقدير قيمة هذا الكتاب ، وفى تبيان منزلة المؤلف وقيمته ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة العقل الذى أطلقه ليعايش الكلمات والحروف .. وحتما يحدث نوع من المعادلة بين العقل والإحساس حين أفكر فى بداية عرض وتقديم الكتاب .

هذه المقدمة لابد منها .. لإيضاح مسألة هامة هى أنه حين وصلنى الكتاب الذى سنعرض له هنا .. أحسست بشىء عظيم استوقفنى كثيراً نظراً لقيمة الكتاب ومؤلفه الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون ، وكذلك الكاتب الذى أعده وهو المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع والإنتاج الحربى مساعد رئيس الجمهورية حالياً .

---

(١) ١٩٩٩ نصر بلا حرب ــ ريتشارد نيكسون ــ إعداد المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة نشر فى حلقتين بالوفد : الأولى ٥ أبريل ١٩٨٩

ونظراً لأنه سيكون بيننا أكثر من لقاء عبر كلمات المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة الذى أعد وقدم كتاب «عام ١٩٩٩ نصر بلا حرب» لمؤلفه ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكى الأسبق، أحب أن أشرك القارىء فى كل صغيرة وكبيرة يأتى بها الكتاب من غلافه الأول إلى غلافه الأخير، وسيراً على هذا النمط، أعرض الغلاف الذى طبع بطريقة فاخرة، تصدره باللون الأحمر رقم العام الذى هو محور حديث الكتاب وهو عام ١٩٩٩ ثم يليها عبارة «نصر بلا حرب» باللون الأسود، ومن بعدها يأتى اسم المؤلف ريتشارد نيكسون الذى يتصدر بصورته نصف الكتاب من أعلاه... بعد ذلك نقرا: إعداد وتقديم المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة.

وبعد أن نقلب صحفة واحدة نصل إلى محتويات الكتاب.. وهى كالتالى:

- تقديم: للمشير محمد عبدالحليم أبو غزالة.
- الفصل الأول: القرن العشرون أكثر القرون دموية وأفضلها فى آن واحد.
- الفصل الثانى: الدولتان العظميان.
- الفصل الثالث: كيف نردع موسكو؟
- الفصل الرابع: كيف ننافس موسكو؟
- الفصل الخامس: كيف نتفاوض مع موسكو؟
- الفصل السادس: العملاق المفتت.
- الفصل السابع: العملاق رغم أنفه.
- الفصل الثامن: العملاق يستيقظ.
- الفصل التاسع: ساحات المعارك فى العالم الثالث.
- الفصل العاشر: أمريكا جديدة.
- حاشية للمؤلف.

كلمة الناشر فى الغلاف الأخير:

وحين نقلب صفحات الكتاب بشكل سريع.. قبل إلقاء الضوء على ما جاء فيه بالتفصيل. نلقى نظرة ولو سريعة على كلمة الناشر. التى يقول فيها «ليس من المبالغة القول

بأن ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكى الأسبق، من أكبر مهندسى السياسة الخارجية الأمريكية ومن أبرز مفكريها، وذلك بفضل ما توافر له من خبرات طويلة فى العمل السياسى الخارجى.. قبل وصوله إلى البيت الأبيض، وبفضل قدرته على توظيف مجموعة من كبار المفكرين والخبراء الاستراتيجيين كمستشارين له أثناء رئاسته والاستفادة بجهودهم فى بلورة أفكاره وسياساته.

وكتاب يضعه نيكسون عن السياسة الخارجية لبلاده يشكل بالنسبة لكل المهتمين بالشئون الدولية وبالذات فى المناطق الساخنة مثل منطقتنا ــ ذخيرة لا تقدر لفهم هذه السياسة، خاصة وأن الرئيس الجديد بوش من المتأثرين بفكر نيكسون ومنطقه كما أوضح كتاب كثيرون.

تقديم للمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة:

كان بودى أن أقدم بطلنا المصرى المشير أبو غزالة باعتباره أحد أبطال نصر أكتوبر المجيد والعبور العظيم.. ولكننى تصورت أن خير تقديم لهذا البطل هو كلماته وأسلوبه وعباراته التى نحس بها ونشعر بوجوده بيننا من خلالها.. ليس كبطل عسكرى فقط.. بل كشخصية مصرية استطاعت أن تؤدى العديد من المهام والأدوار فى حياتنا التى شعرنا وما زلنا نشعر بها منذ حرب أكتوبر حتى يومنا هذا، سواء فى الداخل أو فى الخارج. وكما ذكرت سوف أترك الميدان كله فسيحاً لكلمات المشير أبو غزالة، ليقدم لنا كتاب ريتشارد نيكسون.

هذا الكتاب جدير بالقراءة الجادة:

يقول المشير أبو غزالة فى بداية هذا التقديم: إن هذا الكتاب جدير بالقراءة الجادة والمتعمقة، ومن المفيد للغاية أن يطلع عليه الذين يصنعون سياسة بلادهم، والذين يصوغون العلاقات الإقليمية والدولية، والذين يهتمون بأمور الأمن القومى والاستراتيجية الشاملة، وأهمية هذا الكتاب تجىء من أربعة عوامل:

- **العامل الأول:** شخصية الكاتب.. وهو الرئيس الأمريكى السابق نيكسون.
- **العامل الثانى:** توقيت الكتاب، فالعالم يشهد اليوم مرحلة جديدة فى صياغة العلاقات الأمريكية السوفييتية، وهى مرحلة لم تتضح كل أبعادها بعد.

- **العامل الثالث:** طبيعة النظام السياسى والاجتماعى القادم منه صاحب الكتاب وهو النظام الأمريكى.

- **العامل الرابع والأخير:** مضمون هذا الكتاب.. إن ما يميزه هو أنه يتجه إلى المستقبل من وجهة النظر الأمريكية الخبيرة، مستقبل السنوات القليلة المتبقية حتى عام ٢٠٠٠ ثم التوجه إلى القرن الحادى والعشرين، تلك هى مسئوليتنا جميعاً.

ومن الطبيعى أن نتفق ونختلف مع ما فى هذا الكتاب.. ولكن ليس من الطبيعى أن نتجاهل أننا جميعاً نتعامل مع الولايات المتحدة بدرجات مختلفة، وسنظل نتعامل معها.. ومن المهم أن نتعرف على أفكار خبرائها، خاصة إن كان حديثهم عن مستقبل العالم. وكتاب «١٩٩٩ نصر بلا حرب» ليس استشرافاً لمستقبل العلاقات الدولية ودور أمريكا فيه فقط، ولكنه مليء بما يمكن أن نطلق عليه «علامات إرشاد رئيسية» لكل المتعاملين مع أمريكا، علامات إرشاد قد نقتنع ببعضها، وقد نتناقض مع بعضها الآخر، ولكننا لا نستطيع أن نغمض العيون عنها فسوف تصطدم بها مسيرتنا جميعاً. والذكاء القومى هو أن نتفهمها جيداً ونطوعها على نحو يحملنا إلى بر الأمان الوطنى والقومى.

شعوب جديدة فى نادى القمة:

والكتاب يشير إلى أن أمريكا والاتحاد السوفييتى سيظلان على قمة العالم حتى سنة ٢٠٠٠ وتلك فترة زمنية لا تحسب فى عمر الدول؛ فهى لا تتعدى اثنى عشر عاماً، ولكن الكاتب يقرر أن الشعوب الحية لا تشبع من النجاح، وأن جماهيرها لديها طاقة متحفزة للانطلاق، وأن الإشباع الحقيقى للأمم العظيمة لا ينبع من التغنى بإنجازات الماضى، وإنما يتحقق بالشروع فى تغيير المستقبل، وهذا ما تفعله الآن الشعوب فى الصين واليابان، وتحاوله شعوب أوروبا الغربية.

ومن هنا فالقمة فى القرن الحادى والعشرين سوف تتسع لتشمل مع أمريكا والاتحاد السوفييتى.. واليابان العملاق رغم أنفه ـــ كما يقول المؤلف ـــ والصين الشعبية العملاق الذى يستيقظ، وأوروبا الغربية إذا ما نجحت فى خلق صياغة جديدة لقدراتها ودورها.

السلام بين أمريكا والاتحاد السوفييتى ضرب من المستحيل:

ومن هنا وحتى سنة ٢٠٠٠ حيث يتبوأ قمة العالم روسيا وأمريكا ـــ يحذر نيكسون من واقع خبرته وتجربته من تفسيرات غربية خاطئة لما يحدث اليوم فى الاتحاد السوفييتى. ويرى ويقرر بوضوح أنه لا يمكن أن يقوم السلام بين أمريكا والاتحاد السوفييتى على أساس من الصداقة المتبادلة؛ لأن قيم وأهداف القوتين تختلف كلية بعضها عن بعض، ولكن العلاقة يمكن أن تقوم فقط على أساس الاحترام المتبادل لقوة كل منهما ومصالحهما الشرعية، وقد بنى الرئيس الأمريكى السابق هذه الخلاصة على افتراض إمكانية أن يكون الشعب السوفييتى والشعب الأمريكى أصدقاء، مع عدم إمكانية أن تكون الحكومة السوفييتية والحكومة الأمريكية أصدقاء نتيجة للاختلافات العميقة. وهذا درس لنا نحن القراء!!

وفى موضوع آخر وعن نفس هذا الموضوع يقول المشير أبو غزالة.. وفى الإحدى عشرة سنة قبل سنة ١٩٩٩ ستتعامل أمريكا على مستوى نادى القمة مع الاتحاد السوفييتى أقوى شيوعياً،

وأكثر التزاماً بنظامه وأهدافه المعلنة فى أن يجعل العالم كله شيوعياً. ومن ثم فعلى أمريكا خلال هذه الفترة أن تتبع سياسات تهدف إلى تحقيق ثلاثة أشياء:

● تجنب نشوب حرب نووية.

● تجنب هزيمة الولايات المتحدة بدون حرب فى صراعها مع الاتحاد السوفييتى، فحتى إذا كان جورباتشوف لا يريد الحرب إلا أنه يريد الانتصار.

● دخول الولايات المتحدة في اتفاقات تفاهم وسلام مع الاتحاد السوفييتى، على أن تكون الولايات المتحدة مدركة أن التنافس بين القوتين يتركز فى المقام الأول على دول العالم الثالث.. ولسنا فى حاجة إلى إشارة أوضح من ذلك ونحن نقيم اتجاهات التفاهم والخلاف بين القوتين خلال السنوات القادمة.

خلاصة أوجه الخلاف:

والخلاصة التى وصل إليها الكاتب هى أن الاختلافات بين أمريكا وروسيا لا تندرج تحت بند سوء التفاهم الذى تعالجه مواقف وإجراءات تكتيكية، وإنما هى اختلافات جذرية وأساسية فى العقائد والمصالح والنوايا، مما سيجعل هذا الصراع بين النظامين مستمراً، ومن هنا انتقل الكاتب إلى مرحلة أكثر تحديداً حين تناول السؤال: «ما الذى نفعله إذن؟!» ووضع إجابة لهذا السؤال مستندة إلى ركائز ثلاثة:

● الردع ● المنافسة ● التفاوض..

واعتبر المؤلف أن هذه العناصر الثلاثة متكافئة فى الأهمية فى إدارة العلاقات الأمريكية السوفييتية خلال المرحلة القادمة وحتى عام ٢٠٠٠.

ويوضح الكاتب ـــ والحديث لا يزال على لسان المشير أبو غزالة ـــ أن المفاوضات هى فن المناورة السياسية على أعلى المستويات.. وفيها تعتمد مقدرة المفاوض على إدماج الإمكانات العسكرية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية والدعائية، بل وقدرات العمل السرى مع بعضها البعض فى سياسة تفاوضية تخدم الاستراتيجية الشاملة للتفاوض. ويشكو الكاتب من أن معظم كوارث السياسة الخارجية الأمريكية فى القرن العشرين قد حدثت لضحالة المعلومات الشاملة التى تتوافر للرئيس الأمريكى عن الموقف.

ويستطرد الكاتب فى توضيح وجهة نظره فى مفهوم التفاوض الذى يجب أن يبنى على أساس من الرد على أسئلة ثلاثة هى:

● ماذا نريده؟

● ما الذى يمكن التنازل عنه فى مقابل الحصول على ما نريد ؟

● ثم ما الذى يجب عمله لممارسة ضغط سياسى لعقد الصفقة التى نريدها مقابل الثمن الذى نرغب فى دفعه ؟

صورة العالم السياسية فى القرن الحادى والعشرين :

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى حيث بداية القرن الحادى والعشرين حيث تتغير قمة العالم .. وحيث يقدم لنا صورة جديدة لخريطة العالم السياسية ، وإن صدقت فسوف تخلق تياراً متدفقاً من أحداث وأوضاع مستحدثة علينا ألا نغمض عيوننا عنها منذ الآن .. والكاتب يقول : إن اليابان عملاق قوى ، وسوف يزداد قوة ليشارك قمة العالم بجانب العملاق المفتت أوروبا ، والعملاق الذى سوف يستيقظ الصين الشعبية . فاليابان تعيش مرحلة من التقدم الثابت المستمر الذى ينقلها كل يوم إلى مرتبة أعلى من القوة العالمية .

والكاتب حين يتحدث عن اليابان يصنع لها إطاراً عاماً يستند على عدة أمور هامة . وإذا كان الرئيس الأمريكى السابق نيكسون قد وضع فى توقعاته أن تصبح اليابان قوة عظمى فى القرن الحادى والعشرين إلا أنه قرن ذلك ببعض الملاحظات ، وألمح بطريق غير مباشر إلى أن العلاقة الأمريكية اليابانية تسمح للولايات المتحدة بأن تساهم فى إسراع خطى اليابان فى هذا الاتجاه ، أما حين انتقل الكاتب إلى العملاق الذى يستيقظ ــ الصين الشعبية ــ فقد كان أكثر وضوحاً وأكثر تأكيداً . وبعكس نظرة الكاتب لضرورة بقاء وإبقاء اليابان ضمن المعسكر الغربى ، فمع الصين اختلفت نظرته حيث ينادى بأنه ليس من المهم أن تكون الصين الشعبية موالية للغرب !! . وإن كان من المؤكد أنها يجب ألا تكون موالية للسوفييت . وينتهى اقتراب الكاتب من تحليل دور الصين وموقفها بطرح مؤشرين يصلحان لنا جميعاً كدرس يقرأ ويناقش ويحلل .. مؤشرين يقولان :

● تأتى أوقات يجب على الأمم أن تختار فيها بين الأيدلوجية والبقاء .

● إن على الصين أن تعرف أنها ستصبح قوة أساسية فى عالم مليء بالدول التى تسعى وتهدف إلى تحجيم دور الصين الشعبية .

ولم يحدد الكاتب أهذه الدول التى تسعى إلى هذا التحجيم صديقة أم معادية ؟ أما بالنسبة لأوروبا الغربية فسوف تظل مشكلة أمام الكاتب .. وكتاباته عنها تكاد تقول : إن أوروبا الغربية هى الابن العزيز للمعسكر الغربى بكل ما تحمله كلمة البنوة ، وإن كان أيضاً ابنا غير ناجح مما دعا الكاتب إلى أن يطلق على أوروبا الغربية ، العملاق المفتت .

وماذا عن دول العالم الثالث؟!:

إننى هنا استأذن القارىء فى أن أقول ـ والكلام لا يزال بقلم المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة ـ إن كل ما تعرضت له حتى الآن فى هذا الكتاب سواء بالرد أو النقد أو التحليل أو التعليق يدخل فى إطار الرسائل والإشارات غير المباشرة لنا نحن القراء من العالم الثالث. أما الجزء القادم والأخير فهو رسالة مباشرة وواضحة لعلنا نقرؤها جيداً ونفهمها جيداً ونستخدم عقولنا حين نحاول أن نطوع هذه الرسالة لتحقيق مصالحنا القومية.

إن الكاتب عندما ينصح اليابان بأن تعيد تقييم توازن القوى فى آسيا فهو يفتح لها الباب لدور جديد فى العالم الثالث. وعندما يقرر أن الصين ستكون واحدة من القوى الثلاث العظمى فى القرن الواحد والعشرين فهو يفتح عيون العالم الثالث على توازن قوى دولى جديد.. وحين يركز على أوروبا المستقبل فهو يشير إلى أن الكرملين قد قفز خارج نطاق حلف الاطلنطى مركزاً هجماته على أوروبا على الأجنحة مما أدى إلى توسعه الجديد والمستمر فى العالم الثالث. لذلك لم يكن غريباً على الكاتب الرئيس ريتشارد نيكسون أن يطلق على هذا الفصل من كتابه «ساحات المعارك فى العالم الثالث».

وفى إطار المشاكل التى تواجه العالم الثالث وضع الكاتب هدفين عامين تسعى شعوب العالم الثالث لتحقيقهما وهما: إشباع الحاجات المادية للإنسان، وإشباع حاجات الإنسان الروحية. وقد حذر الكاتب من أن الثورة الشيوعية تجد لنفسها أرضاً خصبة لمخاطبة الحاجات المادية لإنسان العالم الثالث.

وقد اختار الكاتب منطقة الشرق ورسالتها للآخرين.. أين نحن من هذا العالم المتغير والجديد؟. أين دورنا ورسالتنا؟. وأين دور مصر ورسالتها التى وصفها الرئيس الأمريكى نيكسون فى كتابه هذا الذى أقدمه لكم، بأن نابليون قال عنها: «إن مصر أهم دولة فى العالم الأوسط» ليقدم مثالاً لما يقول، وأشار إلى أن رياح التغيير الذى يتحدث عنه وصلت فى الشرق الأوسط إلى قوة الأعصار الذى لا يمكن وقفه، ولكن يمكن تحويله. وعندما تحدث الرئيس نيكسون عن آثار التغيير فى الشرق الأوسط وعن دور أمريكا فى المساعدة على خلق قاعدة للثروة فى دول العالم الثالث لمواجهة الفقر وعن دور والتزامات المعونات الأمريكية.. كان من البديهى أن يتعرض لأمن إسرائيل. وما كتبه الرئيس الأمريكى الأسبق عن إسرائيل يستلزم منا قراءة متعمقة، فهو صاحب قرار الجسر الجوى الأمريكى الرهيب الذى حمل لإسرائيل المواد والمعدات العسكرية التى أنقذت أداءها العسكرى فى أكتوبر ١٩٧٣. يقول إن هناك التزاماً أمريكياً ببقاء وأمن إسرائيل، وذلك أمر نعرفه، ويقدم مبرراته لذلك فى أن إسرائيل:

● دولة ديمقراطية تنافس شعب اليابان فى مستويات التعليم.

● أنها دولة بلا موارد وبالرغم من ذلك فإن اقتصادها الصناعى قادر على المنافسة العالمية.

● أن قواتها المسلحة من أفضل جيوش العالم، لذلك فإنه إذا كان مستحقو المعونة الأمريكية الخارجية فى العالم يصلون إلى ٣ مليارات من البشر فإن ربع المعونة الأمريكية الخارجية تقدم لـ ٣ملايين إسرائيلى، وهذا يتعارض مع ما ينادى به. والرئيس الأمريكى الذى قدم لنا بعض المقاييس الأمريكية لاحتضان الولايات المتحدة لإسرائيل، يقدر فى الوقت نفسه أن أمور المعونة الأمريكية لإسرائيل لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه، وأنه على إسرائيل أن تواجه أعصار التغيير فى الشرق الأوسط إن كانت لم تستوعبه بعد.

أضواء على أمريكا الجديدة
خلال مائة عام قادمة (٢)

كان لنا فى الحلقة الأولى وقفة طويلة مع المقدمة الشيقة التى كتبها المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع والإنتاج الحربي، الذى قدم لنا من خلالها كتاب الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون «١٩٩٩ نصر بلا حرب» حيث اعتبر أخطر كتاب عن السياسة الدولة خلال القرن العشرين.

وفى هذه الحلقة نواصل حديثاً طويلاً عن مضمون ما جاء فى فصوله، وإن كان لنا تركيز غير عادى على ما ذكره المؤلف عن منطقة العالم الثالث ومنطقة الشرق الأوسط بالذات. وهو ما جاء على لسان الكاتب خلال فصله التاسع بعنوان «ساحات المعارك فى العالم الثالث».

وقبل الغوص معاً فى قلب فصوله أود أن أسوق لكم أهمية هذا الكتاب من خلال هذه الكلمات القليلة التى تقول: إن هذا الكتاب يفتح أمامنا نوافذ فكرية جديدة مثيرة.. فهو يطرح علينا سؤالاً محدداً:

ــ ما الذى نحن بصدده حتى عام ١٩٩٩ حتى نواكب التغييرات التى تحدث من حولنا؟! وهو فى نفس الوقت يطرح سؤالاً أكثر أهمية:

ــ أين وماذا سيكون دورنا؟!

---

(٢) الحلقة الثانية نشرت بالوفد فى تاريخ ١٢ ابريل ٨٩.

• فى عالم تسوده أربع أو خمس قوى بدلاً من اثنتين..

• فى عالم يجذبه التطور العلمى إلى آفاق لم نسمع بها من قبل، وعلينا أن ننتقل إليها بكفاءة وإلا فسيصيبنا التخلف الذى لا صحوة منه.

• فى منطقة قد يجتاحها إعصار التغيير إذا لم نفهمه ونعالجه!

• فى علاقة مع قوة عظمى هى الولايات المتحدة تقول لنا بعقل مفتوح: ما الذى تنوى أن تفعله؟ وكيف ترى العالم؟ وما هو دورها الجديد؟

إن الكاتب لخص كل الأمور فى بساطة بليغة حين قال:

• إن التغيير قادم وقائم ولابد منه.
• إن الصراع والتنافس قادم وقائم ولا غنى عنه.
• إن النصر بدون حرب هو هدف أسمى من النصر بالحرب.
• إن ساحة القتال هى نحن العالم الثالث.
• إن الغرب أثبت أنه يجيد إرسال المال أفضل مما يفعله لدعم مبادئه، ومن ثم فعلى الولايات المتحدة أن تتصدر حملة عالمية لانتزاع الزعامة الروحية، وليس فقط الزعامة الاقتصادية أو العسكرية.

القرن العشرون رغم كل مساوئه:

نعيش مع الكاتب هذه الكلمات العجيبة التى لا تصدر أبداً إلا من رجل مدقق قوى الملاحظة، له قدرة على الربط والاستنتاج. فهو يقول.. سوف نحتفل بعد ١٢ عاماً بيوم يأتى كل ألف سنة، فهو بداية سنة جديدة وقرن جديد وألف سنة جديدة!!

وسوف نتذكر فى عام ١٩٩٩ أن القرن العشرين هو القرن الأكثر دموية والأفضل فى تاريخ الجنس البشرى!! فلقد قتل فى هذا القرن ١٢٠ مليون شخص فى ١٣٠ حرباً، وهذا العدد يفوق عدد من قتلوا فى كل الحروب فيما قبل سنة ١٩٠٠، غير أن ما تم تحقيقه من تقدم تكنولوجى فى المائة العام السابقة لم يكن له مثيل من قبل. وسوف يحتل القرن العشرون مكانة فى الذاكرة باعتباره قرن الحروب والعجائب، لكن ينبغى لنا أن نجعل القرن الحادى والعشرين قرن السلام!

وفى الوقت الذى ننظر فيه إلى هذا القرن على أنه أسوأ قرن فى التاريخ من زاوية عدد البشر الذين قتلوا فى الحروب، فهو أيضاً الأفضل من زاوية ما تحقق فيه من تقدم فى وقت السلم. فقد اكتسحت حربان العالم بأسره، ولكن علوم الطب قضت أيضاً على أمراض خطيرة من على وجه الأرض، كما تم إنقاذ عدد من الأرواح نتيجة للتقدم الزراعى الذى أدى لتلافى المجاعة، يزيد عمن ماتوا فى التاريخ السالف كله.

وبجانب ذلك أخذ الكاتب يعدد لنا أهم المنجزات العلمية والطبية التى تمت خلال هذا القرن وساعدت على رفاهية الإنسان والبشرية فى كافة المجالات.

أين المهارات السياسية الخاصة بحفظ السلام:

وقبل أن نترك حديث المؤلف إلى حيث بقية فصوله التى تناول من خلالها الحديث عن القوى العظمى الجديدة يحلو لى أن أقدم لكم رؤيته الخاصة للقرن القادم من واقع متابعته للقرن الماضى أو القرن الذى سوف ينصرم بعد عدة سنوات.. وعن ذلك يقول: عندما يأتى عام ١٩٩٩ وننظر إلى الوراء إلى القرن العشرين سيكون علينا أن نواجه حقيقة أن ما حققه الإنسان من فتوحات عظيمة فى مجال القوة العسكرية والتقدم المادى أدى إلى تقزيم تقدمه فى مجال

تنمية المهارات والمؤسسات السياسية للحفاظ على السلام واستثمار الفتوحات التكنولوجية .. أما فى القرن الحادى والعشرين فسيكون واجبنا هو التقريب بين مهاراتنا التكنولوجية ومهارتنا السياسية المتعثرة بشكل يدعو للأسف . إن إطلاق قوة الذرة من عقالها هو الميراث الأشد مدعاة للرعب الذى خلفه لنا القرن العشرون .. ففى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا تملك ثلاث قنابل ذرية ، ولم يكن لدى أمة غيرها أى منها . أما اليوم فالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وفرنسا والصين يملكون أكثر من ٥٠ ألف سلاح نووى أغلبها أقوى بكثير من القنابل الذرية التى دمرت مدينتى هيروشيما ونجازاكى . فمن غير المحتمل أن تقتلنا الأسلحة النووية ؛ إلا أن هواجسنا من وجود هذه الأسلحة سوف تؤدى حتماً إلى قتلنا إذا حالت بيننا وبين معالجة الخلافات السياسية بين الشرق والغرب التى من المرجح أن تؤدى إلى الحرب سواء وجدت القنبلة أم لا ؟

وفى نهاية حديثه عن هذا الفصل أو هذا القرن الدموى على حد قوله يذكر لنا أنه خلال القرن الحادى والعشرين من المحتمل أن نغتنم (والكلام لايزال على لسان نيكسون) هذه الفرصة إذا أردنا أن نكون متأكدين ــ ونحن نتطلع للوراء من الذروة التاريخية التى سنبلغها فى عام ١٩٩٩ ــ من أننا لم نضع الفرصة لجعل القرن القادم أفضل قرن فى التاريخ وليس أكثر القرون دموية . ولعلنا نرفع الأيدى معه جميعاً داعين الله أن يوصلنا لبر الأمان ونعيش فى سلام أكثر أمناً مما كان خلال القرن الماضى .

أمريكا وروسيا وبداية العداء :

منذ مايقرب من مائة وخمسين عاماً رأى الكسيس دق توكفيل وهو كاتب سياسى فرنسى أن مستقبل العالم هو بين يدى أمتين مختلفتين أشد الاختلاف : الولايات المتحدة وروسيا .. ولم يحدث فى أى وقت أن كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى عدوين مشتبكين فى حرب . فقد كانا حليفين فى الحرب العالمية الثانية .. ولكن عندما اقتربت الحرب من نهايتها تحولت نبوءة توكفيل إلى حقيقة .. فقد وضع ستالين الاتحاد السوفييتى على طريق التصادم مع بقية العالم . وفيما كانت أمريكا تسرح جيوشها وشرع الحلفاء الرئيسيون الآخرون فى إعادة بناء وطنهم اندفع الاتحاد السوفييتى فى طريق الغزو الإمبريالى . وخلال السنوات الثلاثين التالية أقام الكرملين دولاً تدور فى فلكه . وبدون أن يصدر الكرملين إعلاناً رسمياً فى أى وقت أخذ يخوض حربا ضد العالم الحر طوال أكثر من أربعين عاماً . إننا فى حرب يطلق عليها اسم السلام . إنه نزاع لم ينته والأرجح أنه سيستمر أجيالاً عديدة ، ويتبارى نيكسون من خلال هذا الفصل فى الحديث عن الاتحاد السوفييتى من الداخل ، وعن السياسات التى يتبعها جورباتشوف بعد وصوله إلى السلطة منذ ثلاث سنوات ، حيث استولى الأسلوب الشخصى له على خيال

الكثيرين فى الغرب وقد خصص نيكسون هذا الفصل تقريباً لتحليل شخصية جورباتشوف وبرامج إصلاحه فى كافة المجالات.. ويصل إلى نتيجة يتمنى نيكسون تحقيقها حيث يقول عنها : .. وإذا نحن اتبعنا استراتيجية تجمع بين الردع والتنافس والتفاوض، نستطيع أن ننجح فى إقامة صرح للسلام الحقيقى يمتد إلى ما بعد عام ١٩٩٩.

من الفصل الثانى إلى الخامس نستكمل حكاية العمالقة:

ويستغرق حديث الرئيس نيكسون عن الاتحاد السوفييتى تقريباً نصف فصول الكتاب.. فهو بعد أن يحدثنا عن الدولتين العظميين.. وكيف بدأ العداء الحقيقى بينهما، يواصل حديثه عن كيفية الردع الموجه للاتحاد السوفييتى، ثم كيف ننافس موسكو؟ وأخيراً كيف نتفاوض مع موسكو؟

ونجد أن أكثر هذا الحديث يدور حول القوة النووية، إذ يعتبر أننا نعيش فى عالم فيه أسلحة نووية، وما دامت هذه الحقيقة لن تتغير فلابد لنا من التعلم : كيف نعيش مع القنبلة؟.

ويلقى بمزيد من الضوء على محادثات الحد من تلك الأسلحة. وكيف بدأت؟ وإلى أى مدى انتهت؟ ثم يتصور فى حالة الردع تجنب نشوب حرب نووية.. ومع ذلك يقول بصراحة : إننا إذا فشلنا فى منافسة موسكو (والكلام لايزال على لسان نيكسون) فسوف ننهزم بدون حرب.. حيث إن هذه المنافسة هى لب صراع القوى العظمى، وعن مفهومه للتفاوض بشأن هذه الخصوصية.. يقول: إنه إذا تمكنا من ردع زعماء الكرملين، أصبحنا فى وضع يمكننا من التفاوض معهم، وإذا نحن تنافسنا معهم بكفاءة فسوف يرغبون فى التفاوض، فالردع والتفاوض والتنافس كلها عناصر متكافئة للوصول إلى السلام الحقيقى.

العمالقة الجدد قادمون:

ويصل بنا المؤلف إلى حيث يحدثنا عن بقية كتابه الخطير ــ فيخصص ثلاثة فصول يتحدث من خلالها عن الدول العمالقة الجديدة التى سوف تنضم إلى نادى دول القمة. ففى الفصل السادس يتحدث معنا عن العملاق الجديد أوروبا الغربية.. والذى يطلق عليه اسم العملاق المفتت.. ثم ينقلنا بمهارة السياسى الحاذق إلى حيث يحدثنا عن العملاق رغم أنفه، ويقصد به دولة اليابان.. ويخصص لهذا الحديث الفصل السابع. ويلى ذلك حديثه عن العملاق الذى استيقظ.. ويشير بأصبعه على خريطة العالم إلى الصين الشعبية، وأيضاً قد خصص لحديثه عنها الفصل الثامن. ولعلى هنا أقتطف بعض ما ذكره لنا خلال هذه الفصول وما يتعلق بحديث العمالقة الجدد القادمين.

يقول عن ذلك: فى السنوات التى تعقب عام ١٩٩٩ سيعكس ميزان القوى فى العالم قدراً أقل فأقل من هيمنة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، وقدراً أكبر فأكبر من الأهمية الصاعدة لثلاث آخرين فى الكرة الأرضية هى: أوروبا الغربية واليابان والصين. وسيرتهن مصير العالم إلى حد كبير بمدى مساهمة هذه المراكز الأخرى فى قوة الشرق أو الغرب. ومن هنا يتعين على الولايات المتحدة فى السنوات السابقة على ١٩٩٩ أن تبذل جهداً منسقاً لإدماج مراكز القوى الثلاثة الصاعدة فى العالم فى ائتلاف عريض، ردعاً للعدوان السوفييتى وقياماً لنظام عالمى أقوى.

ساحات المعارك فى العالم الثالث:

ونصل مع المؤلف إلى لب الموضوع وجوهر الأهمية بالنسبة لنا وهو حديث العالم الثالث.. أو كما ذكر المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة فى المقدمة.. وإذا كان الكاتب قد تحدث عن التغيير المحتمل فى شكل علاقات القوى العظمى فى القرن الحادى والعشرين، إلا أنه عندما تحدث عن العالم الثالث كان أكثر تأكيداً، حين أشار إلى أن التغيير سيأتى ولابد أن يأتى إلى العالم الثالث.

وهذا بالفعل ما سوف نتابعه مع الكاتب من خلال فصله التاسع الذى كما ذكرت قد خصصه لحديث ساحات المعارك فى هذا العالم الغريب.

مصطلح بلا معنى:

يقول ريتشارد نيكسون فى بداية هذا الفصل.. من الشائع جمع البلدان الواقعة خارج الغرب الصناعى والكتلة السوفييتية معاً وتسميتها «العالم الثالث». والواقع أنه مصطلح بلا معنى، نفعه تماماً مثل نفع التعبير القائل «لا أحد من المذكورين أعلاه» عند وصف ما يزيد على ١٥٠ بلداً منتشراً إلى شمال خط الاستواء وجنوبه، عبر أربع قارات وتضم أناساً من كل جنس ودين، والقاسم المشترك بينها هو أنها فقيرة بصورة باعثة على اليأس وعلى نحو ساحق!!

وليس هذا فقط بل يخرج الكاتب إلى نتيجة هامة وحاسمة فى حديثه عن هذا العالم الفقير فيقول: ولكننا ونحن نتخلص من إحساسنا بالذنب تجاه العالم الثالث، لانتخلص من مسئوليتنا نحوه.. قد لايكون الفقر وسوء التغذية والمرض والحرب فى هذه الأمم خطأنا، لكنها جميعاً تعد مشكلات بالنسبة لنا مثلما هى مشكلات بالنسبة لهم، ولو تنحينا جانباً فسنشهد منافسة على مستقبل العالم النامى سيخسرها الغرب على وجه التأكيد. والعالم الثالث فوق كل ذلك هام جداً لأربعة أسباب.

حرب الأربعين عاماً فى الشرق الأوسط :

وحين يصل بحديثه معنا إلى إسرائيل والعالم العربى يتوقف ونتوقف معه من أجل الإنصات حتى تزيد الفائدة .. إذ يقول عن هذه المنطقة .. إن النزاع العربى الإسرائيلى مثال آخر لحرب الأربعين عاماً التى تبدد موارد ضخمة مطلوبة بصورة يائسة للتنمية الاقتصادية ، كان هذا النزاع سيقوم حتى ولو لم يلعب الاتحاد السوفييتى أى دور فى الشرق الأوسط ، لكن زعماء الكرملين استغلوه على حساب مصالحنا فى المنطقة .. وفى الوقت نفسه ، فإن الشرق الأوسط جزء من العالم الثالث كانت فيه المشاركة النشيطة للولايات المتحدة أمراً لا غنى عنه لتقدم قضية السلام والاستقرار. بجانب ذلك لم يحقق أى بلد من البلدان المشتبكة بصورة مباشرة فى النزاع العربى الإسرائيلى مستوى معيشة مرتفعة لشعبه ، وكثير من هذه البلدان ينوء تحت عبء الأزمة المزدوجة للمديونية الضخمة والنمو السكانى المرتفع ، ومع ذلك فمنذ تقسيم فلسطين بعد الحرب الثانية ، تقاتل العرب والإسرائيليون فى خمس حروب كاملة النطاق ، واشتبكوا فى مناوشات وحوادث عسكرية لا تنتهى .

أن معظم بلدان العالم تقيس نفقاتها العسكرية بنسبة مئوية من ناتجها القومى الإجمالى .. أما فى الحروب العربية الإسرائيلية ، فيمكن قياس الإنفاق العسكرى للبلدان المعنية بمضاعفات ناتجها القومى الإجمالى .

الولايات المتحدة وضرورة حل النزاع :

وتستطيع الولايات المتحدة وينبغى لها أن تلعب دوراً بناء فى المساعدة على حل النزاع فى الشرق الأوسط .. فكما قال كيسينجر ، فإن الاتحاد السوفييتى يستطيع مساعدة أمم الشرق الأوسط على شن الحرب ، لكن أمريكا هى الأمة الوحيدة التى تستطيع أن تساعدها فى صنع السلام . لقد حققنا الكثير فى المنطقة فى الأربعين سنة الماضية .. فمنذ عام ١٩٤٨ ضمنا بقاء دولة إسرائيل ، وكنا أيضاً القوة الوحيدة التى تضغط بانتظام من أجل حل عادل للنزاع ، وكانت المفاوضات التى أجراها الرئيس كارتر لعقد اتفاقات كامب ديفيد من أعظم إنجازات الدبلوماسية الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب . ولكننا يجب ألا نركن إلى سجلنا الذى حققناه .. فلو فشلنا فى تدعيم قضية السلام ، فإننا نشجع من يريدون فرض قضيتهم من خلال الحرب .

وهناك أسباب قوية ، غير الأسباب المعنوية لمساندة الولايات المتحدة لإسرائيل ، ذلك أنها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط ، وهى الأمة الوحيدة التى يتحدى سكانها اليابان باعتبارهم الأفضل تعليماً فى العالم ، فبدون موارد من الناحية العملية ، بنت اقتصاداً صناعياً يتنافس بنجاح فى الاقتصاد العالمى ، وقواتها المسلحة هى الأفضل فى العالم ..

.. ومسيرة السلام إلى أين الآن؟

إن الوقت لم يكن أبداً فى صالح السلام فى الشرق الأوسط، فقد نشبت حرب عربية وإسرائيلية كل عقد فى فترة ما بعد الحرب؛ لأن المأزق سمح له بأن يتشكل فى زمن السلم، لذا ينبغى للولايات المتحدة أن تتبنى سياسة أكثر واقعية فى الشرق الأوسط.. ينبغى لها أن تسعى لإقامة علاقات طيبة مع الدول العربية المعتدلة، خاصة الأردن ومصر والسعودية، كما ينبغى لها أن تضغط بنشاط لدفع مسيرة السلام للأمام. أن إرسال وزير الخارجية فى جولات نصف سنوية للتشاور مع زعماء المنطقة لن ينجح أبداً فى إقامة مفاوضات مستمرة، ومثلما فعل كيسنجر فى دبلوماسية المكوك فى ٧٣ ـ ٧٤ وفعل الرئيس كارتر فى كامب ديفيد ١٩٧٨ ينبغى لأمريكا أن تستخدم نفوذها لجمع الطرفين معاً وخلق حوافز للتسوية.

.. وأخيراً لقد آن الأوان:

وقبل أن يتركنا الكاتب ريتشارد نيكسون من خلال كتابه هذا يقول لنا وبصوت مرتفع: لقد آن الأوان لمناقشة أمينة وصريحة لمستقبل مسيرة السلام، وينبغى لكل الأطراف أن يهدئوا من بياناتهم الحماسية. إن من يبتعدون عن الخط المتشدد من بين أكثر مؤيدى إسرائيل تطرفاً، لا ينبغى أن نصفهم بأنهم معادون لإسرائيل بصورة تلقائية. لقد حدث هذا بالنسبة لى ولأصدقاء آخرين لإسرائيل، عندما أيدنا قيام إدارة ريجان ببيع طائرات الأواكس للسعودية، وخططها لتوريد طائرات مقاتلة للأردن فى عام ١٩٨٦. ينبغى للجميع أن يدركوا أن كون المرء صديقاً لجيران إسرائيل لا يجعل منها عدواً لها.. ذلك أن مصلحة إسرائيل وأمريكا تقضى أن ترتبط أمريكا بعلاقات الصداقة مع الدول العربية.

صرخة تحذير لكل شعوب العالم(١)

قلبى على الحجارة، الرجال الصغار الذين يواجهون بصدورهم وسيقانهم غول الإرهاب الإسرائيلى العفن!! الذى استباح لنفسه استخدام كل وسائل الدمار من أجل إبادة الشعب الفلسطينى.. وقلبى مع الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات الذى أعلن من فوق أعلى قمة فى العالم من جنيف عن بداية سيره فى طريق السلام، هذا الإعلان الذى أفقد إسرائيل صوابها.. وذلك لأنه استطاع أن يحصر عمليات الإرهاب فى وجود إسرائيل نفسها.. تماماً كما كانت منذ وجودها على الأرض العربية.

ومهما قيل عن الإرهاب وألوانه القذرة الذى مارسته وتمارسه إسرائيل علنا أمام أعين العالم وسراً.. فإننا لا نوفيه حقه.. ولكنها محاولات صادقة من أجل كشف عورة هذا الكيان الإرهابى.. الذى يعلن لكل الناس صباح مساء أنه حمل وديع.. يعيش وسط غابة من البشر!!

ولقد وجدتها فرصة سانحة لمزيد من الحديث عن هذا الإرهاب الإسرائيلى المكشوف باختيار أحدث الكتب التى دخلت المكتبات العربية، وهو من تأليف زميلنا الكاتب الصحفى وجيه أبو ذكرى بعنوان «الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد!!» ولقيمة هذا الكتاب واهتمام القارىء العربى به فقد صدرت منذ أيام الطبعة الثالثة منه، فكان حقاً علينا تقديمه إلى القراء لكشف هؤلاء الإرهابيين الذين يملئون أجواء العالم صياحاً ليل نهار.. بأنهم لا يعرفون للإرهاب طريقاً!!

---

(١) الإرهابيون الأوائل ـ جيراننا الجدد ـ وجيه أبو ذكرى ـ نشر بالوفد ١١ يناير ١٩٨٩.

وخير بداية لعرضنا هذا ذلك الإهداء الذى كتبه المؤلف حين قال «إلى شهداء الإرهاب الإسرائيلى ـ أهدى هذه الأوراق.. حقاً فكم من شهيد عربى وفلسطينى سقطوا تحت وطأة الإرهاب الإسرائيلى ـ وكم من بيوت خربت بأيدى هؤلاء المغامرين اليهود الذين وصلوا أرض فلسطين.. من أجل النهب والسلب والتدمير.. وزرعوا هناك كل ألوان الإرهاب والخوف !!

والحقيقة.. أنه منذ احتل هؤلاء اليهود أرض فلسطين مستندين إلى وعد بلفور المزعوم.. ووسائل الإعلام العربية تحاول قدر المستطاع تعرية هذا الاغتصاب وتنوير الرأى العام العربى والعالمى بما تقوم به عصابات اليهود على أرض فلسطين.. ولعل أبرز هذه الوسائل اللجوء إلى الكتب السياسية والمنشورات التى كانت ومازالت تصدرها الجامعة العربية وكل دور النشر المعنية بالقضية الفلسطينية، هذه الكتب تحاول بشتى الطرق الغوص فى تاريخ هؤلاء البشر الذين أوهموا العالم كله بأنهم شعب الله المختار.. وأنهم جاءوا إلى أرض الميعاد ليس إلا !! وكما ذكرت يأتى فى مقدمة هذه الكتب كتاب «الإرهابيون الأوائل» الذى صدر فى السنة الماضية وتمت طباعته أكثر من مرة. هذا الكتاب سنعيش معه جولة طويلة من خلال صفحاته التى بلغت ثلاثمائة صفحة بجانب فصل كامل بالصور يفضح ممارسات العدو الصهيونى وأساليبه ووسائل إرهابه بكافة أنواعه. ويشمل الكتاب بجانب ذلك أحد عشر فصلاً.. كلها تتحدث عن الإرهاب الصهيونى !!

وقد رأيت أن خير مدخل لما كتبه المؤلف تلك المقدمة القيمة التى سأعرضها هنا بالكامل.. لأنها توضح مدى بشاعة هذا الإرهاب عبر الأجيال الصهيونية العالمية وحتى الآن.

حكاية من المقدمة:

يقول المؤلف:

العالم ينسى.. أو هو يريد ذلك.

والعالم يرى الآن أن العربى مرادف تماماً لكلمة إرهابى !!

إذا سافرت إلى أى دولة غربية ـ كعربى ـ فإنك تدور فى سلسلة أمنية لا نهاية لها. وكأنك قادم من دولة أصيلة فى الإرهاب وانتهاك أبسط حقوق الإنسان.

لقد سافر عربى من إسرائيل بملامحه الشرقية وجواز سفره الإسرائيلى إلى إحدى الدول الأوروبية فأخرجوه من الطابور لتميز ملامحه ليدخل السلسلة الأمنية فى المطار بوصفه عربياً !! وما أن قدم لهم جواز سفره الإسرائيلى حتى انحنوا له واعتذروا وتأسفوا ؛ لأنهم تصوروا أنه قادم من إحدى الدول العربية وليس من إسرائيل «منارة» الشرق وواحة الحرية وحصن «حقوق الإنسان» !!

معنى ذلك أن العالم سرعان ما ينسى .. !!

فلقد نسى العالم أن الشرق كله لا يعرف العنف والإرهاب . وأن جذور الإرهاب قد بدأت تدق أبواب الشرق بعنف شديد مع قدوم سكان الجيتو إلى فلسطين .

ومعنى ذلك أن العالم قد نسى أبشع مذبحة فى كل التاريخ البشرى وهى مذبحة صابرا وشاتيلا .



ومن هذه المقدمة نفهم أن الكاتب يبين لنا دافعه لتأليف وجمع مواد هذا الكتاب ؛ ليعيد تذكير الناس بما ارتكبه اليهود عبر التاريخ ويوضح ذلك بقوله :

ومن هنا .. كان نسيان العالم لمذابح اليهود فى الشرق هو دافعى ومشجعى لتقديم هذا الكتاب لا لقراء العربية فحسب بل لقراء العالم ..

ومؤلفنا قبل كتابته للمقدمة سالفة الذكر حاول من خلال إهدائه أن يجعل من الكتاب ملفاً للإرهاب فيقول «إلى شهداء الإرهاب الإسرائيلى .. أهدى هذه الأوراق» .

وليسمح لى القارىء بأن يشاركنا فى جولتنا هذه عبر صفحات هذا الكتاب

جذور الارهاب الإسرائيلى :

يطالعنا المؤلف فى البداية بمقطع لقصيدة شعرية لأحد الشعراء الصهاينة هو «شاءول تشرنجوفسكى» تقول بعض أبياتها التى تقطر إرهاباً :

فى كل ليلة نصعد من قبورنا حيث دفنا لنشرب دماء هؤلاء الجزارين .
حتى تسكر أرواحنا .
نرضع من أنهار الدم .
رشفة .. رشفة .
وقطرة .. قطرة .

وبعدها .. يحدثنا الكاتب عن رحلته الطويلة للبحث فى أمهات الكتب عن مراجع تجيب عن سؤال فرض نفسه عليه بعد مقابلة واحدة له مع ياسر عرفات. حينما ذكر له فى هذا اللقاء أن هناك خيطاً رفيعاً جداً بين العمل العسكرى والإرهاب .. وعلينا أن نعرف من الذى أدخل الإرهاب إلى الشرق الأوسط أهم الفلسطينيون أم اليهود؟

ويضيف المؤلف أنه اختار فترة زمنية محددة تجيب بكل وضوح عن السؤال الذى طرحه عليه السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .. هذه الفترة تمتد من تاريخ صدور وعد بلفور وحتى أحداث صابرا وشاتيلا وفضيحة شن بيت (جهاز الأمن الإسرائيلى).

كذلك من بين المراجع الهامة التى استعان بها المؤلف كتاب المؤلف الإسرائيلى توم سيجف وهو بعنوان «الإسرائيليون الأوائل»، ولعل مؤلفنا بهذه البداية يضع أساساً للمبدأ الذى يطلقون عليه «اعرف عدوك» .. إذ اتخذ من مراجعه الأساسية فى موضوع شائك كهذا .. أحد كتب اليهود الذين بدا عليهم فى الآونة الأخيرة التمسك بنغمة «الحمل الوديع» !!

ونجد أنفسنا مع الكاتب خلال هذا الفصل فى رحلة عبر التاريخ الأسود ومنذ الأيام الأولى لبنى إسرائيل!! وهو يحدثنا بأسهاب عن حاخامات إسرائيل واليهود .. هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم مرة حكماء اليهود وأخرى بحكماء صهيون، وعلى هؤلاء تقع مسئولية بذر البذور الأولى للإرهاب لدى اليهود فى كل أنحاء العالم!!

ولقد نجح هؤلاء الحاخامات فى أن يدفعوا بقراءاتهم لتصبح جزءاً من أسفار العهد القديم الذى تمخض عنه ما عرف باسم التلمود ومن بعده قراءات بروتوكول حكماء صهيون ولقد أصبح هذا الميراث الضخم هو الذى يحدد سلوك اليهود فى كل بقاع العالم!!

كما نعرف من خلال هذا الفصل أيضاً أن هؤلاء الحاخامات قد فرضوا على بنى أوطانهم من اليهود قيما تدور جميعها حول مفهوم الإرهاب ومعاداة السامية، فنجد مثلاً أنهم يتوهمون أن الله عز وجل قد أمرهم بالتجسس وإيذاء الشعوب والعنف والخديعة والقسوة. وجميعها بالفعل قيم تحض على القتل وسفك الدماء.

كما يسوق لنا المؤلف كذلك بعض ما سطره اليهود بأقلامهم وفى كتابهم التلمود .. وكلها تقريباً تدور حول مفهوم أنهم شعب الله المختار.. وأنهم بالعنف والإرهاب لابد أن يسيطروا على العالم!! أيضاً يسوق لنا بعضاً من بروتوكولات حكماء صهيون وهى تكمل المعنى السابق للإرهاب وتحض على القتل والتدمير؛ حيث قرر هؤلاء الحكماء تدمير العالم الذى أساء إليهم، كما تدعو إلى سيطرة اليهود؛ لأنهم الشعب الأقوى والشعب العبقرى «شعب الله المختار». ولقد أباحت تلك البروتوكولات كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق الحكومة اليهودية العالمية التى تسيطر على الأرض!!

ويصل الكاتب إلى نتيجة هامة مؤداها أنه أصبح بما لايدع مجالاً للشك وجود ارتباط العنف والحقد في نفوس اليهود بسبب التعليمات المقدسة.. والتى ابتكرها عبر السنين حاخاماتهم !!

وهذه النتيجة أدت بالتالى إلى ظهور العديد من مظاهر العداء والعنف فى نفوس هؤلاء.. منها على سبيل المثال ظاهرة الجيتو وانعزال اليهود فى مكان خاص بهم.. وكان أول حى قد أقيم بهذا النمط عام ١٥١٦ بمدينة البندقية !!

كذلك ظاهرة التجارة.. حيث فضل اليهود الاشتغال بها عبر التاريخ انتظاراً للعودة إلى أرض الميعاد ورفضوا العمل فى غيرها من المهن!

أما الظاهرة الأكثر غرابة.. فهى ظاهرة يهود البلاط.. ويعنى بها المؤلف أن اليهود قد تحالفوا مع كافة أنواع السلطات فى الوطن الذى يعيشون به. من حيث تقديم كافة الخدمات المالية والتسهيلات التجارية، وهو ما اصطلح على تسميته بظاهرة «يهود البلاط».

كذلك من بين هذه الظواهر اللافتة للنظر ظاهرة الربا وتنمية وسائل الإرهاب خاصة بعدما انتقلوا إلى فلسطين على أثر وعد بلفور.

وينقلنا الكاتب ببراعة المؤرخ الواعى.. إلى الحديث عن الفصل الثانى:

إرهاب ما قبل الدولة:

وهو يعنى بذلك تركيز فترة الإرهاب الصهيونى فى أرض فلسطين باعتبارها كما تقول كتبهم المزيفة «أرض الميعاد» !! وهنا يشير الكاتب إلى مقولة شهيرة على لسان بن جوريون إذ يقول: «لقد تمخضت الحرب العالمية الأولى عن وعد بلفور، أما الحرب العالمية الثانية فلابد أن تأتى بالدولة اليهودية» !!

ويدور الحديث خلال هذا الفصل عن الجهود الخارقة التى بذلها اليهود والصهيونية العالمية حتى يحفروا أماكنهم وبقوة الإرهاب داخل أرض فلسطين.. ولاشك أن ذلك تم على حساب العرب سكان الأرض الأصليين، ويقول عن ذلك المؤلف (عاش اليهود يحلمون بإقامة «الجيتو الكبير» حيث يتجمع كل اليهود من الشتات فى رقعة أرض واحدة وتحت علم واحد، وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم).

ولقد وجدوا هذه الفرصة تحت الانتداب البريطانى، واستطاع قادتهم أن يقنعوا اللورد بلفور.. بإقامة وطن قومى لهم.. بعد أن حصلوا من قبله على وعد بضرورة تسهيل الهجرة إلى فلسطين !! بعدما قرر ذلك مؤتمرهم الذى عقد فى عام ١٨٩٧ فى مدينة بال، وتقرر فيه العمل على إقامة هذا الوطن المنشود !!

وكان اليهود عقب الحصول على هذا الوعد قد أعدو الكثير والعديد من الخطط التى بها يتمكنون من النيل من أهالى فلسطين.. ويجبرونهم على ترك أراضيهم بالقوة والإرهاب.

من أجل ذلك كان أول أهدافهم إنشاء مؤسسة عسكرية سرية أطلقوا عليها منظمة «الهاجاناه» وقد حددوا لها أهدافاً ومهام.. ولاشك أن مثل هذه المؤسسة العسكرية لم تنعم بالأمان على أرض فلسطين.. بل وجدت إصراراً من أصحاب الأرض لمقاومتها. ومنذ هذه اللحظة بدأ الصدام المسلح بينهم وبين الفلسطينيين!!

وفى هذا الفصل أيضاً يلقى الكاتب الضوء الساطع على مؤسسة الهاجاناه من حيث تأسسها وأهدافها.. والأعمال التى كانت تقوم بها على أرض فلسطين. وإن الهدف الأسمى لوجودها هو ــ لاشك ــ كان محاولة نزع الأرض من أصحابها بالقوة المتمثلة فى كافة أنواع الإرهاب.

كما يوضح المؤلف من خلال هذا الفصل الفظائع والمذابح التى ارتكبها اليهود ضد الأهالى دون مراعاة لأية حقوق إنسانية وهو ما أصبحوا يتباكون عليه الآن!!

ويسير بنا المؤلف سيراً تاريخياً.. طبقاً للأحداث.. فيصل بنا إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث بذل زعماء يهود العالم كل السبل من أجل جعل الوطن القومى لليهود حقيقة معترفاً بها دولياً!!

ثم تأتى فترة التدويل والتقسيم.. بعدها تأتى الحرب العربية الإسرائيلية، ويقسمها الكاتب إلى فترتين: الأولى وتمتد من بدء الاشتباكات عقب صدور قرار التقسيم وحتى أبريل على أثر سقوط القسطل ومجزرة ديرياسين. وخلال هذه الفترة والفترات التالية يذكر لنا المؤلف أبشع صور الإرهاب من مذابح ومعارك هدفها الأول والأخير هو القتل وسفك الدماء لا لشيء سوى الرغبة فى إنشاء وطن وهمى لم ينشأ إلا فى أذهان قوم وصفوا أنفسهم بالحكماء!!

ووسط هذه البركة الملوثة بالدماء.. يركز المؤلف كلماته حول أشهر المذابح التى تعرض لها أهل فلسطين. وهى مذبحة ديرياسين، وينقلها لنا بحوار أدبى ذكى.. مستخدماً فيه الأدلة الحية التى مازالت تعيش بين جنباتنا. حيث يقول: إنه التقى عام ١٩٦٤ فى الأردن أثناء زياراته لها بأحد الفلسطينيين الذى قدم له بقايا المذبحة وهى مدرسة دير ياسين للأيتام، وفيها تعرف على ثمانية عشر طفلاً هم كل بقايا القرية!! شاهدوا الرعب وبعدها جمعوهم فى سيارة وألقوا بهم على مشارف القدس الشرقية!!

ومن بين الجرائم التى ارتكبها هؤلاء اليهود خلال هذه الفترة الزمنية من التاريخ اغتيالهم للوسيط الدولى الذى أرسلته الأمم المتحدة إلى فلسطين، فقد تمكنوا فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٤٨ من اغتيال الكونت برنادوت فى القدس. وأخطر ما ذكره المؤلف عن هذا الاغتيال أن أحد

الصحفيين الإسرائيليين وهو ميشيل باروهار قد كشف فى أحد كتبه أن بن جوريون ذكر له أنه يعرف قاتل برنادوت إذ كان صديقاً شخصياً له !!

ويمضى بنا الكاتب قدماً نحو تفسير الإرهاب وظواهره على نطاق أوسع حيث يحدثنا فى فصله القادم عن إرهاب الدولة.

ويقول فى بداية هذا الفصل (بعد قيام دولة إسرائيل.. وبعد أن انتهت من حروبها مع العرب لم تتمكن من تغيير جلدها من عصابات إرهابية إلى دولة يقودها ارهابيون بل أنشأت عدة مؤسسات عسكرية مهمتها ممارسة إرهاب الدول.

وبناء على هذه النتيجة التى وصلت إليها دولة إسرائيل.. كان على حكامها اتخاذ العديد من التدابير والإجراءات العسكرية التى تواجه الموقف الجديد، ومنها على سبيل المثال اللواء ١٠١.. الذى كونه بن جوريون لإرهاب الدول العربية.. بعدما نجح إلى حد ما فى إرهاب أهل فلسطين.

ويحدثنا الكاتب عن هذا اللواء قائلاً: (يبدو أن بن جوريون مؤسس الدولة الإسرائيلية كان يعلم أنه يقود عصابات أقام بها دولة.. وكان لابد أن ينظم عمل هذه العصابات.. وكانت هذه الفكرة المتطورة لقيام وتكوين هذا اللواء الذى نجح فى تنفيذ العديد من المهام القذرة ضد القرى العربية بعد قيام إسرائيل !!

وامتد سلاح الإرهاب الإسرائيلى على مدى الأيام والسنوات التى تلت قيامها.. ففى عام ١٩٥٦ اشتركت إسرائيل فى ضرب القوات المصرية حيث كان يحلم بن جوريون باحتلال سيناء ومن بعدها امتدت ذراع اسرائيل داخلياً وخارجياً لمحاولة فرض نفوذها بالقوة والإرهاب.

ويسوق لنا المؤلف العديد والعديد من الأدلة.. ويقدم شهود عيان هذه المعارك، ويحكيها من ألسنتهم.. كما يقدم لنا جدولاً زمنياً للمعارك التى نفذتها إسرائيل ودمرت فيها مايقرب من عشرين قرية فى أقل من خمس عشرة سنة !!

وببراعة الكاتب وقدرته على اختيار تسلسل الموضوع وصل بنا إلى الحديث عن الموساد.. وهو كما نعرف جهاز المخابرات الإسرائيلى، ففى الفصل الرابع يخوض بنا تاريخياً فى الجذور الإرهابية للموساد ويفتح هذا الفصل بقوله: إنه لا توجد مؤسسة إسرائيلية إلا وتجلس على قمة تاريخ إرهابى عميق. كما لا توجد مؤسسة إسرائيلية إلا وترى أن «الحل الإرهابى» هو الطريق الوحيد لحل المشكلة !! ويتطرق بنا فى حديثه إلى القول بأن اليهود ـ بصفة خاصة ـ لهم تاريخ عريق فى التجسس !!

بل أكثر من ذلك يطوف حول التاريخ لإلقاء مزيد من الضوء على هذه المؤسسة التي اتخذت لنفسها اسم الموساد.

الاغتيالات السياسية:

ويضيف المؤلف حلقة جديدة لحديثه عن الموساد وأعمالها القذرة.. حيث يقول فى الفصل الخامس عن الموساد واغتيال القيادات السياسية:

إن من أنشط أفرع جهاز المخابرات الإسرائيلى «الموساد» فرع الاغتيالات السياسية حيث تكون مهمته الأساسية الحصول على معلومات كاملة عن القيادات الفلسطينية وغيرها من المؤيدين للقضية الفلسطينية!!

ويسوق لنا المؤلف بعضاً من هذه القائمة الطويلة.. ممن نفذ فيهم حكم الاغتيال على يد هؤلاء الإرهابيين.

بجانب هذه القائمة ينشر المؤلف فى كتابه قائمة أخرى تضم أسماء فلسطينية وغير فلسطينية تم اغتيالهم بأساليب الإرهاب المختلفة، ولقد وصل عدد هؤلاء الشهداء بالقائمة الثانية أكثر من ثلاثين شهيداً!!

ويواصل معنا الكاتب رحلة عبر هذه الصفحات؛ ليحدثنا أيضاً فى بقية فصول الكتاب عن جرائم الموساد وإرهابها ضد الدول العربية. وكذلك الجرائم الإرهابية التى ارتكبت فى حق العرب.. بدءاً من جريمة لافون فى مصر.. وتدمير المفاعل النووى العراقى.

ثم يحدثنا أيضاً عن الإرهاب الإسرائيلى خلال الحرب وهو إرهاب ــ كما يصفه ــ مكثف لأداء مهام سريعة وفعالة وقذرة.. وتوضح الكلمات القادمة مدى فداحة وقذارة تلك المهام.. يقول يورى أفنيرى (خلال حرب الأيام الستة مات الآلاف من الجنود المصريين ضرباً بالرصاص أو عطشاً بعد نهاية القتال)!!

ويلقى المؤلف الضوء الساطع على تلك المهام القذرة التى مارسها الإرهاب الإسرائيلى خاصة خلال حرب الأيام الستة وهو ما نسميه نكسة ٥ يونيو!! ثم بعد ذلك ما حدث فى الفترة ما بين النكسة وانتصار أكتوبر.. حيث نفذت إسرائيل أغرب وأعنف غاراتها على المدنيين والأبرياء فيثلاً قتلت مئات التلاميذ فى مدرسة بحر البقر.. ولا ننسى مجزرة عمال أبى زعبل ومأساة الطائرة المدنية التى أسقطت فوق سيناء!!

ونصل بحديثنا إلى الفصل الثامن حيث يتحدث فيه المؤلف عن فظائع ما وقع فى مذبحة صابرا وشاتيلا وينقلها لنا بالصورة والوقائع الحية.. ويثبت من خلالها تورط إسرائيل بشكل مباشر فى هذه المذبحة من خلال شهادة بعض القادة الإسرائيليين أنفسهم.

ومن الحديث عن مذابح صابرا وشاتيلا ينلقنا إلى الحديث بإسهاب عن الإرهاب الإسرائيلى ضد الأسرى والمعتقلين.. سبحان الله.. لم يتركوا حتى العزل.. بل كالوا لهم وزادوا فى الكيل ومع ذلك يدعون أنهم من نسل الحمل الوديع!!

وينقل لنا الكاتب صور البشاعة والرعب التى كان يتبارى فى ارتكابها زعماء إسرائيل سواء مع أسرى حرب عام ١٩٦٧ أم غيرها.. أو حتى مع الأسرى العرب العزل!!

ويختتم لنا المؤلف حديثه حول الإرهاب الإسرائيلى بملف كامل من الصور التى توضح مدى ما ارتكبه هؤلاء من جرائم فى حق الشعب العربى، ويستحقون بعد ذلك أن نطلق عليهم زعماء الإرهاب.. جيراننا الجدد.. وإن اختلفت الصور عبر العصور!!

داخل سجون إسرائيل[1]

بعد أن انتهيت من قراءة هذا الكتاب.. تزاحمت فى رأسى الأفكار والمعانى.. أحاول أن أصوغها فى كلمات وحروف واضحة لتصل إليك عزيزى القارىء.. على سبيل المقدمة، استناداً إلى المبدأ الذى اتبعناه معاً.. والذى يترك للمؤلف حرية أن يقول كل ماعنده وبالشكل المرتب حسبما خطه قلمه وكلماته.

وماعلينا خلال رحلتنا إلا أن نقوم بالربط والتوضيح، حتى يخرج العمل فى النهاية متكاملاً ويؤدى الغرض الذى من أجله نقرأ معاً، ولا هدف لنا إلا الثقافة الرفيعة والفكر الهادف. أقول من جديد: إنه بمجرد أن قرأت آخر سطور كتاب «للفجر نغنى ـ صفحات من النضال الفلسطينى» للكاتبة الأميرة دينا عبدالحميد. حاولت أن إستقر على كلمات أعتبرها مقدمة وافية قبل بدء رحلة القراءة الأسبوعية. لقد برزت أمامى ومن خلال حروف هذا الكتاب أسمى معانى الوفاء التى نكاد نفتقدها فى أيامنا هذه. وفاء الزوجة المخلصة لزوجها البطل الشجاع وإيمانها الدائم بعدالة قضيته وسمو هدفه. إن أحلى مافى الكتاب تلك القصة العظيمة التى سطرتها الكاتبة بقلمها.. وصورت من خلال هذا القلم الذهبى قصة كفاح أحد أبطال المقاومة الفلسطينية، بعدما رحل هو وآخرون إلى لبنان.. ورضوا بالعيش داخل المخيمات على أمل أن يجاهدوا ويناضلوا من أجل أرض فلسطين الحبيبة، وليس هذا فقط.

---

(١) للفجر نغنى ـ صفحات من النضال الفلسطينى ـ الأميرة دينا عبدالحميد ـ نشر بالوفد بتاريخ ١ نوفمبر ١٩٨٩.

بل استمرت تحكى لنا وتسطر بدمائها ودموعها .. أحلك لحظات حياة هذا الزوج البطل بعدما أسر أثناء غزو لبنان . وتم ترحيله إلى أحد سجون إسرائيل .

إن القصة عظيمة .. لكاتبة عظيمة .. عن بطل أيضاً يستحق منا كل التقدير. ولعلكم مشتاقون مثلى الآن لمعرفة البطل الفلسطينى الذى من أجله ومن أجل غيره من الفلسطينيين تم تأليف هذا الكتاب .. إنه البطل صلاح التعمرى زوج الأميرة دينا عبدالحميد .

لايفوتنا أبداً أن نقرأ مقدمة الناشر التي دائماً ما تكون مسطرة في آخر الغلاف. وقبل أن تجرى العين ناحية الحروف تقع على صورتين هما كل صور الكتاب.. المؤلفة وزوجها البطل الفلسطيني. وكلمات سطرت تحتها لا يحتاجان إلى تعليق. فتعالوا نقرأ هذه الكلمات «بدون مقدمات، فوجئت الأميرة دينا عبدالحميد، باتصال تليفوني من إسرائيل يطمئنها على زوجها صلاح التعمري» الذي اعتقلته قواتها عند اجتياحها لجنوب لبنان ولم تعد تعرف مصيره. وبعد أن تمالكت نفسها من وقع المفاجأة واتتها فكرة: لماذا لا تنتهز الفرصة وتذهب إلى إسرائيل للاطمئنان على الأسرى، وبحث إمكانات الإفراج عنهم. وفاتحت القيادات الفلسطينية في هذا فأيدوا اقتراحها. وبدأت رحلة طويلة من العذاب لإنقاذ نزلاء معسكر الأنصار تكشف خلالها عشرات الأسرار التي يرويها هذا الكتاب.

هذه الأسرار الحيوية والمؤلمة التي سوف نكتشفها معاً من خلال متابعتنا لهذا الكتاب، والتي تنسج خيوط قصة الكفاح الفلسطيني وراء القضبان.. قد سطرتها الكاتبة دينا عبدالحميد بكل إخلاص ــ حتى إننا نشعر بعد قراءتنا لكل سطر في هذه القصة بمدى المعاناة والمرارة والألم الذي تحملته هذه الكاتبة، كما تنقل لنا وبكل أمانة هذه التجربة التي من النادر أن نصادف مثلها، وخاصة أنها ترتبط بالزوج المثالي البطل. كما يغلب على أحداث هذه القصة التي عاشتها الكاتبة الترتيب المنطقي.. والحبكة الدرامية.. منذ أن خرجت وخرج زوجها من لبنان إلى سجون إسرائيل.. وتصميمها الغريب على زيارة زوجها على أرض فلسطين التي لم تكن تحلم بأنها في يوم من الأيام يمكن أن تضع فوقها القدم.

وخير بداية لنا مع الأحداث هو أن نلتقي بها من خلال الفهرس الذي يقول فصله الأول: الغزو ــ الفصل الثاني: الاستعراض الأخير ــ الفصل الثالث: لبنان تجتاحه العاصفة ــ الفصل الرابع: لقاء رتبته الأقدار ــ الفصل الخامس: رحلة إلى الأرض المحتلة ــ الفصل السادس: من جاديرا إلى أنصار ــ الفصل السابع: معتقلو أنصار ــ الفصل الثامن: رسالة إلى الاجتماع ــ الفصل التاسع: الطريق إلى مفاوضات تبادل ــ الفصل العاشر: مفاوضات جنيف ــ الفصل الحادي عشر: أحرار. وأخيراً ختام بقلم صلاح التعمري.

الكتاب باللغتين الانجليزية والعربية .. معاً :

كم يحلو لى دائماً أن أستفتح حديث الأسبوع أثناء مصاحبتى للكتاب الجديد بإلقاء بعض الأضواء على كلمات المؤلف أو الكاتبة ، من خلال ما يذكره أو تذكره فى المقدمة .. والكاتبة دينا عبدالحميد تقول فى مقدمتها التى سوف نختار منها لقطات : « يأتى كتابى هذا فى مرحلة بدأ فيها اليأس العام والشخصى من أى تطور ملموس فى القضية الفلسطينية ، وفى توحيد الجهد العربى وتحركه ، ينحسر وإن كان انحساراً حثيثاً مما حررنى إلى حد كبير من مكبلات الإحباط ومكننى من تسجيل ونقل تجربة أعتبرها من صميم النضال العربى العام إلى جمهور آمل منه المشاركة والتعاطف . وتجربتى التى تحكى فى الدرجة الأولى ملحمة « أشجار الصنوبر الشامخة فى أنصار » الذين نسجوا من لحمهم حبلاً لصعودهم من هاوية اليأس إلى قمة الصمود ثم الحرية ـ ليست إلا اسهاماً متواضعاً فى مثل الشهادات التى صدرت عن تلك التجربة » وفى لقطة أخرى من المقدمة تقول الأميرة دينا : « حرصت فى بادىء الأمر على صدور الطبعة الإنجليزية قبل الطبعة العربية لافتقار الساحة حينذاك إلى شهادة عربية وسرد موضوعى للأحداث ينقل حقيقة وقائعها للرأى العام الأجنبى الذى لا يخلو من التأثير على السياسة العالمية ، فقد شاء القدر كما شاء القدر للآلاف غيرى أن أجد نفسى فى قلب دوامة الإعصار العاتى الذى هز دعائم الحياة فى لبنان ، كما شاء القدر أيضاً أن يقع زوجى « صلاح التعمرى » فى أسر الإسرائيليين بعد تجربة نفسية وجسدية مضنية .

أول رسالة من « أنصار ـ ٣ » :

ها هى تجربة معتقل « أنصار ـ ١ » على الأراضى اللبنانية تتجدد فى معتقلى « أنصار ـ ٢ » فى قطاع غزة و« أنصار ـ ٣ » فى صحراء النقب .. اللذين أقيما خصيصاً لاستقبال أبطال الانتفاضة من الأطباء والمحامين والحرفيين والأساتذة والطلبة والموظفين والمزارعين وغيرهم من جميع قطاعات المجتمع الفلسطينى فى الأراضى المحتلة .. كما انتهى المطاف النضالى بالعديد من معتقلى « أنصار ـ ١ » السابقين إلى واحد من هذين المعتقلين حيث يمارسون وراء أسلاكها أساليب الرفض والصمود التى تشربوها وابتدعوها فى مدرسة « أنصار ـ ١ » وقد خرجت أول رسالة من معتقل » أنصار ـ ٣ » أو معتقل « الموت البطىء » كما أصبح يسمى على غرار الرسائل التى تلقيتها وتلقاها بعض أسر المعتقلين من « أنصار ـ ١ » عام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ .. تقول : « نناشدكم إنقاذنا من معتقل البطش .. معتقل « أنصار ـ ٣ » فى صحراء النقب . نحن آلاف المعتقلين الفلسطينيين الذين حشدتهم السلطات الإسرائيلية فى معتقل « أنصار ـ ٣ » دون مراعاة لأبسط الإجراءات القانونية القضائية الشكلية بما فيها حقنا فى معرفة التهم الموجهة إلينا . وفى ظروف قاسية تحت لهيب الشمس الحارقة نهاراً أو البرودة القاسية ليلاً . حيث تصل إلى ما دون الصفر فى منطقة تنتشر فيها الزواحف والحشرات . وإذا كانت هذه هى مظاهر قسوة

الطبيعة فإن قسوة عساكر المعتقل وميلهم الدائم للبطش لأشد قسوة حيث يمارسون ضدنا البطش والإذلال والتحطيم النفسي» .

الغزو.. وبداية قصة البطل :

كانت البداية في اليوم الخامس من شهر يونيو عام ١٩٨٢ عندما وقفت مع زوجي صلاح على سطح دارنا في مدينة صيدا التي كنا نقيم فيها منذ عشرة أعوام . كنت قد وصلت لتوي من القاهرة حيث كانت أمي تصارع مرضاً عضالاً .. وقفنا مع جيراننا مذهولين نتبادل منظاراً مكبراً نحاول من خلاله استطلاع السماء. كانت هناك طائرة إسرائيلية حربية تحلق وتمطر المدينة دون تمييز بقنابلها التي ملأ دويها الفضاء. وكان بحر صيدا بزرقته الصافية التي لا يضاهيه فيها من بحار العالم سوى بعض شواطىء البحر المتوسط يشكل خلفية هادئة كأنها أستار أو جزء من ديكور مسرحي للدراما التي بدأت تتفجر وتتفاقم من حولنا . أما مشهد البارجة الإسرائيلية التي راحت تذرع مياه الشاطىء جيئة وذهاباً ، فقد بدا ، مع دوى طلقات المدفع اليتيم المرابط على تلة مواجهة قريبة وكأنه جزء واقع لا يصدق. مع دوى طلقات المدفع اليتيم المرابط على تلة مواجهة قريبة وكأنه جزء من واقع لا يصدق. وامتزج صوت زئير النفاثة بدوى انفجار قنابلها وطلقات مدفعيتنا وتصاعد إلى درجة لا تحتمل ليشكل الخلفية الصوتية للكابوس الذى تلبد في سماء صيدا ولبنان عامة ، واستمر لمدة أشهر محطماً بما ساد فيه من قتل وأسر وقهر وجوع وعطش كيان البلد وبنيته الاجتماعية .

من لبنان إلى المستشفى لزيارة أمي المريضة :

في مساء الخامس من يونيو افترشنا وجيراننا الأرض في بهو دارنا بصيدا في ألم وقلق وصمت ، فقد كان كل منا سجين أفكاره وهواجسه الخاصة . في هذه الليلة لازمنا السكون ، وبدأ شبح الرهبة يتجسد كلما طال الليل ، واستمر القصف المدوى وتعالى ، ودخل إلينا صلاح ، استطعت أن أنفرد به جانباً لثوان لأسأله عما كان يرى أن أفعله ، فأصر على إقناعي بالسفر في أقرب وقت لأضمن الوصول إلى والدتي التي كان قلقي عليها يوازى قلقي ، واقترح أن يصحبني أحد الشبان إلى بيروت .. ذلك إذا تمكنا من مغادرة صيدا ، وقد فعل ، وسرعان ما وصلنا إلى الحدود السورية ومنها إلى الحدود الأردنية في منتصف الليل ، حيث استطعت الاتصال بابنتي عالية .. وبعد أقل من ساعة وجدت نفسي في أمان في دار عالية . وفي نفس اليوم توجهت إلى القاهرة في سباق مع الزمن نظراً لحالة والدتي الصحية الحرجة . وكان اهتمامي التالي يتركز في محاولة أن أنقل إلى العالم خارج لبنان جسامة الأحداث الجارية ومغزاها .. من هذا المنطلق قمت في الطائرة بتحرير خطاب للرئيس مبارك . وما إن وصلت إلى القاهرة حتى قمت بتسليمه في مقر إقامته ، ثم هرعت إلى المستشفى إلى جانب أمي .

التعرف على صلاح بعد هزيمة ٦٧:

من المناسبات التى لم تكن فيها حرية الاختيار بالأمر السهل، ما واجهته بعد هزيمة عام ١٩٦٧ عندما انهارت وتهاوت مصداقية الكثير من القادة والساسة والكتاب كما ينهار صرح كنا نظنه منيعاً، اجتاحت الهزيمة نفوسنا كالطوفان وغيرت رؤيتى للأموز تغييراً جذرياً وإن لم تغير من قيمى الأساسية.

وفى وسط حطام الآمال والأحلام.. أطلت المقاومة الفلسطينية التى رفضت واقع الهزيمة. عرفت صلاح فى تلك الفترة، ولم يواجه قرارى بربط حياتى بحياته وضم جهودى للعمل على تحقيق مستقبل أفضل لشعبنا إلى جهوده فى هذا السبيل ــ أى معارضة من جانب ابنتى التى تحمست له، كما وافق والدها الذى كان من الطبيعى أن أطلعه على ما اعتزمت عليه بصفته كبير الأسرة.

لبنان تجتاحه العاصفة:

لم تشأ الظروف أن أكون شاهدة عيان لوصول جيش الدمار أو أن أسمع دوى دباباته ومصفحاته وهى تجتاح جنوب لبنان، جاعلة من الجنوب مأساة من حياتنا «ضحية» هامشية فى الصورة العامة، فى طريقها نحو بيروت.. هادمة البيوت وقاضية على الأرواح، لتنفيذ خطتها الأساسية غير المعلنة ــ وهى الإطاحة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ــ غير أن أصداء المجازر التى كنت أسمعها يوماً بعد يوم لازمتنى أشهراً طويلة. وأكاد أسمعها من جديد كلما تذكرت ما حدث لنا ولحياتنا وسط الدمار العام، فهو من الهول بحيث يكاد يغطى على أجل الذكريات. استمر القتال فى صور والمخيمات حتى كاد يدمر المدينة والمخيمات كلية.

القبض على الذكور:

فى حين استمرت آلة الحرب فى طحن الأهالى، وإلقاء القبض على جميع الذكور فيما بين سن الخامسة عشرة والخامسة والخمسين. ولكن يثور السؤال ــ أين كان صلاح فى هذه اللحظات؟ فى اليوم التاسع عشر من يونيو كانت منظمة التحرير لا تزال مستمرة فى رفضها لإلقاء السلاح وكتب صلاح فيما بعد عن تجربته خلال تلك الفترة يقول: خرجت من صيدا إلى التلال الجنوبية، إذ كان الجرد الإسرائيلى للأهالى مكثفاً ودقيقاً، وفى أحد الأيام حضر الإسرائيليون إلى بيتنا حيث نادوا على بالاسم ولم أكن هناك.. ونزلت إلى صيدا بعد ذلك للاتصال بمن أتمكن من الاتصال به من رفاقى ومعارفى. وكنت أنتقل بين مكان وآخر باستمرار.

محاولة العودة إلى صيدا ولقائي.. بالملك فهد:

كان ذلك يوم ٢١ يونيو، لم يكن لدى أى من المسئولين ــ مكاتب المنظمة أية أخبار جديدة عما يجرى فى لبنان. كانت الصورة كئيبة إلى أقصى حد. كانت القوات الإسرائيلية قد بدأت زحفها نحو بيروت، ووصلت طلائعها إلى بلدة الأوزاعى التى لا تبعد أكثر من خمسة أو ستة أميال عن العاصمة. وفى الأوزاعى كانت معنويات اللبنانيين والفلسطينيين لا تزال مرتفعة، غير أن ذلك الوضع كان بحاجة إلى أكثر من التفاؤل الشجاع الذاتى لكى يدوم أمام الهجمة المباغتة الشرسة، وحتى لا يهزم الإحباط الجميع. لكن بقيت الدول العربية صامتة فى المجال الفعلى. كنت مصممة بل ملتزمة بينى وبين نفسى بالعودة إلى صيدا لأرى ما جرى هناك بنفسى ولأجد صلاح، غير أن جميع المجهودات والمحاولات لإيجاد ثقب أبرة أعبر من خلاله إلى صيدا جواً أو برا أو حتى سيراً على الأقدام عبر الطرق الجبلية لم تسفر عن نتيجة. وتوجهت من عمان إلى الرياض حيث كنت آمل لقاء الملك فهد بصفته حاكماً لواحدة من أبرز الدول العربية. وقد حظيت بمقابلة جلالته وأسرته، ووضعت أمامه تفاصيل الأحداث كما عايشتها. وأكد لى الملك أن النجدة والمساعدات قد أرسلت.

رواية صلاح لواقعة الأسر:

لقد قاوم أهالى بيروت، ومن بينهم مجموعة صلبة من المقاتلين والقيادة الفلسطينية مجتمعة ــ حصار المدينة لمدة ثمانية وأربعين يوماً حتى تم الاتفاق على وقف إطلاق النار وإخلاء المدينة. وقد وصف لى صلاح فيما بعد واقعة أسره قائلاً: الواقع أن قصة استسلامى هى إسطورة.. فبعد يوم الثلاثاء وجدت أننى لن أستطيع أن أفعل شيئاً على الإطلاق. كنت أدرك هذا من قبل وشعرت أنى مثل شخص يحاول أن يسند بناء مائلاً بيديه المجردتين، لقد اشتد البحث عنى ووصل الكتائبيون إلى المنطقة وجعلوا بالإضافة إلى رجال سعد حداد والجيش الإسرائيلى، الحركة شبه مستحيلة، واستمر هذا الوضع ما يزيد على أسبوع. ولقد فكرت فى أن أجد لى ملاذا فى إحدى الكنائس، ومنها دير «عبرا» لبضع ساعات، وربما أمضيت فيها الليل واستطعت الإفلات. وكان «البطريرك» «إبراهيم الحلو» يعرفنى خير معرفة، ففكرت فى اللجوء إلى البطريركية. ولسوء الحظ كان البطريرك غائباً، واستقبلنا نائبه الأب حنا بنظرة ثاقبة وابتسامات ذات مغزى.. بل وكأنه يريد تصفية حسابات لم تكن واردة إذ اعترف قائلاً: «إننا مدينون لك لمعونتك لنا فى الماضى، فإنه لم يصدر منك أى أذى بالنسبة لنا بل قدمت لنا الكثير.. نعم يمكنك أن تنام هنا الليلة». غير أنه بعد قليل انقلب فجأة وأبلغنى بأن الإسرائيليين على مقربة.. وأنه يترك لى الخيار ما بين أن أخرج إليهم أو أن يأتى بهم إلى!! ورددت عليه: لا.. لا تجهد نفسك، فسوف أخرج إليهم.

كان الموقع الإسرائيلى لا يبعد أكثر من ثلاثين متراً وقابلنى الضابط المسئول عن الموقع بشىء من الاحترام فى حين تجمع حوله البعض الآخر فضولاً. وتوالت الأسئلة والمناقشة. ومن هنا أخذت إلى مصنع الصفا حيث جمع آلاف المعتقلين. وقد ألحقونى فى البداية برفاقى المعتقلين من الأسرى الجالسين على أرض فناء المصنع. ثم اقتادونى إلى حيث عزلت عنهم داخل عربة إسعاف خشية أن أقوم بتحريضهم، وفى اليوم التالى نقلت إلى الداخل إلى معتقل «أنصار» فى زنزانة انفرادية.

بعد أن عرفت ــ والكلام ما يزال على لسان الأميرة دينا ــ آخر أخبار صلاح حزمت حقائبى، واتجهت إلى بلجراد مروراً بعمان. غير أننى بمجرد أن وصلت إلى الأردن ولم ألبث أن استكنت برهة فى صحبة ابنتى إلا وتلقيت مكالمة من القاهرة تنبئنى بأن صلاح قد اتصل هاتفياً وطلب منى التوجه إلى القاهرة حيث إنه سوف يتصل ثانية!! كان ذلك آخر عهدى بالطمأنينة. وحتى مشاعرى لم يكن بمقدورها أن تتخذ اتجاهاً ولا لوناً محدداً من الفرحة واليأس خلال تلك الفترة، وأصبح الصبر هو شعار الأشهر التالية. لقد نسيت بلجراد واتجهت عائدة إلى القاهرة. وعند وصولى علمت أنه قد حدث سوء فهم كبير فى نقل الأخبار، وأن صلاح لم يكن هو الذى اتصل بل شخص من تل أبيب يقصد تبلغينا أن صلاح بخير.. وأنه بالفعل أسير، ولكنه بخير، وأن نفس الشخص قد وعد بالاتصال مرة أخرى.

وأخيراً جاءت المكالمة الهاتفية المرتقبة بعدما بدت لى الساعات. وكأنها مئات الساعات من الانتظار، تباطأت يدى فى رفع السماعة والرد على نداء من إسرائيل، فأيا كان المتحدث.. فإنى لن أجد حرجاً أن أتحدث إلى شخص من الطرف الآخر أو أجرى اتصالاً من خلاله. وأخيراً عندما وصلنى الصوت معرفاً بنفسه «أهارون بارينع» ناقلاً لى رسالة من صلاح، كنت لا أزال فى دوامة، وأذكر أننى قلت عندما جف تقلص عضلاتى وبدأت أنفاسى تنتظم ــ نعم ــ سيد بارينع، لقد كنت فى انتظار هذه المكالمة وسألت من يبلغنى الرسالة عما إذا كان من المحتمل أن يلقى صلاح مرة أخرى وإذا كان بإمكانه نقل رسالة موجزة منى إليه. وانتهت المكالمة وانقضت اللحظة ولم يكن فيها تخل عن قومى أو مبادئى أو حتى قناعاتى.

ثلاثة أيام فى رحلة داخل الأرض المحتلة:

كان السيد بارينع يتصل بالقاهرة بين الحين والآخر محاولاً طمأنتى وخلال إحدى المكالمات سألته بعفوية لا تخلو فى نفس الوقت من التردد «هل يمكننى أن أرى صلاح»؟! وبالرغم من إدراكى استحالة الفكرة لأكثر من سبب شعرت بفرحة متحفظة عندما رد السيد بارينع قائلاً: «لربما أمكن ذلك.. على أن أستفسر»!! منذ تلك اللحظة توالت الأحداث وكان على أن أواجه القرار الصعب بمفردى. وكانت الخطوة الأخيرة. أنا الآن فى الطائرة وفى الصف الأمامى

من الجهة اليسرى ولحسن الصدف كان ذلك فى وضع أتمكن فيه من رؤية مبنى المطار والمستقبلين لدى الوصول. وأخيراً أذاع ربان الطائرة أننا على وشك الهبوط فى مطار اللد. هبطت الطائرة إلى الأرض الحبيبة وتقدم شخصان نحوى وحيياني باحترام كان الاثنان هما السيد بارينع والسيدة التى ترافقه موظفة فى وزارة الخارجية الإسرائيلية وقد تكفلت بمرافقتى فى المطار. لقد كان الوضع كله محرجاً.. وبالتالى مزعجاً ومربكاً، غير أن السعادة الغامرة بوقوفى على تلك الأرض التى لم أتوقع أننى سأحيا لأطأها ثانية بعد احتلال ١٩٦٧!!.

أنا وصلاح مرة ثانية على أرض أسرائيل:

لم أكن لأصدق عينى بأن صلاح كان يقف أمامى سالماً. فقد كانت الأنباء التى عشتها فى الأشهر الأخيرة متضاربة وغير متكاملة بحيث أثرت على توقعاتى. وما أن تركنا بارنيع وحدنا حتى أشار صلاح إلى بحركة من يديه فهمت منها أنه يريد قلماً وورقة، فى حين استمر فى السؤال عن الأهل والأصدقاء والبيت. ناولته الورقة والقلم من حقيبة يدى. وبدأ يكتب عليها مستمراً فى نفس الحديث عن شئون العائلة وأعطانى الورقة وقرأت فيها «استمرى فى الحديث بشكل عادى عن الأهل والبيت.. الخ.. بالتأكيد الغرفة مرصودة بآلات التصنت.. سأعطيك ورقاً لاتقرئيه الآن بل انتظرى بعد أن يعيدونى إلى الزنزانة» وما إن انتهيت من قراءة الورقة حتى خلع حذاءه بسرعة هائلة وسحب من تحت جوربه أوراقاً مطوية دفعها إلى حيث وضعتها فى حقيبة يدى. واستمر اللقاء بيننا لمدة نصف ساعة. وفى اليوم التالى، تقابلنا فى جو طبيعى.. إن صحت التسمية فى مثل هذا الفراق. وكان واضحاً أن ثمة جهداً كبيراً قد بذل لتوفير ذلك الجو. ويبدو أن السيد بارينع قد استطاع أن يحصل على إذن بأن تتم مقابلتى مع صلاح فى بيته ولم نمانع فى ذلك حيث كان يحدونا الأمل فى أن تكون الرقابة أخف، وبالتالى ننبسط فى الحديث. وقضينا هناك ساعة وكانت بالرغم من وجود الحراس الذين جلسوا داخل الدار فى منأى نسبى عنا بمثابة واحة فى وسط الجحيم، وفى اليوم الثانى والأخير للزيارة رتب لنا لقاء مع أحد الشعراء اليهود واسمه «اباكوفيز» ورغم الضيق النفسى الشديد الذى صاحب هذا اللقاء. إلا أنها كانت تجربة غنية من حيث لم أكن أتوقع. فقد كان حديث صلاح يومها باعثاً للفخر والاعتزاز.

من جاديرا إلى أنصار.. وبالعكس:

عقب الليلة الأولى التى قضاها صلاح فى مصنع الصفا لتعليب الحمضيات الذى أصبح نقطة تجميع واحتجاز للأسرى يوم ١٩ يونيو، نقل برا إلى «جاديرا» وهو أحد السجون السرية فى الأرض المحتلة. وهكذا بدأت المحنة ــ ففى بادىء الأمر قضى هناك أربعين يوماً متواصلة فى السجن الانفرادى. وكانت أشد معاناة واجهها كانت نابعة من أن الجميع قد تخلوا عنه، وزاد

من قسوة ذلك الإحساس حصره فى زنزانة لا يرى فيها الشمس، بل ينام إن استطاع ويصحو تحت المصباح الكهربائى، وفى هذه المرحلة تم نقله إلى زنزانة أخرى أصغر حجماً من تلك التى كان قد تأقلم على العيش فيها خلال الفترة السابقة. وبالإضافة إلى ذلك فقد تم نقل صلاح إلى معتقل أنصار وسط دهشة صديقنا الإسرائيلى أهارون الذى اتصل بى فى لندن فى أواخر شهر أكتوبر إذ أخبرنى بأن لديه بعض الأنباء المقلقة.. لقد نقل صلاح إلى (أنصار) اليوم. ويحكى صلاح عن هذا السجن الجديد قائلاً: «كان (أنصار) بالنسبة لى مجهولاً جديداً، فى حين كان بالنسبة له الحرية النسبية، لقد شيد المعتقل على أرض عربية؛ اذن كان على أن أهلل غير أننى بقيت أردد: لا.. لا.. ما الذى يحدث؟ وفى اليوم التالى اتصل بى أهارون هاتفياً مرة أخرى ليطمئننى على وصول صلاح سالماً إلى المعتقل حيث إن مخاطر الطريق سواء كانت مدبرة أو غير محسوبة كانت حقيقة واردة ومصدر قلق كبير.

وبعد هذه المكالمة التى كانت نقطة تحول أخرى على درب حياتنا ـــ عدت إلى عمان، وبعدها بخمسة أيام كنت فى دمشق مرة ثانية لمقابلة أبى جهاد وإطلاعه على خبر نقل صلاح من جاديرا إلى أنصار ـــ ذلك المعتقل الرهيب الذى ذاق فيه المعتقلون ألواناً متعددة من العذاب والهوان، حيث كانت معلوماتى عن هذا المعتقل مستمدة أول الأمر من خلال صورة فوتوغرافية فى تقرير لمجلة «شئون الشرق الأوسط» الانجليزية.. ولم تكن معالم الصورة واضحة لذا بدت الأرض مغطاة بالحصى وأسطح وأبراج الحراسة وصفوف الخيام. وكانت شركة إسرائيلية قد قامت ببناء المعسكر بعد الغزو فى فترة لا تزيد على عشرة أيام.

توصيل رسائل الأسرى للقيادة والحديث عن تبادل المعتقلين:

كانت زيارة الجزائر رائعة بالنسبة لى بالرغم من المسئولية الثقيلة التى كنت أحملها، مسئولية توصيل رسائل الأسرى من أنصار إلى القيادة. كان المؤتمر السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى واحداً من أهم جلسات هذا المجلس، وخصوصاً أنه اشتمل على بنود تحدد سياسته تجاه الدول العربية. تابعت اللقاءات باهتمام وانتظرت فيما يبدو أبد الدهر، قبل أن أتمكن من نقل الرسالة إلى الاجتماع. وخلال الاجتماع السابع فى الجزائر كانت مسألة الأسرى قد تمت مناقشتها بالتفصيل مع أبى عمار وأبى جهاد كما أننى قمت أيضاً ببعض اللقاءات مع التليفزيون المحلى والصحف، حيث تحدثت طويلاً حول قضية الأسرى. وبمجرد انتهاء جلسات المجلس الوطنى توجهت من الجزائر إلى لندن، وتصادف أن كانت عالية هناك لقضاء بضعة أيام. تبادلت معها الأخبار بلهفة وشوق لدى وصولى.. وكان والدها الملك حسين فى زيارة قصيرة للندن وهو الآخر فتحدثت معه طويلاً.. وكان موضوع المعتقلين من أهم الموضوعات التى تطرق إليها الحديث.

مرت أيام فبراير متثاقلة وجاء مارس والموقف لا يزال مائعاً، والأسرى يضجون بالشكوى. وفي مارس توجهت مرة أخرى إلى الأرض المحتلة في محاولة التوفيق بين قوائم تبادل الأسرى. وتركزت مطالبنا حول الإفراج عن جميع معتقلي أنصار وعددهم ١٢٥٠ سجينا في سجون الداخل وتسليم أرشيف مركز الأبحاث الفلسطينية الذي استولى عليه الجيش الإسرائيلي من مقر المركز وحمله معه عند انسحابه من بيروت، وأن تقوم اللجنة الدولية للصليب الأحمر بإخطار منظمة التحرير رسمياً بموافقة الطرف الآخر على كفالة حق البقاء في لبنان للراغبين في البقاء بعد الإفراج عنهم. وفي مايو بدأت الالتقاء بأعضاء اللجنة التي شكلت لمناقشة موضوع المفاوضات.. وفي مايو أيضاً جاء اقتراح من المحتلين الإسرائيليين بأن تتم زيارة جديدة لجنودهم المأسورين لدينا.

وأخيراً.. أحرار.. أحرار:

لقد أطلق سراحهم.. إنهم أحرار.. ظل صدى هذه الكلمات يتردد في ذهني كالنغمة المتكررة.. حاولت جاهدة أن أغالب ما خالجني من مرارة.. لكنني لم أستطع أن أغفر للذين تسببوا في حرماني من فرحة عشت في انتظارها سبعة عشر شهراً. كان قد حدث تأخير أو سهو في إبلاغ أعضاء لجنة التبادل ببدء عملية الإفراج وبأن ثلاثاً من طائرات شركة «إيرفرانس» قد أقلعت من مطار اللد متجهة إلى الجزائر العاصمة. وهكذا لم يكن يدي أي أمل في الوصول قبلهم أيا كانت احتمالات عثوري على طائرة تنقلني إلى الجزائر في ذلك اليوم، ومهما يكن من سرعة هذه الطائرة. وصلت إلى مطار هواري بومدين في الجزائر بعد نصف ساعة من هبوط آخر الطائرات الثلاث. وحين وصلت كان الهدوء يشمل كل شيء ألقيت كلمات الترحيب وسكنت التهافات وكان صلاح قد رد على كلمات الترحيب التي وجهها الوفد الجزائري بكلمة ألقاها وهو لا يزال على سلم الطائرة.. حراً طليقاً.

إيران بين تاج «الشاه» وعمامة «الخمينى»(١)

من خلال خمسة وخمسين فصلاً.. وأكثر من خمسمائة صفحة فى كتاب من القطع المتوسط نستطيع أن نعيش حياة كاملة وتاريخاً متحركاً لدولة اهتز بها عرش الطاووس.. وتخلل عبر طبقات شعبها رجال الدين تحت ستار المذهب الشيعى، ونجحوا أيما نجاح فى إسقاط الشاه، وإقامة ما أسموه بالجمهورية الإسلامية الإيرانية.. التى اتضح هدفها من كلمات وضعها إمامهم الأكبر الخمينى.. هذا الهدف الخطير.. إنه تصدير الثورة للبلاد المجاورة وإقامة ما أسماه بالحكومة الإسلامية.

على أية حال لن نتعجل إصدار الأحكام والإدلاء بأى رأى شخصى فيما يقولونه أو يقوله إمامهم.. وإنما سنترك المجال على مصراعيه لمستشارنا الصحفى الأستاذ أحمد مهابة.. الذى عاصر كل أحداث إيران وعاش القصة الكاملة لحكم أسرة بهلوى من البداية وحتى النهاية.. وسنده القوى فى ذلك بجانب المستندات أنه كان يعمل مستشاراً صحفياً خلال الفترة التى وقعت بها أحداث الثورة، وتزلزل خلالها عرش الأمبراطورية الإيرانية، وعاصر أحداثها يوماً بيوم حتى غادر إيران بعد حادث الرهائن الأمريكيين عام ١٩٧٩.

---

(١) إيران بين التاج والعمامة ــ أحمد مهابة ــ نشر بالوفد بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٨٩.

لقد تمكن الأستاذ مهابة مؤخراً من تأليف كتاب عظيم وهام بعنوان: «إيران بين التاج والعمامة».. سجل فيه كل ما شاهده وعاصره خلال الفترة التى تحدثنا عنها فى المقدمة.. وخرج فى النهاية كتاب ضخم من القطع المتوسط.. إنه بحق سجل تاريخى حافل بالأحداث التى تهم كل قارىء عربى وغير عربى يهمه متابعة أحداث الدول المجاورة.. ويا لها من دولة فارسية إسلامية كان يربطنا بها نسب عائلى أيام الملك فاروق.

كما سبق أن ذكرت الكتاب ضخم، وبه أكثر من خمسين فصلاً، وسوف نحاول جاهدين أن نتخير أنسب هذه الفصول لإلقاء الضوء عليها، وإن لم نتناول كل الفصول.. وهى محاولة جادة من أجل نقل فكر وكلمات المؤلف بأمانة إليك عزيزى القارىء.

فى قلب الأحداث الساخنة المتلاحقة:

والحقيقة أننى حينما عمدت إلى ذكر موقع المؤلف فى مقدمة الكتاب ورصده الدقيق لكل ما رآه وسمعه وشاهده باعتباره من الإعلاميين والصحفيين الذين يسجلون ثم يفرزون ما يسجلونه كلاماً قيماً وهاماً ـــ قصدت بذلك أن أجعلك أيها القارىء العزيز قريباً منه مثلى تماماً.. ومما يؤكد هذه النظرة.. وهذا الرأى ما يقوله المؤلف لنا من خلال هذه الكلمات.. لقد شاء قدرى أن أكون واحداً ممن عاشوا مرحلة المخاض الثورى فى إيران خلال الفترة من أول يناير إلى ديسمبر عام ١٩٧٩، كنت خلالها مستشاراً إعلامياً لسفارة مصر فى إيران ولم أغادرها إلا بعد دعوة الرئيس السادات للشاه لقضاء أيام للراحة والعلاج فى مصر، فأمرنا بمغادرة إيران خلال ساعات. وكانت الأحداث الساخنة المتلاحقة تفرض على كمراقب التحليل والتقييم والمتابعة، وقد استخدت كثيراً من العواطف الدافئة والتقدير الذى يجل عن الوصف، الذى يكنه الشعب الإيرانى للشعب المصرى، مما أتاح لى فرصة نادرة لقراءة كتاب الواقع المفتوح والاستفادة من الرأى المؤيد أو المعارض.

لقد رأيت الشاه وهو فى عنفوان سلطانه وقمة مجده، ثم رأيته وقد هلك عن سلطانه وتنكرت له الأيام، فأصبح مهيض الجناح، زائغ البصر، شارد الذهن، يغادر بلاده وهو يحمل حفنة من ترابها ثم ينحنى ليرفع ضابطاً خَرَّ باكياً ليقول له (قم فإنك ستهتف غداً مع من يقول: الموت

للشاه). وصعد إلى طائرته التى حلقت به وسط ضباب الغيب وصوب المستقبل المجهول.. كما أننى رأيت آية الله الخمينى وهو عائد بعزة المنتصر يكاد مريدوه يخرون له سجداً، لا يرددون إلا اسمه ولا يرفعون إلا صوره.. لقد أردت بهذا الكتاب أن يكون سجلاً دقيقاً، ينقل الواقع بأمانة، ويسجل الأحداث بتجرد، ويدلى بشهادة من يكتمها فإنه آثم قلبه، مستهدفاً به أن يكون عوناً لكل من يريد أن يستوعب التجربة الإيرانية ويستفيد من الدرس والعبرة.

محتويات الكتاب من الجلدة إلى الجلدة:

الكتاب يحتوى على فصول كثيرة ومتنوعه، بجانب ملزمة خاصة بالصور النادرة التى تنقل إلينا واقع الحياة قبل وبعد سقوط الشاه.. ولنا مع هذه الفصول وقفة طويلة، نستعرض عناوينها حتى تكتمل صورة الكتاب ومحتوياته أمامنا، تقول هذه الفصول التى سجلت تحت عنوان الفهرس:

● الضابط المغامر ينزع العرش ـ الشيوعيون الإيرانيون والقضية الوطنية ـ قصة حزب توده ـ أمريكا وإيران ـ «مصدق».. كبش فداء جديد ـ «السافاك».. بين الوهم والحقيقة ـ الجيش.. المدية المسمومة ـ بداية النهاية.. بين الشاه وأمريكا ـ الثورة البيضاء.. مالها وما عليها ـ جنون العظمة ـ الاتهامات المتبادلة بين الشاه وأمريكا ـ الشاه والحرب ـ التعاون بين الشاه والسادات ـ هل كان الشاه معادياً للسامية ـ بريطانيا الشريك الأعظم ـ كارتر والواجهة الأخلاقية للسياسة الأمريكية ـ أمريكا تبحث عن بديل ـ بريجنسكى يدعو لمخططه الدينى الجديد ـ أئمة الشيعة.. دولة داخل دولة المجتمع الشيعى فى إيران ـ من هو آية الله الخمينى ـ الخمينى والحركة الوطنية ـ الخمينى والحكومة الإسلامية وولاية الفقيه ـ ظروف جديدة وتكتيك جديد ـ كرة حقوق الإنسان بين أمريكا وإيران ـ الغاز المسيل للدموع فى عيون كارتر ـ قبل أن يخرج الخمينى من ثلاجة العراق ـ التصعيد الشيوعى بعد أحداث تبريز «الشاه» وكيف ضاع الطريق من قدمه ـ ولاء الجيش كان للعرش أم للبنتاجون؟ ـ يوم الجمعة الأسود ـ صحوة الديمقراطية ـ الشيوعيون ـ حائط المبكى ـ الخمينى يرفض الصلح مع الشاه ـ آية الله الخمينى فى باريس.. والشاه فى إيران يعترف بالثورة ـ الحكومة العسكرية تواجه التحدى ـ بداية العد التنازلى ـ من هو شبهور بختيار ـ الشاه فى أسوان ـ نظام الشاه يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ الاستفتاء على الجمهورية الأولى ـ ثورة الخمينى فى مفترق الطرق ـ قضية حسن نزيه وبدء حملة التطهير ـ الثورة الإيرانية ومشكلة الاقليات ـ استقالة وزير الدفاع وإحياء دور الجيش ـ الجبهة الوطنية تطالب بحل مجلس الثورة ـ بازرجان يودع الشعب ويلعن الثورة ـ الزحف المقدس لرجال الدين نحو السلطة ـ احتجاز الرهائن ـ الخمينى يقطع العلاقات مع مصر ـ الثورة الإيرانية وإسرائيل ـ الثورة الإيرانية ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ إيران ما بعد الخمينى وحرب الخلافة.

الإمبراطورية الإيرانية الجديدة بدأت من هنا:

يلقى المؤلف الضوء على نشأة الإمبراطور رضا بهلوى.. وتاريخ دولته التى أنشاها أو التى اعتلى عرشها أبوه رضا خان عام ١٩٢٥ كشمرة لكفاحه كضابط خيالة.. حيث تميز بين أقرانه الضباط بقوة الشخصية والانضباط العسكرى الشديد. كما تميز بالحسم واتخاذ القرار فى الوقت المناسب، فرشحه ذلك ليلعب دور الرجل الأول فى إيران حين دخل العاصمة طهران سنة ١٩٢١ ليضع حداً لأحداث العنف التى قام بها الشيوعيون، ثم مالبث أن عين نفسه قائداً عاماً للجيش حتى استطاع أن يقلب عرش آخر ملوك أسرة قاجار وينصب نفسه على البلاد ويخلع عليه لقب شاهنشاه أى ملك الملوك. ثم حكم إيران بنظام كان أقرب إلى الفاشية العسكرية، حيث إن رضا خان أو رضا شاه كما رأى أن يسمى نفسه ــ كان أسير الإعجاب بزعيمين بارزين هما هتلر وكمال أتاتورك، فنقل عنهما سياسة الردع فى فرض برامج الإصلاح التى كان يحاول بها أن يدخل إيران إلى رحاب العصر الجديد، دون أن يأخذ فى اعتباره ثقافته المحدودة وطبيعة المجتمع الإيرانى المعقد الذى يقوم على نظام تعدد الأقليات العرقية والدينية، وسوده تقاليد القبيلة والإقطاعية الراسخة، وتسيطر عليه طبقة من رجال الدين الشيعة، التى تعطيها غيبة الإمام الثانى عشر ونظام التقية سلطة دينية شبه مطلقة على أبناء المذهب الشيعى، وتجعل لها الحق فى أن تظهر خلاف ما تطلبه حماية للمذهب من بطش الخصوم.

ولقد ورث محمد رضا بهلوى عن أبيه رضا خان هذا التراث الفريد من نوعه بصورة ربما كانت أكبر حجماً وأكثر عمقاً فلم يستطع الشاه الجديد أن يتحرر من أخطاء أبيه وقسوته وميراث العنف الذى تركه له رغم ضعف شخصيته وحيائه الشديد.

الاتحاد السوفييتى وأمريكا.. وإيران:

تقول الأميرة أشرف بهلوى الشقيقة التوءم للشاه فى مذكراتها: إنها بعد سقوط الدكتور محمد مصدق قرأت فى صحيفة أمريكية قصة كتبها ليف فاسيلف عميل المخابرات السوفيتية السابق. وفيها قال الكثير عن الأسلوب والسياسة التى سعى إلى تطبيقها ساوشكوف السفير السوفييتى فى طهران، ذلك أن السفير تساءل فى يناير عام ١٩٤٩ قائلاً: «أيها الرفاق لابد أن نفعل شيئاً ضد الشاه، فطالما بقى هذا الرجل على قيد الحياة فإن إيران لن تصبح أبدا شيوعية».. وتقول أشرف بهلوى: إن هذه القصة كانت بداية لمحاولة الأغتيال الفاشلة التى وقعت عام ١٩٤٩ ولكن السوفييت استمروا فى هذا الخط بعدها لأكثر من ثلاثين عاماً.. وبهذه الكلمات جسمت أشرف بهلوى موقف الشيوعيين الإيرانيين من القضية الوطنية الإيرانية.. أما عن حزب توده فيقول المؤلف عن تكوينه: لقد نتج عن حتلال إيران بواسطة الحلفاء عام ١٩٤١ خلال الحرب

الثانية التى أدت إلى تواجد القوات السوفييتية فى شمال البلاد، وإطلاق سراح ٥٢ سجينا سبق أن حكم عليهم عام ١٩٣١ بموجب قانون صدر فى ذلك الوقت ضد الشيوعية.

وقد قامت هذه المجموعة مستغلة الوجود السوفييتى فى إيران بتكوين حزب أطلقت عليه حزب توده التى تعنى جماهير الشعب.. ولقد كان الشاه يشعر بالحساسية الشديدة تجاه نشاط هذا الحزب المحظور نشاطه حتى إنه قطع علاقاته الدبلوماسية مع بعض الدول التى اتضح أن لها نشاطاً مع هذا الحزب، إلا أنه حينما قامت ثورة الخمينى عاد الحزب من جديد إلى دائرة الضوء.

أما بالنسبة لعلاقة الولايات المتحدة بإيران.. فقد كان هناك صراع فعلى بين كل من روسيا وأمريكا للاستحواذ على إيران. وقد بدأ بالفعل الاحتكاك والتماس بين كل من الدولتين لالتهام هذه الدولة أو هذه الامبراطورية.. ولقد نجحت بالفعل أمريكا فى النهاية فى القضاء على النفوذ السوفييتى داخل إيران والاستحواذ الفعلى على الشاه وعلى دولته.

السافاك.. بين الوهم والحقيقة وتعذيب الشعب:

لم يحظ جهاز أمن قومى فى دول العالم الثالث باهتمام، مثلما حظى جهاز السافاك لقوة بطشه وللفظائع التى ارتكبها فى حق الشعب الإيرانى، والآثار المدمرة التى تركها على حكم الشاه والعدد الضخم للعاملين فيه حتى كان من أقوى الأسباب التى استخدمت كمبرر للقضاء على حكم الشاه.. ولقد أنشىء هذا الجهاز عام ١٩٥٦ بهدف أساسى هو تصفية أنصار «محمد مصدق» من أعضاء الجبهة الوطنية، وتصفية حزب توده الشيوعى وبالتالى لتثبيت سلطة الشاه ودعم حكمه بوضع خصومه وخصوم أمريكا تحت الرقابة أو التصفية الجسدية، أو رهن الاعتقال، ذلك أن الشاه عانى كثيراً من محاولات الانتقاص من سلطاته بسبب قوة ونفوذ الشخصيات الوطنية التى كانت تظهر على المسرح السياسى فى ايران والتى كانت تثير شكوكه أو يخوفه البعض من أطماعها فى السلطة.

ولقد ساهم فى إنشاء هذا الجهاز الإسطورى وتدريب قياداته ووضع نظم وأساليب العمل به خبراء من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بالإضافة إلى قيادات وطنية إيرانية. وقد أسس هذا الجهاز تيمور بختيار الذى كان ينتمى إلى إحدى القبائل الإيرانية، وكان على صلة قرابة بزوجة الشاه ومطلقته فيما بعد. وقد استطاع بختيار بحكم رئاسته للسافاك، أن يصبح أقوى قوة فى إيران، مما جعله يحظى بثقة الولايات المتحدة، كما استطاع بختيار أن يجعل هذا الجهاز متغلغلاً فى كل فرع من فروع الحياة فى إيران، بجانب تمتعه شخصياً بنفوذ واسع النطاق فى أوساط القوات المسلحة، حتى إنه عندما أراد الشاه التخلص من بختيار، لم يستطع ذلك إلا بعد

إلقاء القبض على ثلاثة وثلاثين من جنرالات الجيش، قبل أن يفصل بختيار من رئاسة السافاك حتى يضمن ألا يتحرك الجيش ضد الشاه بعد خلع بختيار.

وقد كان لهذا الجهاز مبنى ضخم ومعقد فى شمال العاصمة طهران، وكان عدد أعضائه ثلاثة آلاف موظف.. هذا عن التعداد الرسمى، أما تقدير المنظمات الدولية فبلغ ١٠٠ ألف موظف، فى حين قدر أحد الخبراء أن كل أربعمائة من المواطنين فى إيران يقابلهم عضو من أعضاء السافاك. أما الأساليب والوسائل التى كانت تتبعها السافاك فى أداء مهمتها فى تصفية الخصوم فقد كانت مثاراً للعديد من القصص والمقالات والتحقيقات الصحفية والإشاعات التى بلغت حد الأساطير، ولقد قيل: إن من بين هذه الوسائل الأكثر تعذيباً وبشاعة تغيير ملامح الشخص المعذب بحيث يصبح من الصعب على أهله التعرف عليه!!

التعاون بين الشاه والرئيس السادات:

لقد أثارت شجاعة السادات وبعد نظره، إعجاب الشاه بعد مبادرة السلام التى ضيق بها الخناق على بيجين؛ لذلك تغيرت لهجة الخطاب السياسى للشاه حين يتحدث عن مصر. والواقع أن إعراب الشاه عن هذا التقدير لمصر وللسادات قد بدأ منذ مؤتمر القدس الذى عقد فى المغرب عام ١٩٦٨ وهو المؤتمر الذى رفض فيه السادات الإهانة التى حاول الشاه أن يوجهها لمصر باستعلاء وغطرسة عندما أعرب عن استعداده لمساعدة مصر المهزومة بشرط أن تكون القاهرة قد تعلمت من الهزيمة. الأمر الذى رد عليه السادات بكبرياء وشموخ. الأمر الذى حدا بالملك فيصل أن يتدخل لتهدئة الموقف، ونجح فى عقد لقاء بين السادات والشاه لمدة ساعتين على انفراد مما زاد إعجاب الشاه بالسادات. ولقد ترددت أقوال عن أن الشاه هو الذى نقل للسادات معلومات أمريكية عن محاولة الانقلاب التى كانت تعد لها مراكز القوى المصرية بزعامة على صبرى وأن سفير إيران فى واشنطون هو الذى جاء مبعوثاً من الشاه للسادات، حاملاً هذه المعلومات قبل ٤٨ ساعة من الإعلان عن اكتشاف محاولة الانقلاب هذه.. ولقد اتسمت العلاقات منذ ذلك الحين بين الرئيسين بطابع المجاملات والعبارات الودية. ولقد حاول الشاه أيضاً القيام بدور هام لإجراء حوار مباشر بين الرئيس السادات والإسرائيليين. كما أصبح من هذا التاريخ موصلاً جيداً لوجهتى النظر الإسرائيلية والمصرية.. وبأصالة المصرى وشهامة الفلاحين حاول السادات أن يرد للشاه الجميل، فبعد أن كان السادات فى حاجة إلى وساطة الشاه لدى أمريكا قبل حرب ١٩٧٣، أصبح الشاه ذاته ابتداء من عام ١٩٧٨ هو الذى فى حاجة إلى وقوف السادات بجانبه، الأمر الذى حدث بالفعل، حيث كان السادات يحاول إقناع الأمريكيين والرئيس كارتر بخطورة الأحداث فى إيران، الأمر الذى سوف يؤدى إلى قلب نظام الشاه. ثم كانت القاهرة خاتمة المطاف للشاه.

أمريكا تبحث عن البديل بسبب مرض الشاه بالسرطان:

لقد بنت المخابرات الأمريكية قرارها بإسقاط الشاه على عدة عوامل وأسباب يرجع أولها إلى حياة الشاه نفسها، التى بدأت فى العد التنازلى؛ لا لأنه قد تعدى أو قارب النصف الثانى من العقد السادس من عمره، فقد عمر غيره زمنا يقارب الثمانين، لكن الأمر كان أهم من ذلك، إذ يكمن وراءه سر لم يعرفه سوى عدد قليل جداً من كبار الأطباء.. وهو أن الشاه قد عولج فى عام ١٩٧٤ فى أحد مستشفيات أمريكا من مرض السرطان..

ومن المؤكد أن هؤلاء الأطباء وحتى الشاه نفسه، قد باتوا على يقين من أنه وقد تسرب السرطان إلى جسده فإن الأمر قد أصبح واضحاً، وهو أنه إذا استطاع الشاه أن يقاوم المرض بعض الوقت فإن المؤثرات الإيجابية كلها كانت ستظل محدودة الأثر أمام خطورة هذا المرض الخبيث، الأمر الذى جعل أن لا مناص من التفكير الجدى فى إيران ما بعد الشاه. وهذا النوع من التفكير لم يجل بخاطر المخابرات الأمريكية فقط، وإنما شغل بال واهتمام الشاه نفسه إلى الحد الذى جعله يتخذ قراراً دستورياً بأن تتولى زوجته الشهبانو فرح الوصاية على ولى العهد أو بمعنى آخر عرش إيران بحيث تتولى هى زمام الحكم فى حالة إصابة الشاه أو إذا خلا العرش بموته بجانب ذلك، وعلى الجانب الأمريكى فقد أضافت الأحداث إلى هذا السبب أسباباً أخرى، منها الإطاحة بالامبراطوز العجوز هيلاسلاسى والتحول من اليمين إلى اليسار! ومن أحضان الكنيسة إلى أحضان الشيوعية!!

التيار الدينى.. هو البديل الأمثل:

لقد كان أحد الحلول والبدائل المطروحة أمام مخططى السياسة الأمريكية أن يقوم أحد الضباط فى الجيش بانقلاب عسكرى يخلع به الشاه، بحيث ينتهى الأمر بتنصيب «أردشير زاهدى» السفير الإيرانى فى أمريكا رئيساً للجمهورية.. إلا أن هذا البديل قد استبعد؛ لأن الجيش كان فى نظر الشعب الإيرانى هو السيف الذى سلطه الشاه وأمريكا على رقابه. أما البديل الثانى الذى كان مطروحاً فيقضى باختيار إحدى الشخصيات الوطنية الأخرى التى لا تحوم حولها الشبهات ولا يعتقد الناس بعمالتها لأمريكا، وبحيث تمثل التيار الوطنى فى البلاد فى نفس الوقت تحافظ على النمو الغربى للدولة العصرية.. ولكن هذا البديل استبعد أيضاً لما رآه المخططون من محاذير سيادة التيار القومى الذى ينطوى دائماً داخله على يمين ويسار. وبقى خيار أو بديلٌ أخير يتمثل فى التيار الدينى ليكون غلافاً خارجياً لنظام حكم بديل من شأنه

إنجاح محاولة التغيير. فهو قادر على تحريك الشارع الإيرانى، حيث يدين ٩٠٪ من هذا الشعب بهذا المذهب.

نظام الشاه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

خلال دقائق قليلة من إذاعة نبأ مغادرة الشاه لإيران وتوجهه إلى أسوان، خرج سكان طهران فى جموع غفيرة تهتف ويعانق بعضهم بعضا ويرددون: ذهب الشاه.. النصر النهائى للجمهورية الإسلامية.. وأخذوا يطالبون بعودة الخمينى فوراً إلى إيران، ولم تعترف المعارضة ببختيار وطالب المتظاهرون باستقالته.. ووجه آية الله الخمينى من مقر إقامته بباريس تهنئته للشعب الإيرانى. وفى أول فبراير وبعد أربعة عشر عاماً فى المنفى عاد الإمام الغائب آية الله الخمينى. لقد عاد إلى إيران مرة أخرى وسط حفاوة بالغة من الهتافات التى انطلقت من حناجر الإيرانيين الذين أحاطوا مطار طهران منذ الساعات الأولى من الصباح. وفور نزوله من الطائرة فى استراحة المطار ألقى الخمينى كلمة قصيرة هنأ فيها الإيرانيين على هذا الانتصار، وأعرب فيها عن شكره لكل فئات الشعب.

ثم انتقل بعد إلقاء هذه الكلمة لزيارة مستشفى الألف سرير لجرحى الانتفاضة الشعبية، وعلى الرغم من أنه انتقل إلى المستشفى بطائرة هليكوبتر إلا أن ازدحام الجماهير جعل من الصعب عليه زيارة المرضى والجرحى، وبعد أن مكث مايقرب من نصف ساعة فى الساحة الخارجية للمستشفى، غادرها بالسيارة عائداً إلى مقر إقامته بطهران.

وفى ٥ فبراير عام ١٩٧٩ عقد مؤتمراً صحفياً قرر فيه أن الرأى العام والشعب قد اعترفوا به زعيماً للبلاد، وأنه عين حكومة مؤقتة لإجراء الاستفتاء، وأن معارضة هذه الحكومة هى معارضة لحكم الله.. وأن معارض حكم الله جزاؤه القتل.

الخمينى فى مدينة قم وإعلان الجمهورية الإسلامية:

فى الأول من مارس عام ١٩٧٩ وصل الخمينى لأول مرة إلى مدينة قم للمرة الأولى منذ أن غادرها مطروداً منذ خمسة عشر عاماً، فدخلها فى موكب حافل، وتوجه فور وصوله إلى مرقد السيدة المعصومة عليها السلام للتبرك والزيارة، فالتفت حوله جماهير حاشدة تهتف بحياته وتسكب ماء الورد. ومن مقر إقامته فى مدينة قم ألقى الخمينى أول خطاب له.. أعلن خلاله أنه أصدر تعليماته عند مغادرته لطهران بمصادرة ممتلكات أسرة بهلوى.

كما أكد على أن الدوائر الإسلامية سيكون لها طابعها المعتدل، وأكد من خلال الخطاب كذلك أن الشعب الإيرانى كله يطالب بالجمهورية الإسلامية، وليس الجمهورية وحدها أو

الجمهورية الديمقراطية .. وأنه شخصياً يطالب بجمهورية إسلامية لا أكثر ولا أقل . وبالفعل وفى الثلاثين من شهر مارس ١٩٧٩ أجرى أول استفتاء على إقامة أول جمهورية إسلامية فى إيران ، الأمر الذى يسجل بصفة رسمية ودستورية أول انتصار للتيار الدينى على نظام أسرة بهلوى الذى استمر ينقاد خمسين عاماً . وقد عجل الخمينى بإجراء هذا الاستفتاء لتكريس القضاء على النظام الملكى وقطع خط الرجعة على الشاه حتى لا يساوره الأمل فى العودة من جديد ..

ثورة الخمينى وبداية المشاكل المعقدة :

بدأت الثورة الإيرانية بزعامة الخمينى ، وبعد أقل من ستة أشهر على قلب نظام أسرة بهلوى ـ تواجه المشكلات الحادة والمعقدة ، سواء بالنسبة لعلاقاتها الدولية أم بالنسبة لأوضاعها الداخلية ، بصورة جعلتها تمر بامتحان حقيقى يجعل مصيرها محفوفاً بالمخاطر ويجعل الآمال التى روادت الشعب الإيرانى وعلقها على نجاحها تضعف كثيراً ، إزاء الاختناق الذى عانى منه حكم آية الله الخمينى داخلياً وخارجياً . ففى السياسة الخارجية تعقدت علاقاته مع كافة القوى المؤثرة على مستقبل الوضع فى إيران ، وفى مقدمة هؤلاء أمريكا التى أكدت الشواهد والأدلة على أنها هى التى لعبت الدور الحقيقى الأول فى إنهاء حكم الشاه ووضع الخمينى على رأس السلطة فى إيران .. ولن يبدو أن أمريكا عادت ورأت أن الثورة الإيرانية قد تجاوزت الحدود التى رسمت لها ، وأن الخمينى لم يحترم ما تعهد به بعد أن استولى على السلطة .

ولعل آخر ما كان يتوقعه المراقبون أن تشهد العلاقات الإيرانية الفرنسية هى الأخرى نوعاً من التوتر والجمود .. وقد شهدت الفترة أيضاً أكثر علاقات إيران الدولية سخونة وإثارة ، ألا وهى علاقة إيران بجارتها العراق حيث بلغ التوتر بينهما حداً أكد احتمالات وقوع اشتباكات مسلحة بين الجانبين أدت فى النهاية إلى حرب استمرت لسنوات طويلة .

وإذا كان هذا يمثل مرحلة من مراحل الاختناق للثورة فى سياستها الخارجية ، فإن الأمر لم يكن يقل خطورة على الساحة الداخلية ، لعل أبرزها ما أعلنه رئيس الوزراء آنذاك فى حديث تليفزيونى من تعدد وتضارب السلطات فى الحكومة الإيرانية التى يأتى على رأسها الخمينى ، ثم المجلس الثورى ، ثم محاكم الثورة ، ثم لجان الإمام ، حتى إنه وصف إيران فى تلك الفترة بأنها أصبحت مدينة لها أكثر من مائة رئيس مركز شرطة . وأن الانضباط انعدم داخل القوات المسلحة ، حتى أصبح الجنود لا يطيعون أوامر قادتهم زاعمين أن الجميع أصبحوا سواسية ، وأنه إذا ما أصدر ضابط أمراً لطائرة بالتحليق فى الجو رفض ضابط الصف تنفيذ الأمر حتى يتم بحثه شورى بينهم ، وهو ما لا يوجد له مثيل فى أى نظام سياسى أو اجتماعى فى العالم .

مأساة لبنان.. انهيار أم انتحار![1]

مصادفة قد تكون غريبة.. وأنا أتصفح هذا الكتاب لإعداده عرضاً وتقديماً. جاءنى صوت المطربة فيروز وهى تشدو فى صوت حزين «بحبك يا لبنان.. يا وطنى بحبك»!! وأثارتنى هذه الكلمات وزادت من حزنى، لأننى عشت بكل جوارحى كعربى وكمسلم مع الكتاب الذى يتناول مسأساة لبنان.. وكلما قلبت صفحة تلو الأخرى.. ازداد صوت فيروز، وازداد إصرارها على ترديد هذه الكلمات الحلوة التى تنم عن حب عميق لبلد مزقته الحرب الأهلية..

إن فيروز ليست فقط هى التى تحب لبنان كوطن لها، بل إننا جميعاً نحب لبنان، بلد السفوح الخضراء.. وأشجار الأرز والتفاح؛ لذا فقد جاء كتاب «لبنان انهيار.. أم انتحار» ليعبر عن هذا الحب الذى عاشه زميلنا محمود أحمد قرابة عشر سنوات فوق تراب هذا الوطن الجريح.. ودفعه هذا الحب ليكتب لنا معبراً عن هذه المأساة التى تحزننا جميعاً.. وندعو الله مخلصين أن يساعد لبنان وشعبه على تخطى هذه المحنة.. ويعود لبنان الحب والوطن.. و«فيروز».

والحقيقة أن مركز «الأهرام» للترجمة والنشر تعودنا منه ملاحقة الأحداث.. وإصدار الكتب التى تعبر عن هذه الأحداث وضخامتها؛ لذا لم يبخل بالجهد أو الطباعة فى إخراج هذا الكتاب بالشكل الذى يليق بالمؤلف وبالموضوع.. ولشدّ ما أحزننى فوق ما قرأته من الصفحات تلك الصور التى تعبر عن البشاعة والمأساة فى آن وأحد.. وتصور لنا كيف تمكن شيطان الحرب من تدمير هذا

---

(١) لبنان.. انهيار أم انتحار؟ ــ محمود أحمد ــ نشر بالوفد فى ٣ يناير ١٩٩٠.

البلد الجميل .. وبقى لنا أن نسمع كلمات الناشر التى سطرها فى آخر صفحات الكتاب مصحوبة بصورة للمؤلف.. تقول هذه الكلمات وهى خير تصوير للموضوع «١٠ سنوات أمضاها محمود أحمد فى بيروت متابعاً لأحداث الحرب الأهلية اللبنانية، وبحكم منصبه كمدير لمكتب وكالتى أبناء الشرق الأوسط والقطرية.. أتيح له الإلمام بخبايا هذه الحرب وأسرارها.. فقد وصل هناك قبل أشهر عديدة من نشوب المعارك عام ١٩٧٥، وظل طوال هذه الفترة متشبثاً بموقفه ملاحقاً لوقائعها فى وقت هرب فيه كثيرون من هذا الجحيم، رغم الأخطار التى تعرض لها هو وأسرته.

وكتابه هذا يكفل فهم أسباب المأساة اللبنانية، والقوى المسئولة عنها وتطوراتها واحتمالاتها، وهو مالا يتوافر للكثيرين منا برغم ضخامة ماينشر عنها يومياً.. وذلك بأسلوب رشيق ممتع يستند للحقائق والوقائع، وهو الأمر الذى تميز به المؤلف طوال ٣١ عاماً من عمله الصحفى فى «الأهرام» وفى وكالات الأنباء المختلفة.

قبل أن أبدأ جولتى داخل صفحات الكتاب.. استوقفتنى تلك الكلمات الدامعة التى أحسست أنها تخرج من قلب المؤلف وهو يحكى لنا عن لبنان المأساة، وآثرت أن أشرككم معى فى تصور هذا الإحساس والغوص فيه كمدخل ساخن لحديث طويل عن لبنان الجريح.

إن المؤلف كأى عربى مثقف عاش مشكلة لبنان وهو هناك على أرضها، ليس كصحفى فقط، بل كواحد من أهل هذا البلد الجريح؛ لذا حينما نراه يكتب.. نشعر ونحس المأساة والمرارة فى حديثه. إنه يقول فى مقدمته الدامعة، عشر سنوات كاملة قضيتها فى لبنان، بين عامى ١٩٧٤، ١٩٨٤، شهدت خلالها بداية الحرب، وعشت ذروة الخطر، ورأيت بعينى رأسى بلداً يتحلل ووطنا يتمزق ويتفسخ.. ويكاد يندثر!!

فى البداية كنت كغيرى أظنها جولة أو موجة من العنف لاتلبث أن تنحسر عندما يجد العقلاء حلا، فيتوقف القتال ويعود الكل إلى الاستمتاع بما كان لبنان يوفره من حياة هانئة للجميع. ولكن الأيام والأحداث خيبت كل الآمال.

شهادة التاريخ:

ويواصل المؤلف حديث اللوعة والذكريات بقوله: إذا كان لابد لكل كتاب من مقدمة فإنه كان لامفر بالنسبة لى أن تبدو المقدمة «ذاتية» إلى هذا الحد.. ولقد كنت أود أن أقدم «شهادة كاملة» للتاريخ تضم كل ما رأيت، وتشتمل على بعض ما قد يكون خافيا من خبايا مأساة لبنان، بالإضافة إلى ما أستطيعه من الشرح والتحليل لما جرى.. وربما قدر من الرؤية أو التصور لما يمكن أن يأتى به المستقبل.. ولكن محاولة تقديم مثل هذه الشهادة الكاملة ستكون عملاً شبه مستحيل فى الوقت الذى لايزال فيه الحريق مشتعلاً.. إن هذه الشهادة تشتمل على عدة فصول نجملها فيما يلى:

الفصل الأول بعنوان «الصدمة» وفيه حديث مؤلم وذكرى فى غاية القسوة.. تلك التى تحدثنا عن أحوال وأحداث لبنان. وكيف صدمت كل الكائنات على أرض لبنان الحبيب.. وفيه حكاية دخول وخروج المؤلف من لبنان، وشتان بين الأمرين: البداية والنهاية حين الخروج..

ثم يهل علينا الفصل الثانى بعنوان «مأساة الطائفية وشبح التقسيم». ومن عنوانه نعرف وسوف نعرف، الكثير عن أطراف القضية وأبعادها وآثارها.. وكيف حطمت الطائفيّة اللعينة أرض وطن لبنان الواحد..

ومن بعده نتعرف على الفصل الثالث وهو بعنوان «لبنان.. والمقاومة الفلسطينية.. من الجانى».

ثم الفصل الرابع وهو عن الميليشيات.. السلاح والجيش..

أما الفصل الخامس فهو حديث بعنوان «الصراع والاختراق.. سوريا وإسرائيل».

وأخيراً نهاية بعنوان «أية نهاية»!.

حديث ذو شجون:

سوف نعيش الآن وبعد أقل من لحظة واحدة مع فصول الكتاب، وأولها فصل الصدمة وهو الذى يقول عنه المؤلف تحت عنوان فرعى «نهاية.. وبداية»: كان الخروج من لبنان فى الخامس من شهر مارس عام ١٩٨٤ مؤلماً لى ولأسرتى على السواء.. فلم يكن هيناً علىّ أن أترك ورائى عشر سنوات من العمل المهنى المكثف والمستمر، فضلاً عن العلاقات الوثيقة والصداقات «والمحيط» الذى عشت فيه بحلوه ومره.. طوال هذه الفترة التى نمت خلالها ابنتى الصغيرة فبلغت الحادية عشرة.. وهى التى جاءت إلى لبنان قبل أن تتم العام الأول من عمرها! وكنت موقناً بأن ذلك كان هو الخروج الأخير.. وهو ما لم تكن بقية الأسرة تدركه تماماً، فقد كانوا يتصورونه مغادرة اضطرارية أخرى لا يلبثون أن يعودوا بعدها عندما تهدأ الأمور وتزول عوامل الخطر.

وليس هذا فقط، بل يصف لنا المؤلف كيف اضطر إلى هذا الخروج.. حين قال: «ومع ذلك فقد كانت المشاهد المرعبة الأخيرة التى حدت بى إلى اتخاذ قرار المغادرة لاتزال ماثلة أمامنا جميعاً» كان ذلك ظهر يوم السادس من فبراير يوم استيلاء ميليشيا حركة أمل الشيعية على كامل أحياء بيروت الغربية.

ظواهر تستحق التعليق قبل الشهادة:

من خلال هذا الفصل يحيطنا المؤلف علماً ببعض الظواهر والسمات التى يتصف بها الشعب اللبنانى والتى كانت مقدمة أو الوقود الذى أشعل النار فى أرض الوطن.. وأولى هذه السمات أو الظواهر حديث المؤلف عن شخصية الإنسان اللبنانى، لقد بدت لى من أول وهلة شخصية اللبنانى كواحدة من المكونات الرئيسية التى تحتاج إلى عناية فى محاولة فهمها.. لا سيا وأن الأحداث المروعة التى مالبثت أن تلاحقت، أثبتت لى مدى ما يمكن أن ينقلب إليه اللبنانى المتحضر من عنف ووحشية.

مأساة الطائفية في بيروت.

توغلت قارئاً داخل صفحات الكتاب، أكتشف أن المؤلف يحمل من الشاعرية والرقة ما يفيض من كلماته ويزيد.. وهذا ما جعلني أتمسك تقريباً بكل كلمة يقولها دون تدخل أو تحريف من جانبي.. ولقد وصلنا معه إلى الحديث عن مأساة الطائفية الخطيرة التي كانت أولى خطوات انهيار مجتمع لبنان الشقيق.. إن لنا معه وقفات طويلة للحديث المؤسف عن شبح التقسيم وغول الطائفية.. في البداية يقول عن الملامح الأولى لهذه الطائفية: أفزعتني «الطائفية» في لبنان، وأثارت دهشتي إلى أقصى حد.. وشاءت الظروف أن أصطدم بهذه الطائفية على الفور.. فقد كان طبيعياً أن أبدأ عقب وصولي للبحث عن مسكن ملائم في بيروت التي بدت لي على صغر حجمها شبيهة بأية عاصمة أو مدينة أخرى تتكون من أحياء فقيرة وأخرى غنية.. وبدأت أسأل الأصدقاء، واقترح على مراسل هولندي أن أسكن بحي الأشرفية، ولكنني عندما طرحت الفكرة على أحد الزملاء اللبنانيين، وكان شيعياً ــ فوجئت به يتلقى الأمر بمزيد من الإنكار والرفض. وكانت الذريعة التي أبداها هي أن الجماعة هناك لن يرحبوا بي بينهم، وفيما بعد اعتدت سماع العبارات التي تنم عن الفرز الطائفي القائم الذي تعبر عنه ألفاظ مثل «مناطقنا».. «جماعتنا».. وغير ذلك. برغم أن الحرب لم تكن بعد قد عمقت هذا الفرز وكرسته. لقد كان غريباً عليَّ أن ألمس إلى أي مدى يمكن أن يتحكم الانتماء الطائفي بمجتمع ما ويتغلغل عميقاً في تربته إلى هذا الحد. كما كان غريباً أن أرى مدينة أو دولة تنقسم الأحياء والمناطق فيها على أساس طائفي شبه مطلق.

ماذا يقول التاريخ اللبناني:

والمؤلف بعد أن يحدثنا عن انطباعاته الشخصية التي لمسها عن تلك الطائفية الملعونة في لبنان يحاول من خلال الفقرات القادمة أن يؤصل هذه الطائفية تاريخيا، ويلقي عليها ظلال الماضي.. بجانب حديث آخر عن التقسيم وأسبابه ودوافعه، فتحت عنوان عقدة الخوف وعقدة الغبن يقول: من الثابت تاريخياً أن تمتع الطائفة المارونية في لبنان بامتيازات هامة يعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، وبالتحديد إلى عام ١٨٦١ في أعقاب المذابح التي جرت في جبل لبنان والتي راح ضحيتها عشرات الألوف من أبناء الطائفتين المارونية والدرزية.. على أن هذا الوضع المتميز لم يكن يستمر بعد نشأة لبنان الكبير.. رغم تمسك أبناء هذه الطوائف بما كانت لهم من امتيازات في الماضي، بل بدءوا يخوضون صراعاً لم يقدر له أن يهدأ من أجل تأكيد تلك الامتيازات، بدعوى أن في ذلك ضماناً لهم ضد الذوبان في البحر الإسلامي الذي يحيط بهم في كل اتجاه. وبدأ الموارنة يعملون بلا هوادة على خلق تيار مسيحي في لبنان يتحدث عن عقدة الخوف!! وهكذا فإنه كان على الطوائف الإسلامية منذ نشأة لبنان الكبير أن تواجه محاولات السيطرة من قبل الطوائف المسيحية بزعامة الموارنة المسلحين بالدعم من الدول الأجنبية

ودولة الانتداب.. ومن المؤكد بعد هذا الاستعراض السريع لجذور الطائفية أن الأحداث الدامية التي تعصف بلبنان منذ منتصف السبعينيات قد أثبتت أن تلك الطائفية هى أسوأ الأمراض التي يمكن أن تصيب أى بلد وأى شعب. ومن سوء حظ لبنان أن هذا المرض الخبيث قد ولد معه منذ ظهر إلى الوجود عام ١٩٢٠ ويظل ينخر فى جسده.. دون أمل فى الإصلاح أو فى العثور على حل أو علاج!!

فإذا كانت الفترة التى سبقت الاستقلال والصيغة الفريدة فى عام ١٩٤٣ قد تميزت بأنها فترة تعايش مبنى على الأحقاد والاضطهاد والاحتلال، فما هو العذر فى استعمال خطر الطائفية وتفاقم الوباء بعد التراضى على صيغة التعايش المشترك وحصول لبنان على استقلاله؟! لقد ظلت الطائفية هى المحور الذى ظلت المأساة اللبنانية تدور حوله على مدى السنين.

من الحقائق الغريبة فى مأساة لبنان أن كل هذا الصراع ظل يدور طوال الوقت على رقعة من الأرض لاتتجاوز مساحتها ١٠٤٥٢ كيلومتراً مربعاً، هى مجمل مساحة لبنان من طرفه الشمالى عند التقائه مع سوريا وحتى أقصى جنوبه عند حدوده مع أرض فلسطين. ولذلك فقد بدا لى الحديث عن «تقسيم لبنان» عجيباً إلى أقصى حد!! ولقد كان هذا البلد الصغير هو أكثر البلدان العربية ازدحاماً بالطوائف.. كما أنه قد يكون من أعلى البلاد العربية كثافة بالسكان.. ومع ذلك فإن الحديث عن التقسيم كان يتردد بلا توقف منذ بداية المحنة، إلى أن بلغ التردى منتهاه فى عام ١٩٨٤ وما بعدها.. ولا جدال فى أنه على امتداد سنوات الأزمة كان حديث التقسيم دائماً مطروحاً حتى لا نقول تهديداً من جانب الفريق المسيحى، تقابله مقاومة عنيفة وعنيدة من الفريق الإسلامى الذى كان يعلن فى قوة وفى كل مناسبة أن التقسيم مرفوض.

وكان من الواضح أن هناك اختلافاً سياسياً فى وجهات النظر بين الفريقين.. ولقد أثبتت الأيام أن هناك خلافاً عميقاً وجذرياً فى النظرة إلى هذه النقطة الحساسة والحيوية فى أزمة لبنان. ويمكن تلخيص هذا الخلاف فى أن طرح المسلمين اللبنانيين كان يدعو إلى الوحدة الوطنية فى مقابل الطرح المارونى المطالب بالإقرار بتعددية المجتمع اللبنانى وتمايز طوائفه.

نصل مع المؤلف إلى حديث فى غاية الخطورة، حيث يلقى بنا فى خضم بدايات معارك لبنان وخرابه.. ونقصد بها انتشار الجماعات المسلحة وعدم قدرة الدولة على السيطرة على هذه الجماعات أو الميليشيات. ولقد وصف المؤلف هذه الأمور بالظواهر الخطرة التى يقول عنها: لو أن ظاهرة السلاح وانتشاره والميليشيات وتعددها وانفلاتها، لم تكن بهذا الحجم الذى كانت عليه فى لبنان عشية الانفجار، لما كان للنتائج أن تصل إلى المستوى المروع الذى وصلت إليه.. ولقد كان من الواضح لكل ذى عينين قبل وقوع الانفجار الكبير أن تعدد هذه الميليشيات

وانتشار الأسلحة من أبرز الحقائق القائمة على الساحة اللبنانية وأكثرها خطورة: وقد أثبتت الأحداث التى جرت فيما بعد أن عدم التصدى لظاهرة السلاح والميليشيات والتنظيمات العسكرية الحزبية وشبه الحزبية واستمرار تفاقم هذه الظاهرة تحت بصر الدولة وسمعها، كان له أوخم العواقب على البلد والبشر.. وكما كانت الميليشيات ظاهره واضحة الخطورة فإن السلاح وانتشاره العلنى فى أيدى الجميع كان ظاهرة أخرى لا تقل خطورة!!

وعلى أية حال هذه قائمة صغيرة باسماء الميليشيات التى كانت ولا تزال موجودة على أرض لبنان وهى:

- **الكتائب:** وبلغ عدد أفرادها أكثر من ٢٥ ألف مقاتل بالإضافة إلى حوالى ٨٠ ألف شاب نظامى.
- **الأحرار:** وقد تكونت من حزب كميل شمعون العائلى؛ ليس للمساهمة فى الحفاظ على كيان لبنان بل تحسباً للمستقبل.
- **حركة أمل:** التى بدأت بزعامة الإمام موسى الصدر.. من أجل غايات سلمية فى البداية ثم ما لبثت أن شاركت هى الأخرى فى إشعال الحرب الأهلية.
- **ميليشيا الاشتراكيين:** وتتبع الحزب التقدمى الاشتراكى الذى أسسه الزعيم الدرزى كمال جنبلاط.
- **الحزب القومى السورى:** وقد قام التنظيم العسكرى به بهدف الكفاح المسلح ضد الحركة الصهيونية.
- **ميليشيا الشيوعيين:** لم يكن للشيوعيين اللبنانيين ميليشيات حتى قبل عام ٧٦ ولم يكونوا يملكون أسلحة.

أين كان الجيش اللبنانى:

الحقيقة أن الصورة المخيفة التى نضعها أمامنا: فوضى السلاح وتعدد التنظيمات والميليشيات على الساحة اللبنانية لا يمكن تبينها إلا إذا ألقينا نظرة على ما كان عليه الجيش من عجز وضعف وانقسام إلى الحد الذى جعل من المستحيل عملياً الاستعانة به فى أى عمل لإنقاذ البلاد.. وفى أول وصولى إلى لبنان طالما كنت أرمق بإعجاب ضباط الجيش اللبنانى وهم يخطرون بزهو فى شوارع بيروت ببزاتهم العسكرية التى يميل لونها إلى الخضرة الداكنة. ولكن سرعان ما تبينت أن هذا المنظر البراق ليس إلا واجهة تخفى وراءها حالة متردية لقوات مسلحة ضئيلة وفقيرة عدداً وعتاداً.. وكانت كلمة الجيش تطلق على القوات البرية والبحرية والسلاح

الجوى التى لم يدن عددها يتجاوز ١٨ ألف جندى وضابط تتكون منهم كل فروع الأسلحة.. ومن سوء الحظ أنه لم يكن ممكنا أن يظل الجيش اللبنانى بمنأى عن تأثيرات الفساد الضاربة جذورها فى التربة اللبنانية. على أن أفدح ما أصيب به هذا الجيش ولا يزال هو جرثومة الطائفية اللعينة التى كان يجب تحصين المؤسسة العسكرية ضدها لكى تبقى هى المؤسسة الوطنية الصلبة القادرة على الدفاع الشرعى.

المقاومة الفلسطينية والشكوك:

فى أواسط السبعينيات وقبل اندلاع حرب لبنان الأهلية كانت الشكوك المتبادلة بين لبنان والمقاومة الفلسطينية قد بلغت من الكثافة حداً يجعل المرء يكاد يشعر بها وراء كل موقف وفى ثنايا كل تصريح.. كأنها شىء مادى يمكن الاصطدام به فى أية لحظة فى شوارع بيروت، وفى مكاتب المسئولين وصالات بعض السياسيين اللبنانيين، وفى الأزقة الموصلة لمخيمات الفلسطينيين..

ويبدو أن المقاومة الفلسطينية خاصة بعد تجربتها المريرة مع السلطة فى الأردن عام ١٩٧٠ قد أصبحت أسيرة عقدة الخوف من السلطة فى أى بلد عربى، بل وفى كل مكان. وكنت أرى وأسمع حتى من أصدقاء فلسطينيين قريبين من قيادة المقاومة ما يؤكد وجود هذه العقدة التى لم تعد تقتصر على الحذر والشك إزاء السلطة وحدها، وإنما ساعدت على تكوين مزاج فلسطينى عام يفتش عن سوء النية وراء كل عمل أو تصرف، ويتوقع الشر فى كل لحظة، ويشك فى كل شىء وفى أى شخص!!.

سوريا وإسرائيل:

لقد وضعت يدى فوق قلبى حين وصلت إلى هذا الفصل فى رحلتى مع المؤلف.. حيث رأيت فيه كل الظلم الذى يلاقيه لبنان وشعبه.. فبعد أن عرفت وعرفتم معى مدى حجم المأساة التى يعيشها شعب لبنان سواء فى ضوء الطائفية أو شبح التقسيم.. رأيت وقرأت كيف أصبح هذا البلد مطمعاً للغزو.. بل وأكثر من الغزو محاولة ضم بعض أراضيه لدولة أخرى.. وها نحن سوف نعرف بعض تفاصيل هذه المحاولات سواء من جانب سوريا أو إسرائيل.. وعن ذلك يقول:

أذكر أن أول ما سمعت عن لعبة الشد والجذب بين سوريا وإسرائيل على الساحة اللبنانية فى أعقاب حرب السنتين مباشرة ودخول قوات الردع ــ كان ادعاء يقول: أن هناك اتفاقاً سوريا إسرائيليا غير مكتوب يقضى باقتسام لبنان!! بحيث تكون السيطرة على الأرض لسوريا..

والسيطرة فى السماء لإسرائيل !! وعلى الرغم من أن أحداً لم يتمكن من إثبات هذا الادعاء، أو التحقق من صحته، إلا أن الأحداث والتطورات المتتابعة أثبتت صحته إلى حد كبير.

ومازالوا عاجزين عن الحل:

تحت عنوان فرعى كحديث أخير للمؤلف معنا يقول: أية نهاية بعد هذا تخبئها الأيام للبنان. وأى مصير ينتظره؟ وهل تكون هذه النهاية، نهاية المحنة ـــ لا قدر الله ـــ هى نهاية لبنان؟! لقد طالعت تصريحات عدة لزعماء لبنانيين، وكلها تعكس المواقف القديمة ذاتها ولا تبشر بأى أى بصيص أمل أو تفاؤل بانفراج قريب، بل إن الصحف والمجلات العالمية تعلق تصريحاً لأحد هؤلاء الزعماء تنبأ فيه بزوال بيروت من الوجود!! فكيف يمكن للمرء أن يتطلع إلى الأمام أو يستشف المستقبل!

الانتفاضة والدولة الفلسطينية في التسعينيات(١)

تساءلت حين نويت إلى أقدم هذا الكتاب وأعرض له .. لماذا لا أنوه عن المؤلف ــ خاصة إذا كان من الشخصيات العامة والهامة في حياتنا السياسية ــ في مقدمة هذا العرض والتقديم .. وأعتبر كلماتي عنه هي خير فاتحة لحديث طويل سوف يضمنا خلال هذه الصفحة ، هذا الأسبوع .. وقبل أن أفسر كلماتي السابقة طبعاً تودون أن تعرفوا عنوان الكتاب ومؤلفه ، وأنا معكم كذلك .. الكتاب يحمل عنوان « الانتفاضة والدولة الفلسطينية » والمؤلف هو الصحفي المعروف لطفي الخولي ، والتنويه الذي أقصده يقول : دوائر سياسية عديدة تعتبره « شيخ حارة فلسطين » المصري .. وقد تم اختياره بصفته الشخصية عضوا في « الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية » التي شارك في الدعوة إليها وفي تأسيسها عام ١٩٧١ وتولى مسئولية أمانتها العامة الزعيم اللبناني القومي الراحل كمال جنبلاط ، وانتخبته الأحزاب المصرية أميناً عاماً للجنة الوطنية المصرية لدعم الانتفاضة الفلسطينية التي تأسست في يناير عام ١٩٨٨ .. وبوزنه المصري القومي تم انتخابه أمينا عاماً لاتحاد كتاب آسيا وأفريقيا في مؤتمره الثامن الذي عقد بتونس في ٨ ديسمبر عام ١٩٨٨ . (من كلمات الناشر في الغلاف الأخير) .. ولقد عايش لطفي الخولي الثورة الفلسطينية من داخل الثورة وكواليسها منذ بداياتها عام ١٩٦٥ ، ودافع عنها بمفهوم أنها قضية قومية لمصر ، وساهم كشخصية قومية عامة في بناء كثير من جسورها العربية والدولية ، وكان قريباً من تفاعلاتها السياسية والتنظيمية ، وفي كل تطوراتها ،

---

(١) الانتفاضة والدولة الفلسطينية ــ لطفي الخولي ــ نشر بالوفد بتاريخ ١٧ يناير ١٩٩٠ .

ربطته علاقات قوية بكل فصائلها وقادتها ، وليس سرا أنه التقى ببعض قيادات الانتفاضة وتحاور معهم .

* * *

لقد وجدت نفسى راضياً كل الرضاء عن هذه الكلمات التى اعتبرتها أساس بناء الجسر الفكرى والثقافى الذى سوف نعبر عليه جميعاً خلال رحلتنا داخل هذا الكتاب .. وآثرت أن أقدم لكم كذلك بياناً موجزاً عن المحتويات حتى تكون ملامح الرحلة واضحة أمام أعيننا قبل أن نبدأ المسيرة والرحلة .

أربعة فصول ووثائق وإهداء:

برغم أن الكتاب يحتوى فقط على هذه الفصول الأربعة إلا أن عدد صفحاته تقارب الثلاثمائة والخمسين صفحة من القطع الكبير.. بالإضافة إلى الغلافين: الأول الذى يحمل العنوان واللوحة المعبرة لهذا الشاب الفلسطينى الذى استخدم الحجارة لإشعال الثورة التى أعادت الكيان والحياة والدم للقضية.. أما الغلاف الأخير ففيه كلمة الناشر التى منها نقلت بعض كلمات مقدمتى السابقة.. وإليكم تفصيل محتويات هذا الكتاب.

• **الفصل الأول:** الانتفاضة المناخ العام لنقطة البداية، وهو بدوره يحتوى على النقاط التالية: المشوار الفلسطينى من هزيمة ١٩٦٧ إلى انتفاضة ١٩٨٧ــ حسابات ١٩٨٢ وحسابات ١٩٨٧ــ الحجر الفلسطينى فى بحيرة الشرق الأوسط.

• **الفصل الثانى:** الانتفاضة المنظور الفلسطينى. ومحتوياته هى: الدولة الفلسطينية فى التسعينيات ــالإشكاليات الأربعةــ كلمة السر ونقطة الصفرــ عنوان الحقيقة ــمأزق الاحتلال، ومأزق النظامــ السلطة غير المرئيةــ قوة الضعيف وضعف القوىــ المرحلة الثانية للانتفاضةــ الانتفاضة والاحتلالــ فى وصف معركة الأرضــ ورقة أبو جهاد. وعدد صفحاته ثمان وثمانون صفحة.

• **الفصل الثالث:** الانتفاضة المنظور الإسرائيلى، ومحتوياته هى: النهار الإسرائيلى والليل الفلسطينىــ الحرب السابعةــ العصر الحجرىــ نادى الجنرالاتــ الانتفاضة وانتخابات الكنيست الثانى عشرــ مشكلة إسرائيل مع ذاتها.. وعدد صفحات هذا الفصل خمس وأربعون صفحة.

• **الفصل الرابع والأخير:** الانتفاضة حسابات الواقع الراهن والمستقبل المنظور. ومكوناته هى: بسمات الزمن الانتفاضى على الإسرائيليين والفلسطينيين ــحسابات ربع الساعة الأخير ــإعلان الاستقلالــ وعدد الصفحات إحدى وأربعون صفحة.

• **الوثائق:** ويبلغ عددها ثمانيا وعشرين وثيقة.

الانتفاضة المناخ العام لنقطة البداية:

(١) المشوار الفلسطيني من هزيمة ٦٧ إلى انتفاضة ١٩٨٧:

فى اللحظات التى سبقت أفول الشمس عام ١٩٨٧، تفجر بركان الشعب الفلسطينى فى صورة انتفاضة جماهيرية عارمة، امتدت من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ إلى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٤٨، لأول مرة منذ قيام إسرائيل.

جاءت ثورة البركان على غير كل التوقعات العربية والدولية، فالعرب فى مؤتمر قمة عمان الطارىء قبل حوالى شهر من الانتفاضة، هبطوا بالقضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى إلى الدرجة الثانية من اهتماماتهم بعد أن دفعوا بقضية وقف الحرب العراقية الإيرانية إلى صدر جدول أعمالهم. وعلى المستوى العالمى فإنه على الرغم من تصاعد الرأى العام الدولى فى دعم انعقاد المؤتمر الدولى كطريق للوصول إلى تسوية سياسية عادلة فى الشرق الأوسط فإن هذا كله لم يتمتع بالثقل الكافى الذى يؤمن على قمة ريجان ـ جورباتشوف الثالثة التى انعقدت بواشنطن فى نهاية الأسبوع الأول من ديسمبر عام ١٩٨٧ مناقشة موضوع المؤتمر الدولى واتخاذ قرار دولى حاسم بشأنه، وجرى بالتالى ترحيله إلى القمة الرابعة.

وحين نلاحظ أن انفجار البركان الفلسطينى حدث بعد شهر واحد من القمة العربية الطارئة ومع نهاية الأيام الثلاثة لقمة ريجان ـ جورباتشوف، فإنه من الصعب الموافقة على الرأى القائل بأن الانتفاضة عفوية وعشوائية، ويؤكد ذلك العديد من المؤشرات والظواهر المرئية. وهذا يعنى كذلك أن الشعب الفلسطينى وجه بصورة جماعية وقوية رسالة واضحة لإسرائيل وإلى العرب والقوى الدولية بأنه قادر على إشعال الحريق الاقليمى والدولى فى هذه المنطقة الاستراتيجية إذا لم يكتل الجميع جهوده من أجل إقرار الحد الأدنى من تسوية سلمية عادلة للصراع وللقضية. لقد نجحت الانتفاضة فى هز الأسس التى كانت تقوم عليها المعادلة القائمة ـ إقليميا ودوليا ـ حول الصراع العربى الإسرائيلى والقضية الفلسطينية، وذلك إلى الدرجة التى جعلت بعض هذه الأسس آيلة للسقوط فعلاً.

(٢) العرب بين عام ١٩٨٧ وعام ١٩٨١:

تمكن ما أصبح يسمى بفتيان وفتيات الحجارة فى فلسطين المحتلة من أن يفرضوا العرب وقضاياهم على عام ١٩٨٨ وليس فقط أزمة الشرق الأوسط وقضية فلسطين. لقد تراءت منذ الربع الأخير من عام ١٩٨٧ مؤشرات متوالية تكشف عن أن العرب رغم استمرار انقساماتهم وتضارب همومهم القطرية ـ بدءوا يشعرون ماديا ومعنويا وعسكريا وسياسياً واقتصاديا واجتماعيا، بأن الطريق الذى سلكه كل منهم بعيداً عن الآخرين وظنه يحقق الأمن الخاص

والتنمية الخاصة هو طريق مسدود. وأنه إذا كان من الصعب حل الخلافات والتناقضات القائمة بينهم، فإن الحكمة علمتهم بعد تجارب فادحة الثمن أن لا مناص من أجل البقاء الآمن في العالم المعاصر إلا بالعودة إلى قدر ضروري من العمل العربي المشترك.. وربما كانت انتفاضة الجماهير الفلسطينية العارمة في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ والتي امتدت لتشمل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، هي الحدث السياسي العربي الأهم في نهاية ١٩٨٧. لقد حرك هذا الحدث الجماهير العربية في كل بلد عربي.. ولم يعد في قدرة أية حكومة أو سلطة أن تتجاهل هذه الحركة الكثيفة وإلا فقدت مصداقيتها.. لقد كان صوت الانتفاضة الفلسطينية هو أخطر وآخر المؤشرات التي تلاحقنا في الربع الأخير من عام ١٩٨٧ غير أنه ليس الوحيد بل هو امتداد لمؤشرات عديدة من طبيعة أخرى.

(٣) حسابات ١٩٨٢ وحسابات ١٩٨٧:

وفقا لما راحت تنشره وكالات الأنباء عن الانتفاضة في الأسبوعين الأولين لها فإن الجماهير الفلسطينية أخذت تواجه بشجاعة وقدر ملحوظ من التنظيم ما حشدته سلطات الاحتلال الإسرائيلي من قوات عسكرية لقمع الانتفاضة بأقصى ما عرف عنها من وسائل وحشية دموية، وإن سقوط عشرات الشهداء ومئات الجرحى في هذه المواجهة الشاملة لم يرهب الجماهير الثائرة، بل على العكس شحنها بطاقة معنوية هائلة. وأجمع كل المراقبين السياسيين والصحفيين أن عمق وشمول انتفاضة ديسمبر عام ١٩٨٧ يعتبر على الأقل أضخم من انتفاضة عام ١٩٦٧ وهناك البعض الذي يرجع بها إلى عام ١٩٤٨ في مجال المقارنة.

إن خريطة المقاومة الفلسطينية في ديسمبر عام ٨٧ باتت شاملة يمارسها شعب الداخل كما يمارسها شعب الشتات في الخارج، الذي نظم نفسه في فصائل تخترق بعمليات بطولية ما ظنت إسرائيل أنها أقامته من حدود آمنة ليضرب أهدافاً حيوية في الداخل. إن هناك من يحاول أن يضفي طابع العفوية والمصادفة على الانتفاضة الفلسطينية المعاصرة إذ تحاول بعض أجهزة الإعلام الإسرائيلية أن تنسبها إلى المشاعر التي تفجرت في الصدور عندما داهمت شاحنة عسكرية إسرائيلية في الثامن من ديسمبر ١٩٨٧ أربعة من العمال الفلسطينيين بغزة وقتلتهم. وإن عدداً من الصحفيين الفلسطينيين أشاع ونشر خاصة في جريدة «الفجر» التي تصدر باللغة العربية ـ أن الحادث لم يكن قضاء وقدراً، بل عن سبق إصرار، انتقاماً من قتل الجنود الإسرائيليين الستة في عملية الفدائي الطائر.. هذا النوع من المحاولات لم يكن مجرد خداع للرأي العام فحسب، بل كان خداعاً للنفس الإسرائيلية ذاتها.. إن الأبعاد السياسية واضحة تماماً في ذلك التوقيت الخاص بالانتفاضة الشعبية وطابعها الشمولي، ليست مجرد مصادفة أو حادث عارض. بل هي فعل سياسي ثوري منظم ومرتب ومسئول.. وهذا هو حقيقة وزنه ومنبع قوته وشجاعته في مواجهة إسرائيل.

الحجر الفلسطيني في بحيرة الشرق الأوسط:

فجأة سقط الحجر فى قلب بحيرة الشرق الأوسط الآسنة، فحرك مياهها على نحو ينذر بالخطر.. واعترف جميع المراقبين السياسيين فى العالم بأن القضية الفلسطينية قفزت مع رمية الحجر من ذيل جدول الاهتمامات الدولية الراهنة إلى صدرها، وكان من الطبيعى أن يتحرك الجميع، ويلقى بنفسه فى بحيرة الشرق الأوسط والسباحة. فى مياه الأزمات الدولية هى بالدقة فن تعامل أصحاب المصالح الكبيرة والصغيرة مع السياسة الدولية بتياراتها العاصفة.. ومن هنا ازدحمت البحيرة بالسباحين من كل جنس ولون.. بعدما كانوا قد هجروها.. هناك بالطبع العرب وإسرائيل.. امتلأت شواطىء البحيرة بالرأى العام العالمى يرقب حركات السباحين وسباقاتهم.. ولاحظ الجميع أن من كان يظن بأنه أصغر السباحين وأقلهم شأناً وهو الفلسطيني، صار محور الحركة، إنه منذ انهال أول حجر على رأس جندى إسرائيلى، قبل وداع عام ١٩٨٧ غدت القضية مطروحة بإلحاح على أساس حق تقرير مصير الشعب الفلسطينى وإقامة دولته المستقلة على أرضه، ومن حول هذا الأساس باتت تدور التسوية السياسية المقترحة بين العرب وإسرائيل فى المنطقة.

وهذه أهم التيارات السياسية فى البحيرة:

فى هذا الإطار نلحظ عدداً من التيارات الرئيسية المتضاربة فى بحيرة الشرق الأوسط العاصفة بالأنواء:

● تيار اسرائيل: يجند أقصى ما لديه من أجهزة القمع لإخماد أنفاس ثورة الحجارة، ولكن بدون جدوى ملحوظة، على العكس امتدت الثورة الحجرية من الأراضى المحتلة عام ٦٧ إلى الأراضى المحتلة عام ٤٨.. وقد عمد بعد ذلك إلى محاولات لا تنتهى لتمزيق صفوف الوحدة الفلسطينية، لكنه أخفق فانتقل إلى تخويف العرب والعالم من خلال الزعم بأن ثورة الحجارة صورة أخرى من ثورات الإسلام المتعصب.. غير أن غالبية التيارات الإسلامية أفشلت المخطط بإعلان أنها جزء لا يتجزأ من حركة كل الشعب الملتزمة بسياسة وقيادة منظمة التحرير.

● التيار الأمريكى: الذى يرفع شعار المفاوضات المباشرة بين الدول العربية وإسرائيل مع استبعاد منظمة التحرير بديلاً عن المؤتمر الدولى من ناحية وبديلا عن إقامة الدولة الفلسطينية من ناحية، أخرى.

● التيار المصرى: الذى ينطلق مما عرف باسم مبادرة الرئيس حسنى مبارك التى تتضمن خمسة بنود: أربعة منها عبارة عن ترجمة للمطالب الأربعة عشر التى أعلنتها القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة يوم ١٩٨٨/١/١٤.. أما البند الأول فقد صيغ فى عبارة تساوى بين عنف حجارة

من يقاومون الاحتلال كحق مشروع وبين القمع الإسرائيلي الوحشى، ويطالب بإيقافهما معاً وهو ما أثار نقداً له من ناحية واستغلته أمريكا.. الأمر الذى دفع بالرئيس مبارك أن يعلن أن المبادرة كل لا يتجزأ بجميع بنودها، ولا يمكن أخذ بند واحد وإسقاط البنود الأخرى.

قيام الدولة الفلسطينية.. قريباً:

أدخل إلى قلب الموضوع مباشرة فأقول: أتنبأ أن تقوم الدولة الوطنية الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عند بداية التسعينيات على الأرجح.. وبذلك تحقق الثورة بقدر أو بآخر ما عرف باسم البرنامج المرحلى الذى أقره مجلسها الوطنى بالقاهرة عام ١٩٧٤.. ومع ذلك قد تتطلب دواعى الحذر أن أضع صيغة أكثر دقة لهذا التنبؤ فأقول: لن يتأخر قيام الدولة الوطنية فوق الجزء المحرر من فلسطين عن نهاية القرن العشرين.. ولعل المفردات الأساسية للحساب السياسى الذى يقود إلى هذا التنبؤ تنبع من معطيات يمكن إجمالها فى هذه النقاط الأربع:

- مواصلة النضال الفلسطينى بأبعاده العسكرية والسياسية والجماهيرية، وذلك بالمستوى الراهن من قوة الحركة والدفع فى الداخل والخارج معاً.

- استمرار غالبية الحكومات العربية على موقف «اللاعداء واللادعم» الذى وصلت إليه عملياً بالنسبة لحركة منظمة التحرير فى قمة عمان.. وعدم الارتداد حول المؤتمر الدولى.

- الافتقاد النسبى المتصاعد لوحدة وفاعلية القرار الإسرائيلى السياسى والعسكرى اللذين تميزت بهما إسرائيل منذ قيامها.

- أما الرابعة فهى تتابع خطوات مسيرة الوفاق النووى العالمى بأبعاده الإقليمية التى دشنت عملياً بين روسيا وأمريكا بالتوقيع على اتفاقية إزالة الصواريخ فى ديسمبر عام ١٩٨٧ ثم فى ربيع عام ١٩٨٨.

مراحل الانتفاضة الفلسطينية وأهدافها:

فى تسلسل واضح لأحداث الكتاب وأهميته.. يلقى بنا المؤلف من جديد فى أحضان الانتفاضة ويحدثنا عن أهدافها بمراحلها المختلفة.. فتحت عنوان فرعى من عناوين الفصل الثانى الذى يحمل عنوان «قوة الضعيف وضعف القوى» يقول عن هذه المراحل: (بدخول الانتفاضة الفلسطينية شهرها الثالث.. بدأ ما أصبح يعرف فى مخططها الذى يجرى الإعداد له منذ إخراج منظمة التحرير من بيروت عام ١٩٨٢.. المرحلة الثانية من حركتها.. لقد انطلقت المرحلة الأولى فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٨٧ واستهدفت فى الأساس إنجاز ثلاثة أمور:

* **الأول:** تجنيد كل الشعب فى كل المواقع فى كل الوقت لخوض مقاومة شرسة ضد سلطات الاحتلال فى غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية، بما يفرض قضية الشعب الفلسطينى فى إنهاء الاحتلال وإقامة الدولة المستقلة، ضمن أولويات جدول الاهتمامات العالمية الراهنة شعبياً ورسمياً وإعلامياً.

* **الثانى:** بناء الحد الأدنى من القواعد الأساسية لإقامة سلطة وطنية هى القيادة الموحدة موازية لسلطة الاحتلال ومستوطناته.

الثالث: إنزال كم له وزنه من الخسائر المادية والسياسية والاقتصادية بجسد الاحتلال.

ومع الشهر الثالث للانتفاضة بدأت المرحلة الثانية، وهى مرحلة ظلت ممتدة ومفتوحة على آفاق لم تكن قد تحددت بعد معالمها الكاملة فى الواقع أمام العين المجردة.

الانتفاضة الفلسطينية فى عيون إسرائيل:

لقد وصلنا مع المؤلف إلى أبواب الفصل الثالث، كما وصلنا معه من قبل إلى الفصل الثانى.. وللحق أقول: إننى توقفت أمام كلمات هذا الفصل مثلما توقفت أمام كلمات غيره من الفصول وودت لو قدمت كل ما جاء به، ولكنها المساحة المتاحة التى جعلتنى أتخير من المقتطفات التى تخدم فكرة الكتاب.. وها أنا ذا.. سوف أستخدم نفس الأسلوب بالنسبة للفصل الثالث الذى وصلنا إليه منذ لحظات.. والمؤلف مشكوراً فى بداية حديث الفصل الثالث يحاول أن يكون منطقياً ومحايداً.. تاركاً شعوره الوطنى الفياض من أجل أن يعرض لنا رؤية العدو الإسرائيلى للانتفاضة ورد الفعل المجنون لهم تجاهها.. وقبل أن ننسى.. أود أن أنوه إلى أن اسم هذا الفصل «الانتفاضة من المنظور الإسرائيلى» وعن تأثير هذه الانتفاضة على إسرائيل يقول الاستاذ لطفى الخولى: الرؤية الموضوعية للانتفاضة تبقى ناقصة ومعيبة إذا ظلت حبيسة النظرة الآحادية الجانب.. وفى تقديرنا أن اكتمال الرؤية الموضوعية لايتحقق إلا إذا عبرنا بالنظرة التحليلية ـ الحدود الفلسطينية إلى الجانب الآخر المضاد.. وبمعنى آخر أو بتعبير أدق أن الرؤية الموضوعية لاتستقيم إلا إذا امتحنت حركة الجماهير الفلسطينية فى ضوء الصراع ضد قوة القمع الإسرائيلى الراهنة والمدججة بأحدث الأسلحة العسكرية.. ولهذا كان طبيعياً أن تبدو الانتفاضة عند تفجيرها فى العين الإسرائيلية نوعاً من أعمال الجنون المطبق أو المغامرة التى لاغد لها ولامستقبل.. وفى هذا الإطار تراوحت التفسيرات الإسرائيلية لظاهرة الانتفاضة وأساليب التعامل معها بين ثلاثة اتجاهات رئيسية نجملها فيما يلى:

* **الاتجاه الأول:** يرى أنها مجرد غليان مخزون البأس والفقر فى حياة لا إنسانية.

● والاتجاه الثاني: ينظر إلى الظاهرة على أنها فورة من فورات الثورية الرومانسية التى تصيب ولأجل قصير الأجيال الجديدة الشابة بمرض التمرد على النظام..

● أما الاتجاه الثالث: فقد ذهب إلى القول بأن الانتفاضة هى من صنع ما أسموه بالتيارات الإسلامية المتطرفة.. إلا أن الأيام قد أثبتت فشل هذه الرؤية الإسرائيلية وتحليلها للانتفاضة بالدليل وكما يقول المؤلف تحت عنوان (الحرب السابعة) فى تحرك سياسى للعسكريين يحدث لأول مرة منذ قيام إسرائيل تكوين منظمة جديدة باسم «المجلس الإسرائيلى للسلام والأمن» وذلك بهدف الضغط من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للضفة وغزة باعتبار أنه أصبح الشرط الأساسى لضمان الأمن الحقيقى لإسرائيل.. بل أكثر من ذلك هناك وتحت عنوان آخر يقول (العصر الحجرى) يبرهن المؤلف على خطأ هذه النظرة بقوله.. «فى فبراير عام ١٩٨٨ استدعت لجنة شئون الخارجية والأمن بالكنيست إسحق رابين وزير دفاع إسرائيل ليقدم تقريرا عن الانتفاضة التى كانت تقتحم وقتذاك شهرها الثالث، وذلك بعد أن فشل فى تنفيذ وعوده المتكررة بقمعها تماماً خلال فترة قصيرة!! وكانت المفاجأة أن رابين وقف ليعترف بأن علينا اليوم أن نرتب أنفسنا على أن هذه أصعب مواجهة تتحدى إسرائيل بالقياس إلى حروبها منذ مايو ١٩٤٨.

تصاعد الانتفاضة.. وإعلان قيام دولة فلسطين:

نأتى إلى خير ختام لنا مع هذا الكتاب الهام.. وهو الحديث عن قيام الدولة الفلسطينية وملامحها قبل الوصول إلى حديث الوثائق والصور.. وعن ذلك يقول المؤلف: (كان التخطيط كما أعلن ياسر عرفات أن تتصاعد الانتفاضة إلى مرحلة العصيان المدنى الشامل على بداية عام ١٩٨٩ وتنتهى بإقامة الدولة المستقلة التى تكون قواعدها وأجهزتها وكوادرها قد استكملت.. ولكن ديناميكية الانتفاضة وما أفرزته من ردود فعل أحدثت ضغوطاً على الوقت والتخطيط الفلسطينى إلى الدرجة التى بات معها من الضرورى التعجيل بالقرار بمعايير دقيقة.. وتكونت مجموعة من اللجان السياسية والقانونية لدراسة الصياغات المقترحة ومشروعات التوصيات بقرارات التى تقدم إلى البرلمان الفلسطينى مع تخويل اللجنة التنفيذية للمنظمة التحرك المكثف للتمهيد والتحضير لإعلان الاستقلال عند انعقاد المجلس الوطنى.. وقد كان أمام رجال الثورة خلال تلك الفترة الزمنية الحرجة التميز بين ما يسمى بالشرعية التاريخية والشرعية الدولية.

مشروع الاستقلال الفلسطينى.. الهدف النهائى:

إن مشروع الاستقلال الفلسطينى بمعنى مبادرة الشعب الفلسطينى بإعلان إقامة دولته المستقلة على أرضه المحتلة عام ١٩٦٧ فى مواجهته مع سلطات الاحتلال، ليس بالفكرة الطارئة

أو المشروع المفاجيء في مسيرة النضال الفلسطيني منذ تفجرت الانتفاضة عام ١٩٨٧ .. ولعله لم يعد سرا القول بأنه تكشفت خلال المناقشات الواسعة النطاق التى شملت الساحة الفلسطينية بفصائلها ومواقعها المختلفة بهدف بلورة أهداف سياسية للانتفاضة ـ أن القيادة الوطنية الموحدة كانت قد طرحت على القيادة المركزية لمنظمة التحرير منذ الشهر الرابع للانتفاضة مشروعاً لإعلان الدولة الفلسطينية من القدس العربية المحتلة باعتبارها عاصمة الدولة كان منطلق القيادة الوطنية أن مشروع الاستقلال مطلب جماهيرى عارم، وبالتالى فإن التحرك فى اتجاه تحقيقه والعمل تحت رايته من شأنه أن يضاعف من قوة الحركة الجماهيرية مادياً ومعنوياً ويزيد من قدرتها على مواجهة القمع الإسرائيلى.

الخطوط السبعة الرئيسية التى تحكم الحركة السياسة:

ويمكن القول إن هذه الآلية للحوار الفلسطيني ـ الفلسطينى الجديد على أرضية الانتفاضة نجحت فى بلورة الاتفاق الجماعى على سبعة من الخطوط الأساسية التى راحت تحكم الحركة السياسية الفلسطينية التى تستند إلى قوة فعل الانتفاضة المتواصلة.. وهذه الخطوط السبعة هى بايجاز:

● **الخط الأول:** يقوم على اعتبار أن الانتفاضة تتحول فعلياً إلى حرب استقلال هدفها إعلان الدولة الفلسطينية بإرادة الشعب.

● **الخط الثانى:** أن إعلان الدولة الفلسطينية ينطلق عملياً فى الأساس من الشرعية الدولية التى يمثلها القرار رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧ الصادر عن الجمعية العامة والقاضى بإنشاء دولتين فى فلسطين.. دولة عربية وأخرى يهودية.

● **الخط الثالث:** أن التعامل الفلسطينى السياسى مع الشرعية الدولية ككل لايتجزأ فى إطار هدف الانتفاضة.

● **الخط الرابع:** أن إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على جزء من فلسطين يضع الشعب الفلسطينى ومنظمة التحرير وجها لوجه أمام المعضلة التى لم يعد من الممكن الهروب منها أو التغافل عنها. ونعنى بهذه المعضلة أن الدولة الفلسطينية وليدة الانتفاضة تنشأ جغرافياً وسياسياً فى جوار مع اسرائيل عام ١٩٨٨.

● **الخط الخامس:** أنه فى سبيل انتهاج ظروف التسوية السياسية الدولية لإقامة الدولة الفلسطينية يتوجب عدم الخلط بين استمرار الالتزام بالثوابت الفلسطينية وبين الضرورات

الإقليمية والدولية فى الواقع الراهن لبناء موقف سياسى فلسطينى يستخدم الشرعية الدولية ويستند إليها .

● **الخط السادس:** أن التخطيط القائم على التصاعد بالانتفاضة إلى درجة العصيان المدنى مازال سليماً ، ولكن يتوجب أن يواكب ذلك حركة سياسية واسعة النطاق للتمهيد لإعلان الاستقلال الوطنى الفلسطينى .

● **الخط السابع:** أنه لا بديل عن الوحدة الوطنية الفلسطينية فى حركة الانتفاضة ميدانياً ، وداخل منظمة التحرير الفلسطينية ، وأن أى خلافات فى الرأى بين القوى والفصائل الفلسطينية يجب ألا تؤثر على استمرار الوحدة الوطنية ووحدة العمل معاً .

إن الدولة الفلسطينية المستقلة قد أصبحت حقيقة انتفاضية واقعة فى طور استكمال مهمات التكوين ، وذلك منذ الخامس عشر من نوفمبر عام ١٩٨٨ .

الفصل الثانى

أوراق فى الدين والشريعة

ـ المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخومينى

د . عبد المنعم النمر

ـ الزكاة والضمان الإجتماعى الإسلامى

المستشار عثمان حسين عبد الله

ـ حرية الرأى فى الإسلام

د . محمد يوسف مصطفى

ـ ألغام فى طريق الصحوة الإسلامية

حامد سليمان

حقيقة المذهب الشيعى(١)

الدكتور عبد المنعم النمر.. من أفاضل العلماء المصريين المسلمين.. الذين أعطوا وما زالوا يعطون من علمهم الشيء الكثير من أجل نصرة الدعوة الإسلامية واستمرارها وسط هذه الأجواء المشحونة بالسموم، والتى غالباً ما تهدف — فى المدى البعيد — إلى النيل من الإسلام والدعوة الإسلامية..

وأستاذنا الدكتور النمر غنى عن التعريف، وكم سعدت كثيراً حين وقع الاختيار على كتابه الجديد «المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخومينى» ليكون ضمن سلسلة الكتب الجديدة والقيمة التى نقدمها لقارىء جريدة «الوفد».. وهذه السعادة التى غمرتنى ستصيب بالتأكيد القراء الأعزاء خاصة حينما يعرفون أن الكتاب الذى بين أيدينا والذى سنعرض له بعد قليل، يتحدث بشكل مفيد عن الشيعة ومذاهبهم حديثاً وقديماً.. وكيف أن مفهوم الشيعة بدأ فى أحضان الرغبة السياسية من جانب الفرس لتحطيم الدعوة الإسلامية، ويستدل مؤلفنا العالم الجليل على هذه النتيجة — كما يذكر على غلاف الكتاب — بالوثائق.

إنها لا شك رحلة قيمة.. تبدأ منذ ألف عام حين حاول القرامطة أن يستولوا على الكعبة المشرفة رمز المسلمين.. إلى أيامنا هذه حين عاود نفس المحاولة الإمام الخومينى من أجل الهدف نفسه.

(١) المؤامرة على الكعبة من القرامطة إلى الخومينى — تأليف الدكتور عبد المنعم النمر — نشر بالوفد بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩٨٨.

الحمد لله خابت هذه المحاولات وباءت كلها بالفشل وحفظ الله الكعبة وبلاد الإسلام .

ويبصرنا العالم الجليل الشيخ النمر بهدف هذه الدراسة فنقرأ على لسانه من مقدمة هذا الكتاب .. وقد يظن بعض الناس أن هذه الدراسة تخص طالب التاريخ أو العلم الدينى فحسب ، ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك ، فإنها تعنى كل دارس ، وكل عامل فى مجالات الحياة المتنوعة ، حتى يستطيع على ضوئها تحليل تاريخنا وفهمه .

وليس هذا فقط .. بل إن عالمنا الدكتور عبد المنعم النمر يحدد بالضبط فئات الناس الذين هم من الواجب عليهم أن يتبصروا بما يقول لما فيه من فائدة عامة .. ومن أجل ذلك يضيف فى مقدمة الكتاب : « ولعلها تعنى السياسى والدبلوماسى والصحفى والإعلامى بالقدر الذى تعنى به عالم الدين والتاريخ أو أكثر .. كل هؤلاء على الأخص فى حاجة ماسة إلى خلفية تاريخية وحصيلة علمية بالمجتمعات والتيارات التى صنعت حركات الإنسان ولا تزال تصنعه وتحركه ، حتى يتصرف أو يكتب وهو على بصيرة من الأمر تحميه من الوقوع فى مزالق تعكر حياته وحياة الآخرين » .

وفى موضع آخر من المقدمة يقول عن الدافع الذى أدى به إلى مناشدة هؤلاء الناس من أجل القراءة الواعية : « وقد لمست بنفسى نماذج من هؤلاء يتصرفون ويوجهون ويكتبون ويتحدثون عن غير وعى وإدراك سليم بحركة المجتمعات فى الماضى والحاضر .. والتيارات التى كانت تتحكم فى هذه الحركة وتوجهها .. ولذلك وقعوا ويقعون فى أخطاء جسيمة فى تصرفاتهم وأحكامهم » .

يحلو لى وفى بداية عرض هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، أن ألم بما يحويه من فصول .. استعرضها كلها .. حتى تكون دافعاً لى كى أنقل منها الشىء الكثير والنافع لى ولجميع الناس .

يحوى كتاب « المؤامرة على الكعبة » .. ثلاثة فصول .. أكبرها الفصل الأول .. والذى يتناول فيه المؤلف الموضوعات المتنوعة .. والتى يعتبرها أساس حديثه الذى يضمه كتابه عن المؤامرة على الكعبة .. فهو يتناول من خلال هذا الفصل موضوع الحكم ووقفة قصيرة مع بعض المظاهر، ثم موضوع الإمامة .. أيضاً رؤية من الداخل تلتقى معنا ثم « على والخلفاء رضى الله عنهم » أيضاً اقتراحات للتصحيح والشيعة وأئمتهم وفرقهم أيضاً الشيعة الزيدية ثم صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، أيضاً يضم هذا الفصل حديثاً طويلاً عن المذهب الزيدى الذى ينكر عصمة الأئمة والعلم اللدنى ، أيضاً نفس

المذهب الذى ينكر المهدية والرجعة .. ويشمل هذا الفصل كذلك جزءاً عن الشيعة الإسماعيلية وعقائدهم ، ثم دولة الإسماعيلية والقرامطة ثم الاعتداء على البيت الحرام سنة ٣١٧ هـ.

أما الفصل الثانى من هذا الكتاب فيشمل الحديث عن الخومينى تحت مسميات عديدة .. منها الخومينى. والحرم وهل أعاد التاريخ نفسه ؟ ثم المتفجرات وقصة البراءة .. كذلك مناقشة لخطبة الخومينى فى الحجاج الإيرانيين ، أيضاً يحدثنا الشيخ الجليل من خلال فصله هذا عن النهاية الحتمية وحتى تكتمل الصورة أيضاً يحدثنا عن غاية الجنابى من الاعتداء على الحرم وتلك النوايا العدوانية المسبقة !!

ومن الفصل الثانى إلى الثالث ، ينقلنا المؤلف للحديث عن عودة القرامطة ودولهم .. ثم كيف كانت مجتمعاتهم .. ويقدم لنا من خلال هذا الفصل شاهداً على عصره وكذلك وثيقة العلامة الحمادى فى فضح الشيعة وأصل الدعوة .. ثم يختتم هذا الفصل أو بالأحرى هذا الكتاب بوقفتين. الوقفة الأولى : لماذا نعارض الخومينى وثورته ؟! والوقفة الثانية مع الإمام الغائب والمجتهد البصير وولاية الفقيه .

من الذى يحكم المسلمين ؟ ! :

رغم أن الكتاب الذى بين أيدينا قد ألفه أستاذنا الدكتور النمر من أجل لقاء ضوء مبهر على محاولات الشيعة عبر عصور التاريخ لهدم الكعبة باعتبارها رمز المسلمين فى كل بقاع الأرض .. إلا أنه وكمدخل لهذا الموضوع يحدثنا عن بعض فرق الشيعة وللأمانة يقول « أرى من الضرورى ألا أتركك تعتمد على ما ذكرته فى كتابى السابق عن الشيعة ، فربما لم تطلع عليه ، ولذا وجدت من حقك على أن أقدم لحديثى عن الشيعة القرامطة بمقدمة موجزة عن نشأة الشيعة وفرقها التى تكونت فى ظلها !!

ويهدف من ذلك ، ـــ كما يقول ـــ إلى أن يكون الحديث موصولاً .. والحقيقة أن فضيلة الدكتور النمر وضع أيدينا على مدخل هام ومشوق لحديثه هذا .. إذ اختار موضوع الحكم كى يلقى عليه الضوء كأول وأقوى سبب فى الخلافات الحادة التى فرقت شمل المسلمين .

ونجده من أجل ذلك يتساءل : من الذى يحكم المسلمين خاصة بعد وفاة الرسول الكريم مباشرة ؟!

والمؤلف يغوص بنا هنا فى قلب التاريخ الإسلامى ويقودنا من أيدينا حيث بداية الخلاف على من سيخلف رسول الله ﷺ فى حكم المسلمين من بعده !!

ويشير إلى أن هذا الخلاف بدأ هيناً حيث لم يتعد الخلاف فى الرأى ووجهات النظر بين الأنصار والمهاجرين ، وسرعان ما حسم حين اختار المسلمون أبا بكر الصديق ليخلف رسول الله فى حكم المسلمين نزولاً على رغبة الشورى التى أمر بها القرآن الكريم وعلى رغبة الرسول حينئذ أعلن الجميع رأيهم بصوت عال « لقد ارتضيناك لأمر ديننا ـــ وهو الصلاة ـــ أفلا نرضاك لأمر دنيانا » .

ويشير المؤلف إلى هذه الواقعة قائلاً : «وكان توفيقاً كبيراً من الله أن اختاروا الحاكم وقلوبهم لا تزال ترتجف من وفاة الرسول ﷺ ومن الفراغ العظيم الذى تركه دنيا ودينا» ..

ولم يكن أمر المسلمين قد حسم عند هذا الحد .. بل ــ كما يقول الدكتور النمر ــ إن الموقف لم يسلم من رغبات أخرى هامسة ، فقد كان على رضى الله عنه وزوجته فاطمة يتوقعان أن يختاره المسلمون خليفة من بعد الرسول الكريم لصلة القربى بينهما ، ولبلائه العظيم مع الرسول وتضحياته الجسيمة . ولا شك أن إبعاد سيدنا على رضى الله عنه عن الاختيار كان له رد فعل على سيدنا على وزوجته وأقرب الناس إليه إذ كانوا يتوقعون هذا الاختيار ، عندئذ قعد سيدنا على فى بيته والناس تبايع أبا بكر زمنا وكان ذلك مقلقاً ولافتاً للأنظار .. إلا أن عليًا كرم الله وجهه لم يلبث أن أذعن لاختيار الشورى وبايع أبا بكر على الخلافة .

ويستعرض معنا المؤلف خطوات اختيار الخليفة بعد رحيل أبى بكر الصديق حيث أجمع المسلمون بعد الوفاة على اختيار عمر بن الخطاب الذى أشار قبيل وفاته إلى اختيار واحد من الستة الكبار ليكون منهم خليفة على أساس العمل بالكتاب والسنة ورأى الشيخين عمر وأبى بكر .. الأمر الذى لم يذعن له على رضى الله عنه ، فاختير عثمان بن عفان خليفة بدلاً منه ، ثم آل الأمر أخيراً إلى على رضى عنه بعد الأحداث الدامية ومقتل الخليفة عثمان بن عفان فى المدينة على يد الثوار المسلمين ، واتجهت جميع الأنظار إلى على رضى الله عنه وطالبوه بأن يتولى الحكم فى هذه الظروف فقبل .. إلا أن هذا القبول لاقى الرفض من جانب السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ثم من معاوية .. الأمر الذى انتهى به إلى أن قتل عقب موقعة صفين ، فتجمع أهل الكوفة والعراق حول ابنه الكبير الحسن رضى الله عنه ، وتجمعت بلاد أخرى مع معاوية مما أذن ــ على حد قول المؤلف ــ بحرب ضروس ، ورأى الحسن أن يحسمها فتنازل لمعاوية عن الخلافة ، وانتظر المسلمون أن تئول هذه الخلافة إلى سيدنا الحسين بعد وفاة معاوية .. ولكن خاب الظن حيث انتقلت الخلافة إلى يزيد ابنه الذى أخذ البيعة من المسلمين ، فثار أهل الكوفة والعراق من جديد ودعوا الحسين رضى الله عنه كى يخرج من مكة ليبايعوه خليفة .. ورغم النصائح التى أسديت إليه بألا يخرج من مكة حيث الضرر والمكيدة اللذان يتصف بهما أهل الكوفة . وهكذا خرج إلى المعركة رغم هذه التحذيرات ، ولم يتركه يزيد يظفر وتكرر معه الموقف المتخاذل من أهل الكوفة ، فكانت النهاية أن قتل الحسين وحمل رأسه ليزيد فى دمشق !!

من هنا ظهر مذهب الشيعة :

وكانت هذه الحادثة الفظيعة بمثابة الفتيل الذى فجر النفوس على الأمويين غضباً وسخطاً كما ملأها عطفاً على آل البيت لاسيما أولاد السيدة فاطمة ، وأيضاً كما كان مقتل الحسين ــ على حد قول المؤلف ــ هو الفتيل الذى أشعل النار فى قلوب المحبين له ــ كان صيداً ثميناً وفرصة للحاقدين على الإسلام لكى يهدموه ، متسترين بحب الحسين وآل البيت لا سيما من الفرس الذين يعتبرونه صهرهم بتزوجه من أميرة أسيرة فارسية .

ويؤكد المؤلف على مبدأ هام اكتشفه من خلال استعراضه لهذا التاريخ الطويل هذا المبدأ هو أن الاختلاف بين المسلمين بدأ سياسياً حول الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ وحسم سريعاً كما سبق أن ذكر لنا .. إلا أن هذا الخلاف السياسى بدأ يكبر.. وتحول إلى مجابهة بين المختلفين، وحين احتاج كل طرف إلى جذب جماهير المسلمين إليه بدءوا يستغلون الدين وينتحلون الأحاديث ويؤولون القرآن لصالحهم !!

حقيقة أخرى يؤكد عليها المؤلف أيضاً هى أن التشيع لعلى وأولاده كان رأياً سياسياً هادئاً يقوم على أنهم الأولى بالحكم مع الحفاظ على الإسلام فى جوهره وتعاليمه، ثم تحول على مر الزمان إلى خنجر فى قلب الإسلام لا سيما على يد الفرس !!

الادعاء الكاذب:

بعد أن بين لنا المؤلف كيف ارتبط المذهب الشيعى بالفكر السياسى عند الفرس.. كطريق يسلكونه من أجل طعن الإسلام.. يلقى الضوء كذلك على أحد ادعاءات هؤلاء الشيعة حيث يرون أن قيام أمام يرعى شئون المسلمين الدينية والدنيوية ركن من أركان الإسلام كالصلاة والصوم .. ومن لا يؤمن بذلك لا يكون مؤمناً. وما دام قيام الأمام ركناً سادساً من أركان الدين فكان لابد من النص عليه .. وقد نص الرسول ﷺ فى رأيهم على هذا وعين من يكون الإمام وهو على وبنوه من بعده !! يحكمون العالم الإسلامى حتى تقوم الساعة !!

ويرد أستاذنا الشيخ الفاضل على هذه المقولة الكاذبة بأن مبدأ الشورى فى الإسلام يجب على المسلمين استعماله فى كل نواحى حياتهم، وقد رأوا رسول الله قائدهم وقدوتهم يتخذه أساس الحياة، ولا يعقل والحالة هذه أن يناقض الرسول ﷺ نفسه ويفرض على المسلمين الحاكم الذى يلى أمورهم من بعده، ليس هو فحسب ولكن أيضاً ذريته.. حيث يفرضهم فرضاً على المسلمين حتى ولو كانوا صفاداً ليحكموهم إلى يوم القيامة!

الشيعة أنواع:

لقد وضع الشيعة لائمتهم سلسلة تبدأ بالأمام على رضى الله عنه، ثم تسير هكذا: الحسن فالحسين، فعلى زين العابدين، فحمد الباقر، فجعفر الصادق، وبعد جعفر الصادق انقسمت الشيعة إلى فرقتين، فرقة الإسماعيلية وفرقة الموسوية الكاظمية.. والأولى نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والثانية نسبة إلى ابنه الآخر موسى الكاظم !! وقد أصبح للإسماعيلية أئمة متسلسلون ومذهب وأفكار وتعاليم خاصة بها غير الأفكار المشتركة بينهم جميعا، كما أصبح للموسوية مذهب وأئمة مختصون بهم منافسون للإسماعيلية، وقد أطلق على الصنف الثانى من الشيعة، الشيعة الإثنا عشرية.. ويشهد التاريخ أنه لم يقم لها دولة إلا بعد أن جاء الخومينى

للحكم ، فدولته أول دولة فى تاريخ الشيعة الاثنى عشرية !! ولذلك فهو يحاول ــ ولا يزال ــ استثارة أتباعه للحفاظ على هذه الدولة وجذب أتباع جدد لها ، وقد أعلن عن ذلك منذ أن جاء إلى الحكم وهو ما أطلق عليه « تصدير الثورة » إلى البلاد العربية لقلب نظم الحكم فيها لإقامة حكم كحكم الخوميني !!

وبجانب هذين الصنفين هناك فرقة ثالثة هى فرقة الزيدية التى ظهرت من قبل. وهى تنتسب إلى الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه.

دولة القرامطة والاعتداء على البيت الحرام:

ونصل مع المؤلف إلى صلب الموضوع الذى من أجله ألف هذا الكتاب.. وأقصد به محاولات الاعتداء الآثمة والمتكررة من جانب الشيعة على البيت الحرام.. سواء فى التاريخ القديم أو الحديث. ويسبق حديثه عن ذكر هذه المحاولات بتعريفنا بدولة القرامطة أو بدولة الإسماعيلية ، تلك الدولة التى قامت فى البحرين وشرق الجزيرة العربية .. وعرفت باسم دولة القرامطة .. ويغوص بنا المؤلف فى قلب التاريخ كى يبصرنا بأصل هذه الدولة وأصل تسميتها وعن ذلك يقول : « وإذا كان المؤرخون ولاسيما من أهل السنة قد أطلقوا اسم « **القرامطة** » على إسماعيلية الشرق ، وحكوا أخبارهم تحت هذا الاسم واتفقوا واستقروا على هذا ، فإن سبب تسميتهم لهم بهذا الاسم قد اختلف فيه المؤرخون .. منهم ومن غيرهم ».

والحقيقة أنه لايعنينا من تسميتهم شىء بقدر ماتعنينا تلك المحاولات الدنيئة التى كانوا يهدفون من ورائها إلى الاعتداء على البيت الحرام وخلع الحجر الأسود عام ٣١٧هـ ، حيث حاول هؤلاء الشيعة تحت قيادة زعيمهم « أبو طاهر سليمان الجنابى » فى موسم الحج الاعتداء على المسلمين ، حيث قتل آلاف الحجاج داخل الحرم وردم بجثثهم بئر زمزم ، ودفن الباقين تحت أرض الحرم ، بل أكثر من ذلك عمدوا بعد هذه المذبحة إلى نزع الحجر الأسود وكسوة الكعبة وبابها .. وتم نقل ذلك إلى مملكة القرامطة فى الشرق العربى حيث يقيمون كعبة لهم هناك !! وتقول بعض المصادر التاريخية : إن عدد القتلى من الحجاج فى مكة خلال هذا الاعتداء ثلاثون ألف حاج ، ولكن بعض المصادر الأخرى تقول إن عددهم بلغ مائة ألف مسلم حاج !!

الخوميني والحرم .. وهل أعاد التاريخ نفسه ؟! :

وببراعة الباحث والمؤلف عالم الدين الفاضل .. يحاول الدكتور النمر بأسلوب سهل أن يربط بين الحادثتين .. رغم مرور أكثر من ألف عام على الحادثة الأولى !! فهو يقول : ولقد كان من تصرف الأقدار ، أننى ــ وأنا أكتب هذا « يقصد هذا الكتاب » فى السابع من ذى الحجة عام ١٤٠٧هـ وصورة هذا الماضى مزعجة لى ــ أفاجأ وأصدم بأخبار مشابهة مزعجة ومحزنة ، مما فعله

الحجاج الشيعة الإيرانيون وعددهم نقلاً عن المصادر الرسمية السعودية ١٥٧ ألف حاج من عبث وفوضى وانتهاك لحرمة البيت الحرام».

والشيء الغريب الذى يشير إليه المؤلف أن هذه الأحداث قد وقعت فى عصر يوم جمعة وقبل يومين من الوقوف بعرفات تقريباً.. أى فى نفس ميعاد القرامطة سنة ٣١٧هـ!!

ويشير المؤلف كذلك إلى مجمل عدد القتلى والجرحى الذين أصيبوا فى هذه الأحداث حين يقول: «وكان من الضرورى على السلطة فى السعودية أن تحترم نفسها وتحترم قبل ذلك وبعده واجباتها نحو الحجاج، فتصدت لهم قوات الأمن لمنع المظاهرات، فانطلقوا يحرقون السيارات ويعبثون بالحجاج ويخرجون ما يستطيعون تخريبه، وأمام تصدى الشرطة لهم اندفعوا نحو الخلف بجموعهم الكثيفة.. وكانت النتيجة ـ كما تقول المصادر السعودية الرسمية ـ مصرع حوالى ٤٠٢ من الحجاج ومن أهل البلد، منهم ٢٧٥ إيرانياً وإصابة ٣٠٣ منهم من جملة ٦٤٩ من جنسيات مختلفة» !!

أما المصادر الايرانية فتقدر القتلى والجرحى بأكثر من ذلك، حيث تقول إن القتلى منهم بلغ نحو الستمائة والمصابين ١٥٠٠ من الإيرانيين. ورغم ادعاءات إيران الكاذبة بأن السعودية ورجال الأمن بها هم الذين بدءوا بالتحرش بالحجاج الإيرانيين إلا أن هناك من الدلائل القوية التى تشير إلى عكس هذا الادعاء..

ولكى تكتمل الصورة:

واستكمالاً للسياحة التاريخية الهامة التى بدأناها مع مؤلفنا الدكتور النمر يريد أن يستكمل صورة هذا الماضى البعيد والحاضر الذى نعيشه من خلال الأحداث المؤسفة التى شهدها بيت الله الحرام.. فهو يقول: «إنه إضافة لملامح الصورة بين الماضى والحاضر، صورة ما فعله القرامطة منذ ألف ومائة عام وما يفعله الخومينى الآن فى الحرم أو بالحرم، مبرراً ذلك بتأويل بعض الآيات من القرآن، إضافة إلى هذه الملامح التى تربط بين التاريخ وبين هذين العملين، أحب أن أضع أمامك هذه المعلومة من التاريخ».

تلك المعلومة ترتبط باستنكار بقية حكام المسلمين فى ذلك الوقت لما قام به حاكم دولة القرامطة من اعتداء آثم على الكعبة.. حيث ارتاع من هذه الفعلة الشنعاء الخليفة العباسى المقتدر فكتب إلى حاكم القرامطة كتاباً يحمل هذا المعنى.. يتضح من سياق التاريخ كذلك أن هؤلاء القرامطة كانوا يهدفون من وراء خلع الحجر الأسود لتعطيل شعيرة الحج التى تتم على طريقة أهل السنة.. انتظاراً لما أسموه بالمهدى المنتظر!! ولعل هذا الهدف أشبه بما جاء فى خطة الخومينى للحجاج قبل ذهابهم إلى مكة والتى بدأها بقوله: «وسننهى هيمنة وظلم

الطامعين من خلال ثورتنا، وسنمهد الطريق بإذن الله أمام ظهور صاحب الزمان. ويقصد به المهدى الذى ينتظرونه !!

من خلال الفصل الثالث لهذا الكتاب يواصل المؤلف حديثه بتفصيل أكثر عن دولة القرامطة من حيث الفرق الثلاث التى ظهرت تابعة لهم، ودور كل فرقة منهم.. أيضاً يطلعنا على الكيفية التى كانت عليها مجتمعاتهم، وكيف كانت تسير فيها الأمور ومدى صلتها بالإسلام وذلك من خلال بعض الرحالة والمؤرخين.

لماذا نعارض ثورة الخومينى:

يقول المؤلف: إنه بعد هذه الجولة يجب أن نقف من خلال هذا الكتاب وقفتين الأولى متعلقة بسؤال عن موقفنا المعارض للخومينى وثورته وهل نحن نعارضه لأنه شيعى المذهب أو لماذا ؟! أما الوقفة الثانية فهى تتعلق أساساً بالإمام الغائب والمجتهد البصير وولاية الفقيه !!

أما عن الوقفة الأولى والمتعلقة بسؤال علاقاتنا بالثورة الإيرانية فيقول المؤلف: لقد مرت قرون عديدة ونحن نعرف أن هناك مذهباً شيعياً غير مذهبنا، وأن شعب إيران يدين به.. وعشنا معهم فى سلام، وكنا نتحاشى أن نثير معهم أى نقاش حول مذهبهم يعكر صفو حياتنا وصداقاتنا.. بل كنا نسعى إلى التقريب.. ولما انتصر الخومينى فى ثورته مع الشاه فرحنا به، وهنأناه وهنأته دول أخرى رسمياً وشعبياً، وكان يتردد فى النفوس أنه زعيم إسلامى نجح فى ثورته من أجل مصلحة شعبه. وصار بذلك ممثلاً للآمال التى تراود المسلمين فى العودة إلى أصولنا الإسلامية.. ولكن الخومينى من ناحيته لم يكن على مستوى الآمال فيه ولاسيما وقد تقمص رجل الإسلام.. وسلك مع شعبه سلوك المنتصرين فى الانتقام من خصومه الذين كانوا حول الشاه وأعدم الآلاف منهم ولم يكن فى حسبانه إسلام ولا قيم !! ثم كانت صلته بالدول الإسلامية التى رحبت به تمثل الفجيعة الإسلامية فيه. حيث لم يتصرف على مستوى نظرة المسلمين إليه بدون الخلاف على المذاهب.. بل تصرف ونظر إليهم كرجل مذهبى يمتلىء قلبه بالغيظ والحقد على كل المسلمين ممن ليسوا من مذهبه !! كما بدأ من أول أيامه فى تصدير ثورته إلى بقية البلاد الإسلامية لتحريض المسلمين فيها على الثورة وتسليم الحكم إلى الخومينى !! أن كل هذا وكثيراً غيره يجعلنا نعارض الخومينى، بل ويجعلنا نحاربه ما استطعنا، إحساساً بالواجب علينا نحو وطننا وحريتنا وبالواجب علينا نحو ديننا والقرآن الكريم.

أما الوقفة الثانية فتتناول الحديث فيها عن النظرية التى ابتدعها الخومينى وسماها «ولاية الفقيه» وانخدع بها كثير من المسلمين من بعض أصحاب المذهب السنى، دون أن يعرفوا أصولها ومبعثها وآثارها !!

الزكاة .. الضمان الاجتماعي والإسلامي(١)

خمس ساعات تقريباً .. هى كل الرحلة التى قضيتها وصاحبت خلالها هذا الكتاب .. قارئاً ومستمتعاً بما سطره مؤلفنا المستشار عثمان حسين عبدالله. ومن بعدها .. كم هائل من الإحساس الطيب والفرحة التى ملأت القلب قبل العقل لوجود أمثال هذا العالم المستنير وزملائه الذين ينتهزون الفرصة تلو الأخرى من أجل تقديم كل ما هو نافع ومفيد فى مجالات ديننا ودنيانا، على طريق الاجتهاد أو الإضافة، خاصة فى مجال التشريع الإسلامى.

ولك أن تقدر عزيزى القارىء الجهد والعرق اللذين بذلا لإخراج هذا الكتاب الهام بالصورة التى بين يديك حتى يصل كل مافيه من مواد ومعلومات تقرب إلى قلوبنا وأذهاننا بأسلوب عصرى سهل ـ فريضة هامة من فرائض الدين الإسلامى الحنيف .. ونقصد بها فريضة الزكاة، وكيف استعان مؤلفنا بالعديد من المصادر الأجنبية والعربية حتى ينقل إلينا هذه الفريضة من مجال الكلام إلى مجال التطبيق كوسيلة هامة من وسائل الضمان الاجتماعى الإسلامى.

وهو يهدف من وراء كل ذلك فى النهاية إلى وضع تلك الفريضة التى تمثل الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة على طريق التطبيق السليم مستخدماً القانون والتشريع؛ حتى تؤدى دورها فى حل مشكلات الفقر والحرمان والظلم الاجتماعى الذى يعانى منه أغلب المجتمعات الإسلامية .. وعلى حد قول الكاتب وحتى يكون

---

(١) الزكاة ـ الضمان الاجتماعى الإسلامى ـ المستشار عثمان حسين عبدالله ـ نشر بالوفد بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٨٩.

هذا القانون صالحاً ومقبولاً.. لابد أن نحسن اختيار أحكامه من الفقه الإسلامي القديم والمعاصر، ونحكم صياغته، وأن تواكب إصداره وتنفيذه توعية حكيمة، وأن يوسد أمر تفسيره وتطبيقه إلى رجال من ذوى العلم والدين والخبرة وسعة الأفق.

هذا الكتاب.. وهذا المؤلف:

وفى سبيل إيجاد أرضية مشتركة بين قارىء هذه الصفحة وقارىء الكتاب.. وبين مؤلفه.. أردت أن أنقل وبصورة دقيقة وصفاً للكتاب الذى نستضيفه هذا الأسبوع ثم نتبعه بقول حسن على المؤلف والكاتب المستشار عثمان عبدالله.

يقول الغلاف الأخير للكتاب، هذا الكتاب يعرض فقه الزكاة بأسلوب معاصر لا يجافى مصادر التشريع، فيؤصل أحكام التمويل فى نظام الزكاة وأحكام المنافع والخدمات الزكوية، ويطرح قضية التشريع الذى يوجب الزكاة وأهمية إصداره وضرورته وجدواه، ويقدم «عينة» محددة الأبعاد واضحة المعالم لتطبيق الشريعة الإسلامية، فى الجانب الاجتماعى والاقتصادى تحقيقاً لآمال الجماهير فى دول العروبة والإسلام، ويعقد مقارنة علمية بين نظام الزكاة وأنظمة التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى الحديث من حيث غاياتها وأهدافها وتاريخها وأصولها، ويبرز من حلال ذلك عناصر أفضلية نظام الزكاة الإسلامى وتفرده وتميزه، بوصفه نظاماً لتحقيق عدالة التوزيع وكفالة الضمان الاجتماعى، ثم يخلص من الدراسة المقارنة والاستئناس بالمحالاوت السابقة فى مصر وسائر الأقطار العربية إلى صياغة مشروع قانون بشأن الزكاة. ومن ثم يعتبر هذا الكتاب بمثابة الكتاب الضرورى للمسلمين عامة ولسائر المواطنين وهو بصفة خاصة كتاب للمثقفين فى الدول العربية والإسلامية ولرجال القانون والمشرعين.

والمؤلف: المستشار ــ عثمان حسين عبدالله ــ هو عضو مجلس الدولة المصرى «سابقاً».. نائب رئيس محكمة النقض المصرية «سابقاً».. ومستشار التشريع والفتوى فى مصر ومدير التشريع فى ليبيا لعدة سنوات وهو أحد واضعى أنظمة الزكاة وتشريعات الضمان الاجتماعى فى ليبيا خلال السبعينيات والثمانينيات، وقد صدرت بهذا الشأن موسوعة تشريعية ضخمة باللغتين العربية والإنجليزية ــ ثم مستشار الضمان الاجتماعى بليبيا «سابقاً» ــ وهو الآن خبير قانونى لشئون الضمان الاجتماعى لدى منظمة العمل الدولية.

ماذا يقول الفهرس:

وباستعراض عام لمحتويات الكتاب سوف نضع أيدينا على الأهمية القصوى له .. وسنفسح المجال أكثر أمام القراء ليعيشوا معنا فصوله وأبوابه .. لأنه لن يتسنى لنا ــ حسب المساحة المتاحة ــ أن نقدم كل مواده .. بل سيكون لنا ولكم حسن الاختيار خاصة فى مجال مواد القانون المقترح .. مصحوباً ببعض الفصول التى تقدم لهذه المواد. والكتاب من الفهرس يتكون من خمسة أبواب كل منها يحمل عنواناً رئيسياً يدور حول وجوب إصدار قانون بشأن الزكاة .. وإيرادات المؤسسة العامة للزكاة المعروفة ببيت مال الزكاة، ثم مصارف الزكاة بمعنى منافع الضمان الاجتماعى الإسلامى سواء من ناحية الأحكام العامة بشأن مصارف هذه الفريضة أو الشرعية التى ينطبق عليها أحكام هذه المصارف كالفقراء والمساكين بجانب مصادر الزكاة وآثارها ومنافع الضمان للأقليات غير الإسلامية، أما الباب الرابع فيحمل عنوانه الفرعى الزكاة والأنظمة الحديثة للتأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى من حيث تعريف تلك الأنظمة وطبيعتها والمقارنة من حيث الشمول والأعباء ومن حيث عدالة التوزيع والأحكام الانتقالية، ويهل علينا الباب الخامس وهو يقترب بنا كثيراً من مشروع القانون. الذى هو صلب موضوع هذا الكتاب .. ويظهر ذلك من عنوانه الفرعى الذى يقول: تقنين أحكام الزكاة سواء فى مصر أو فى بعض الدول العربية كالسعودية وليبيا والسودان والكويت، ثم مشروع القانون المقترح بشأن فريضة الزكاة.

وفى آخر الفهرس نلاحظ وجود عنوان رئيسى يقول «مشروع القانون المقترح» ويتضمن الحديث عنه خمسة أبواب أحدها يحمل عنوان شروط وجوب الزكاة والأموال الواجبة فيها ثم مصارف الزكاة ثم المؤسسة العامة للزكاة ووجوب إجراءات هذه الفريضة وكيفية جبايتها، ثم نأتى إلى الأحكام العامة التى يختتم بها المؤلف كتابه هذا.

من أين نبدأ؟ والاختيار صعب:

أريتكم منذ لحظات ومن خلال تتبعنا لما جاء فى الفهرس، أن الكتاب ضخم وموضوعاته متنوعة وهامة .. وتدور فى فلك واحد هو الطريق نحو إصدار التشريع الإسلامى الخاص بفريضة الزكاة والذى عن طريقه يمكن إنزال هذه الفريضة من السماء إلى الأرض ولتجد طريقها نحو التطبيق السليم لتحقيق المساواة والعدل الاجتماعى فى كل البلدان الإسلامية؛ لذا سيكون أمامنا أن نختار مانقدمه فى تلك المساحة أمامنا أن نختار مانقدمه فى تلك المساحة المتاحة ويكون هذا الاختيار من المؤكد صعباً، ولكننى آثرت أن أتحمل عبء هذا الاختيار وحدى وأدعو الله التوفيق، وسوف نركز ــ كما ذكرت آنفاً ــ على نصوص المشروع .. مع القاء بعض الأضواء على ما يخدم الحديث عنه.

شكر وتنويه :

وقبل الاسترسال فى الحديث عن المضمون القيم والهام لهذا الكتاب أود أن أشير إلى ذلك الملخص الوافى الذى كتبه لنا مؤلفنا المستشار عثمان حسين عبدالله.. وأرفقه مشكوراً بكتابه الذى بين أيدينا.. وبالرجوع إلى ما كتبه المؤلف وجدت أنه من الإنصاف أن أستعين به فى هذا العرض.. ولسوف أنقل لكم الكثير والكثير مما كتبه مؤلفنا فى الملخص الذى بعث به مرفقاً بالكتاب.

هذه الأسباب لابد من صدور القانون :

شرع الله «الزكاة» وقاية للمجتمع من غوائل الظلم وتنظيماً للضمان على نحو يستند إلى العقيدة ووفقاً للطريقة التى أوحاها إلى نبيه والتى علمها النبى الكريم لأمته. وهذه الطريقة هى إنشاء بيت مال للزكاة أو صندوق عام لها، يموله المسلمون تمويلاً عاماً شاملاً جبرياً، مع التزام أحكام الشريعة فيمن تجب عليه الزكاة، والأموال التى تجب فيها، وأما الإنفاق من هذا الصندوق العام فيكون فى أوجه الصرف التى شرعها الله ووفقاً للشروط التى بينها رسولنا الكريم، وعلى الرغم من أن أحكام الدين توجب إيتاء الزكاة وقيام الدولة على شئونها، وأن نصوص الدستور المصرى تؤسس المجتمع على مبادىء الدين وقيمه، وتجعل الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع وأن الفئات ذات الحاجة تزداد حاجة وحرمانا وتزداد عدداً فى حين يزداد الأغنياء غنى وقوة وترفاً.. والذين أوجب القرآن فى أموالهم حقاً للضعفاء والمحرومين، ينسون هذا الحق أو ينكرونه.. وقد يؤدى بعضهم بعض ما يستحق عليه من زكاة وكأنها صدقة اختيارية، وميزانية الضمان الاجتماعى فى الدولة وحصيلة الزكاة فى بنك ناصر وفى المصارف الإسلامية ضئيلة جداً، على الرغم من ذلك كله ومن قيام المقتضى لإيجاب الزكاة من أكثر من جهة وتخلف المانع، فما زالت الزكاة فى مصر وفى كثير من الدول العربية والإسلامية كأنها فريضة غائبة أو صدقة اختيارية يتوقف إخراجها على الجود وتفتقر إلى الجماعية والتنظيم التشريعى وإلى الضبط والحساب فى الأداء والجباية وفى الاستحقاق والصرف.

لكل دولة ظروفها :

ومن أجل ذلك أيضاً يجب توجيه النصحية إلى المسئولين فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية والإسلامية، كما تصدر كل منها فى نطاقها وبالأسلوب الشرعى الذى يناسب ظروفها، قانوناً للزكاة يضع أحكاماً مختارة من الفقه الإسلامى بحيث يحسم الخلافات الفقهية الكثيرة بهذا الشأن ويحمل الناس على حلول شرعية ملائمة وينشىء فى كل قطر، بيت مال للزكاة أو صندوقاً عاماً لها، مستقلاً يتخصص لخدمة شئون الزكاة جميعاً، فيقوم على التوعية والإرشاد وإعداد مشروعات الأنظمة التنفيذية والتفسيرية ويتولى جمع الزكاة جبرا إذا لم تؤد اختياراً ثم

ينظم الانفاق من حصيلة الزكاة فى مصارفها الشرعية وأولاها الفقراء، على ألا تختلط أموال هذا الصندوق بأموال الدولة وعلى أن يكفل التشريع ضوابط التنفيذ والانضباط فى الجباية والتحصيل والانضباط فى الصرف على أوجه الانفاق.

... وجاء دور أساتذة الجامعات فى الميدان الاقتصادى:

ويواصل كاتبنا المستشار عثمان حسين خواطره وتلخيصاته للكتاب فيقول: إن الباحثين فى شئون الاقتصاد وشئون الضمان الاجتماعى فى العالم الإسلامى، يجب أن يلحوا فى أبحاثهم على بيان كيف يحسم التشريع بأسلوب معاصر ومحدد، مشكلات الظلم الاجتماعى عن طريق الزكاة.. وأن اساتذة الجامعات الذين يعلمون الطلبة، الاقتصاد والسياسة والتأمين الاجتماعى، والضمان الاجتماعى والمالية العامة والقانون والشريعة الإسلامية والنظم الإسلامية ومقومات الحضارة الإسلامية وتاريخها ـ عليهم أن يفسحوا فى محاضراتهم وكتبهم ومناهج بحثهم مكاناً كافياً لأنظمة الزكاة يتلاءم مع أهميتها وشدة الحاجة إليها.

بين الزكاة وأنظمة التأمين الحديثة:

. بداية يتساءل المؤلف على هذا العرض السريع الذى حدثنا خلاله عن وجوب إصدار التشريع الخاص بتطبيق الزكاة بشكل جبرى.. يتساءل عن موقع الزكاة من الأنظمة الحديثة للتأمين والضمان الاجتماعى.. ولعلها فرصة لنا أن نعرف منه المزيد عن هذه المقارنة الهامة..
وعن ذلك يقول: يجب أن نقرر بداية أنه ليس حتمياً أن نقيس نظام الزكاة على واحد من هذه الأنظمة الحديثة، أو أن ندخله ضمن هذه القوالب والمصطلحات، وذلك لأن الزكاة نظام شرعى إسلامى، وأنظمة التأمين الأخرى وضعية وحديثة، كما أن الأنظمة الشرعية الإسلامية لا تستمد قيمتها العلمية وصلاحيتها للتطبيق من مقارنتها بالنظم الوضعية الحديثة، فذلك نهج غير علمى، لأنه يفترض أن هذه الأنظمة الأخيرة هى مقياس التقدم أو التخلف وأنها هى المثل الأعلى للنظم.. وكل هذه الأمور محل نظر أو محل شك أو رفض!! وإنما تقدر الشريعة الإسلامية بما استندت إليه من منطق، وما تبنته من قيم وما استهدفت تحقيقه من مصالح اجتماعية، وقد ثبت من الدراسة الموضوعية لها ومن استظهار نتائج تطبيقها حيث أتيح لها التطبيق فى الماضى والحاضر أنها تتوفر لها جميع العناصر الإيجابية للقيم.

وليس هذا فقط ما أشار إليه المؤلف تحت هذا العنوان، بل تناول فى هذا الباب الذى خصصه للحديث عن هذه المقارنة، مقارنة من الناحية التاريخية بين الزكاة وبقية الأنظمة الاجتماعية الأخرى، وكذلك طبيعة كل نظام وأهدافه ثم المقارنة من حيث مدى الشمول ومن حيث اعباء التمويل.. وأيضاً من حيث عدالة التوزيع.

قوانين الزكاة في بعض الدول:

• في مصر: لم يصدر بعد قانون يوجب جمع الزكاة جبراً وصرفها في مصارفها الشرعية، وما زال إيتاء الزكاة موكولاً إلى رغبة الفرد المسلم ومحض اختياره، وثم جهود تبذل للحض على ذلك وتنظيمه عن طريق بعض المصارف، كما أن هناك مشروعات قوانين أعدت ولكنها لم تصدر، منها مشروع القانون الذى اقترحه عضو مجلس النواب المصرى السيد إمام واكد فى عام ١٩٤٨، وتولى إعداده أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة والشيخ صالح بكير والشيخ الطيب النجار والشيخ منصور رجب، والمشروع الثانى كان عام ١٩٨٣ حيث أعدته لجنة الشئون المالية والاقتصادية المتفرعة عن لجنة تقنين أحكام الشريعة الإسلامية بمجلس الشعب.

• فى السعودية: اطلعنا على ما وصل إلى علمنا من مراسم وأوامر ولوائح متعلقة بالزكاة وصادرة فى المملكة العربية السعودية، وأولها اللائحة التنفيذية لفريضة الزكاة الصادرة فى ١٣٧٠/٨/٦ الموافق ١٩٥١/٥/١٣، وهى تقضى باستحقاق الزكاة على جميع الأفراد والشركات الذين يحملون الرعوية السعودية وذلك وفقاً لأحكام الشريعة.. وبعد أن كانت الزكاة تستوفى كاملة، تظلم المواطنون من أهل نجد والحجاز طالبين تخفيض الزكاة النقدية لتمكينهم من إعطائها للفقراء من أقاربهم، فأجيز لهم ذلك بمرسوم، ملكى فى عام ١٩٥٧م، ونظراً لأن الزكاة أصبحت تورد إلى صندوق مؤسسة الضمان الاجتماعى وتصرف على العجزة والأرامل والأيتام والمحتاجين فقد صدرت بعد ذلك عام ١٣٨٢هـ ــ ١٣٨٣هـ قرارات توجب جباية الزكاة كاملة من جميع الأفراد والشركات المساهمة وغيرها.

• فى ليبيا: أصدرت الجماهيرية الليبية قانون الزكاة رقم ٨٩ لسنة ١٩٧١ ويتضمن الأحكام الإسلامية للزكاة وإجراءات تحديدها وجبايتها والأحكام العامة والعقوبات، وقد أخذت أكثر أحكامه من مذهب الإمام مالك الذى يعتمد على إقرار المكلف إلا إذا قامت شبهات قوية بشأن ما يتضمنه الإقرار، وقد أوجب أن يكون للزكاة حساب مستقل تودع به الأموال التى تجبى منها ويصرف منه فى مصارفها.

• فى السودان: صدر قانون الزكاة والضرائب رقم ٣ لسنة ١٩٨٤، وقد ألزم الدولة بجباية الزكاة وتوزيعها على مصارفها، غير أننا لاحظنا أن ذلك القانون واجه بأحكامه الزكاة والضرائب، وفى فترة لاحقة تقرر تعديل قانون الزكاة والضرائب، ليصبح قانوناً للزكاة فحسب وأصبحت للضرائب قوانينها المستقلة، وبناء على ذلك أصدر المجلس العسكرى الانتقالى قانون الزكاة الجديد فى ٢٤ أبريل عام ١٩٨٦.

• في الكويت: يوجد قانون بشأن بيت الزكاة وهو القانون رقم ٥ لسنة ١٩٨٢ .. هذا البيت هيئة عامة لها شخصية اعتبارية وميزانية مستقلة، وإن كانت الزكاة لا تجبى وفقاً لأحكام هذا القانون جبراً وإنما تقدم طواعية .. بجانب ذلك هناك مشروع قانون بتقرير فريضة الزكاة على الشركات العامة فى الكويت.

مشروع القانون المقترح بشأن الزكاة:

نورد فيما يلى مشروع قانون نقترحه بشأن الزكاة، وهو صياغة مقترحة لنتائج البحث الوارد فى الأبواب السابق الحديث عنها، تلك الأبواب التى تشبه أن تكون مذكرة شارحة ومفصلة لهذا المشروع، وبداية نقول: إن مشروع القانون يحتوى على ست وتسعين مادة مقسمة على ثلاثة أبواب، الباب الأول منها عنوانه الأموال الواجبة فيها الزكاة وشروط وجوب الزكاة فيها، وعدد مواده أربع وعشرون مادة هى بالترتيب كالتالى:

مادة (١) الزكاة والتكافل الإسلامى ـ مادة (٢) المكلف بالزكاة ـ مادة (٣) الأموال الواجبة فيها الزكاة ـ مادة (٤) مايشترط فى المال ـ مادة (٥) الخصم للأعباء الشخصية والعائلية ـ مادة (٦) النصاب والحول ـ مادة (٧) قيمة النصاب ـ مادة (٨) الذهب والفضة والنقود ـ مادة (٩) الديون ـ مادة (١٠) الحلى ـ مادة (١١) أموال التجارة ـ مادة (١٢) الثروة الحيوانية ـ مادة (١٣) الإبل ـ مادة (١٤) البقر ـ مادة (١٥) الغنم ـ مادة (١٦) مايستخرج من الأرض ـ مادة (١٧) الزروع والثمار ـ مادة (١٨) الأعمال التجارية الأخرى ـ مادة (١٩) المصانع ـ مادة (٢٠) المنتجات الحيوانية ـ مادة (٢١) العمارات ـ مادة (٢٢) كسب العمل والمهن ـ مادة (٢٣) أموال الدولة والقطاع العام ـ مادة (٢٤) الزكاة والضرائب، أما الباب الثانى من مشروع القانون فعنوانه مصارف الزكاة ومواده تبلغ ثلاثين مادة مقسمة على ثلاثة فصول .. وبيان هذه المواد كالتالى:

• **أحكام عامة:** مادة (٢٥) المصارف الثمانية ـ مادة (٢٦) طريقة التوزيع ـ مادة (٢٧) الأولوية للفقراء ـ مادة (٢٨) حدود الميزانية ـ مادة (٢٩) أداء الزكاة ليس شرطاً للاستحقاق ـ مادة (٣٠) لوائح المنافع ـ مادة (٣١) تظلمات المستحقين ـ مادة (٣٢) الرقابة الشعبية والقضائية.

• **الفقراء والمساكين:** مادة (٣٣) شروط الاستحقاق ـ مادة (٣٤) ضوابط العجز وإثباته ـ مادة (٣٥) حد الكفاية لا حد الكفاف ـ مادة (٣٦) لوائح الاستحقاق للفقراء ـ مادة (٣٧) المعاشات والمساعدات ـ مادة (٣٨) الحد الأدنى للمعاشات ـ مادة (٣٩) لوازم الإنتاج ـ مادة (٤٠) القرض الحسن وإعانات الإنتاج ـ مادة (٤١) التعليم والتدريب ـ مادة (٤٢) توفير فرص

العمل ـــ مادة (٤٣) الرعاية الطبية ـــ مادة (٤٤) الرعاية الاجتماعية ـــ مادة (٤٥) الإسكان ـــ مادة (٤٦) منحة الزواج ـــ مادة (٤٧) إعانات وتعويضات ـــ مادة (٤٨) إعانة الدفن.

• **مصارف الزكاة الأخرى:** مادة (٤٩) العاملون عليها ـــ مادة (٥٠) المؤلفة قلوبهم ـــ مادة (٥١) فى الرقاب ـــ مادة (٥٢) الغارمون ـــ مادة (٥٣) فى سبيل الله ـــ مادة (٥٤) ابن السبيل.

والباب الثالث من مشروع القانون وعنوانه المؤسسة العامة للزكاة (بيت مال الزكاة) ومواده هى: مادة (٥٥) إنشاء المؤسسة ـــ مادة (٥٦) اختصاصات المؤسسة ـــ مادة (٥٧) ميزانية المؤسسة وخطتها ـــ مادة (٥٨) التنظيم الإدارى والمالى ـــ مادة (٥٩) الرقابة المالية والحسابية ـــ مادة (٦٠) هيئة الشورى ـــ مادة (٦١) موظفو المؤسسة ـــ مادة (٦٢) التعاون مع المؤسسة ـــ مادة (٦٣) منظمات الزكاة بالدول العربية والإسلامية.

أما الباب الرابع وعنوانه «إجراءات تحديد الزكاة وجبايتها» فمواده هى: مادة (٦٤) إقرار الزكاة ـــ مادة (٦٥) اعتماد الاقرار ـــ مادة (٦٦) مناقشة الإقرار ـــ مادة (٦٧) الاتفاق ـــ مادة (٦٨) حالة عدم الاتفاق ـــ مادة (٦٩) نتيجة التحريات ـــ مادة (٧٠) القائم على إدارة الأموال ـــ مادة (٧١) الأداء للمؤسسة ـــ مادة (٧٢) لجان التظلمات ـــ مادة (٧٣) عيناً أو نقداً ـــ مادة (٧٤) التحصيل جبراً ـــ مادة (٧٥) لدين الزكاة امتياز ـــ مادة (٧٦) التقادم ـــ مادة (٧٧) تلف الأموال ـــ مادة (٧٨) النزول والصلح ـــ مادة (٧٩) التصرف فى المال ـــ مادة (٨٠) الوفاة.

وأحكام الباب الخامس والأخير والذى عنوانه «أحكام عامة» تقول: مادة (٨١) الحبس فى دين الزكاة ـــ مادة (٨٢) عقاب مانع الزكاة ـــ مادة (٨٣) الدعوى العمومية ـــ مادة (٨٤) التأخر فى الإقرار ـــ مادة (٨٥) العقوبات الأشد ـــ مادة (٨٦) حق الاطلاع ـــ مادة (٨٧) اجراءات الشهر والتوثيق ـــ مادة (٨٨) مراعاة أسرار الوظيفة ـــ مادة (٨٩) صفة الضبط القضائى ـــ مادة (٩٠) الإعفاء من الضرائب والرسوم ـــ مادة (٩١) المواطنون غير المسلمين ـــ مادة (٩٢) الزكاة تحل على الضمان الحالى ـــ مادة (٩٣) التدرج فى التطبيق ـــ مادة (٩٤) المؤسسة ـــ مادة (٩٥) اللوائح ـــ مادة (٩٦) النشر والنفاذ.

حرية الرأى فى الإسلام(١)

الحرية بمفهومها الواسع .. قرأنا عنها كثيراً وتمنينا أن نمارسها بنفس المعنى والتطبيق المتبع فى الدول عريقة الحضارة والديمقراطية التى لانقل نحن عنها فى أى ناحية من نواحى العراقة والحضارة. نقط الفرق هنا يكمن فى الاستعداد .. استعداد الحاكم والمحكوم على السواء. وتاج تلك الحرية المنشودة إنما هو حرية الرأى، التى تعتبر فى قمة هرم التصنيف لأنواع الحريات التى يزين بها الإنسان نفسه ومجتمعه.

وأسمى معانى وجود الإنسان على الأرض أن يجد التربة الصالحة والجو الصالح الذى يمكنه من إبداء رأيه فى حرية كاملة دون خوف أو تدخل من آخرين .. ونظراً لقيمة هذه الحرية فى تطوير الإنسان نفسه فقد خصها الله ورسوله الكريم بالمزيد من الرعاية والإهتمام. وكم أسعدنا الحظ حينا حصلنا على آخر إصدارات الدكتور محمد يوسف مصطفى الأستاذ المساعد بجامعة أم القرى بالسعودية .. بقسم الإعلام الإسلامى، وهو كتاب ثمين خصه المؤلف لحديث هام وشيق عن تلك الحرية التى نتمناها جميعاً .. وأن كنا الآن ننعم ببعضها .. إن الكتاب يحمل عنواناً جذاباً، يجعل القارىء يسارع لإلتهام كل ما به من حديث طيب. إن العنوان يقول: «حرية الرأى فى الإسلام .. المضمون والحدود» فما أحوجنا إلى مثل هذه المؤلفات القيمة التى تثرى حياتنا وتعيد إلينا الأمل فى معرفة الناس بحقوقهم المستمدة من سماحة الإسلام الكريم. وفى مقدمة الكتاب يؤكد مؤلفنا على هذا المعنى بقوله: «لقد أقر الإسلام حق الفرد فى

(١) حرية الرأى فى الإسلام ـــ د. محمد يوسف مصطفى ـــ نشر بالوفد بتاريخ ٢٥ أكتوبر.

أن يكون له رأى يعلنه فى كل شىء حتى فى الدين الذى هو من عبد الله .. فلك أيها الإنسان مطلق الحرية فى أن ترى رأياً يجعلك فى زمرة المؤمنين أو عصابة الكافرين ، وكيف لا يكون لك هذا الحق وأنت متميز بالعقل .. إن عليك أن تقول ما تشاء وتعلن رأيك فيمن تريد .. وانقد من شئت حتى ولو كان الحاكم نفسه ما دمت ملتزماً .

إن ما سطره مؤلفنا الدكتور محمد يوسف مصطفى يعد صيحة عالية مدوية من أجل حرية الرأى إذ يقول وبصوت يسمعه كل العالمين «أى إجلال لحرية الرأى هذا الذى سنراه ؟ إن ابداء الرأى ليس حكراً على فئة دون أخرى : رجل عادى يتكلم والناس من حوله يستمعون وفيهم رسول الله ومعه القادة والسادة والزعماء ، وصاحب الزعامة يتكلم الكل يصغى إليه ، فقد علمهم رسولهم ألا يقطع أحد على أحد حديثه ، فالفرصة لابد وأن تعطى لكل إنسان كى يدلى برأيه فالتعامل هنا مع الإنسان لا مع حسبه ونسبه ووضعه الاجتماعى» .

الكتاب من الفهرس:

نبدأ رحلتنا هذا الأسبوع مع الكتاب من خلال استعراضنا لما جاء فى الفهرس.. فالكتاب يتكون من ستة فصول هى بالترتيب:

- الفصل الأول: اهتمام الإسلام بالعقل الإنسانى.
- الفصل الثانى: معنى حرية الرأى فى الإسلام.
- الفصل الثالث: الأسس النظرية لاهتمام الإسلام بحرية الرأى.
- الفصل الرابع: المظاهر العملية لاهتمام الإسلام بحرية الرأى.
- الفصل الخامس: الاجتهاد بالرأى كتطبيق على حرية الرأى.
- الفصل السادس: حدود حرية الرأى فى الإسلام.

العقل وقيمة التفكير كخطوة أولى للاختيار:

جاء الإسلام دينا يخاطب العقل.. عقل الإنسان، ولا يريد منه أن يصل إلى إيمان إلا بعد إعمال العقل والفكر.. قال تعالى: «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين». أى لو شاء الله لأنزل على الناس ما يضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكنه سبحانه وتعالى لا يفعل ذلك فهو لا يريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى.

والإنسان لا يمكنه الاختيار بين أمرين إلا إذا كان للعقل دخل فى ذلك فبالتفكير يصل الإنسان إلى تفضيل أحد أمرين على الآخر. من هنا كان مبدأ أنه لا قيمة للإيمان المكره، الإيمان الذى لا تفكير فيه، لقد كانت محاجة القرآن فى الدعوة محاجة عقلية، ولم يكن منطق القرآن فى الدعوة إلى الله تخويفاً وزجراً فحسب، وإنما كان حواراً مع الناس وإقناعاً عقلياً، كما كانت رسالة سيدنا محمد أبعد ما تكون عن اتخاذ وسيلة من وسائل الإلجاء إلى الإيمان بطريقة لا تعتمد على العقل المجرد، وقد استنكر القرآن موقف المعطلين لعقولهم والمقلدين لغيرهم.

الإسلام يحمى عقول الناس:

صان الإسلام العقول البشرية وحماها من أن تفكر بطريقة خاطئة استناداً إلى فهم خاطىء لحقائق؛ معينة ومن ثم فإنها قد تتشكل لها آراء خاطئة تكونت نتيجة هذه المعلومات غير الصحيحة. ولذلك كان رسولنا محمد يخاطب عقول الناس بالحقائق والبراهين والأدلة، فلا مكان لخرافة أو أسطورة، فهو لا يريد لمن يخاطبهم أن تتشكل أراؤهم وتبنى اتجاهاتهم على أساس من الخزعبلات أو الأوهام أو الأفكار الشاذة. وليس أدل على ذلك من موقفه يوم انكسفت الشمس فى اليوم الذى توفى فيه ابنه إبراهيم، فتحدث الناس بأنها انكسفت حزناً على إبراهيم فيسارع سيدنا محمد إلى تفنيد هذا الادعاء ودحضه قبل أن يتحول إلى أسطورة ويقف فى الناس خطيباً. إن محمداً أمين على عقول الناس وتفكيرهم، يصون العقل من الشطط فى التفكير أو الجنوح إلى الأوهام والخرافات، وها هو يرد الظواهر الطبيعية إلى قدرة الله وعظمته. وأنكر على الناس أن تكون الشمس قد حدث لها ما حدث من أجل ابنه إبراهيم أو غيره.

معنى حرية الرأى:

قال رسول الله ﷺ: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم».. وقال أيضاً: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».. تحدثنا فيا سبق عن اهتمام الإسلام بالعقل، وقلنا إن هذا الاهتمام بالعقل يمتد إلى الرأى الذى يصدر عن هذا العقل.. وقد احتفظ الإسلام للإنسان بحقه فى أن يكون له اختيار حتى فى مسائل الإيمان، فلا يكره إنسان أو يجبر على قبول الإسلام دينا، إنما هو يدعى إليه فقط، وبعد الدعوة له مطلق الحرية فى أن يتخذ الرأى الذى يراه فلا سلطان إلا للعقل ولا اعتماد إلا على البرهان.. وإذا كان الإسلام قد أقر حرية الإنسان فى أن يتخذ الرأى الذى يرضاه ليقوده إلى الدين فإن الامتداد الطبيعى لهذه الحرية والمؤكد لكرامة الإنسان يتمثل فى الحق الذى أقره الإسلام للإنسان فى إبداء الرأى تجاه كافة القضايا والأمور التى تفرض نفسها على ساحة المجتمع المسلم.

وكلمة الحرية لها رنينها. والناطق بها يجد على الدوام إصغاء فهو يتحدث عن أمر موجود فى طبع الإنسان فالناس على اختلاف أزمانهم وبيئاتهم ومجتمعاتهم وأوضاعهم ومراكزهم الاجتماعية غالباً ما يتشدقون باسم الحرية ويطالبون بها. إن الحرية مطلب إنسانى جميل، والحرية الإنسانية فى عرف الإسلام واحدة من أهم الضرورات، وليس فقط الحقوق اللازمة لتحقيق إنسانية الإنسان، بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الإسلام يرى فى الحرية الشىء الذى يحقق معنى الحياة للإنسان: فيها حياته الحقيقية وبفقدها يموت الإنسان حتى ولو عاش يأكل ويشرب ويسعى فى الأرض.. ولقد بلغ تقديس الإسلام للحرية الإنسانية أن جعل السبيل إلى إدراك وجود الذات

الإلهية هو العقل الإنساني. إن حرية الرأى فى الإسلام تعنى ألا نحجر على رأى يريد التعبير عن نفسه انطلاقاً من قاعدة أن الناس أحرار فى كل شىء فى حدود لا تضر بحرية الآخرين، والحرية فى الإسلام أيضاً لا تعنى الفوضى، فإذا كان يترتب عليها إضرار بالآخرين فإنها لا تجوز.

حقائق متعلقة بحرية الرأى:

نستطيع على ضوء كلام السادة العلماء أن نوضح العديد من الحقائق والأمور المتعلقة بحرية الرأى وفقاً للمنظور الإسلامى.

- حرية الرأى ليست من قوانين وضعية، وليست عطية من أحد.
- إن حرية الرأى ليست حقاً للمرء فقط بل هى واجبة عليه، فالإسلام يعطينى هذا الحق وفى نفس الوقت يحملنى واجباً هو أن أستغل هذا الحق ولا أعطله.
- طبقاً للقاعدة الإسلامية «لا ضرر ولا ضرار» فإن حرية الرأى فى الإسلام تدور فى إطار هذا المعنى، بحيث يكون الرأى ملتزماً بالمبادىء الإسلامية وبعيداً عن إلحاق الضرر بمصالح الآخرين.
- إن حرية الرأى مرتبطة بالمقدرة الثقافية والعلمية.
- على صاحب الرأى أن يراعى طريقة الإعلان عن رأيه الذى يتم به عرض فكرته.

هنا العديد من الأسس النظرية التى تبنى عليها حرية الرأى فى الإسلام والتى يؤيدها العديد من الشواهد التى جاء ذكرها فى القرآن والسنة النبوية ومن هذه الأسس:

١ــ الكشف عن المقومات الموضوعية للرأى، وهى تنقسم إلى مقومين: الأول يمثل المشكلة التى تفرض نفسها على فكر أعضاء الجماعة المسلمة، أما المقوم الثانى فهو المناقشة المحايدة لهذه الأمور أو القضايا أو التفاعل الاجتماعى للوصول إلى الرأى بصددها.

٢ــ تأمين المسلم على أمور قد تثنيه أو تمنعه عن إبداء الرأى.. فالرأى قد يكلف صاحبه كثيراً، وحتى لا يحرم المجتمع من هذا الرأى فإن الإسلام يعتبره من نماذج الجهاد الفريد المميز.. ولذلك أمن الإسلام المسلم على الأمور التى قد تخيفه وتحجب رأيه عن الآخرين.

٣ــ تشجيع الفرد على تقديم رأيه والجهر به: لقد اعترف الإسلام بحق الإنسان فى أن يفصح عن رأيه ويدلى بحجته ويجهر بالحق وقد كان رسول الكريم يبايع أصحابه على أن يجهروا بالحق وألا يخافوا فى الله لومة لائم.. كما أخبرنا النبى الكريم «أن الساكت عن الحق شيطان أخرس».

٤ـ حث الفرد على الاستقلالية فى الرأى.. إلى جانب تشجيع الفرد على تقديم رأيه؛ فإنه يدخل فى باب اهتمام الإسلام بحرية الرأى ودعوته للفرد أن يكون مستقل الرأى والإرادة.

٥ـ التمهيد لصدور رأى سليم من خلال تقديم المعلومات الصحيحة: إن الإسلام قد وضع قواعد وأخلاقيات عديدة فى مجال نقل الأخبار والمعلومات حتى يكمل لحرية الرأى معناها، بحيث تذهب حرية الرأى هذه إلى أبعد من إتاحة الفرصة لإبداء الرأى، أى التمهيد لصدور رأى سليم مبنى على معلومات وأخبار صادقة.

٦ـ الدور الذى كفله الإسلام للرأى.

٧ـ مقاومة الرأى المتطرف والوصاية عليه: لقد منح الإسلام رأى الفرد الحق فى الانطلاق والذيوع والانتشار، ولكن الإسلام عندما أعطى هذا الحق قيده بأن يكون لصالح المجتمع؛ ولذا فقد وقف الإسلام ضد رأى الفرد عندما كان يسعى لتحقيق مصلحة خاصة فيها الإضرار بالصالح العام.

إن الإسلام قد عنى جيداً بتكوين رأى عام كرقيب مهذب، يهذب من شذوذ الفرد ويحد من غلو الجماعة «وجعل مسئولية للفرد فى المجتمع الإسلامى عن الجماعة، ومسئولية للجماعة عن الفرد» وهذا التقابل بين الفرد والجماعة فى المسئولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية؛ إذ يتمثل هذا الأساس فى إيقاظ ضمير الفرد للجماعة وضمير الجماعة للفرد.

لايمكن بحال من الأحوال لمن يتناول حرية الرأى فى الإسلام أن يتغاضى عن قضية الاجتهاد، فالاجتهاد هو تطبيق عملى لحرية الرأى، وانطلاقا من هذه الحرية.. ظهرت مصادر أخرى للتشريع غير القرآن الكريم والسنة وهى الاجتهاد بالرأى.. وصلة الاجتهاد بحرية الرأى تجىء من أن المجتهد يرى الرأى بما أوتى من قدرة علمية وذكاء خاص، ثم يعرضه على الآخرين أو يدعو إليه بالوسائل الطبيعية.. والاجتهاد يعد من المظاهر العملية لاهتمام الإسلام بحرية الرأى.

عصر التساؤلات:

نحن نعيش فى عصر كثرت فيه التساؤلات، علامات استفهام بقيت كلها بلا جواب، وهى كلها تتصل بأحكام الإسلام وتعاليمه: ماذا يقول علماء الدين عن حكم الإسلام فى الفائدة التى تصرفها البنوك لرءوس الأموال المودعة بها؟ يلاحظ أن هذه القضية قد حسمها بيان المفتى

الذى صدر منذ شهر تقريباً الذى تناول فيه موقف الدين الإسلامى من فائدة شهادات الاستثمار.. وإن كانت هناك بعض الأصوات من علماء المسلمين المجتهدين قد ارتفعت لتعارض هذه الفتوى.. ومازال النقاش حاداً على الساحة الإسلامية حتى كتابة هذه الكلمات. وعن الزكاة زكاة الأموال كيف يؤديها المسلم المعاصر؟ ومسألة نقل الأعضاء وغير ذلك. ولا جدال فى أن الجيل المعاصر من المسلمين يواجه فى حياته اليومية مواقف وأسئلة لم يعرض كثير منها للأجيال السابقة من المسلمين.. لذا يواجه هذا الجيل الكثير من الحيرة والقلق، ولا غرابة فى ذلك؛ فالدنيا تتحرك وتتطور بسرعة حتى ليكاد أحدنا يصبح أحياناً على غير الذى نام عليه بالأمس!!

نحن فى ختام حديثنا عن حرية الرأى لا يفوتنا أن نطرح عدة تساؤلات تتعلق بحدود حرية الرأى فى الإسلام وضوابط هذه الحرية. هل للإنسان أن يندفع فى ميدان الحرية دون أن تكون هناك حدود يتوقف عندها؟ هل يعبر الإنسان عن رأيه بأية طريقة شاء مستخدماً أى مسلك يراه؟ وهل للإنسان بدعوى حرية الرأى أن يتدخل فيما لا يعنيه؟ هل يراعى الإنسان مصلحته فقط وهو يجهر برأيه دون أن ينظر إلى مصالح الآخرين؟! أيتكلم الإنسان بالرأى بعد أن يكتمل علمه بالقضية وأبعادها ذات الصلة بالرأى الذى سيدلى به أم يتكلم دون علم.. وإذا كان الاجتهاد بالرأى تطبيقاً عملياً لحرية الرأى، فهل يمكن لأى فرد أن يجتهد برأيه؟ وكيف يمكن للمجتهد أن يقدم رأيه الاجتهادى؟

الإجابة.. هى الحدود المطلوبة:

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تعطينا فكرة عن حدود حرية الرأى فى الإسلام وضوابطها، وتبين لنا المرافىء التى يجب أن يتوقف عندها الإنسان فلا يبحر ويتجاوزها فيغرق نفسه ومن معه. إن هناك حدوداً وضوابط للكلمة فى نظر الإسلام. باعتبارها أمانة، وعلى عاتق الناطق بها مسئولية كبرى تعبر عنها الآية القرآنية «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد». وقد أعلنها الرسول ﷺ وهو يجيب عن تساؤل معاذ بن جبل «أو مؤاخذون بما نقول يا رسول الله؟.. فرد الرسول الكريم: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟..» والمعنى فى ممارسة الحرية بغير حدود ولا ضوابط من شأنه أن يدفع بالبعض إلى الاعتداء على حقوق الآخرين وإلى تهديد أمن الأفراد وحرياتهم وحقوقهم.

ولنا عودة للحديث عن الاجتهاد ومواصفات المجتهدين ــ أو بمعنى آخر شروط من تتوافر فيهم القدرة على قول الاجتهاد، لأن الاجتهاد ــ كما سبق أن ذكرنا على لسان المؤلف ــ هو خير دليل عملى على حرية الرأى التى نرجوها جميعاً.. ونبدأ الحديث بسؤال الكاتب: من الذى

يجتهد ؟! .. وتحت هذا العنوان الفرعي أو هذا السؤال يقول الدكتور محمد يوسف مصطفى، لقد دعا الرسول الكريم إلى الاجتهاد وحض على ممارسته حتى لا تتصف شريعة الإسلام بالجمود وعدم القدرة على مسايرة العصر.. وقد ضرب لنا رسولنا المثل العملي في الاجتهاد، فاجتهد في أمور في وقت كان الوحي ينزل فيه، واجتهد أصحابه في حياته في أمور أقرهم عليها، وجاء خلفاؤه من بعده فاجتهدوا في قضايا وأمور كثيرة، وقد عرف كثير من التابعين الاجتهاد ونبغوا فيه.. ولكن نريد أن نعرف إجابة عن سؤال على درجة كبيرة من الأهمية: من ذا الذي يستطيع أن يمارس عملية الاجتهاد هذه.. ومن هذه الشروط ما هو متفق عليه ومنها ما هو مختلف عليه، وها هي الشروط المتفق عليها:

١ـ أن يكون المجتهد عارفاً بنصوص الكتاب المتعلقة بالأحكام ويستحسن أن يكون حافظاً لها.
٢ـ معرفة ما يحتاج إليه من السنة المتعلقة بالأحكام، وقد يسرت كتب الحديث هذا الأمر.
٣ـ معرفة مواقع الإجماع حتى لا يفتي المجتهد بخلافه؛ لأن خرق الإجماع غير جائز.
٤ـ معرفة القياس بشروطه وأقسامه وأركانه.
٥ـ معرفة ما يتوقف عليه من الدليل من مثل كيفية تركيب المقدمات وترتيبها.
٦ـ معرفة اللسان العربي وكل ما يتصل به من لغة ونحو وصرف وبلاغة، وكل ما يتوقف عليه فهم المراد من الكلام.
٧ـ معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة حتى لا يحكم بالمتروك.

ويأتي التركيز من خلال حديثنا عن الاجتهاد ومواصفاته وطرقه نظراً لحاجتنا الشديدة إليه.. لكثرة الأسئلة وقلة الإجابات وتوقف العلماء عن ممارسة هذا الحق الذي يعتبر شرعاً في قمة حرية الرأي في الإسلام.. لذا فبعد أن صحبنا المؤلف من خلال كتابه ليحدثنا عن مواصفات المجتهد.. يضع أيدينا وأرجلنا على طريق الاجتهاد.. ويبصرنا بوسائله وطرقه المتعددة والمختلفة.. ولسوف ينقله لنا وأنقله لكم بشكل موجز حتى تعم المعرفة المطلوبة.

يقول الكاتب: والاجتهاد إعمال للعقل والفكر، وله طرق متعددة، وهي كلها تحتاج إلى جهد عقلي وتفكير عميق وقدرة على الفهم والاستنتاج.. ولسوف نشير إلى هذه الطرق بشكل موجز على النحو التالي: الإجماع ـ القياس ـ الاستحسان ـ المصالح المرسلة ـ العرف ـ الاستصحاب ـ سد الذرائع.

أمثلة لاحترام حرية الرأي في التاريخ:

إذا انطلقنا بحثاً في تراثنا الإسلامي فهل نعثر على نماذج عملية تترجم نصوص القرآن، وأحاديث الرسول الكريم الداعية إلى حرية الرأي والفكر فيما أطلقنا عليه الأسس النظرية

لاهتمام الإسلام بحرية الرأى ـ تترجمها إلى واقع ملموس؟ هل يمكن أن نرى رأى العين حلقات نقاش ينبرى فيها الأفراد كل يدلى برأيه وفى النهاية يؤخذ أصح الآراء وأسلمها طريقه إلى التنفيذ؟.. وهل يمكن أن نجد القائد أو الحاكم، ومن بيده الأمر يأخذ برأى يخالف رأيه ما دام الرأى المطروح سليماً؟ إن المظاهر العملية لاهتمام الإسلام بحرية الرأى نجملها فى النقاط التالية:

- العمل برأى الحباب بين المنذر يوم بدر.
- آراء المسلمين تصوغ قرار بدر، ويمكن القول بأن عملية صياغة قرار الجماعة المسلمة بشأن هذه القضية تمت على النحو التالى والذى يجسد احترام حرية الرأى، إعلام المسلمين بمسألة تتعلق بهم ـ مطالبة المسلمين بعرض آرائهم تجاه القضية المثارة ـ إعطاء الفرصة لكافة الأطراف للتعبير عن آرائها ـ اتخاذ القرار.
- مشاورة الرسول وأصحابه بخصوص أسرى بدر.
- مشاورة النبى أصحابه فى غزوة أحد.
- تعديل سياسة وإقرار أخرى بناء على آراء قادة الرأى بالمدينة.
- موقف نقض بنى قريظة العهد مع النبى.

عشرة ألغام فى طريق الصحوة الإسلامية(١)

قلبى وقلمى.. مع الزميل حامد سليمان لأنه اقتحم ميداناً فكرياً صعباً.. سبق أن اقترب منه غيره من الكتاب، ولاقوا من العنت والنقد ما يفوق الوصف! والسبب فى ذلك فى رأيى الشخصى أننا أصبحنا نعيش عصراً أحسسنا فيه بوجود انفصالية وهوة عميقة بين الفكر الإسلامى وبين المشتغلين بهذا الفكر! بحيث أصبحنا وحالنا الآن قائم على أناس يخطبون فى المساجد وآخرين يدعون إلى إبعاد مثل هؤلاء من الحياة العلمية أو السياسية. وقد تكون لهذه الدعوة أصوال ومسببات، ولكل طرف مبررات تقوى موقفه.. وتجعله منتصراً على الآخر. هذا الذى نعانى منه الآن سوف يستمر ويستمر.. حتى يهيىء لنا الله أناساً يستطيعون أن يخوضوا فى مسائل الدين والدنيا معاً. لأن ديننا الحنيف.. الإسلام الصحيح هو ذلك الدين الذى ينظم كل شئون الحياة فى الدنيا وفى الآخرة. وهذا بالضبط ما يجعل مؤلفنا حامد سليمان يقدم هذه المبادرة من ناحية ليخرج الناس من عباءة الظلام.. وليفكروا معى من أجل عودة الصحوة الإسلامية النقية.. بعيداً عن شبح أى أنواع من التعصبات وبعيداً عن أى مؤثرات خارجية، أو ادعاءات تبطل كل الجهود الطيبة من أجل الاقتراب من الدين الإسلامى الصحيح. وحين تقابلنا أنا والمؤلف أفاض لى بأحلامه فى هذا الاتجاه وأعلن أن هذا الجهد المتواضع لا يقصد به سوى وجه الله تعالى. وأن يضع بداية أو خطوة أولى نحو فكر إسلامى جديد مجرد من أية أهواء. وهو لذلك بدأ الطريق بكتاب عظيم ـ صدر منذ لحظات بعنوان «ألغام فى

---

(١) ألغام فى طريق الصحوة الإسلامية تأليف ـ حامد سليمان ـ نشر بالوفد فى ٢٨ فبراير ١٩٩٠.

طريق الصحوة الإسلامية » وكفانى حديثاً عن المؤلف وعما يحتويه الكتاب فى عجالة لنفسح الطريق كى نقف مع المؤلف يداً واحدة كى تعود الصحوة الإسلامية ومجد وعظمة الإسلام الحنيف .

يقول المؤلف حامد سليمان فى إهدائه لهذه الكلمات الطيبة: إلى ملايين المسلمين وغير المسلمين.. إلى ملايين المثقفين وغير المثقفين الذين تاهوا فى حقل الأوهام والألغام التى حاول هذا الكتاب رصدها ونزعها. أما عن المقدمة فهى فى اعتقادى البداية الصحيحة نحو قراءة الكتاب وما يحويه من كلمات طيبة. ولسوف أنتقى لك منها عزيزى القارىء بعضاً من فقراتها.. والتى يقول فيها: «أوهام، وأوهام ظالمة، لا تملك وأنت تسمعها سوى أن تشعر بالأسف مرة عندما تكتشف أن هذه الملايين من المسلمين تحولت إلى معاول لهدم جوهر المفهوم الإسلامى الشامل والمتحضر. ثم تشعر بالأسف مرة أخرى عندما تتأكد أن هذه الملايين قد سقطت ضحية هذه الأوهام التى لغمت الشارع الإسلامى وأصبحت (شبه حقائق) مؤكدة فى الأذهان رغم بعدها الكبير عن حقيقة وجوهر الإسلام. وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة للتصدى لهذه الأوهام والحوار مع أصحابها وقادة فكرها على ضوء المفهوم الإسلامى المستنير الذى جاء به القرآن والرسول وأفتى به عشرات المجتهدين من القدامى والمعاصرين. وقد اخترت عشرة من الأوهام والمغالطات السائدة فى عقول الملايين فى الشارع الإسلامى السياسى وهى محاولة أرجو ألا تتوقف، فالأوهام والألغام التى بينها أعداء الحركة الإسلامية فى الشارع السياسى، كثيرة وخطيرة ومستمرة ولابد من استمرار نزعها من الأذهان ومن تحت الأقدام قبل أن تنفجر فى الشارع الإسلامى وتعرقل مسيرة الحركة الإسلامية المستنيرة، ولعل من أهم الأهداف التى دفعتنى إلى تأليف هذا الكتاب أن أساهم فى أن يعود كل المسلمين على قلب رجل واحد وفكر واحد وفهم واحد بعد سنوات الشتات الفكرى الذى أحدثته مؤامرات الغزو الفكرى للعالم الإسلامى.

محتويات الكتاب من الفهرس.. بعيداً عن الانفجار:

نظراً لضيق المساحة.. وكبر حجم الكتاب الذى بين أيدينا.. حيث يبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير. سوف نستعرض محتويات الفهرس لنقف معاً على أنواع هذه الألغام التى تهدد صحوتنا الإسلامية، ونستعرض مكوناتها ثم سيكون لنا اختيار بعضها للحديث المفصل. يقول الفهرس: يتكون الكتاب من عشرة فصول غير المقدمة. كل فصل يحمل فوق رأسه لغماً عنيفاً وخطيراً هى بالترتيب كالتالى:

اللغم الأول: لا دين فى السيسه ولا سياسة فى الدين ـــ اللغم الثانى: الإسلام نظام فاشى ضد تعدد الأحزاب ـــ اللغم الثالث: الإسلام ليست له نظرية اقتصادية ـــ اللغم الرابع ـــ الإسلام دين إرهابى! ـــ اللغم الخامس: الإسلام لا يملك نظرية للحكم ـــ اللغم السادس: الدين أفيون الشعوب ـــ اللغم السابع: عصور السلاطين أيام الخلافة نموذج تاريخى للحكم الإسلامى ـــ اللغم الثامن: تجربة خومينى ونميرى نموذج معاصر للدولة الإسلامية ـــ اللغم التاسع: الموقف الإسلامى من المرأة رجعى ـــ اللغم العاشر: تطبيق الشريعة ضد الأقباط.

لا دين فى السياسة، ولا سياسة فى الدين:

حقاً هذه مقولة قديمة، وجديدة أشاعها المستعمرون لبلادنا.. ولا يزال يصدقها أغلب المثقفين حتى المسلمين منهم!! وأنا مع المؤلف إذ اعتبر هذه المقولة الخاطئة.. أول الألغام التى تكاد تنفجر فى وجه كل مسلم.. لذا سيكون لنا وله وقفات طوال.. لنعرف أيصلح الدين الإسلامى ليكون ديننا فى السياسة وفى غيرها أم لا؟ وكيف استطاع المؤلف أن يفند تلك الأسانيد الواهية التى يستند عليها رجال الغرب من المثقفين، وكيف أثرت هذه الأسانيد على مثقفى الشرق الإسلامى. يقول المؤلف فى بداية الفصل الأول: الواقع أن المحاولات اللئيمة لفصل الدين عن الدولة وعزل السياسة عن العبادة هى محاولات قديمة قدم التاريخ.. ومازال صداها حتى اليوم.. حيث لم يكن مشهدها الأخير متمثلاً فى تلك الصيحة المتعسفة والجائرة على الإسلام والمسلمين التى زأر بها السادات فى إحدى خطبه المرتجلة فى مصر لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين!! وقد اقترنت عملية الفصل فى التاريخ، والتصقت بتخلف المجتمعات واستبدادية الحكام ورغبتهم فى كسر شوكة الأديان التى تدعو لدفع الفساد والتصدى للحاكم الجائر. ولأن الإسلام بالذات كان آخر رسالات السماء والأرض، فقد كان أكثر الأديان التى حوربت من قبل حكام المسلمين الذين خلعوا عباءة الإسلام وتجاهلوا جوهر قيمه وحكموا حكماً علمانياً صرفاً تحت اسم الخلافة للتمويه فقط! وقد كان هذا الفصل المتعسف بين الدين والسياسة سبباً فى خلق أكبر حاجز نفسى بين المسلمين المعاصرين وأسلافهم. لقد استمر السوط يصادر حريات المسلمين طوال سنوات فيدفعهم بإسلامهم إلى الزوايا والمساجد حيث تعطل الفكر السياسى خلالها وتجمد، وانتعش مكانه الفكر التصوفى التعبدى. كما أدى الاضطهاد المستمر من جانب الحكام المسلمين لإبعاد الإسلام عن الدولة إلى تعطل الفكر السياسى الإسلامى، فانقطع عن أصوله وتحول إلى خزعبلات منحرفة فى بعض المذاهب مثل الباطنية والإسماعيلية، وانتشرت فرق «التقية» التى تظهر للحاكم مالا تبطن اتقاء لبطشه وشره، حتى وصلت المسيرة إلى العصر الفاطمى فى مصر، مسيرة متهالكة يتنافس داخلها المهرجون من الشعراء والمنافقون كسباً للذهب واتقاء لسيف الدولة وسيف الخليفة. وفى النهاية تحول أكثر

المسلمين إلى دراويش وتنابلة فحسب غائبين عن الوعى ينتظرون بر لحكام وصدقات حاشيته الفاسدة.

المفهوم الإسلامى.. للدين والسياسة:

وماذا بعد.. يقول المؤلف: ولكن بعيداً عن فهم السادات وماتأثر به من تجربة الحضارة الغربية، كانت تدين بمقولات لم يكن القصد منها سوى عزل «فعاليات» الدين عن الحياة السياسية حتى ينفرد الحاكم بالسلطة والاستبداد، فإن مايهمنا هو رأى الإسلام فى هذه المسألة، فقد جاء رسولنا محمد ﷺ من خلال القرآن والأحاديث والاجتهادات والممارسات ليقول إن الدين يصبح ناقصاً إذا ما اقتصر على كونه ملحقاً أو ذيلا لحياة الإنسان؛ إذ أن الدين ليس جزءاً من الحياة وإنما هو الحياة كلها ومحركها الرئيسى وقوتها الدافعة وهو الفهم والشعور والوعى والفكر والنظر والإدراك وهو فى النهاية المعيار بين الخطا والصواب.. وهو فى الوقت الذى يحدد فيه العلاقة بين الله والإنسان يحدد أيضاً العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والحاكم، وبين هذا الحاكم وغيره من الحكام ثم بين هذا الإنسان وجميع الكائنات.

والغريب أن الفصل فى الإسلام بين أمور الدنيا والدين ليس مقصوراً مع الأسف على حكام المسلمين الذين يخافون أن يقيد الإسلام من حريتهم فى الانفراد بالسلطة واستغلال البلاد والعباد، ولكن للأسف نراه منتشراً كوباء بين المسلمين أنفسهم لأسباب عديدة يكمن معظمها فى الجهل بجوهر الفكر الإسلامى.. والنتيجة كانت انقسام المسلمين فى رؤيتهم لإسلامهم إلى ثلاث مجموعات: دراويش فى المساجد وحيوانات تعبد المال والدنيا، ومفكرين استوعبوا الصحوة الإسلامية على أصولها.

إن ما نخلص إليه من خلال الاستعراض السريع لأحداث التاريخ نجد أن صيحة لادين فى السياسة ولاسياسة فى الدين». إنما هى ليست سوى صدى معاصر لمحاولات سابقة وقادمة لفصل الإسلام عن إدارة شئون الدولة والحياة العامة تأثراً بتجارب الغرب.

الإسلام دين فاشى.. يرفض تعدد الأحزاب:

من أخطر الادعاءات التى يسوقها أعداء حركة الصحوة الإسلامية فى مصر والعالم الإسلامى موقف الإسلام من الأحزاب بالذات كجزء أصيل من النظام الديمقراطى المعاصر «اللغم الثانى».. خاصة أن بعض مفكرى هذه الحركة ذاتها رفضوا فى بعض كتبهم واجتهاداتهم نظام هذه الأحزاب بمفهومها الغربى ورفضوا تعددها داخل الأمة الإسلامية. وقد دفعت هذه الاجتهادات بعض أعداء حركة التيار الإسلامى المعاصرة وعلى رأسهم الماركسيون أن يزعموا بأن الحركات الإسلامية ليست سوى حركات فاشية لاتؤمن إلا بالفكر الواحد والجماعة الواحدة وأنهم يعتقدون أن هذه الجماعة هى حزب الله وأن ماعداها هو حزب الشيطان.. وعلى هذا

فإن الإسلاميين فى رأى الماركسيين هم آخر من يحق لهم الكلام عن الديمقراطية والمعارضة السياسية على أساس أن جوهر الديمقراطية قائم على تعدد الأحزاب. إن هذه الادعاءات تنطلق من حقيقة موقفهم العام المعادى للإسلام وخوفهم من تنامى قوة التيار الإسلامى المستنير على أساس أنه يمثل القوة الوحيدة القادرة على التصدى لفكرهم وتياراتهم المسمومة.. وكذلك لما يحاوله التيار الإسلامى المستنير من تقديم الحلول الإسلامية البديلة والمتطورة مع لغة العصر، خاصة أن جوهر القيم الإسلامية يحوى فى أعماقه كنوزاً هائلة تنافس أرقى ما فى مذاهب العصر من حرية وديمقراطية وعدالة.

الديمقراطية اختراع إسلامى.. وهذا أبلغ الردود:

يحاول مؤلفنا أن يرد على المقولات.. أو يحاول أن ينزع فتيل هذا اللغم قبل انفجاره فى وجوهنا جميعاً، فيغوص فى قلب التاريخ الإسلامى ليثبت لنا أن بذور الديمقراطية قد نبتت أولاً فى أرض إسلامية.. ويسوق لنا الأمثلة التى تبين حقاً أن الديمقراطية ما هى إلا اختراع إسلامى. وهذه هى الأدلة فى رأى المؤلف: حق الشورى الملزمة ــ مبدأ حتمية اختيار الحاكم ــ حق المعارضة ــ حتمية أن تكون الأمة مصدراً للسلطات، ثم تبقى بعد ذلك مسألة التشريع لله أم للناس، حيث يقول المؤلف عن هذه النقطة: وتبقى السلطة التشريعية فبعدما عرفنا أن السلطة القضائية فى الإسلام مستقلة تماماً عن السلطة التنفيذية ولا تخضع لها أو لنفوذها هنا تحتاج المسألة منا إلى وقفة لاختلاط الأمر بالنسبة لبعض القدامى والمعاصرين «خاصة وأن السلطة التشريعية هى أم السلطات جميعاً. فإذا اتفقنا أن الشريعة الإسلامية مصدرها القرآن والسنة ثم الاجتهاد، فسنجد أن الثوابت المتعلقة بالمقدسات من الغيبيات وأحكام العبادات فى القرآن والأحاديث لا تتعدى خمس التشريع الإسلامى، فى حين نجد أن المتغيرات المتعلقة بشئون الحياة والدولة والتى لم يرد فيها نص صريح فى القرآن والسنة هى الجزء الأعظم من نصوص الشريعة.

حق تكوين الأحزاب وتعددها شرعاً:

معظم الذين يقولون فى العالم العربى: إن النظام الإسلامى ضد تعدد الأحزاب نجدهم إما من الماركسيين أو الناصريين. ونحن إذا كنا نعطى العذر لبعض الماركسيين الذين اعتمدوا على بعض الاجتهادات لمفكرين إسلاميين قالوا بضرورة الوحدة الإسلامية ووحدة قيادتها فى ظل الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامى.. فإن قواعد الاجتهاد المستنيرة فى الإسلام لا تحرم إلا ما حرم الله، ولا يوجد نص قرآنى فى تحريم الأحزاب بمفهومها الديمقراطى الحديث الذى نعرفه كما لا يوجد نص حديث بهذا. وكذلك فإنه حتى وإن كان قد ورد فى هذا المفهوم آراء سلفية ومعاصرة. فإن قواعد الاجتهاد تتكيف أصلاً مع تغير الزمان والمكان ومصالح المجتمع الإسلامى. معنى ذلك فى موضوع الأحزاب ــ أنه إذا رأت الدولة المسلمة المعاصرة أن نظام

تعدد الأحزاب هو الأدق تعبيراً من فكرة الشورى وفكرة الديمقراطية الإسلامية وأنه سيؤدى إلى تحقيق المزيد من دقة التمثيل السياسى والمزيد من الشورى والعدالة فعليها الأخذ به طبقاً للقاعدة الاجتماعية «مايراه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» وخير دليل على تاريخية تعدد الأحزاب فى الفكر الإسلامى هو تعدد الأحزاب فى انتخابات السقيفة.

الإسلام .. دين إرهابى :

وأنا مقبل على نقل كلمات المؤلف بخصوص هذا اللغم .. أشعر بالحزن والضيق. ولكن سرعان ما تبددت هذه السحابة السوداء .. بعدما قرأت الرد المفعم للمؤلف .. وتساءلت كيف يكون الدين الإسلامى .. آخر الأديان السماوية .. دينا ارهابياً !!؟ أعتقد أنها مقولة مغرضة .. والله وحده هو خير حافظ لنا ولديننا الحنيف من هذه التهمة المغرضة. ماعلينا .. يقول المؤلف فى بداية حديثه : إن إلصاق كلمتى الإرهاب والعنف بالإسلام، تهمة تعتبر من أكثر التهم ظلماً لرسالة الإسلام ذاتها وتناقض العديد مما جاء فى القرآن الكريم ووصايا الرسول ﷺ وسلوك الخلفاء الراشدين. إذ أن نصوص القرآن ذاتها حددت منذ البداية أسلوب نشر الدعوة كالتالى : اللين والرحمة ـ احترام حقوق الإنسان فى اختيار العقيدة ـ عدم إجبار أو إرهاب الناس على الدخول فى الدين.

ويحاول المؤلف استعراض الحوادث الفردية التى صاحبت سلوكيات بعض الأفراد فى الإسلام .. وأطلق البعض عليها .. حالات إرهاب .. وعن ذلك يقول : باختصار نتساءل من أين جاءت حوادث الترويع والإرهاب فى التاريخ الإسلامى بل والمعاصر أيضاً ؟ أننا نقول : إن هذه الحوادث بدأت عندما ارتدى بعض الحكام ثوب الإسلام وحكموا بعيداً عن المفهوم الإسلامى، وباسم الإسلام ارتكبوا أفظع حوادث العنف والإرهاب تحت اسم الخلافة الإسلامية أو الشيعة الإسلامية، أو الجماعات الإسلامية فى وقتنا المعاصر، ومن هنا التصقت هذه التصرفات بالإسلام .. وباستعراض سريع لوقفات التاريخ التى التصقت خلالها صفة الإرهاب نجد أن المؤلف تناولها من خلال هذه العناوين الفرعية : إرهاب سلاطين الخلافة غير الراشدة ـ إرهاب فرق الشيعة ـ إرهاب القرامطة ـ إرهاب الحشاشين ـ إرهاب الإمامة الاثنى عشرية ـ إرهاب الجماعات المتطرفة ـ جذور فكر التطرف المعاصر.

وفى نهاية حديثه الممتع والمطمئن يقول المؤلف : إنما هو قميص الإسلام دائماً الذى يرتديه هؤلاء المنحرفون لإخفاء أهداف عصور سلاطين الخلافة السوداء ونوايا فرق الشيعة. إن فكرة التطرف والعنف الذى بثه بعض قادة الجماعات الإسلامية فى الشارع المصرى والسياسى الإسلامى يعتبر من أخطر الإلغام التى تقف فى طريق الصحوة الإسلامية. وعلى قادة ورموز الحركة الإسلامية الإسراع ببذل أقصى الجهود لنزع هذا اللغم حتى لا ينفجر فى وجه الصحوة الإسلامية ذاتها، قبل أن ينفجر فى وجه الأعداء.

الدين .. أفيون الشعوب :

فى ترتيب حديث الألغام .. نجد أن الدين أفيون الشعوب .. هو اللغم السادس .. ويقول المؤلف : من أخطر المقولات التى كانت تنطلق من أفواه غلاة الماركسيين المتطرفين .. أن الدين أفيون الشعوب .. وكان هؤلاء الماركسيون المتحمسون يطلقون هذه الشعارات كجزء من الحرب على دعاة التيار الإسلامى فى الجامعة فى ذلك الوقت الذى كان يبشر فيه «الإخوان المسلمون» بفهم جديد مستنير للإسلام .. وعندما قرأنا كتبهم علمنا أن هذه المقولة أطلقها ماركس فى مواجهة كافة الأديان كمفكر ألمانى ورث كل حقد أوروبا على موقف رجال الكنيسة المختلفين مع رجال الاقطاع . إذ كانت هناك تجربة ، وكان هناك سبب تاريخى فى علاقتنا نحن المسلمين وماعلاقة الإسلام بتلك التجربة التى جرت فى ديار غير ديارنا ؟! إن ماركس لم يكن يقصد الدين المسيحى . كما لم يكن يقصد اليهودية .. ولا حتى الإسلام ! إنه كان يفترض أى دين يدعو رجاله للتحالف مع الطغاة ضد المقهورين .. وبشكل عام فإنه يجب على الماركسيين أن يفهموا جيداً أنه إذا كان هناك فرق كبير بين مبادىء الاشتراكية ومجموعة الممارسات المشوهة لها فى كل من مصر والسودان وبعض بلاد العالم الثالث فإن عليهم أن يفهموا أيضاً أن هناك فرقاً بين مبادىء الإسلام الثورية ومجموعة الممارسات المترهلة ، فهذه الممارسات التى برزت بشكل خاص فى عصر سلاطين الخلافة السوداء بدءاً بالأمويين والعباسيين فى دمشق وبغداد وانتهاء بالعثمانيين بالقاهرة والآستانة حيث تحول الدين على أيديهم إلى مجموعة من المهرجانات والحفلات والطقوس المصاحبة لمجموعة أخرى من مظاهر الاستبداد والسلب والنهب من قبل الحكام والولاة الذين كانوا يضعون عمامة الخلافة الإسلامية زورا فوق رءوسهم .. ويجب أن نعترف بأن معظم حكام هذه الفترة قد تحولوا باسم الإسلام إلى مجموعة من الطغاة وتحول فيها الرعايا تحت راية الإسلام أيضاً إلى مخدرة فى حلقات الذكر وعينات الأضرحة والتكايا !! والمسلم الحق يرفض أن يكون إنساناً غائباً عن الوعى لعدة أسباب منها : حقوقه السياسية التى نص عليها القرآن ـ الحقوق الاقتصادية ـ الحقوق الإجتماعية والإنسانية ـ حق مقاومة الظلم والظالمين . ولا يكتفى المؤلف بهذا القدر فقط . بل يسوق لنا الأمثلة التى تؤكد أن المسلم أبداً لم يقبل أن يخضع ويعيش فى غيبوبة إلا تحت ظروف هو مجبر عليها .

الموقف الإسلامى من المرأة رجعى :

ونأتى إلى الحديث عن موضوع طال فيه الكلام ولا يزال .. ومطلوب أن تحسم هذه القضية على وجه السرعة حتى تظهر سماحة الإسلام فى نظرته إلى المرأة .. وعن ذلك يقول المؤلف : من الأوهام الظالمة العالقة بالأذهان فى عقول بعض المسلمين من الجنسين أن نظرة الإسلام للمرأة تحمل بعض الأفكار والأحكام الرجعية . وأن هذه النظرة أدت إلى عدم المساواة بين

الرجل والمرأة فى الكثير من المجالات، وفرقت بين الجنسين فى بعض الحقوق فى مجالات العمل والميراث وأباحت للرجل حقوقاً وأتاحت له «التسرى» بما يشاء مما ملكت يمينه وبالزواج بأربع زيجات شرعاً مما يعد امتهاناً لإنسانية المرأة ويستشهدون على ذلك الامتهان بقبول الإسلام شهادة رجل واحد مقابل شهادة امرأتين، هذا إلى جانب القيود التى يضعها الفقهاء على حركة المرأة وملابسها وزينتها ونداءاتهم المستمرة بالحجر عليها فى البيت لتمارس مهمتها الوحيدة فى الحياة إلا وهى حضانة الأطفال.

ومع الأسف فإن هذه الاتهامات ليست فقط محض استنتاجات المستشرقين الذين وصلوا إليها سواء بدافع عدائهم أصلاً للإسلام، أو لأسباب عدم فهمهم للغة القرآن والحديث. بل هى أيضاً نتيجة تأثر بعض مفكرينا الذين ذهبوا إلى أوروبا وانبهروا بحضارتها وتأثرت أفكارهم بآراء هؤلاء المستشرقين، ثم قاموا بنقلها لنا فى محاضراتهم وكتبهم دون الرجوع إلى التراث الإسلامى، فتحولت هذه الاتهامات الظالمة إلى شبه حقائق سائدة متداولة بين الأساتذة والتلاميذ لولا ما أفرزته الصحوة الإسلامية.. التى تمكنت وأزاحت الستار عن الكذب والغش المتعمد وغير المتعمد فى هذه الاتهامات.. ويحاول المؤلف أن يستعرض معنا من خلال سطوره التعرض لهذه الاتهامات للكشف عن الموقف الحقيقى للإسلام تجاه المرأة. ونظراً لضيق المساحة سوف نستعرض معاً هذه الكلمات كأشبه بعناوين فرعية كالتالى: مساواة المرأة فى القيم الإسلامية ــ المساواة فى الحقوق المدنية ــ حق العمل المدنى والعسكرى والسياسى. كما يناقش المؤلف كذلك عدة قضايا مثارة ومرتبطة بهذا الموضوع ويقدم بالدليل والسند موقف الإسلام من هذه القضايا.. وعلى رأسها.. قضية: لماذا أباح الإسلام نظام الجوارى للرجل؟ ــ ثم القضية الثانية المتعلقة بإباحة الإسلام لتعدد الزوجات ــ ثم قضية الحجاب ولماذا؟!

الفصل الثالث

أوراق فى الطب والإدمان

رحلة فى عالم المخدرات وعصابات التهريب(١)

فى سلسلة عرضنا للكتب التى نقدمها من خلال هذه الصفحة والتى اخترنا لها عنواناً ثابتاً .. هو «كتاب جديد» نحرص على التنويع فى الكتب التى نعرضها .. ولعل القارىء لاحظ هذه الرغبة منذ أول كتاب عرضناه . وهذا التنويع قصد به أن نطلع القارىء على ألوان المعرفة المختلفة .. وإن كنا سنفضل فى بعض الأسابيع إلقاء الضوء على الكتب السياسية الصادرة حديثاً ، باعتبارها تشكل ركناً أساسياً من ثقافة الشعب .

وما نقصده من خلال هذه الصفحة وكما أشار إليه رئيس تحرير «الوفد» هو الأخذ بيد المؤلفين نحو توصيل كلماتهم إلى الناس بأسرع وقت ممكن وبوسيلة سهلة يمكن لغالبية الناس الحصول عليها بدون مشقة أو معاناة .

ولقد حرصنا على أن ننتقى للقارىء الكتاب المفيد .. واليوم نقدم إليه كتاباً جديراً بالقراءة والاقتناء .. وإن كان خروجاً على قاعدة تقديم الكتاب السياسى ، والكتاب الذى بين أيدينا اليوم عنوانه «أنا المدمن» ! ومؤلفه كاتب سعودى متمرس ، اسمه عبد الله عمر خياط .

---

(١) المدمن وأنا ـ تأليف عبد الله الخياط ـ نشر بجريدة الوفد فى ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ ـ حلقة واحدة .

حينما وقع الاختيار على هذا الكتاب لتقديمه لقارئى « الوفد » أحسست بسعادة غامرة وخوف لعين !! وكلاهما رغبتان متنافرتان تماماً ، والسعادة مصدرها أن مؤلف الكتاب من بلد شقيق له كل احترام وتقدير.. وننظر إليه باعتباره قلعة الإسلام ومقر مولد رسول البشرية سيدنا محمد ﷺ وهى المملكة العربية السعودية .. وترتبط هذه السعادة بكون المؤلف السعودى غامر بقلمه من أجل أن يبصرنا نحن العرب والمسلمين بخطورة الإدمان وصوره اللعينة ، دون أن يقصر هذه المغامرة المحسوبة على بلد دون آخر.. ورغم أن الله سبحانه وتعالى حمى بلاده من هول هذا الهم والكرب ، ونراه هنا يتحدث بلسان كل عربى رغبة منه فى حماية بلاد المسلمين والعرب من خطر وشبح إدمان كل صنوف المخدرات بدءاً من الحشيش والهيروين .

أما ذلك الخوف اللعين فمصدره ألا أجد فى هذا الكتاب ما أحلم به من معلومات أستفيد منها أنا وغيرى من أجل الخلاص من هذا الكابوس الفظيع .. ألا وهو الإدمان .

وخاب ظنى أو بالأحرى خبا هذا الخوف وانزوى حين طالعت صفحات الكتاب وأوراقه البيضاء التى شابهت قلب المؤلف الواعى ، وأحسست من خلاله بأننى أنا والقارىء العزيز مقدمان على رحلة ممتعة فى عالم غريب نعرف عنه القليل ونسمع مالا يسعدنا .

... وللأمـــانة :

... وللأمانة فإن كتاب « أنا المدمن » ـــ كما يقول ـــ المؤلف هو رحلة فى عالم المخدرات وعصابات المهربين .. يتصف بالصدق من أول كلمة أو سطر خطه الكاتب .. لأنه يقول « هذا الكتاب .. لا أستطيع أن أزعم بأنه يكشف عن كل أضرار المخدرات أو يعالج جميع مشاكلها .. ولكنه على أية حال .. جهد متواضع ساهمت بموضوعاته ضمن ما تقوم به الأجهزة المعنية ووسائل الإعلام المختلفة فى عرض أضرار المخدرات وكشف مخاطرها وسبل انتشارها والوسائل الدنيئة التى يعتمد عليها المهربون .. والمروجون فى سلسلة مقالات نشرت بجريدة عكاظ .. ولقد حرص المؤلف على جمع هذه المقالات فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا .. حتى تعم الفائدة ، ويتسع

مداها . ولاشك أنها أمانة قصد بها المؤلف أن يطلعنا عليها منذ البداية .. وهى صفة حميدة تساعدنا فى عرض هذا الكتاب بنفس الأمانة التى اتصف بها المؤلف .

الإيدز والمخدرات :

لقد آن الأوان لنبدأ الرحلة .. ونعيش مع الكاتب ومع كلماته ، والحقيقة أنه اختار بداية موفقة ومخيفة كمدخل للحديث عن الإدمان بكافة أشكاله .. ألا وهو الإيدز طاعون العصر على حد قوله !!

ويحاول المؤلف من خلال هذا الفصل أن يربط بين المخدرات وبين انتشار الإيدز حيث يرى أن هناك علاقة تكاد تكون متطابقة بين النوعين ؛ ومن أجل ذلك يتساءل عن السبب الذى لم يجعل العلماء حتى الآن يربطون بين هذا المرض الخبيث وبين هذا الطاعون القاتل !! وهو يؤكد وجود هذه العلاقة التى اكتشفها من خلال حضوره لندوة عالمية عقدت بأمريكا أثناء تواجده هناك ، إذ أجمع الأطباء على أنه لولا المخدرات لما كان للإيدز وجود !!

أسباب .. وأسباب :

وسرعان ما يهدأ المؤلف ويتحدث من زاوية نافعة ، قللت التوتر عنده وعندنا .. إذ اختار أن يعدد لنا أسباب هذه الحرب الشرسة ، وقبل الدخول فى التفاصيل يفند لنا أنواع هذه المخدرات وهى : الحشيش والأفيون والكوكايين والهيروين وكذلك القنب الذى يعد أكثر أنواع المخدرات استعمالاً فى العالم إذ يصل إلى نسبة ١٧٪ عن غيره من الأنواع الأخرى ، ولقد ساق لنا المؤلف تقرير قسم المخدرات بالأمم المتحدة ليدلل على خطورة هذه المخدرات . وعن ذلك يقول : إن ضرر هذه المخدرات يساوى الأضرار التى نجمت عن الحرب العالمية الأولى ، كما أن عدد مدمنى هذه السموم فى تزايد مستمر!!

ونعود مع الكاتب للحديث عن أسباب غزو المخدرات لبلاد العالم حيث ربط بينها وبين ارتفاع معدلات الجريمة وتكاثر الأمراض الخبيثة ، ومن هذه الأسباب ما ذكره على لسان مدير عام مكافحة المخدرات بالسعودية ، وهى : ضعف الوازع الدينى ، والفراغ ، والتقليد الأعمى بجانب الاعتقاد بأن المخدرات تزيد القدرة الجنسية فى حين أنه ثبت علمياً عكس هذه النظرة !!

العقوبة الكافية :

يقول المؤلف تحت هذا العنوان «تسع عشرة دولة تنفذ حكم الإعدام على المروجين والمهربين والمتاجرين بالمخدرات» وهو يشير إلى العديد من التحقيقات الصحفية فى مصر ، وفى بقية العالم

العربى، والتى تطالب كلها وعلى ألسنة العلماء والقضاة والمحامين بضرورة الإسراع فى تطبيق حكم الإعدام.

ففى مصر على سبيل المثال هناك عقوبة الإعدام على المهربين والمروجين والتجار، وهى عقوبة فرضها قانون عام ١٩٦٦ فى مادته الـ٣٣ ولم تطبق حتى الآن، واكتفى فى معاقبة هؤلاء المجرمين بالسجن والغرامة.. فى حين طبقت عقوبة الإعدام هذه فى العراق التى نجحت إلى حد بعيد فى القضاء على هذا البلاء اللعين! فلا وجود للمخدرات قطعياً هناك.

جريمة عالمية:

وينقلنا المؤلف إلى مصدر هذه الجريمة ومن يقف وراء ترويج هذه المخدرات فيقول «لقد كشفت الدراسات والتحقيقات الرسمية الموسعة فى العديد من الدول الإسلامية وغيرها تورط الصهيونية الدولية فيما يمكن أن نسميه بحرب المخدرات لتدمير العالم».. ويضيف أن المخدرات بكل تأكيد.. داء وبيل يسعى اليهود لنشره للعبث بأمن العالم بعد أن أخفق المال سلاحهم القديم، إن الصهيونية تسعى لتدمير العالم، وتحاول بشتى الوسائل أن تحقق أهدافها، ولقد وجدت فى المخدرات التى يقبل عليها الشباب بكل أسف وسيلة فعالة!!

والحقيقة أن المؤلف لايكتفى بسرد هذه الحقائق فقط بل يطلق صيحة مدوية يناشد من خلالها الإنسان المسلم أن يساعد فى مقاومة هذا البلاء اللعين، فيقول: «إن الدولة تنفق مئات الملايين لمكافحة هذا العدو الرهيب، كما أنها تنفق أيضاً الملايين لعلاج المدمنين، ولكن ليس هذا كل شىء.. وإنما لابد لنا نحن المواطنين أن نقوم بالمهمة الأولى لتربية شبابنا والحرص على رعايتهم».

المخدرات أنواع:

لقد سبق للمؤلف أثناء حديثه عن علاج أخطار هذا الوباء أن تحدث إلينا بشكل غير مفصل عن أنواع المخدرات، إلا أنه ـــ من خلال هذا العنوان الفرعى ـــ فضل أن يلقى مزيداً من الضوء على أنواع المخدرات والتعريفات العلمية التى ترتبط بها.. وللأمانة يقول: إنه ينقل عن كتاب المخدرات والسياسة والجنس للمؤلفة سوسن الجيار.. أن أنواع المخدرات كثيرة وعديدة.. والمنتشر منها فى أسواق العالم اليوم بكل أسف هو:

● الحشيش: هو الاسم العربى لمخدر شرقى يستخلص من نبات «القنب» وكلمة قنب فى اللغة اليونانية معناها «الضوضاء».. وربما وقع الاختيار على هذه الكلمة بالذات لما يحدثه المتعاطون من صخب وهرج أثناء التعاطى!!

● **الأفيون:** يشتق الأفيون من الخشخاش.. وهو نبات موسمى ينمو فى فصل الشتاء، ويثمر فى فصل الربيع.

● **الهيروين:** تم اكتشافه عام ١٨٦٨م عندما تمكن عالم ألمانى من تحضيره فى معمله.. معتقداً أن هذا الكشف الجديد سوف يمثل كشفاً علمياً مثيراً.. ولكن الاكتشاف لم يحظ بأى اهتمام فى الأوساط العلمية، ثم عاد وانتشر فى بادىء الأمر للعلاج الطبى ثم سرعان ما ظهرت سيئاته وخطورته.

● **الكوكايين:** وهو من المخدرات باهظة الثمن لا يقدر على شرائه إلا الموسرون.. لكنه يستنزف متعاطيه سريعاً فتكون نهايته كنهاية أى مدمن.. وهو يستخرج من نبات «الكوكا» وهو عبارة عن مسحوق أبيض بلورى يعكس الضوء، مر الطعم وليست له رائحة..

● **عقاقير الهلوسة:** وتتألف هذه العقاقير المعروفة باسم «ال. سى. دى» من مجموعة غير متجانسة من المواد التى لا تخضع للرقابة الدولية، وهى تنتمى إلى تركيبة من المواد الكيماوية والعلاجية التى يؤدى سوء استخدامها إلى التخيلات والأوهام الكاذبة والهلوسة!! وقد اكتشف العلماء أن تعاطى هذا العقار يؤدى إلى الإصابة بالأمراض العقلية ثم إلى الانتحار!!

الرحلة فى عالم عصابات المهربين:

ونصل مع مؤلف هذا الكتاب.. أو هذه التحقيقات الصحفية إلى حيثما أراد.. عند منعطف خطير فى هذا الموضوع الذى يحدثنا عنه وهو عالم المخدرات.. ولا يكتفى ـ كما سبق أن حدثنا ـ بذكر تعليقات وأرقام سجلها من واقع تقارير رسمية، بل يأخذنا معه خطوة بخطوة كشاهد حى على أكبر عصابة فى عالم تهريب المخدرات وكيف جمعته الصدفة كى يلم بأدق أسرار عالم التهريب والسموم الخطيرة.

كانت البداية ـ كما يقول المؤلف ـ فى إحدى الحدائق الشهيرة والمطلة على بحيرة أشهر شلالات العالم.. فى هذه الجنة، وعلى غير ما يتوقع جلس إلى جانبه نفر من الشباب الذين جاءوا من بلاد عربية نائية.. استغلوا هذا الخلاء فى شم وتعاطى المخدرات، وكان لقاؤه بهم كرجل عابر سبيل لا يعرف من لغتهم العربية إلا القليل.. ولقد ساعده الله على هذا التنكر حتى يكشف آخر ألاعيب هؤلاء الشباب على حد قوله!! ولقد اكتشف المؤلف أن المادة التى يشمونها عبارة عن بودرة أحس أنها بالنسبة لهم مجرد فاتح للشهية للحشيش الذين اعتبروه الوجبة الأساسية فى هذه الخلوة!!

وبعد قليل، وحينما انتهوا من جلسة الشم اتجهوا إلى أحد الفنادق الذى اكتشف أنه يقيم فيه معهم، وهناك التقى ـ على حد قوله ـ بهؤلاء الشباب مرة أخرى وهم يلتفون حول فنان عربى

كبير ومشهور يقول عنه وبكلماته «وعلى العشاء.. سمعت حديث الفنان إلى الشباب.. وياليتنى ما سمعته.. لقد كان هذا الفنان من الذين يطرب بألحانه مجموعة كبيرة من أبناء الأمة العربية، ولا يكاد ينزل ضيفاً على أحد منهم أو يجلس فى مكان يتواجد فيه أحد من أبناء أمتنا إلا وصلت بهم هذه الثقة إلى حد قبولهم اقتراح المؤلف على أن يصحبوه معهم خلال رحلتهم المقبلة فى عالم الجريمة ومقابلة كبير عصابة التهريب!!

وحين الرحيل اكتشف المؤلف أن زعيمهم هو الفنان العربى أو الموسيقار الذى يكن له كل تقدير.. وعن ذلك يقول مسجلاً إحدى جلسات العصابة الخطيرة «ففى جلسة العمل هذه.. دار الحديث بين المجموعة الأجنبية والفنان العربى بكل أسف حول وسائل الترويج والكميات التى يستطيع أن يوردها الأجانب من الحشيش!!

الصدفة.. الصدفة:

ويصمم المؤلف من بعد هذه الواقعة على مواصلة التعرف على عالم التهريب وعصابات الحشيش حتى مهما كلفه ذلك من مشاق وتضحيات.

والمؤلف خلال الصفحات القادمة يأخذنا معه حيث تفاصيل هذه الرحلة المثيرة.. والتى بدأت كحب استطلاع ورغبة من المؤلف فى الوصول إلى حقيقة هؤلاء الشباب الضائع الذين شاهدهم يتعاطون المخدرات.. لقد صمم بينه وبين نفسه أن يوطد العلاقة بهؤلاء الشباب أو ببعضهم حتى يستطيع أن يصل معهم وبهم إلى الطريق الذى ينجيهم من هذا الخطر.. وبالفعل نجح فى هذه الخطوة.. الأمر الذى جعلهم يثقون به ويتحدثون معه عن هذا العالم الرهيب بدون خوف، ولقد بذل جهداً غالياً فقد عقد العزم على السير نحو النهاية مع هؤلاء الشباب الذين ظلمتهم ظروف الحياة على حد قوله!!

ولقد تعددت اللقاءات بينهم فى بهو الفندق بعد رحيل هذا الفنان المشهور.. ثم فى صالات الطعام!! ثم فى غرفته بالفندق، للدرجة التى جعلتهم يتحدثون معه حتى عن أدق أسرار هؤلاء الناس الذين يعملون لحسابهم!! وكم كانت تنتاب مؤلفنا الأمين لحظات أسى وحزن على هؤلاء الشباب الضائع، وكان دائماً يردد بينه وبين نفسه الحوار الذى سمعه خلسة ـ كما يقول ـ على لسان رئيس العصابة.. إنه يذكرنا ويذكر نفسه بهذا المشهد قائلاً: «وكيف لا يطول الليل وتفزع النفس وقد شهدت جلسة العمل التى حضرها الفنان الكبير مع رئيس العصابة خلسة، وتسنى لى من خلالها الوقوف على المخطط الرهيب الذى يعد لتسخير الشباب فى تهريب المخدرات وترويجها بين طلاب المدارس والفنانين والرياضيين فى عالمنا العربى»!!

وأثناء سرد حكاية المؤلف عن عصابة التهريب التى ساقته إليهم الصدفة البحتة يحدثنا بين الحين والحين عن الآثار المدمرة للمخدرات وانتشارها الواسع بين طبقات الناس المختلفة، كما يحلو له كذلك أن يحدثنا عن الأرباح الخيالية التى يحصل عليه المهربون من وراء الحشيش وأصنافه إلى درجة الوصول إلى أرقام فلكية لا يمكن لأى إنسان أن يحلم بها، كذلك يتوقف بنا فى نهاية كل لقطة يحكيها لنا عن هذه الرحلة عند آية قرآنية أو حديث شريف، كأنما يذكرنا ويذكر كل من يقرأ هذا الكتاب أنه لا مفر من عقاب هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول الناس، وأن السماء لا تنام والله لهم بالمرصاد..

استكمال المشوار ولقاء الفنان الكبير:

ويصل بنا المؤلف فى سرده لحكايته مع المهربين وتورط هؤلاء الشباب مع عصابة المخدرات.. إلى لقائه وجهاً لوجه مع الفنان العربى الكبير لحظة نجاحه فى إقناع هؤلاء الشباب فى الهرب من مقر العصابة وتمكنهم من الخروج إلى مطار لوس انجلوس.. وعن ذلك يقول..
«وعندما حانت الساعة السادسة.. وجدتهم أمامى يطلبون منى سرعة التوجه للمطار قبل أن يحدث ما نخشاه!! وفى المطار وقبل إقلاع الطائرة.. وعلى مدخل الصالة كانت المفاجأة بالتقائنا جميعاً وجهاً لوجه مع الفنان الكبير..» !!

وتغير كل شىء.. ومن بعدها كان للمؤلف حوار طويل مع هذا الفنان ولقاءات متعددة تدور جميعها حول التهريب وإضرار المخدرات.. والقدرات العالية التى تتمتع بها عصابات التهريب وما تملكه من وسائل إرهاب وضغط على كل من يقترب منهم أو يتعامل معهم.. مما جعله يقدر الظروف الصعبة التى مرت بهؤلاء الشباب وجعلتهم منساقين إلى عالم التهريب والحشيش.. وعن ذلك يقول: «إن تجار المخدرات.. عالم رهيب.. ولهم نفوذ واسع وبإمكانهم السيطرة على الكثير من المرافق.. وهم لا يظهرون.. ولكن يستخدمون نجوم المجتمع والفنانين، كل من يتحرك تحت الأضواء.. بل أكثر من ذلك أنهم يستميلون ضعاف النفوس من بوليس وقضاة ورجال حدود» !!

بل وأكثر من ذلك يضيف المؤلف عن أسرار هذا العالم.. أن الخطر الذى يتهدد العالم من جانب تجار المخدرات يقترب من الذروة، فقد أصبحت ثرواتهم تتجاوز ما يوجد فى خزائن عدد غير قليل من دول العالم الثالث.. بل وهم قادرون على تشكيل جيش من الإرهابيين قوامه ١٨ ألف مقاتل! إلى هذه الدرجة شىء مخيف حقاً!! ونحن نشاطره هذا الخوف.. ونقف خلفه بكل ما نملك حتى نقضى على هذا الخطر الرهيب.

وهكذا بدأ مرض الإيدز(١)

لم أدع ذهنى طويلاً يتساءل .. أهى المصادفة البحتة .. أم الترتيب الخفى الذى أدى إلى تجميع كل هذه الأوراق التى تدور حول مرض الإيدز « طاعون العصر الحديث » ؟!

حقاً .. ففى خلال أقل من شهر وصلنى أكثر من مؤلف عن هذا المرض الخفى اللعين .. إذ تفضل الدكتور محمد عبدالعال رئيس الجمعية العلمية الطبية بإهدائنا كتيباً عن هذا المرض ، يتناول ولأول مرة بشكل علمى منظم .. أنواع المرض وتصنيفاته العلمية .. والجهود المبذولة من أجل التوصل إلى علاج له . ثم تفضل أيضاً بإرسال المجلة الدورية التى تصدرها نفس الجمعية .. وقد خصها بكافة أوراقها للحديث عن مرض الإيدز .. بقلم نخبة من أساتذتنا المصريين النابغين فى الطب .. كل يدلى برأيه فى هذا المرض من كافة جوانبه سواء طريقة اكتشافه أو مكان ظهوره .. ثم وصلنا كتاب يكمل دائرة المعرفة .. وهو بعنوان : « وهكذا بدأ مرض الإيدز » للدكتور فهمى مصطفى محمود بقسم الأحياء جامعة النجاح الوطنية وهو ما نخصه هذا الأسبوع بالعرض والتقديم .. وذلك لأنه أول كتاب وضع باللغة العربية يناقش النظريات العلمية التى تحدثت عن أماكن ظهور هذا الطاعون المدمر ، وليس هذا فقط ، بل إنه يناقش ـ وبأسلوب رجل العلم المستنير ـ هذه النظريات ويفندها . ولقد أسعدنى كثيراً .. كفاح الأبطال ضد تلك النظريات التى حاولت

(١) وهكذا بدأ مرض الإيدز ـ د . فهمى مصطفى محمود ـ نشر بالوفد بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٨٩ .

إلصاق ظهور هذا المرض بأرض أفريقيا السوداء. لقد وصل بحسه وعلمه.. إلى أن الموطن الرئيسى الذى صدر وسوف يصدر هذا المرض أكثر وأكثر.. الولايات المتحدة الأمريكية.. حيث انتشار الشذوذ الجنسى الذى هو المصدر الرئيسى لمرض الإيدز اللعين

وأنت تتجول فى شارع المكتبات وتلقى نظرة ولو واحدة على بائعى الصحف الذين يوزعون الكتب.. حتماً سيستوقفك هذا الكتاب.. خاصة إذا مانظرت لغلافه المرعب.. الذى رغم بساطته يجعلك تقف لتنظر وتفكر وربما تشترى الكتاب لتقرأه.

والملفت حقاً فى الغلاف تلك الجمجمة البشرية المعلقة على عمود خشبى مغطى بعلم الولايات المتحدة الأمريكية. هذا المشهد كله خارج من الكرة الأرضية، أو كما تشير الخريطة من الأرض الأمريكية مع أرضية بنفسجية خفيفة تعطى الإيحاء بلون الدم ولون الشفق معاً، ويعلو كل ذلك العنوان الذى يقول كل شىء.. «وهكذا بدأ مرض الإيدز» وإن كنت متصوراً أن العنوان فى غير محله.. إذ كان على المؤلف أن يختار عنواناً آخر يقول مثلاً «أين ظهر مرض الإيدز؟».

على أية حال إنه جهد مشكور بذله كاتبنا الدكتور فهمى مصطفى محمود من أجل تقديم هذه الوجبة الدسمة من المعلومات التى تغطى جانباً طيباً من جوانب المعرفة غير المتوافرة كثيراً فى المكتبة العربية.

مقدمة المؤلف لابد منها:

وقبل الغوص فى فصول الكتاب.. استوقفتنى مقدمة المؤلف تماماً كما استوقفنى الغلاف.. وكما يقول المثل «الجواب يعرف من عنوانه» فإننى من أجل ذلك آثرت أن أنقل كل ما قاله الكاتب من خلال مقدمة الكتاب.. وعن ذلك يبدأ حديثه معنا قائلاً: «منذ ظهر مرض الإيدز بشكل وبائى عام ١٩٨١ والباحثون فى حيرة من أمره وأمر ظهوره.. أين كانت بداية ظهوره؟! ما هى الأسباب التى دفعت به إلى الظهور؟!

لماذا ظهر فى هذا الوقت بالذات؟ هل الفيروس المسبب له حديث النشأة؟! أم أنه موجود فى الطبيعة منذ زمن بعيد؟! كيف؟ لماذا؟.. أين؟ أسئلة كثيرة ومحيرة، وجد الباحثون أنفسهم فى مواجهتها فجأة دون سابق إنذار.. فقد ظهر المرض فجأة وأخذ يطيح بضحاياه بسرعة مفاجئة وتضاعفت أعداد المصابين به بشكل جنونى ومذهل. وأيقن العلماء وفجأة أنهم أمام مرض رهيب وكارثة عالمية ربما لم يسبق لها مثيل فى التاريخ البشرى كله. من جهة أخرى فالايدز ليس كالأمراض الأخرى، إنه يختلف تماماً فلم يسمع الأطباء حتى يومنا هذا عن إنسان أصيب بالإيدز ثم شفى منه فكل من يصاب به يواجه المصير.. إنه الموت. وتساقط الألوف صرعى بالمرض.. بل أن هناك عشرة ملايين يحملون الفيروس القاتل فى العالم.. هؤلاء أيضاً ينتظرهم نفس المصير القاتم.

عندئذ لم يكن للباحثين من خيار فتوالت الأبحاث لمعرفة نقطة البداية وتوالت النظريات فى محاولة للإجابة عن التساؤل المطروح، وكان لابد من النظر فى هذه النظريات ودراستها بشكل علمى.

المنهج والفصول:

والمؤلف مشكوراً يضع لنا المنهج ويبصرنا بفصول الكتاب على سبيل الإجمال قبل التفصيل.. إذ يقول: فاستعنت ربى واستجمعت قوتى، فقمت بدراسة كل ما وقع تحت يدى من هذه النظريات ووقفت عند كل واحدة منها وقفة تحليلية فجاء كتابى هذا فى أحد عشر فصلاً، ناقشت فيه ثمانى نظريات، وأفردت الفصل العاشر للكلام عن الأسباب الحقيقة التى

أدت إلى ظهور المرض.. ثم جعلت الفصل الأخير منه خلاصة لما توصلت إليه من نتائج حول هذه النظريات وحول المكان الحقيقى الذى نشأ فيه المرض. ومع أننى ـ والحديث لا يزال على لسان الكاتب ـ اجتهدت جهدى وحشدت نيفا وتسعين مرجعاً حديثاً لموضوع الكتاب.. إلا أننى أقر بأن الكمال لله وحده.

نظريات.. أين بدأ مرض الإيدز:

فى خلال هذا الحيز يفرد الدكتور فهمى مصطفى محمود الصفحات تلو الأخرى، كما يحدثنا عن ثمانى نظريات كلها تتعلق وتدور حول مكان نشأة وظهور مرض الإيدز.. وقد استغرق من المؤلف ذلك الجهد الكبير حيث استعان بالعديد من المراجع الحديثة، وليس هذا فقط.. بل يناقش هذه النظريات، وكثيراً ما يختلف مع واضعيها.. ولقد آن الأوان أن نتعرف على هذه النظريات الثمانى ونعيش مع رأى كاتبنا فيما ذكره هؤلاء العلماء من مكان ونشأة طاعون العصر الحديث.

● **النظرية رقم (١): الإيدز فى هايتى:**

تقول واضعة هذه النظرية د. جين تيز الاختصاصية فى مدرسة هارفارد للصحة العامة فى الولايات المتحدة: أعتقد أن فيروس الإيدز نشأ من فيروس الحمى الأفريقية الذى أصيب به الخنازير فى جزيرة هايتى حيث انتقل منها إلى السكان المحليين ومنهم إلى أمريكا وأوروبا عن طريق الشاذين جنسياً.

وهذه النظرية تفتقر إلى الصحة لأسباب عديدة أهمها أن الفيروس الذى يسبب حمى الخنازير الأفريقية يختلف اختلافاً كبيراً عن الفيروس المسبب للإيدز. كما أن أحداً من العلماء أو الباحثين لم يثبت أنه تم عزل فيروس الإيدز من خنازير هايتى أو غيرها من الخنازير فى أى بقعة من العالم، ثم لماذا قرر فيروس الإيدز إصابة خنازير هايتى دون غيرها من الخنازير؟ ولماذا اختار فيروس الإيدز أن يتحور من فيروس حمى الخنازير الأفريقية؟؟

النظرية رقم (٢): الإيدز من أواسط أفريقيا:

يفترض واضعو هذه النظرية أن فيروس الإيدز نشأ فى أواسط القارة الأفريقية، فى نوع من القردة تعيش فى الغابات وتعرف باسم القردة الخضراء. هذه القردة انتقل ما بها من فيروس إلى البشر عن طريق سكان الغابة البدائيين الذين يأكلون لحم هذه القردة. وطريقة أخرى انتقل بها نفس الفيروس إلى إنسان الغابة وهى طريقة العض حيث تهاجم القردة الخضراء قرى السكان بين فترة وأخرى فتعض الصغار والكبار ناقلة الفيروس إليهم. ومن هذه التجمعات

البدائية استطاع الفيروس أن يجد طريقه إلى سكان المدن الكبرى فى أواسط أفريقيا. وساعد الازدحام السكانى الشديد والبغاء والفقر على تفشى مرض الإيدز فيها. ومنها انتقل إلى هايتى بواسطة الجنود العائدين من دولة أنجولا فى وسط أفريقيا. ثم من هايتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق المهاجرين من الشواذ واللوطيين.

عاصفة شديدة من الاحتجاج:

ولكون هذه النظرية والنظريات التى ترجح بل وتنص صراحة على أن الإيدز أفريقى المنشأ والموطن، أثارت عاصفة من الجدل على كافة المستويات العلمية والسياسية بين الدول الأفريقية المتهمة والدول الغربية ـ لم نجد بدأ من التعرض لها بشكل مفصل ودقيق للنظر فى صحتها ومدى استنادها إلى ركائز علمية صلبة:

● تذكر النظرية أن الايدز انتقل من القردة الخضراء فى أفريقيا الوسطى إلى السكان البدائيين هناك.. هذا يعنى ضمناً أن الفيروس كان موجوداً فى القردة الخضراء وقت انتقاله منها إلى بنى البشر. فلابد أن يكون موجوداً فيها إلى يومنا هذا، لكن العلماء اعترفوا بأن بحثهم المتواصل الدءوب لعزل فيروس الإيدز من القردة الخضراء لم يأت بأية نتيجة إيجابية.. إذن القردة الخضراء ليس بينها حامل للفيروس.

● يعتقد د. جالو الأمريكى أن فيروس الإيدز، هو الفيروس الثالث من فيروسات H.T.L.V التى تسبب سرطاناً ينتشر فى أفريقيا انتشاراً كبيراً، لكن الفحص الدقيق أظهر أن فيروس الإيدز HIV بجميع أنواعه وفصائله، لا يمت بصلة إلى فيروسات HTLV .

● تذكر هذه النظرية، أن فيروس الإيدز أصاب السكان البدائيين أولاً قبل أن ينتقل منهم إلى سكان القرى والمدن الأفريقية، وبمعنى آخر فإن أول من أصيب بالفيروس من بنى البشر هم أفراد القبائل التى تقطن غابات وسط أفريقيا. وهنا نجد أنفسنا أمام احتمالات ثلاثة: أن الفيروس بعد دخوله الجسم تم القضاء عليه.. أو أن الفيروس أصاب أفراد القبائل البدائية وسبب لهم الإيدز وهذا احتمال بعيد جداً.. أما الاحتمال الثالث فهو أن فيروس الإيدز قد أصاب البدائيين ولكن لم يحدث لهم أعراضاً مرضية.. وعندما انتقل إلى سكان المدن الأفريقية أصبح نشيطاً وفتاكاً!!

خلاصة القول: يظهر بجلاء عدم صحة هذه النظرية أيضاً، حيث إنها تفتقر إلى الأدلة العلمية التى تساندها.

• النظرية رقم (٣):
والتى تفترض كسابقتها أن فيروس الإيدز نشأ فى أواسط أفريقيا ثم انتقل إلى أمريكا عن طريق هايتى، لكنها تخالف النظرية السابقة فى الطريقة التى انتقل بها الفيروس من القردة إلى البشر. ويقول واضع هذه النظرية د. ف نويرولا الذى يعمل باحثاً فى الكونغو: فيروس الإيدز موجود فى القردة التى تعيش فى وسط أفريقيا منذ مئات السنين. ولقد ساعدت الطقوس الجنسية التى يمارسها البدائيون الذين يسكنون حول البحيرات الأفريقية الكبرى على انتقاله من القردة إلى بنى البشر.

ولتفنيد هذه النظرية يقول الكاتب: إنه لم يتمكن الباحثون عن إيجاد فيروس الإيدز بشكل طبيعى فى أى نوع من أنواع القردة ولم نسمع عن أحد عثر على فيروس الإيدز فى أفريقيا الوسطى ووسط سكان القبائل البدائية التى ذكرتهم هذه النظرية.

أول حالات الإيدز:

ذكر د. نويرولا، أن الزوار الأجانب عادوا إلى بلادهم بالإيدز بعد أن اكتسبوه من سكان وسط وغرب أفريقيا.. لكن افتراضه هذا لا يقدم تفسيراً لكثير من جوانب انتشار المرض. ثم لو أن فرضية د. نويرولا كانت صائبة لوجب ظهور مرض الإيدز متزامناً فى كل من أمريكا وأوروبا واستراليا، ولكن هذا لم يحدث أيضاً.. فقد ظهرت أول حالة بمرض الإيدز فى أمريكا عام ١٩٧٨ فى مدينة نيويورك، بينما ظهرت أولى الحالات فى بريطانيا وفرنسا والسويد وأسبانيا عام ١٩٨٢ وفى هولندا عام ١٩٨٣، فهل يعقل أن سياح تلك الدول عادوا إلى أوطانهم حاملين فيروس الإيدز فى وقت متقارب، ثم يكون الفارق الزمنى بين أول إصابة إيدز فى أمريكا وفى أوروبا واستراليا أربع سنوات؟! أم أن الفيروس اختار أن يصيب الأمريكيين قبل غيرهم بعدة سنوات!!

وهؤلاء العلماء يدافعون عن أفريقيا:

ونسوق هنا بعضاً من أقوال مشاهير خبراء الإيدز فى نظريات الإيدز فى أفريقيا الذين يشككون فى بعض هذه النظريات وسندها العلمى.

• يقول خبير الفيروسات الفرنسى د. لوك مونتانييه وهو أول من اكتشف فيروس الإيدز: إن الأدلة التى تشير إلى النشأة الأفريقية للمرض أدلة ضعيفة واهية.. ولو كانت نشأة الفيروس فى أفريقيا فلماذا لم يصب به الأوروبيون قبل الأمريكيين.. لابد أن الفيروس قد نشأ فى مكان آخر غير أفريقيا.

● ويؤيد د. جو تليب موفلوسو المدير الاقليمي لقارة أفريقيا في منظمة الصحة العالمية، أراء مونتانييه بقوله: إن الأدلة على أن فيروس الإيدز في أفريقيا أدلة ضعيفة، وليس المهم الآن معرفة المكان الذي نشأ فيه، لكن المهم أن الايدز أصبح الآن مشكلة العالم كله.

لماذا يتهمون أفريقيا دون غيرها..؟:

لماذا يصر الغربيون على اتهام الأفارقة بالمسئولية عن الإيدز برغم الأدلة المعارضة؟ لقد درج الأقوياء عبر التاريخ على إلصاق كل نقص وعيب بالضعفاء، كما درجوا على نسبة الخير لأنفسهم حتى ولو كان غيرهم صاحبه.

والإيدز هو إحدى القضايا التي تكشف عن خلق الأقوياء تجاه الضعفاء.. فهو نقيصة.. بل كارثة لا يحب أحد أن يكون السبب فيها. وفي الطرف المقابل، فإن اكتشاف علاج للإيدز وإيجاد الطرق لمحاربته فضيلة يحب الجميع ادعاءها..

من هذا المنطلق ادعى الغربيون بعد اكتشاف فيروس الإيدز عام ١٩٨٣ بأنه نشأ في أفريقيا وبذلوا في سبيل إثبات ادعائهم هذا الوقت الثمين والأموال الكثيرة ولكن دون جدوى. والمضحك في الأمر أن أفريقيا أو غيرها من القارات لم تكن في مخيلة العلماء الغربيين حين سجلت أولى حالات المرض في أمريكا عام ١٩٨١ فقد اعتقد الأطباء آنذاك أن المرض نشأ بسبب اللواط والشذوذ الجنسي وإدمان المخدرات فقد كانت تسمية المرض «مرض اللوطيين» في سنوات ظهوره الأولى وما إن اكتشف العلماء فيروس الإيدز حتى تحولت الانظار دفعة واحدة عن اللوطيين لتتهم الافارقة بأنهم سبب وجوده!!

الإيدز.. بين كندا والبرتغال والمخابرات الأمريكية:

وينقلنا المؤلف نقلة جغرافية أخرى، حيث يحدثنا عن بقية مزاعم العلماء عن مكان ظهور الإيدز.. فمن أواسط أفريقيا وغربها إلى كندا حيث يقول: قام اللوطي الأمريكي راندى شلتز ببحث طويل استغرق عدة سنوات أثبت فيه أن أول من جلب الإيدز للولايات المتحدة هو اللوطي الكندي جاتين دوجاس الذي كان يعمل مضيفاً في شركة الطيران الكندية. ولكنه لم يذكر في بحثه كيف أصيب دوجاس بالمرض ومن أي بقعة من الأرض جلبه إلى كندا!! أما بالنسبة لظهور الفيروس وعلاقة البرتغال به فيقول د. اندريان سيموت الذي يعمل طبيباً في مستشفى كلاودبرنارد في باريس أن هناك علاقة قوية بين الحكم البرتغالي وانتشار الايدز الثاني!! فقد وجد د. سيموت عند دراسته لحالة ٢٦ مريضاً أفريقياً مصابين بالإيدز بسبب الفيروس الثاني، أنهم جميعاً من الدول الافريقية التي كانت ترزح تحت حكم البرتغال. ومع ذلك نجد أنه لا يذكر شيئاً عن مكان نشأة فيروس الإيدز الأول ولا عن كيفية انتقاله إلى الدول

الغربية. وهناك نظرية سادسة تدعى أن الإيدز من صنع المخابرات الأمريكية كجزء من الحرب الجرثومية التى تشنها ضد المعكسر الشرقى. ولكن هذه النظرية تقع فى الخطأ الكبير لسبب أساسى هو لو كان الإيدز من صنع هذه المخابرات لما فوجىء به الأمريكيون وقضوا سنوات وهم يتخبطون في معرفة أسبابه.

بقية النظريات علمية بحتة:

بالنسبة للنظرية السابعة تقول إن جرثومة مرض الزهرى هى سبب مرض الإيدز.. ويعتقد واضع هذه النظرية د. سى جياسا أنه يعد المرحلة الأخيرة من مراحل الزهرى. ويعضد اعتقاده هذا بأمرين هامين. أما النظرية الثامنة والأخيرة.. فيقول عنها المؤلف: إنه فى خضم هذه النظريات واشتغال الناس حول العالم بفيروس الايدز فقد خرج واحد من أكبر علماء الفيروسات فى العالم على الناس بنظرية جديدة يقول فيها: إن فيروس الإيدز ليس هو مسبب مرض الإيدز.

لم يعد هناك أدنى شك فى أن مرض الإيدز مرض جنسى جديد يضاف إلى قائمة الأمراض الجنسية الأخرى التى تزداد سنة بعد أخرى..

الانحلال الخلقى:

ولكى يسهل علينا معرفة أسباب ظهور مرض الإيدز فلابد لنا من دراسة الظروف التى أدت إلى ظهوره دراسة دقيقة. لقد أشارت التقارير الطبية بوضوح إلى أن مرض الإيدز مرض جنسى.. هذا يعنى أن الجنس هو المسئول الأول عن ظهور المرض وتفشيه. ولكن هل هناك اختلاف بين السلوك الجنسى للمجتمعات الغربية فى الوقت الراهن والسلوك الجنسى لها فى الماضى؟! لقد ظهر بجلاء تدهور السلوك الجنسى بشكل رهيب خلال السنوات الثلاثين الماضية وأدلة ذلك:

- تفشى اللواط فى المجتمعات الغربية بدرجة لم يسبق لها مثيل.
- ممارسات جنسية عجيبة فلم يقتصر الأمر على حد اقتراف اللواط بل تعداه ليشمل ممارسات جنسية لم نتصور حدوثها بين أحط الكائنات البهيمية.
- شره جنسى محموم.. وليت الأمر وقف عند هذه التصرفات الشاذة المشينة بل إن سعارها الجنسى فاق كل التصورات!!
- عهر الفتيات.. فلم يقتصر العهر والانحلال الأخلاقى على الرجال، بل لقد سبقت النساء الرجال فى كثير من أنواع المتعة المحرمة.

الإيدز بين الرعب والحقيقة (١)

مايزال صوتي يدوي في هذا الفضاء اللانهائي.. صائحاً إلى حد الصراخ.. من أجل التنبيه عن هذا الطاعون الجديد الذي عجز العلم أمامه حتى الآن.. وصيحتي لكل الناس، يشاركني فيها العلماء وعلماء الدين لأنها مسئولية مشتركة بيننا جميعاً.. وها نحن وللمرة الثالثة يعلو صوتنا ونصرخ من أجل دق جرس إنذار شديد اللهجة كي نفيق ونبتعد عن شبح هذا الطاعون غريب الأطوار.. الإيدز.. وليس غريباً على صفحتنا هذه أن نستضيف وللمرة الثانية أو الثالثة كتاباً جديداً يحمل بين أوراقه كلاماً جديداً عن هذا المرض.. وهذا الكلام الجديد يقوله عالم مصري متخصص في تحاليل المناعة من الولايات المتحدة الأمريكية.. إنه الأستاذ الدكتور عبدالهادي مصباح المهدي ــ وكتابه الجديد الذي صدر منذ أيام بعنوان «الإيدز بين الرعب والاهتمام والحقيقة». وللكتاب حديثنا هذا الأسبوع قصة نروي بعض أطرافها. إذ أنني كلما أدخل مكتباً عاماً أو خاصاً تجري أصابعي بحثاً فوق الأرفف عن كل ماهو جديد. وللحقيقة لقد لفت هذا الكتاب نظري بغلافه الأحمر الداكن وكلماته الخطيرة، وعلى الفور طلبت من أستاذنا عبدالوارث الدسوقي ضرورة السماح لي باستعارته مادام جديداً كي نعرضه على حضراتكم فوافق على الفور بل اتصل بالمؤلف مشكوراً فأرسل إلينا كتاباً هدية منه.. ولازالت النسخة التي تحمل إهداء المؤلف إلى

---

(١) الإيدز بين الرعب والاهتمام والحقيقة ــ د. عبد الهادي مصباح المهدي ــ نشر بالوفد بتاريخ ١٤ مارس ١٩٩٠.

الأستاذ عبد الوارث موجودة لدينا . وكما توقعت .. حقاً وجدت به مادة طبية وهامة وجديدة .. جدير بنا أن ننقلها إليك عزيز القارىء من أجل أن تشترك معنا فى خوفنا الشديد من انتشار هذا الطاعون بيننا رغم أن ديننا الإسلامى والحمد لله حافظ لنا من هذا السوء والمرض القاتل .

ننتقل بخفة الفراشة إلى كلمات المؤلف حيث بدأنا هذه المرة من مقدمته التى خطها بقلمه.. ولقد وجدت فيه البسمة وخفة الدم رغم خطورة الحديث عن هذا المرض. ولعلها سمة العلماء والأطباء الذين يحدثونك بلسان رطب رغم مايعرفونه من أخطار. والدليل على قولى ماذكره المؤلف بداية مناشداً القارىء أن يستمتع بهذا الكتاب!! . وكلماته تقول بعينها «أرجو أن تستمتع بقراءة هذا الكتاب كما استمتعت أنا بإعداده وكتابته!!»

كما يوضح لنا غرضه من التأليف حيث يقول: «.. وربما كان هدفى من إعداد هذا الكتاب بهذا الجهد المتواضع الذى حاولت فيه أن اتناول موضوع الإيدز بشكل مبسط هو توعية الناس بكل أبعاد هذا المرض الخطير والذى يمكن تحجيمه من خلال سلوكيات الأفراد الواعية».

ويشير كذلك خلال هذه المقدمة إلى وسائل نقل المرض كطريق سهل من أجل التوعية التى هى فى رأيه أساس النجاة من هذا الطاعون.. وعن ذلك يحدثنا قائلاً: إن التصرفات الخطرة التى يمكن أن تؤدى إلى نقل العدوى يجب أن تكون واضحة ومعروفة لدى الجميع ويجب ألا نخاف من الحديث عنها.. كذلك ربما كانت المعاشرة الجنسية الطبيعية منها والشاذة وإدمان المخدرات من التصرفات الشائعة التى تنقل عدوى الفيروس، ثم يأتى بعد ذلك نقل الدم أو مكوناته أو مشتقاته.. والطريف أن المؤلف ــ وكما يقول ــ قد كتبه بالكامل فى الولايات المتحدة وجمع فيه كل مايخص الحديث عن مرض الإيدز. ولقد جمع كل هذه المادة من أجلك أنت عزيزى القارىء أولاً.. ثم من أجل كل الناس حتى تعم التوعية ونخرج من معركتنا مع هذا المرض منتصرين بإذن الله. فيهّا جميعا نستمع ونستمتع بهذه الكتاب وتقرأ كل مافيه حسبما تسمح المساحة المتاحة لدينا.

خمسة عشر باباً.. أولها الإيدز.. وآخرها التطعيم:

أن مانعرض له هذا الأسبوع هو كتاب بحق ضخم وهام.. ويحتوى على أكثر من ثلاثمائة وتسعين ورقة من القطع الكبير. ومكوناته خمسة عشر باباً.. كل مافيها هام وجميل.. ونظراً لهذه القيمة النادرة سوف يكون دليلنا نحو القراءة هنا أو فى الكتاب الفهرس. كما نعرف كيف

نبدأ وكيف ننتهي.. ومن بعدها نختار تلك الفصول التي نتوقف عندها.. أما غير ذلك من الفصول فسوف ندعو القارىء كي يتابع الباقي من الكتاب نفسه حتى تعم الفائدة ويستريح الضمير وعندئذ يبقى أمامنا حالات هذا الاستعراض.

المقدمة ـ الإهداء:

● الباب الأول: الايدز طاعون القرن الحادي والعشرين وفيه حديث طويل عن: التناقض الذي أحاط بالإيدز منذ بداية ظهوره، الإيدز مشكلة اقتصادية.. اجتماعية .وسياسية، الإيدز نكبة اجتماعية مدمرة، اعترافات مريض.

● الباب الثاني: كيف بدأ الإيدز وكيف انتشر؟ ومحتوياته هي الإيدز في أمريكا، والآن ما هو وضع الإيدز على الخريطة العالمية، الشكل الأول لأسلوب انتشار الإيدز، الشكل الثاني لاسلوب انتشار الإيدز، الشكل الثالث.

● الباب الثالث: فيروس الإيدز ومكوناته: قصة اكتشاف فيروس الإيدز على لسان مكتشفيه ـ فيروس نقص المناعة وفيروس الإيدز من النوع الثاني.

● الباب الرابع: الجهاز المناعي من حيث وظائفه ومكوناته.

● الباب الخامس: العدوى بفيروس الإيدز من حيث وسائل انتقال العدوى ـ كيف انتشرت عدوى فيروس الإيدز داخل الجسم ـ فترة الحضانة ـ متى يظهر المرض بعد العدوى بالفيروس.

● الباب السادس: الأعراض الإكلينيكية للعدوى من حيث أصل العدوى والأعراض المرضية ثم التطورات النفسية والعرضية لمرض الإيدز.

● الباب السابع: النتائج المعملية لمريض الإيدز.

● الباب الثامن: المجموعات الأكثر تعرضاً للاصابة بالمرض وهم: الشواذ جنسياً ـ مدمن المخدرات ـ مرض الهيموفيليا ـ الزوجات والأزواج لمرضى ومريضات الإيدز.

● الباب التاسع: انتقال الإيدز بالاتصال الجنسي الطبيعي من حيث العوامل التي تزيد من احتمال الإصابة بعدوى الفيروس أثناء الاتصال الجنسي الطبيعي ـ انتقال الإيدز للاطفال أثناء الحمل وبعد الولادة ـ هل يتم تطعيم الطفل المصاب؟ وهل القبلة تنقل الإيدز ثم ماذا عن استخدام الواقي الذكري؟ «الكبوت»!

● الباب العاشر: الإيدز في أريقيا وهل ينتقل الايدز عن طريق البعوض؟

● الباب الحادى عشر: الفئات التى يجب فحصها روتينيا للكشف عن مدى انتشار الإيدز وتقليل نسبة انتشاره.

● الباب الثانى عشر: ما الذى يخلق هذه الحيرة والجدل والغموض الذى يحيط ويحدثنا المؤلف من خلال هذا الباب عن أكثر من عشرين نقطة متعلقة بالمرض من حيث كونه مرضاً خطيراً ومدمراً، ثم دور الصحافة ووسائل الإعلام فى التقليل من خطره، ثم ارتباطه منذ نشأته بالشواذ جنسياً. وغير ذلك من النقاط الهامة والتى تمثل صلب الموضوع حديثنا خلال هذه الحلقة.

● الباب الثالث عشر: التحدى الأكبر للأطباء ومن يعمل فى الحقل الطبى.. من حيث كيفية العناية بمريض الإيدز فى المنزل وكذلك الاحتياطات الواجب اتخاذها لمن يقوم بالعناية بالمريض.

● الباب الرابع عشر: علاج الإيدز ثم الباب الخامس عشر عن التطعيم ضد الإيدز.

قبل أن نخوض فى غمار كلمات المؤلف والحديث الشيق عن هذا المرض اللعين.. ينبهنا المؤلف إلى حديث وكلمات فى غاية الأهمية، ولنا معه حق فى أن نعرفها قبل أن نبدأ الرحلة يقول الدكتور عبد الهادى: لا شك أن الإيدز يمثل فى عصرنا هذا مشكلة خطيرة فى سائر أنحاء العالم فى نهاية هذا القرن، ففى الوقت الذى يقف فيه العالم على مشارف القرن الواحد والعشرين تبرز على السطح مشكلة الإيدز لتمثل التحدى الأكبر لكل ما وضع الإنسان العصرى لنفسه من حرية بلا حدود وجنس بلا مبادىء وقوانين بلا إيمان ومسئولية بلا التزام. ومن الطريف أن استطلاعات الرأى العام فى أمريكا عن الإيدز تنتهى وقد بينت هذه الاستطلاعات أن معظم أفراد هذا الشعب يبالغون فى تقديرهم ومعلوماتهم عن مرض الإيدز. حيث تبين من أحد هذه الاستطلاعات أن ٣٦٪ من العينة التى شملها الاستطلاع على المستوى القومى عام ١٩٨٥ يعتقدون أن الإيدز مرض معد تنتقل فيه العدوى مثلما ينتقل فيروس الإيدز!! وفى استطلاع آخر للرأى تبين أن ٦٢٪ من العينة محل الدراسة يعتقدون أن هذا المرض فى طريقه ليصبح وباء ينتشر فى كل أمريكا وأن ٥٠٪ من نفس العينة يعتقدون أن الإيدز ينتقل عن طريق اللعاب.. مما أدى بالمسئولين عن الإعلام والصحة فى أمريكا بوضع برامج مكثفة من أجل التوعية حتى إن آخر استطلاع للرأى عام ١٩٨٩ تبين منه أن ٦٧٪ من الأمريكيين يعرفون جيداً كيف ينتشر الفيروس وكيف تنتقل عدواه.. وبعد كل هذه النتيجة أود ــ وهذا الكلام لم يذكره المؤلف ــ أن تنقل هذه التوعية إلى كل المصريين رغم ما فى ذلك من ذعر وخوف.. ولكنه الحرص المفروض.

الإيدز نكبة اجتماعية مدمرة:

لاشك أن الإيدز لا يؤثر فقط في المريض الذى يصاب، ولكنه يؤثر فى المجتمع كله. وهو فى الحقيقة من الأمراض التى تسبب نتائج نفسية واجتماعية مدمرة لأسباب عديدة منها: أن سبعين فى المائة من المصابين يموتون خلال سنتين من ظهور أعراض المرض ـ أن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن الوصول إلى علاج حاسم لهذا المرض أو تطعيم للوقاية من الإصابة بعدواه ـ أن نسبة كبيرة من هؤلاء المرضى الذين أصابهم فى بداية ظهوره إما من الشواذ أو المزدوجين جنسياً أو مدمنى المخدرات عن طريق الحقن أو من محترفى ومحترفات الدعارة، وهم من الفئات الموصومة وغير المقبولة اجتماعياً للتعامل معها ـ أن أكثر من سبعين فى المائة من مرضى الإيدز يصيبهم المرض وهى فى زهرة شبابهم وفى قمة عطائهم وحيويتهم ـ أن ما يصاحب الإيدز من فقدان القوة البدنية والقدرة على العمل وما يصاحبه من انعزال الفرد عن المجتمع المحيط به أو انعزال المجتمع المحيط به مما يفقده قيمته الذاتية وثقته فى النفس. هذا بالإضافة إلى أن ظهور هذا المرض أثر تأثيراً كبيراً وقوياً فى إظهار نقاط ضعف وانهيار خطيرة ساد بعض المجتمعات تحت اسم الحرية فقد كشف هذا المرض النقاب عن تلك الحرية الزائفة التى يمارسها الشواذ جنسيا ومدمنو المخدرات وكذلك الإهمال وانعدام الضمير والمسئولية والوعى الصحى فى الدول الفقيرة المختلفة فى أفريقيا.

المصير الذى ينتظر مريض الإيدز:

نستطيع أن نتخيل المأساة التى يعيشها مرضى الإيدز، فبعضهم يفقد وظيفته ودخله عندما تعلم جهة عمله بمرضه وبعضهم يفقد مكان سكنه حيث يرفض أصحاب البيوت تأجير سكن لهم وبعضهم ينفض من حوله الأهل والأصدقاء ليصبح وحيداً يائساً بائساً لا يقوى حتى على قضاء حاجته. وأكثر من هذا فإن الأطفال المصابين بمرض الإيدز يرفض قبولهم فى المدارس حتى ولو كانوا مجرد حاملين للمرض. وتبلغ المهانة والمذلة أقصاها بمريض الإيدز حين يموت المريض ويرفض الحانوتى فى بعض الأماكن فى الولايات المتحدة تكفينه ونقل جثمانه إلى مثواه الأخير حتى تتكفل بذلك إحدى الجمعيات الخاصة بمساعدة مرضى الإيدز فيعيش هذا المريض منبوذاً يموت وحيداً.. إنها حقاً مأساة.. وربما كان مرض الإيدز هو أحد نتائج التمدين والحرية التى ارتفعت أصوات المطالبين بها فى النصف الثانى من هذا القرن وهو أيضاً نتيجة لتغير شكل وأسلوب الحياة على وجه الأرض بشكل عام.

منذ ظهور الإيدز عام ١٩٨١ وهناك الكثير من الأقاويل والنظريات التى كانت تنكر مدى خطورته وإمكانية انتشاره فى بقية دول العالم، ومع مرور الأيام تبين مدى خطا هذه النظريات. فعلى الرغم من أن الوباء العالمى ما زال حتى الآن فى مراحله المبكرة إلا أنه بات واضحاً أنه

يمثل خطراً ووبالاً على كل دول الكرة الأرضية.. ويقدر عدد المرضى فى العالم فى نهاية عام ١٩٨٨ بحوالى ربع مليون حالة تم تشخيصها بالفعل وظهور أعراضها المرضية إلا أن هناك فى نفس الوقت مايقرب من حوالى عشرة ملايين شخص فى شتى أنحاء العالم قد أصيبو بالفعل بعدوى فيروس الإيدز إلا أنهم الآن حاملون العدوى لأن الفيروس يعيش بداخلهم فى فترة الحضانة التى يكون فيها كامناً داخل الجسم ولا يحدث أية أعراض مرضية، ولكن الشخص المصاب بالعدوى يكون قادراً على نقلها ونقل الفيروس إلى أشخاص آخرين فى تلك الفترة.

العدوى بفيروس الإيدز.. وهذه هى الوسائل:

أهم وسائل انتقال العدوى هى:

١ــ المعاشرة الجنسية حيث ينتقل الفيروس بمعاشرة الشخص المريض جنسياً سواء تم ذلك عن طريق المهبل أو المستقيم أو الفم وذلك لوجود الفيروس بكثافة تسمح بانتقال العدوى فى كل من السائل المنوى والسائل المهبلى والدم، وعلى ذلك ففيروس الإيدز يمكن أن ينتقل من الرجل إلى الرجل أو من الرجل إلى المرأة أو من المرأة إلى الرجل.

٢ــ الحقن والإبر الملوثة: حيث ينتقل الفيروس أيضاً عن طريق الإبر أو الحقن الملوثة من الشخص المريض إلى الشخص السليم.

٣ــ عن طريق هذه الحوادث الطبية فى مجال العمل الطبى كما هو مسجل فى منظمة الصحة العالمية حتى نهاية عام ١٩٨٧ بخمس عشرة حالة من بين الأطباء والعاملين فى المعامل.

٤ــ من الأم الحامل إلى المولود.. ويمكن أن تحدث الإصابة أثناء الحمل أو أثناء الولادة.

٥ــ زرع الأعضاء والأنسجة: مثل الكلى والقلب والقرنية وصمامات القلب وبالطبع السائل المنوى.

٦ــ الدم ومشتقاته:

بجانب ذلك فإن فيروس الإيدز لاينتقل عن طريق مايلى:

الاتصال العادى والمقابلات الاجتماعية مع شخص مصاب بالإيدز ــ المصافحة بالأيدى أو استخدام الأكواب أو أدوات الطعام ــ استخدام دورات المياه ــ فيروس الايدز لاينتقل عن طريق الأطعمة أو من خلال الرذاذ المنبعث من العطس والسعال.. ومن الثابت فى جميع المجالات أن الفيروس لاينتقل عن طريق لدغ الحشرات. كما أنه **لاينتقل عن طريق التقبيل.**

مراحل العدوى بفيروس الإيدز:

- **المرحلة الأولى:** وتبدأ بمرحلة دوخول الفيروس للجسم وتستغرق من ستة أسابيع إلى ستة أشهر كى تظهر الأجسام المضادة للإيدز فى دم المريض.
- **المرحلة الثانية:** وتتميز بتضخم مزمن فى الغدد الليمفاوية يبقى فترة تتجاوز الثلاثة الشهور وأحياناً أكثر.
- **المرحلة الثالثة:** وفيها يبدأ الانخفاض الحاد والمستمر فى عدد الخلايا الثانية المساعدة.
- **المرحلة الرابعة:** وتتميز بأن المريض لا يستجيب لبعض اختبارات الحساسية التى تجرى تحت الجلد والتى يستجيب لها الشخص الطبيعى الذى يكون جهازه المناعى سليماً.
- **المرحلة الخامسة:** وفيها لا يستجيب المريض لأى اختبار من اختبارات الحساسية التى تجرى له تحت الجلد فى خلال فترة لا تتجاوز ٣ شهور، ثم يبدأ ظهور طفح على الأغشية المخاطية نتيجة للعدوى بفطر كانديدا والذى يتطور فى بعض الأحيان بصورة حادة. حتى إن المريض لا يستطيع أن يبلع أى شىء فى فمه!!
- **المرحلة السادسة:** وهنا يطلق على المريض أنه مصاب بمرض الإيدز حيث يصاب المريض بكافة أنواع العدوى بالميكروب الانتهازى. وهناك من الأعراض المرضية فى المراحل الأخيرة لمرض الإيدز. هذه الأعراض تظهر فى المرحلة الأخيرة من العدوى وفيها يطلق على الشخص اسم مريض الإيدز، وربما كانت هذه الأعراض ليست إلا نتيجة لانهيار الجهاز المناعى للإنسان فيصبح لقمة سائغة لكل هزيل أو قوى من الكائنات سواء بكتريا أو فيروسات أو فطريات أو طفيليات أو غيرها. وهذه العدوى هى عدوى طفيلية ـ عدوى فيروسية ـ عدوى بكتيرية ـ عدوى فطرية ـ أما عن النتائج ـ المعملية لمريض الإيدز فهى:

نقص حاد فى عدد الخلايا البيضاء ـ نقص حاد فى عدد الخلايا الثانية المساعدة ـ انيميا حادة ونقص صفائح الدم ـ نقص فى مقدرة الخلايا المختلفة على القيام بواجباتها الدفاعية ـ عدم اتزان فى تكاثر الخلايا وزيادة مطردة فى صناعتها للأجسام المضادة.

المجموعات الأكثر تعرضاً للإصابة بالمرض:

رغم أن المؤلف قد أشار إلى هذه المجموعات فى مقدمة كتابه إلا أنه قد خصص جزءاً كبيراً من هذا الكتاب للحديث عن هذه المجموعات وبتفصيل علمى هام. ومن هذه المجموعات:

١ـ الشواذ جنسياً بما فيهم المزدجون جنسياً وازدياد نسبة الإصابة بالفيروس عند الممارسة الجنسية عن طريق الشرج أكثر منها عن طريق المهبل.

٢ـ مدمنو تعاطى المخدرات عن طريق الحقن: من الثابت أن تعاطى المخدرات عن طريق الحقن بما يحدث فيه من مشاركة فى الحقن بنفس الإبرة يحدث انتشاراً واسعاً للفيروس.

٣ـ مرض الهيموفيليا: اتضح أن نسبة كبيرة من الذين أصابتهم العدوى بالفيروس كانت من خلال نقل الدم أو البلازما أو أحد مشتقات الدم.

٤ـ الزوجات والأزواج لمرضى ومريضات الإيدز: كذلك أثبتت التحاليل أن الإيدز يمكن أن ينتقل من المعاشرة الجنسية الطبيعية بين الرجل والمرأة. ومن هنا يجب ألا يمارس الزوج المعاشرة الجنسية مع زوجته فى حالة إصابة أى منهما بالعدوى دون استخدام العازل المطاطى الواقى من النوع لاتكس الذى لا يسمح بانتقال الفيروس من خلاله.

إنتقال الإيدز للأطفال أثناء الحمل وبعد الولادة:

فى المناطق التى يكثر فيها انتشار الإيدز عن طريق الاتصال الجنسى الطبيعى، تكون المرأة فى سن الإنجاب فى خطورة كبيرة عند تعرضها للإصابة بالعدوى. وذلك لأن المرض ينتقل إلى المولود فى نسبة كبيرة من الحالات. وقد وجد فى إحدى الدراسات أن نسبة انتشار المرض بين الأمهات الحوامل فى وسط وشرق أفريقيا تتراوح ما بين ٢٪ و١٥٪ من مجموع الحوامل اللاتى شملتهن الدراسة. والوقت الذى يصاب فيه الجنين إذا أصيب أثناء وجوده فى رحم الأم بالعدوى غير محدد أو معروف. والإصابة بالعدوى يمكن أن تحدث أثناء الحمل أو أثناء الولادة أو بعد الولادة عن طريق لبن الأم أو الوسائل الأخرى التى يمكن أن تصل إلى الطفل من خلال الأم. ونسبة إصابة الطفل المولود بالعدوى من الأم المصابة بعدوى الفيروس تبلغ حوالى ٦٥٪ كما أن الإصابة بالعدوى أثناء وجود الجنين بالرحم هى أهم الوسائل.

الفئات التى يجب فحصها لاكتشاف المرض مبكراً:

هناك العديد من الفئات الواجب فحصها بشكل دورى للكشف عن مدى انتشار الإيدز وتحديد نسبة انتشاره.. وهذه الفئات هى: المتبرعون بالدم ــ المتقدمون لاختبارات القبول لأداء الخدمة العسكرية ــ عند التعيين أو الالتحاق بوظيفة أو عمل جديد ــ المترددون على عيادات

ومستشفيات السرطان والأمراض المعدية وأقسام الطوارىء ــ المرأة فى سن الإنجاب الأطفال حديثو الولادة ــ السجون ومستشفيات الأمراض العقلية ــ محترفات الدعارة ــ مرض الدرن ــ الطلاب فى المعاهد والكليات.

الإيدز مرض قديم .. كنا نجهل تشخيصه:

ومن الأسئلة الهامة التى يحاول المؤلف إلقاء الضوء عليها .. وذكر إجابته بشكل علمى هذا السؤال: هل الإيدز مرض جديد أم أنه تسمية جديدة لمرض قديم كان موجوداً بالفعل وربما تغير مافيه، هو سلالة الفيروس المسبب له فقط؟ ومايبرر هذا السؤال كما ذكرنا وجود حالات من الإيدز فى أفريقيا يرجع تاريخها إلى عام ١٩٥٩، كما أن أحد الأطباء فى أمريكا أعلن أنه كان يحتفظ بخلايا مخ بشرى منذ عام ١٩٦٩ لمريض توفى بمرض غريب لم يتم تشخيصه وتبين من فحص هذه الخلايا بعد اكتشاف التحليل الذى يبين وجود الأجسام المضادة لفيروس الإيدز والتحاليل التى يمكن من خلالها عزل الفيروس من هذه الخلايا أن هذا المريض كان مصاباً بمرض الإيدز، ولكنه بالطبع لم يتم تشخيصه لجهل الأطباء به وبسببه فى ذلك الوقت.. وقد جاء إعلان هذا الطبيب فى الوقت الذى كانت تعلن فيه الولايات المتحدة أن الإيدز أتى إليها أساساً من القارة الأفريقية. والحقيقة أن هذا الجزء الهام من الكتاب يتناول بجانب هذا السؤال والإجابة عنه العديد من الأسئلة الأخرى منها. هل يمكن أن يكون الفيروس ليس هو المسبب فى الإصابة بمرض الإيدز.. وآخر يقول: هل هناك علاقة بين الوراثة وهذا المرض؟ وهل يمكن أن يكون للأدوية المختلفة التى تستخدم بكثرة بدون ترشيد أثر فى الإصابة بهذا المرض؟

علاج الإيدز.. وأنواعه.. والتطعيم ضده:

بعد أن تم اكتشاف فيروس الإيدز فى نهاية عام ١٩٨٣ وبداية سنة ١٩٨٤ وتأكد للعلماء والأطباء أنه هو الذى يسبب المرض وتعرفوا على العائلة التى ينتمى إليها هذا الفيروس اللعين.. وكانوا هم أنفسهم أكثر الناس تشاؤماً وشكاً فى أن يأتى المستقبل بدواء يقضى على الفيروس القاتل لما يعرفونه عنه من مميزات خاصة به تجعل من شبه المستحيل الوصول إلى دواء ينجح فى قتل الفيروس أو وقف نشاطه. ولكن العلماء قبلوا التحدى وثابروا على البحث والدراسة. ومع الأيام بدأ شعاع من الأمل.. وعلى الفور بدءوا دراسة الفيروس فى أنابيب الاختبار لمعرفة أى الأدوية يمكن أن تؤثر على تكاثره ونموه.. وقد نجحوا فى هذا المجال نجاحاً كبيراً. كما نجحوا فى المعهد القومى للسرطان فى وضع دراسة من خلال أبحاثهم على بعض الأدوية المستخدمة فى العلاج لتحديد المراحل التى يمكن من خلالها.. ويوماً بعد يوم يسود الأوساط العلمية تفاؤل حيث أصبح العلماء والأطباء يعلمون تماماً أننا على الطريق الصحيح لاكتشاف هذا الدواء الفعال.. هذا عن العلاج.. بشكل مختصر جداً.. أما عن التطعيم فيقول المؤلف: إن الوقاية خير

من العلاج.. ربما كانت هذه الجملة من أروع الجمل التي يمكن أن تقال بالنسبة لأى مرض وبالتأكيد فإنها أروع مايمكن أن يقال على الإطلاق فى حالة مثل الإيدز حيث لا يوجد علاج حتى الآن.

أن الحاجة الماسة للوصول إلى تطعيم مناسب ضد فيروس الإيدز من أهم الأولويات التى يضعها العلماء فى قائمة أبحاثهم ودراستهم منذ أن تم اكتشاف الفيروس وعلى الرغم من مئات الملايين من الدولارات وجهود مئات من العلماء والأطباء التى أنفقت وبذلت من أجل الوصول إلى تطعيم ناجح ضد الإيدز إلا أن الحقيقة أنه مازال أمامنا مشوار طويل للوصول إلى تطعيم ناجح ضد الإيدز وهو هدف الآن صعب المنال. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب.

المدمنون يعترفون (١)

اعتبر كل من يكتب ولو حرفاً واحداً عن الإدمان أو المخدرات أو الهيروين ــ محارباً من الدرجة الأولى، وأجره عند الله.. لأنه يمسك بالقلم ليقول كلمة حق نافعة، هذه الكلمة تضىء أمام شبابنا الطريق حتى يتخطى الألغام البيضاء التى تنفجر فى أية لحظة.. وتأكل فى طريقها الأخضر واليابس!.. ولاشك أن هذا المحارب البطل الشجاع.. يواجه وسوف يواجه بمزيد من الأسلحة الفتاكة التى تعتمد على الخسة والغدر.. وظلام دامس وأشخاص تكاد تصل إلى حد الشكل الهلامى.. باختصار شديد.. إن هذا المحارب لولا إيمانه الشديد بالقضية التى يتناولها ويخوض بقلمه فى دروبها.. من الممكن جداً أن يتحول إلى محارب ضد طواحين الهواء.. تلك الطواحين التى يختفى وراءها المعلم الكبير الذى يوزع كل شىء ليهدم كل شىء دون أن يمسه أى شىء!!

وأنا وأنتم تعرفون جيداً أن وجيه أبو ذكرى من المحاربين الشجعان بالقلم والذين لا يهابون فى الحق لومة لائم.. حتى ولو كان على نفسه ــ لذا فقد حض قلمه هذه المرة.. ليحارب به فى أشرف معركة ضد هذا الوباء الخطير الذى ينتشر بين شبابنا كما يأكل عقولهم. ويجعلهم كأشباح عاجزة حتى عن الحركة.. إنها معركة الإدمان ومحاربة الهيروين.

---

(١) شباب فى دائرة الموت ــ وجيه أبو ذكرى ــ نشر فى حلقتين: الأولى ١٥ مارس ١٩٨٩.

كلمة الناشر أولاً:

هناك مثلث متساوى الأضلاع فى عملية نشر الكتب وإخراجها للناس. الضلع الأول والأساسى هو المؤلف الذى يقدم عصارة جهده وفكره ويحولها بالقلم إلى حروف وكلمات نقرؤها.. أما الضلع الثانى من المثلث.. فهو الناشر.. أو الوسيلة التى بها يخرج الكتاب إلى الناس. ولاشك أن وظيفته كبيرة وعظيمة؛ لأنه الوسيط الذى ينقل الكلمات من الحبر الأزرق إلى المطابع والورق والألوان.. ثم إلى عيون القراء، الذين يعدون هم أنفسهم الضلع الثالث لهذا المثلث. لذا كم يسعدنى أن أجد الناشر من المساهمين فى تقديم أى كتاب.. إذ يشعرنى بأنه ليس فقط مجرد تاجر أو صاحب مطبعة.. بل رجلاً مثقفاً يشارك بجهده وماله وثقافته فى إخراج الكلام المكتوب إلى كتاب مطبوع نستمتع به..

والكتاب الذى بين أيدينا لنقدم له ونعرض لما فيه. كتب الناشر مقدمة صغيرة له.. هى بحق إضاءة مبهرة لما كتبه المؤلف ولإنكار الذات.. عمد الناشر على كتابة مقدمته هذه فى آخر صفحات الكتاب.. ويقول فيها: «.. هذا الكتاب.. يتناول أخطر قضية تواجه المجتمع المصرى.. الآن، ورغم أن خطورتها تثير رعب ملايين الآباء. والأمهات فإنها على المستوى القومى ـ مازالت قضية غير واضحة المعالم والأبعاد.. من هنا أصبحت محاولات التصدى لها.. تتعثر فى حبائل النظرات الجزئية وتغوص فى شباك التحليلات الفرعية دون أن تلتقى بالجوهر أو تصيب الهدف»!

ليس هذا فقط ـ بل يقول الناشر فى كلمته الخلصة: القضية باختصار أن هناك محاولة لاختراق أمن مصر من خلال مؤامرة لاغتيال شباب مصر. والهدف إجهاض صحوة مصر.. بعد أن فشلوا فى هزيمتها عسكرياً واقتصاديا.. وتقرر أن تكون عملية الاغتيال هذه المرة على أرض مصر ذاتها.. داخل مدنها وقراها وفى أعماق شوارعها وحواريها وأزقتها. فقط مع تغيير الأسلحة.. بالهيروين بدلاً من المدافع.. والكوكايين بدلاً من الدبابات.. والحبوب المخدرة بدلاً من الطائرات.. والمعركة يقودها جهاز عالمى شرير تحركه قوى لا تخفى علينا فى الخارج، وأياد خائنة تنتظر من يكشفها فى الداخل».

وفى موضع آخر يقول : «إنه كتاب يجسد تلك الصراعات الملتاعة فى قلب كل أم وكل أب .. وتحذير لكل ابن قبل أن يسقط فى قاع هذه الدائرة الجهنمية كما أنه ــ فى النهاية ــ يمثل صيحة مدوية بضرورة التحرك وإعلان حالة الطوارىء بين كافة الأجهزة المعنية ، لنزع الألغام التى زرعها المتآمرون فى الشارع المصرى .. قبل أن تنفجر فى وجه الجميع » .

تراجيديا المخدرات :

ونعود إلى كلمات المؤلف التى سطرها تحت عنوان المقدمة .. والتى تستغرق أكثر من أربع عشرة صفحة من الكتاب الذى طبع بالقطع الكبير . يقول فيها : لماذا ؟ .. لماذا كتاب كامل عن تراجيديا المخدرات ؟ .. لماذا مشقة لقاء البحث عن المدمنين فى المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وغرف الإعدام .. لماذا مشاركة رجال الشرطة فى حملاتهم ضد تجار المخدرات فى الحوارى الضيقة وتوقع تبادل إطلاق الرصاص ؟!

لماذا المخاطرة إلى الذهاب حيث أوكار المخدرات والمدمنين الخطرة والقذرة ؟ لماذا .. ؟

لماذا الوجود فى مواقع الجرائم الجديدة البشعة علي مجتمعنا المسالم ، تلك الجرائم التى قلبت موازين قوانين الطبيعة بل القوانين السماوية ذاتها وقاموس الحياة ! .. لماذا .. والمكتبة العربية عامرة بعشرات الكتب عن المخدرات وكلها تتحدث عملياً عن خطورة المخدرات ؟! . ألم يكن يكفى بحث علمى عن خطورة المخدرات بدلاً من المجازفة والبحث فى مواقع الإدمان ؟

الجواب باختصار شديد :

وبعد كل هذه الاسئلة الهامة والتى تتعلق بالمغامرة نفسها يجيب المؤلف قائلا : إن حجم مشكلة الإدمان لايتصوره أحد ، إن حجمها فاق كل تخيل . إن خطة صهيونية محكمة وذكية تستهدف مصر ، بل معها الأمة العربية وتلتهم هذه الخطة أعز ماتملك مصر ، وهو شبابها .. إن أعداء مصر وأعداد الأمة العربية يجدون فى استنباط أنواع جديدة من المخدرات قذائف عالية المفعول ، دقيقة فى إصابة الهدف ، فأطلقوها لإصابة قلب الأمة . إن حرب المخدرات التى يجب أن نخوضها بكل الأسلحة هى أبشع بمراحل من حرب الجرائيم . فحرب الجرائيم رغم تحريمها وبشاعتها ، محددة بزمن معين هو زمن الحرب ، ومكان معين هو ساحة القتال ، ولكن حرب المخدرات لاينتهى زمانها والمكان هنا أمة بأسرها ..

.. والثمن كان غالياً :

مجرد محاولة صغيرة من أى شخص عادى منا للاقتراب من أوكار المخدرات أو المتاجرين فيها ، ربما يدفع حياته ثمناً لهذه المحاولة .. ويضيع حياته وأهله وعمره .. ولكن وجيه أبوذكرى كما

ذكرت منذ البداية .. ــ من المحاربين الشجعان الذين خاضوا العديد من الحروب ضد الفساد وضد التسيب بمعنييه القديم والحديث ؛ لذا فهو لم يأبه بما قد يقع له من مشاكل ومتاعب .. فى سبيل التعرف على مافيا المخدرات والهيروين أملاً فى القضاء عليها وتخليص شبابنا من هذا الهم والكرب العظيم .. وبالفعل تعرض لأكثر من محاولة لاغتياله ، وعن ذلك يقول : ولقد دفعت ثمناً غالياً فى سبيل إعداد هذا الكتاب ، حتى كدت أدفع حياتى ثمناً لاعداده . ولكن كيف .. هذا مايقوله لنا المؤلف وبالتفصيل : مثلاً .. كنت ألتقى بالضحية أو مريض الإدمان وأراه دون الإدمان .. أملاً لمصر وفخراً لها ، وبعد الإدمان قد دمر حياته ودمر أسرته ، ودخل دائرة الموت المحقق .

كنت ألتقى مثلاً بشباب أدمن فارتكب جريمة قتل بشعة ولا أخلاقية وهو يجلس فى غرفة انتظاراً لحكم الإعدام .. فإذا به شاب كان نافعاً لمجتمعه قبل الإدمان ، ولكن بعد الإدمان أصبح معولاً يهدم كل جيل فى هذا المجتمع .

شعار جرّب ولو مرة واحدة :

وفى موضع آخر من حديث المؤلف يقول : «ليس سراً أن المخدرات أصبحت متوافرة فى كل مواقع الشباب ، فى الجامعات ، فى المدارس ، فى الأندية ، حتى فى الساحات الشعبية .. وليس سراً أن المخدرات قد طالت لأول مرة فى المرأة فأصبحنا نسمع عن المرأة المدمنة ، والمرأة هى أم رجال المستقبل ، فتخيلوا أمهات المستقبل مدمنات !!

تحت شعار جرب ولو مرة واحدة ، سقط فى كمين الإدمان الشباب والفتيات فهذه التجربة هى الخطوة الأولى فى طريق الإدمان ، فهى أشبه بتجربة الانتحار ، فبعد تجربة المخدرات الأولى ، يصعب بعدها الفرار من المخدرات !!

لقد دفع الإدمان بالمدمنين إلى كل آبار الرذيلة السحيقة ، وانتزع منهم الضمير والتقاليد والمبادىء والقيم وحولهم إلى وحوش كأسرة لا رادع لهم ولا دين .. لقد بحثت عن رقم يصور العلاقة بين الإجرام والإدمان ، فوجدت أن ٧٠٪ من جرائم السرقة والقتل والاغتصاب بسبب الإدمان .

أسباب الفساد :

ويعود المؤلف ليؤكد لنا على حقيقة هامة مرتبطة بغول المخدرات وهول الهيروين هذه الحقيقة ترتبط جيداً بالهدف الأساسى من وضع هذا الكتاب .. فهو يتساءل : لماذا كتاب عن المدمنين

والمخدرات؟ ويجيب هو نفسه بقوله فى السنوات العشر الماضية نتحدث كثيراً عن الفساد، وأحياناً يرى اليساريون أن سبب انتشار الفساد هو تجربة الانفتاح الاقتصادى التى بدأها السادات. وفى موضع آخر من الإجابة عن التساؤل السابق يقول الكاتب.. لا مبالغة إن قلت إن السبب الرئيسى للفساد فى أية دولة هو «مافيا المخدرات».. فلكى تصل إلى المستهلك لابد أن تجد مسئولاً فاسداً!! وحارساً فاسداً وقاضياً فاسداً، ولولا هذا الفساد لما وصلت المخدرات إلى المستهلك!

ويبدو أننا سنعرف الأسرار الخطيرة من خلال متابعتنا لحديث الكاتب الصريح عن هذه النقطة بالذات.. والتى يقصد بها فساد المسئولين وكونهم السبب الرئيسى فى انتشار الإدمان بين الشباب المصرى.. ولكى يفتح شهيتنا للتلقى أكثر يقول بصراحته المعهودة.. تعالوا نتحدث بصراحة فالأمر خطير.. تعالوا نتحدث بصراحة.. ونسمى الأسماء بمسمياتها الحقيقية!!

حكومة مافيا المخدرات:

وتعالوا نقترب من حكومة مافيا المخدرات..

إذا كانت الحكومة تتعامل فى ستين ملياراً من الجنيهات، فإن حكومة مافيا المخدرات تتعامل فى عشرين ملياراً من الدولارات. أى أن الأرقام تتقارب!!

فى أمريكا اللاتينية، فى بلاد إنتاج المخدرات، فإن تجار المخدرات هم الذين يشكلون الحكومة، بما لديهم من نفوذ وقوة. لذلك هناك استحالة فى القضاء على إنتاج المخدرات وأصبحت قوتهم أشبه بالأساطير.. وفى مصر هناك محاولات للوصول بمافيا المخدرات إلى حكومة قوية!!

ومايزال حديث الصراحة واللوعة والنكد مستمراً.. وحتى لا أكون مغالياً لما يدور فى صدرى من ضيق.. تعالوا معى لنستمع إلى بقية حديث الصراحة.. يقول وجيه أبو ذكرى.. قلت تعالوا نتحدث بصراحة فالأمر خطير ـ يتحدثون فى مصر عن ضابط المباحث الكبير، الذى ضبط مخدرات قيمتها خمسة ملايين جنيه، وفى المحضر أثبت أن قيمة المخدرات المضبوطة تقدر بمليون جنيه فقط، وقد أدين هذا الضابط وخرج من الخدمة ومات بعد خروجه بقليل!!

يتحدثون فى مصر.. عن وكيل النائب العام الذى حاول تهريب اثنين غير مصريين ثم ضبطهما وفى حوزتهما مخدرات وحاول الرجل المسئول تهريبهما من مطار القاهرة نظير مبلغ كبير، وقد تم ضبطه بشكل درامى مفزع.

ويتحدثون عن عضو مجلس الشعب الذى يتاجر فى المخدرات، ولم تتمكن أجهزة مكافحة المخدرات من رفع الحصانة عنه، وكان من المهم أن يضبط متلبساً حتى تتم وقاية المجتمع من سمومه، وقد تم ضبطه متلبساً بالفعل.

يتحدثون فى إدارة مكافحة المخدرات عن اثنين فى مؤسسة تشريعية تحوم حولهما شبهة تجارة المخدرات وخاصة تجارة الهيروين.

يتحدثون عن المعلم الكبير «رئيس المافيا» ويحددون ملامحه، وهو رجل خطير له علاقات قوية بكبار المسئولين، وكان فى قمة السلطة، ولم يعد الآن كذلك، ولكن بملياراته يملك سلطة نافذة ويحاول أن يفسد قمم المجتمع حتى يتمكن من خلال فساد القمة أن يدخل كل أنواع السموم فى مصر!!

.. والحل هو الإعدام:

ويخرج المؤلف من كل ما سبق إلى نتيجة فى منتهى الخطورة، ولابد أن نثور وننزعج لها جميعاً.. حيث يقول إذن.. مافيا المخدرات تتسلل إلى مواقع خطيرة!! إلى الشرطة التى تكافح هذه السموم.. إلى القضاء الذى يستطيع أن يقضى على هذه المؤسسات القاتلة للشعب.. إلى مجلس الشعب حيث الحصانة والتشريع، وربما لم تجد هذه العصابات موقع قدم فى هذه المواقع الخطيرة وربما وجدت.. ولا أحد يدرى مدى إنجازهم الشيطانى فى هذا الطريق!!

والآن.. ما هو الحل؟!

الحل.. هو إعدام كل من له صلة بهذه التجارة الكافرة الفاسدة المفسدة. الإعدام.. لزارع المخدرات.. لمنتج المخدرات.. للمتستر على تجارة المخدرات، الإعدام.. لتاجر المخدرات.. لمهرب المخدرات.. والاعدام لمتعاطى المخدرات بعد فترة سماح لعلاجه.. وإذا رفض العلاج.. فلابد من إعدامه. ولكن لماذا الإعدام؟!. يقول الكاتب: إن فى الإعدام رحمة بالمجتمع فيأيها المشرعون.. ويا رجال القانون.. أعدموا هؤلاء الذين يريدون دفع المجتمع كله إلى دائرة الموت..

وقبل أن نفترق حيث الحلقة الثانية:

أنا أعتقد أن كل أسرة قرأت أو تقرأ هذا الكلام الخطير، لابد أن يتحرك داخلها الوعى واليقظة.. وإلا فسنضيع.. ويضيع أولادنا ونصبح بين يوم وليلة.. مخالطين لمجتمع من المدمنين والمرضى ــ تسود فيه كل موبقات الحياة.. وليس هذا كلام للتخويف.. بل إنها دعوة من أجل أن نتكاتف لنحارب هذا الخطر الداهم..

المدمنون يعترفون(٢)

توقفنا معكم ومع المؤلف فى الحلقة السابقة عند الدعوة المفتوحة أو إن شئت نسميها الصرخة المدوية التى طالب بها المؤلف ــونحن معهــ والتى تتعلق بضرورة تطبيق عقوبة الإعدام على المدمنين بكافة أشكالهم، التاجر منهم والمتعاطى، وأيضاً الذى يسهل أو يحمل المخدرات. وعرفنا لماذا هى بالفعل دعوة صادقة من قلب مفتوح لرجل وهب حياته لخدمة القلم والقضايا العامة.

واليوم نستكمل مسيرة الإدمان ولكن بشكل آخر، وبنوعية جديدة.. حيث يصحبنا المؤلف خلالها للحديث عن هؤلاء المدمنين الذين اعترفوا له.. واقروا أنهم بهذا العمل زجوا بأنفسهم داخل دائرة الموت العاجل أو البطىء.

كما ذكرت لكم سابقاً.. إننا على موعد للتعرف على أكثر قصص هؤلاء الشباب الذين غرر بهم حتى دخلوا هذه الدائرة الملعونة.. ونحن نسوق هذه القصص ليس على سبيل التسلية أو التشفى، بل على سبيل التحذير.. لكم ولى.. ولكل من نعرفه من الأقارب والأصدقاء. أملاً فى الانتصار فى حرب الإدمان والبعد عن شبحها اللعين.. وحتى يقف شبابنا بكل قوة وشمم أمام عوارض المستقبل.. لأنهم وهم يعرفون ذلك ــعدة المستقبل وأمل مصر الآن وغداً وبعد غد.

---

(٢) نشرت الحلقة الثانية فى الوفد بتاريخ ٨مارس ١٩٨٩.

أرجوك .. أعطني هذا الدواء :

من بين القصص العظيمة الأثر.. تلك التى سوف أسوقها لك عزيزى القارىء من بين عشرات القصص والعظات التى يقدمها لنا المؤلف على صفحات كتابه .. هذه القصة إن شئت نختار لها عنوان أحد أفلام أستاذنا القصصى الكبير إحسان عبدالقدوس ، التى خرجت للسينما تحت نفس العنوان .. لأن كاتبنا الأستاذ وجيه ينهيها بقوله : « ... والآن .. إذا كنت صاحب صيدلية .. فلسوف تشهد هذا المشهد.. الفنان العجوز، يأتى لك قبل الفجر.. ويتوسل إليك قبل أن تسمع طلبه .. ويقول لك :

ــ ابنى فى البيت يحتضر.. قد يموت الليلة ، وقد يموت غداً .. ولكنه بالقطع سوف يموت .. تصور ابنى سيموت .. أنا السبب .. أبعدته عن الدراسة الإسلامية فى صباه .. لم أسمع نصيحة والدى .. وفكرت أن أعمل منه خواجة .. وفشلت .. جهل منى .. أنا السبب !!

وسوف يبلع الفنان ريقه بعد هذا الحديث .. ثم يضع يده فى جيبه ، ويزج لك ورقة عليها اسم دواء مخدر.. وقبل أن يسلمها لك .. سيقول :

ــ ابنى يحتضر.. وحتى يموت لا أستطيع أن أراه وهو يتألم ..أعطنى هذا الدواء ، أرجوك .. أتوسل إليك .. إذا كنت قد أطربتك يوماً .. إذا كنت قد أدخلت على نفسك الابتسامة يوماً .. فرد لى الجميل .. وأعطنى هذا الدواء لابنى .. فإنه يحتضر ولا أملك أن أراه يتألم !!

والحكاية منذ البداية كما يقول المؤلف .. هى رغبة هذا الأب الفنان فى أن يرى ابنه خواجة .. يتكلم لغات أجنبية .. فأوقعه القدر فى رحلة إلى إيطاليا .. ثم زواج من إيطاليا .. ثم حالة إدمان مستمر مع الزوجة « الخواجاية » !! .. وهذه هى النتيجة .. كما قرأتم من قبل .. وهل يرضى أب أو أخ أن يقف مثل موقف هذا الأب الفنان المشهور؟! .. أعتقد لا وألف لا ؟!

مسحوق يجعلك فراشة تطير:

ونصل إلى القصة الثانية هنا.. والثالثة في ترتيب قصص الكتاب.. ويقول عنها المؤلف «لا أدرى من أين أبدأ.. ولكن تلح على دائماً أن أبدأ من حيث كانت بداية الطريق إلى النهاية.. قد تصل إلى ثماني سنوات.. في هذا اليوم، لم أكن أعلم ما هو الهيروين؟ وما هي خطورته؟. وإلى أين يأخذ الإنسان؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك المسحوق اللعين!!

لقد كنت في مدينة إسطنبول.. وفي أحد فنادقها الفاخرة جاءتني فتاة تركية وقدمت لي هذا المسحوق.. وطلبت مني أن استنشقه وقالت لي:

ــ سوف يجعلك كالفراشة!!

لم أكن أعلم خطورة ما أفعل.. أخذت المسحوق.. وفعلت كما طلبت مني.. ولا أدرى هل أصبحت فراشة أو حماراً؟! ثم أعطتني كيساً به هذا المسحوق لأستعمله وقتما احتاج إليه.. ومن هنا بدأت الكارثة.. ومنذ تلك اللحظة وأنا أسير في درب الفشل.. فالموت لا محالة.. لقد تمكن مني هذا المسحوق.. ولم أعد قادراً على مقاومته!!

والشيء المحزن في هذه القصة أنه شاب مصري أصيل.. ذاق النجاح بعد طول صبر ومعاناة.. إذ ــ وكما يقول ــ المؤلف كان من أسرة مصرية فقيرة.. وكانت مظلة الحنان الأسرى ضابط شرطة.. هو شقيقي الأكبر.. وأنا أعمل مضيفاً بإحدى شركات الطيران العربية، وطبيباً هو أخي الأصغر، وأربع زوجات عظيمات هن بقية إخوتي!!

ولكن هل استسلم هذا الشاب لهذا المسحوق اللعين؟. إن قصة انتصاره على نفسه وعلى المسحوق، تستحق منا ألف وقفة حتى نستفيد ونعتبر. فقط علينا أن نسمع بقية القصة من فم المؤلف على لسان صاحبها..

.. ومرة أخرى.. لا أدرى كم قضيت مع تلك الكوابيس التي تتلاحق واحداً وراء الآخر.. أحسست أن «المسحوق اللعين» كشيطان في جسم إنسان.. يخرج بصعوبة.. ولكن حقيقة أسعدتني.. أنني كرهت هذا المسحوق.. وسوف أفضل الموت أو الانتحار على الإقدام عليه مرة أخرى. أمر آخر أسعدني وشجعني على مواصلة الرحلة الأليمة، لقد تذكرت اليوم فقط طفلتي الجميلة.. تذكرت ابني الصغير، تذكرت زوجتي الفاضلة.. تذكرت شقيقي ضابط الشرطة وشقيقي الطبيب الشاب، تذكرت رحلة الكفاح التي خضتها من قريتي حتى مكاني هنا في طائرة فوق السحاب.

وفي موضع آخر من قصة الكفاح ضد هذا المسحوق الأبيض المدمر يقول المؤلف على لسان المدمن المعترف.. أديت صلاة العشاء.. جلست أتلو آيات من القرآن الكريم، ثم واجهت

امتحاناً صعباً .. لقد اشتدت الآلام فى جسدى ، كما لم تشتد من قبل ، تملكتنى رغبة ملحة فى الصراخ والبكاء ، دخلت معركة كتمان الصراخ ، ولكن تركت دموعى بلا حواجز ، وأنهيت تلاوة القرآن .. من شدة الألم بكيت وأجهشت فى البكاء ، وأفرغت أنهاراً من الدموع وأنا ألعن الشيطان فى جسدى وأتوسل إليه أن يخرج .. فقد هدنى تماماً ، ورحت فى نوم عميق .. كل هذا الصراع ظل ممتداً ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً ، بعدها خف الألم .. وقل العرق وتوقفت الدموع .

وهذه هى اعترافات كاملة .. لشاب قهر الهيروين .. فى معركة شرسة ، استعان فيها بكتاب الله ، وبشراب فيه شفاء للناس ، وعزيمة لا تلين ، وقرار لا عودة فيه .

من القصص المثيرة التى استوقفتنى وصممت بينى وبين نفسى أن أفرد لها مكاناً ومساحة تليق بها .. حتى أعرضها كما هى دون تدخل منى .. تلك القصة التى اخترت لها عنواناً يقول : «مدمن قتل أمه» !! تقول القصة على لسان المؤلف : «كان هذا اليوم من أصعب أيام حياتى .. لم أصدق ما سمعته عبر أسلاك الهاتف .. كان المتحدث زميلاً يعمل فى قسم الحوادث بالجريدة التى أعمل بها ، قال :

ــ مدمن قتل أمه ؟!

وكان ذلك فى أكتوبر عام ١٩٨٥ ولم أكن أعلم قبل ذلك شيئاً عن المخدرات وأنواعها ومدى انتشارها وتأثيرها ، ولكننى توقفت عند هذه الحادثة ، فهذه ليست جريمة عادية ولكنها من أكبر الجرائم ، ولا أتصور أن هناك جريمة أكبر منها ، وتأكدت أن هناك شيطاناً اسمه المخدرات سوف يزلزل العالم كله .. وهو تطبيق عنيف لبروتوكولات حكماء صهيون . كانت هذه الحادثة السبب الرئيسى فى دراستى وكتابتى عن عالم المخدرات ، فهى النيران المندلعة التى قد تحرق العالم وتفسد قيمه .. وتغتال شبابه .. وفى قسم الزيتون كان اللقاء .. التقيت به .. اسمه .. عمره ٢٩ سنة يعمل موظفاً بمركز رعاية الشباب .. وهو شاب وسيم .. وديع .. نعم ، وديع .. وبكى وظل يبكى حتى جفت دموعه .. وسألت العقيد سيف النصر حمدى ، مفتش مباحث القاهرة وقتها :

ــ قال : المخدرات !!

نعم ، المخدرات ، إن كل الدراسات تؤكد أن المخدرات تصيب الإنسان أول ما تصيبه فى قواه العقلية وتعطل قدراته الفكرية ، ولا يتمكن من تمييز الخطأ من الصواب ، وتعبث فيه قوى الشر والعدوان . والمدمن يقتل فيه الإدمان كل العواطف السامية والنبيلة كالحنان والواجب . المدمن يفقد كل قيمه .. فهو « ديوث » وهو الذى يخون وطنه ، وهو الذى يمكن للإعداء تجنيده .. المدمن يميل إلى العنف ، وقد ثبت أن نسبة كبيرة من جرائم الاغتصاب والسرقة والجاسوسية .. يرتكبها المدمنون .

والآن تعالوا.. نستمع إلى الشاب الوسيم الوديع أحمد..

أنا أصغر إخوتى.. نعيش فى بيت هادىء، والدى موظف محترم، ووالدتى سيدة فاضلة وإخوتى، وأنا متفوق فى الدراسة، وأتميز عن أخوتى بحبى للرياضة، كانت أمى تخصنى عن سائر إخوتى.. وكان والدى فخوراً بى، فلست متفوقاً فى الرياضة فقط، بل كنت متفوقاً فى الدراسة أيضاً.

حدث خلاف حاد بين والدى ووالدتى، الخلاف أدى إلى انفصال والدى عن الأسرة وعاش وحده فى شقة بعيدة، وعشنا جميعاً مع أمى!

هزنى الانفصال من الأعماق وكرهت البيت، تسللت بداخلى رغبة ألا أعيش فى البيت. وكان لابد من أن أبحث عن أصدقاء أقضى معهم الليل بطوله، ووجدت ضالتى فى مجموعة من الطلبة الفاشلين!! وميكانيكى سيارات وموظف صغير السن.. وكنا نقضى الوقت حول «كراسى الدخان الأزرق»، وأعود إلى البيت، فإذا سألتنى أمى عن سبب تأخرى كان عندى مبرر لأقول لها كنت مع والدى.. فتسكت.. لقد سهل لى هذا الانفصال البغيض الحصول على ما أحتاج إليه من المال «لزوم» الدخان الأبيض فأطلب من والدتى، وأدعى لوالدى أننى مفلس، فأحصل منه أيضاً على ما أريد.

ورغم كل هذا.. لم أفقد لياقتى البدنية مرة واحدة، وكان أملى أن أكون طياراً حربياً.. وبدأت تتحقق هذه الآمال بقبولى طالباً بالكلية الجوية.. أذكر يوم عدت فى أول اجازة لى مرتديا الملابس العسكرية، رأيت فى عين أمى كل سعادة الدهر، وهى ترى ابنها وقد حقق أمل أمه. ووسط هذه الأفراح وهذا الترحيب شعرت أننى بحاجة إلى جلسة مزاج مع الشلة التى ودعتها قبل خمسة وأربعين يوماً، جمعت الشلة فى منزل الميكانيكى، واشتريت كمية وفيرة من الحشيش، وقضيت كل الإجازة فى منزل الميكانيكى حول الدخان اللعين.

وكانت الليلة السابقة لذهابى صباحاً إلى الكلية الجوية، هى ليلة الوداع وشعرت بنهم إلى الهواء الأزرق وظللت أتنفسه حتى الفجر وشعرت بحاجتى إلى النوم فاستلقيت على الأريكة.. وكان من المفروض أن أكون بالكلية فى الساعة الثامنة صباحاً، واستيقظت، ونظرت فى الساعة فإذا هى العاشرة صباحاً.

ودخلت غرفتى، وارتديت ملابسى العسكرية، وقبل أن أخرج قال والدى..

ــ لقد تأخرت يا بنى عن الكلية..

وثرت فى وجه والدى.. ربما لأول مرة فى حياتى، كانت ثورتى صادقة نابعة من قلب ممزق.. لقد قلت كلاماً كثيراً ندمت عليه عندما وصلت إلى كليتى، لقد أفقدنى الدخان الأزرق الوعى، فنسيت أننى أتحدث إلى أمى وأبى رغم ارتكابهما أبغض الحلال!

التقارير فضحتنى:

واجهت فى الكلية إهانات لا حصر لها من قادتى.. كما أنه توجد بالكلية فحوص طبية دورية.. وبعد أحدها، جلس معى الطبيب، وبدأ يسألنى عن إجازتى وكيف قضيتها؟ ورويت له سلسلة من الأكاذيب، وأمسك الطبيب بورقة فحوصات وقرأ فيها يسألنى:

ــ أى نوع من المخدرات تناولت؟!

هنا كان يصعب الكذب.. قلت له: ــ شربت سيجارة بداخلها حشيش.. وندمت على ذلك!

قال:

لا.. ليست سيجارة واحدة.. اسمع يا بنى، سوف أخفى هذا التقرير.. وحاول أن تقلع تماماً عن المخدرات، وسوف أعاود الكشف عليك بعد الإجازة القادمة، وسأقدم التقرير إلى مدير الكلية.

وجاء يوم الإجازة، وقررت أن أبقى فى الكلية حتى لا أعود إلى شلة السوء.. وحتى لا أفقد البدنية أكثر، وأقلع تماماً عن التدخين.. ولكن رغماً عنى وجدتنى أرتدى ملابسى العسكرية وأتوجه إلى شلة السوء ولم أذهب هذه مرة إلى المنزل. وقضيت إجازتى بينهم وتخلفت عن موعدى، وتكرر التخلف، وقدم الطبيب تقريراً عن لياقتى البدنية، وتم تشكيل مجلس عسكرى وقفت أمامه متهماً وانتهى قرار المجلس بفصلى من كلية الطيران.

خرجت من الكلية رأساً إلى الميكانيكى، رحب بى، حكيت له ما حدث لى.. طمأننى وبعد قليل دق جرس الباب، ودخل شاب مريب، ورحب به الميكانيكى وبدا عليه الخوف، ولكن صديقى طمأنه، وسرعان ما شمر عن ذراعه وأخرج هذا الشاب حقنة أعطاها فى الوريد لصديقى الميكانيكى ودعانى لأفعل مثله.

ــ هذا؟

ــ ماكس!!

ولا أدرى، مددت ذراعى لهذا الرجل، وحقن وريدى بهذا السائل، وبعد لحظات أحسست بأن مشكلتى انتهت. ودخلت عالماً جديداً بلا مشاكل.

وقضيت الليلة عنده.. وفى الصباح.. ذهبت إلى بيتى وعرفت والدتى بأن حدثاً مروعاً قد حدث، وقلت لها دون أن تسأل:

ــ لقد فصلت من الكلية؟!

... وثارت وضربتنى، ولطمت الخدود، وسقطت مغشياً عليها.

عشت شهوراً، أستيقظ متأخراً، أتناول غذائى، أحصل من أمى على ما أحتاج إليه من المال، وأذهب إلى منزل الميكانيكى. وفى المساء.. نلتف حول الدخان الأزرق. والماكستين فورت.. ولم أتمكن من مقاومة هذا السائل، وكنت أتناوله فى الوريد كل يوم وزادت حاجتى للمال، وبدأت الشكوك تساور أمى، وطلبت من شقيقى الأكبر أن يراقبنى، حتى شاهدنى فى منزل الميكانيكى، وبصق فى وجهى وخرج.. وكم حاولت اللحاق به لأمزقه!! وبعد أيام من هذا اللقاء عدت إلى البيت لحاجتى إلى المال من أمى.. وهناك قررت أن تعالجنى بعدما رفضت إعطائى ثمن حقنة الماكس!.. ودخلت المستشفى وأنفقت على عدة آلاف من الجنيهات وخرجت من المستشفى بعد شهر من العلاج.. وحاولت أن أستعيد دورى فى الحياة، فاقترحت أن أنشىء مشروعاً ظل مؤجلاً حتى تبيع أمى فداناً من أرضها.. وقررت العودة، إلى عملى وعدت إلى الغرفة الضيقة بالحارة، وذهبت من جديد إلى الشلة ثم إلى الإدمان!!

نعم.. تملك منى الإدمان.. ومع تملك الإدمان، ازدادت حاجتى إلى المال.. فذهبت ذات يوم إلى البيت.. وكانت والدتى تؤدى الصلاة.. وعندما انتهت، طلبت منها مالاً.. فقالت لى: إخرج من بيتى.. أنت مدمن.

وحدثت مشادة، وكنت فى غير وعى، وشعرت بأن العالم كله يحتقرنى، فلابد أن يموت كل من يحتقرنى، ووجدت نفسى أجرى ناحية المطبخ، وأحضر سكينا وأقتل فى أمى نظرات الاحتقار.. واندفع الدم من جسدها كالنافورة.. ثم ذهبت إلى قسم الشرطة أسلم نفسى!!

قلت له فى نهاية هذا اللقاء الحزين:

ــ هل تريد إضافة شىء؟

ــ نعم.

ــ أخبرنى.

ــ أريد حبل المشنقة يلتف بسرعة حول عنقى!!

أتوسل إليك الرحمة:

وقبل أن أغلق ملف هذه القصص التى يشيب لها الولدان.. آثرت أن أقدم آخر هذه القصص فى هذه الحلقة.. ولكن ترتيبها.. القصة الثانية عشرة ضمن قصص الكتاب الذى وضعه وجيه أبو ذكرى.. ولضيق المساحة هنا.. سوف أنقل بعض ملامحها الرئيسية.. والتى تقول: كان يجلس مرتجفاً فى ركن من أركان غرفة سجن الاستئناف بالقاهرة، يرتدى البدلة الحمراء.. انتظاراً لتنفيذ حكم الإعدام، عندما يسمع صوت حذاء الجندى خارج الغرفة تنهار قواه.. وتبتل ملابسه، ويتفصد جسده عرقاً، ويتحول إلى تمثال، وجهته باب الغرفة التى

سوف تفتح بعد قليل ليجروه إلى حبل المشنقة، ويختفى الصوت فتتجمع بقايا قواه وينهض بصعوبة ويحاول أن يصل إلى الطاقة الصغيرة الموجودة فى غرفته، ويتحدث إلى الله بصوت منخفض ثم يرتفع الصوت قليلاً ثم يرتفع أكثر.

حرمت يارب.. حرمت يارب.. أنقذنى من حبل المشنقة، أنقذنى يارب.. أنقذنى يارب.. حرمت.

ـ ارحمنى ياعم إسماعيل.

وينظر إليه عم إسماعيل نظرة كراهية ويقول:

ألم تسترحك تلك الصبية؟ ألم تتوسل إليك، فلم ترحمها ولم تستمع إلى توسلاتها؟

ـ غلطة ولن تتكرر.

* * *

كنت قد حصلت على تصريح لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، فى واحد من ستة شبان أمسكوا بفتاة طاهرة نقية فى حى المعادى الهادىء بالقاهرة.. جلست مع حارسه، أستمع عنه عما يفعله هذا الذئب البشرى، فروى لى عم إسماعيل ما بدأت به هذه المأساة:

وفى موضع آخر من القصة يقول الكاتب: ذات يوم عصيب.. تعطلت سيارته (يقصد سيارة الجانى) فذهب بها إلى الورشة التى كان يعمل بها وطلب من صديقه الميكانيكى أن يتفرغ لإصلاحها، بحيث تكون جاهزة للسفر صباحاً. وفى المساء ذهب إليه ووجد السيارة تقف على باب الورشة كالعروس..

ـ تمام..؟

ودخل السيارة وأدار المحرك.

ـ تمام تسلم إيديك!!

ودعاه إلى سهرة فى منزله، وذهب معه وشربا الشاى وبعد دقائق جاء ثلاثة ورحب بهم الميكانيكى.

ـ أحضرت الصنف؟!

ـ قالوا لى: إنه صنف فاخر!

ـ من السبتية أو الجيارة.

ـ من حورية فى الجيارة؟!

وبدأ الجميع حلقة الشم.. وشعر بسعادة غريبة وأحس أنه كالفراشة يطير، بل أحس برغبة جنسية ملحة، كما أحس برغبة شديدة في المغامرة فهي ليلة واحدة سعيدة.

ومن بعد هذه الجلسة وباختصار شديد وقعت الجريمة.. وأصبح مكانه داخل هذه الزنزانة انتظاراً لحكم الإعدام.

.. وبعد:

هذه ـ كما ذكرت لكم من قبل ـ هي مجرد نماذج لقصص كثيرة جاءت على لسان المؤلف من خلال اعترافات الشباب المدمن الذي أدخل نفسه طواعية في دائرة الموت.. والهدف الأساسي من وراء عرض مثل هذه النماذج أن نقدم صورة صادقة لبعض الشباب المصري الذي ضاع وسط دوامة المسحوق الأبيض.. وكلنا أمل في أن يستوعب شبابنا وكل أسرة مصرية مدى فداحة هذه الحرب.. ومرة أخرى.. بل ولنقف وقفة رجل واحد.. يتقدمنا المؤلف حتى نوقف نزيف هذا المسحوق دفاعاً عن شباب مصر الأمل والمستقبل.

المخدرات والإدمان .. المواجهة والتحدى(١)

كم أنا سعيد .. لتلك المحاولات التى بذلت ومازالت من أجل تخليص مصرنا الحبيبة من هذا الداء اللعين .. الذى أعتبره فى مصاف الكوارث التى لولا اليقظة والتصدى لأسبابها لعصفت باليابس قبل الأخضر .. إن المخدرات لاشك جميعنا يعلم آثارها المدمرة على كل ماهو ناضج ومفيد من عناصر مجتمعنا. هذه المحاولات .. وهذه الجهود شاركت فيها جهات مختلفة، على رأسها الصحافة التى كانت بمثابة جرس الإنذار الذى يدق فى كل لحظة من أجل «نوبة صحيان» تهز كياننا من الداخل حتى نستيقظ، وأظن أننا مازلنا نعيش مع التحقيقات الصحفية فوق العادة التى تناولت تلك القضية، ليس هذا فقط .. بل إن الجهاز الخطير الذى يتحمل مقاومة ومحاربة هذا الداء اللعين، هم ضباطنا الاعزاء الذين أخذوا على عاتقهم المحاربة فى كل ميدان يقترب أو يبتعد من المخدرات. وأيضاً أظن أننا نعيش ولانزال مع تلك الحملات التى يقودها هؤلاء الضباط على المستوى المحلى أو الدولى لضبط مروجى هذه السموم .. والقضاء على أوكارهم لحماية الشباب المصرى الذى يمثل المستقبل بكل معانى الكلمات. وكنت حتى هذه اللحظة أظن أن جهود هؤلاء الضباط تقتصر على تلك الحملات الشرسة، ولكننى فوجئت وحين وصلنى هذا الكتاب أن هناك من الضباط المصريين الذين وهبوا حياتهم لمقاومة هذه الكارثة ليس فقط فى مجال الضبط بل فى مجال التوعية والمساهمة الفعالة فى هذا الميدان، واتخذوا من

---

(١) المخدرات والإدمان ـ المواجهة والتحدى ـ اللواء محمد عباس نشر فى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩.

الوسائل المتنوعة المتاحة أمامهم أطواق النجاة التى عن طريقها يمكن أن نعبر هذه الكارثة ونقضى عليها كلية .

إن الكتاب هو ذلك السلاح الخطير الذى به وبما فيه من كلمات نستطيع أن نضيف الشىء الكثير فى هذه المعركة . لقد تصدى اللواء محمد عباس .. الخبير الدولى فى مكافحة المخدرات لمثل هذه القضية واقتطع من وقته اللحظات الثمينة كى يسجل لنا خطورة هذه المخدرات ، وكيفية القضاء عليها من خلال كتاب عظيم خصصه بكل أوراقه عن « المخدرات والإدمان ــ المواجهة والتحدى » هذا هو عنوان الكتاب الذى سيكون ضيفاً على مائدة المعرفة هذا الأسبوع . ولعلى معكم أنتظر أن أعرف الكثير عن المخدرات وأنواعها ، كما أضيف لمعلوماتى ومعلوماتكم الشىء الكثير والثمين . خاصة أن مؤلفه ليس كما قلت مجرد ضابط بوليس فقط بل خبير دولى لدى الأمم المتحدة فى مقاومة هذه السموم .

أعتقد أننى أطلت عليكم بتلك المقدمة . ولكن لى العذر فقد جرى منى القلم رغماً عنى عسانى أشارك هؤلاء ولو بكلمة فى القضاء على هذه السموم . وحتى نتنفس جميعاً هواء نقياً ، ونبعد هذا الشر عن شبابنا .. الأمل .

هذا الكتاب .. بقلم خبير مكافحة المخدرات:

فى مستهل السبعينيات، نقلت من عملى فى مجال الأمن العام بإحدى محافظات الدلتا .. إلى الإدارة العامة لمكافحة المخدرات. لم تكن رحلتى فى غياهب مكافحة المخدرات بوجه عام، والمكافحة الدولية على وجه الخصوص مجرد واجب وظيفى بقدر ما كانت هواية أحببتها ورسالة آمنت بها. ولم أكن قد اخترت الكتابة فى يوم ما، ولكنى احترفت الحرب الضارية لآفة المخدرات التى تهدد أولادك وأولادى، ومع كل لحظة قضيتها فى مجال المكافحة كانت الضحايا تتساقط لتلهب سعير الحرب، ولهذا فإن هذا المؤلف إنما أعتبره وبحق استمراراً لكفاحى فى هذا الميدان، وفيه أتناول حرب المخدرات إقليميا ودولياً من أكثر من زاوية. والكتاب يضم خمسة فصول تحوى كل الجديد عن هذه الحرب وعن خفاياها. فلعله مما يجافى الصواب شيوع الاعتقاد بأن إحراز النصر فى هذه المعارك، إنما يتم من خلال المكافحة الإقليمية فحسب ــ فالمخدرات خطر مستورد، وبغض النظر عن أنيابه التى تهدد وتهدر اقتصاد الأمم والشعوب، فإنه يوجه إلى شعوب الدول النامية والمتقدمة على حد سواء. لذا فقد تضمن الفصل الأول إفراداً لأنواع المخدرات الشائعة وفق معيار يعتمد على تصنيفها طبقاً لتأثيرها على الإنسان، ولهذا اشتمل هذا الفصل على التعريف بالمهبطات وأنواعها، كما تضمن كذلك المنشطات بأنواعها والمهلوسات وأصنافها وكذلك تضمن تفصيلاً عن الحشيش بوصفه من المخدرات الشائعة فى مصر. أما فى الفصل الثانى فقد تناول المؤلف أنواع المخدرات السابق إيضاحها بالفصل الأول من حيث مناطق الإنتاج والزراعة لكل مخدر على حدة. أما الفصل الثالث فقد تعرض لمشكلة العصر ألا وهى الإدمان موضحاً الأسباب الخفية لتعاطى المواد المخدرة، ثم خصائص الإدمان. والفصل الرابع تضمن طرق المواجهة لمشكلة المخدرات على المستويين المحلى والدولى. مثل إجراءات الوقاية والعلاج والضبط والجهات ذات الصبغة الدولية المعنية بالمكافحة على المستوى الدولى. وأخيراً الفصل الخامس وتحدث فيه المؤلف عن الأبعاد القانونية لحرب المخدرات باعتبار أن التشريع من أهم ميادين المواجهة فى هذه الحرب الضارية.

الغلاف .. وصورة أحد الشمامين :

قبل أن تبدأ رحلتك داخل هذا الكتاب. وقبل أن يصدمك ما فيه من معلومات تهزك وتقتلع كيانك من الداخل ألما وخوفاً. قبل كل ذلك تقابلك الصورة المرسومة على غلاف الكتاب. وهي بالفعل تقول لك كل شيء وتحكي المأساة التي تجسدت على وجه هذا الإنسان المدمن الذي شاخ وكبر عمره ألف عام فوق عمره الحقيقي. لقد نجح الفنان مصطفى حسين كعادته في تجسيد هذه الكارثة في تحديد ملامح هذا الإنسان المسكين الذي وقع ضحية الإدمان واستسلم لغول المخدرات. قلبي وعقلي مع هؤلاء الذين غرر بهم تحت أي مسمى من المسميات. وهأنذا أقدم هذا الكتاب مساهمة بسيطة مني من أجل القضاء على هذه الصورة المرسومة على غلاف الكتاب. وحتى تتحول الصورة نفسها إلى إنسان قوي يتمتع بالصحة والعافية التي تعود بالخير على المجتمع الذي نعيش فيه. من أجل كل ذلك أجدد دعوتي إليك لنعيش معاً لحظات بين كلمات هذا الكتاب. وقبل أنسى أود أن أذكر نفسي بعنوانه الذي يقول «المخدرات والإدمان .. المواجهة والتحدي».

أضواء على المواد المخدرة بكل أنواعها:

كان لإغراق البلاد بأنواع المخدرات آثاره السيئة المدمرة على المستويات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية لقطاعات هامة من أفراد الشعب. ولم يكن بد إزاء هذه الهجمة الشرسة من التعريف بها وتصنيفها تبعاً لمكوناتها وتأثيراتها حتى نتبين خطورتها علينا جميعاً.

● **تعريف المخدرات:** المادة المخدرة هي تلك المادة التي تؤثر على الجهاز العصبي المركزي للإنسان لدى تعاطيه إياها كما، تؤثر على نشاطه العقلي وحالته الصحية والنفسية.

● **تصنيف المخدرات:** تصنف المخدرات تبعاً لمصدرها أو طبقاً لأصل المادة المستخلصة منها حيث تنقسم طبقاً لهذا المعيار إلى مخدرات طبيعية، ومخدرات نصف تخليقية ومخدرات تخليقية. فالمخدرات الطبيعية ذات الأصل النباتي مثل خشخاش الأفيون، ونبات القنب، ونبات القات، وفي نبات الكوكا. وفي جوزة الطيب. وأما أنواع المخدرات نصف التخليقية فهي مواد مستحضرة من تفاعل كيميائي بسيط مع مواد مستخلصة من النباتات المخدرة مثل الهيروين. وأما المخدرات التخليقية فهي عبارة عن مواد ناتجة عن تفاعلات كيماوية معقدة بين المركبات الكيماوية المختلفة ويتم ذلك بمعامل شركات الأدوية ومراكز البحوث.. وبالتالي فهي ليست من أصل نباتي.

المهبطات والمنشطات والمهلوسات والحشيش:

أما التصنيف الثانى للمخدرات فيتم. طبقاً لتأثيره على النشاط العقلى للشخص المتعاطى وحالته النفسية .. حيث تنقسم إلى مهبطات ومنشطات ومهلوسات .. وبالنظر لما تبين من أن تأثير الحشيش على النشاط العقلى يتغير وفقاً لكمية الجرعة المتعاطاة فهو يكون مهبطاً لدى تعاطى جرعات صغيرة ومهلوساً إذا ما استعمل بكميات كبيرة ، فقد رأينا إفراد تقسيم مستقل للحشيش فى إطار التصنيف الذى نرجحه ، ومن ثَمّ سنورده بمزيد من التفصيل وذلك على النحو التالى :

● **المهبطات:** تتميز هذه المجموعة بتأثيرها المهبط على الإنسان . ومن أنواعها الأفيون الذى يستخلص من نبات الخشخاش .. وقد عرفته البشرية من أزمنة سحيقة ، إما للرفاهية أو للاستخدامات الطبية .. ويتم تعاطيه باستحلابه عن طريق الفم بوضع قطع منه على اللسان مع شرب القهوة أو الشاى ، وذلك فى الهند وبعض دول الشرق الأوسط مثل مصر. أما فى أوروبا وأمريكا فإنهم يحقنون المحلول فى الجسم .. وفى الصين يدخن !! حيث يكون ضرره أقل من ابتلاعه أو حقنه .

أما الفرع الثانى من هذه المهبطات فهو المورفين الذى يعد المادة الفعالة فى الأفيون والذى اكتشفه عدد من الباحثين الفرنسيين والألمان والذين اشتقوا اسمه من «مورفيوس» أى الأحلام فى أساطير الأغريق .

والمورفين فى الأصل عبارة عن مسحوق ناعم الملمس يشبه البن المطحون كما يوجد على شكل أملاح . ويتم تعاطيه عن طريق الحقن تحت الجلد أو فى العضل ، ونادراً ما يتعاطونه عن طريق البلع . ويتسبب هذا المخدر فى إسكان الألم مهما كان شديداً ؛ ولذا يعتبر من أقوى ما عرفه الإنسان من مواد مسكنة للألم . بجانب ذلك فإن تعاطيه يؤدى إلى إزالة القلق والخوف ويزيل الشعور بالتعاسة ويعطى شعوراً بالسعادة وعدم الميل للحركة أو التفكير.

أما النوع الثالث والأخطر فهو الهيروين والذى اكتشف فى نهاية القرن التاسع عشر، وكان أول من أشار إليه هو الدكتور أولر رايت الكيميائى الإنجليزى عام ١٨٧٤ وقد نجح تجار المخدرات فى استخراج الهيروين من قاعدة المورفين بطرق كيماوية مختلفة ، ويؤدى ذلك إلى وجود أربعة أنواع منه هى الهيروين الأسود لعدم تنقيته ويتكون من قطع كبيرة صلبة . ثم الهيروين الجاف وهو عبارة عن مادة صلبة يمكن تحويلها إلى مسحوق بتفتيتها بين الأصابع . أما النوع الثالث فهو الهيروين المكون من حبيبات . ثم الهيروين ذو المسحوق الأبيض الدقيق المنقى بدرجة كبيرة ولا يحتوى إلا على القليل من الشوائب . وتكمن الخطورة عند استعماله لدى المدمنين فى تباين

الأنواع وكثرة المواد المخلوطة.. فإذا اعتاد أى من المدمنين تعاطى الهيروين بدرجة معينة من النقاوة ثم تناول جرعة منه بدرجة نقاوة عادية فقد يؤدى ذلك إلى اضطراب شديد فى نبضات القلب وحدوث وفاة مفاجئة.

● **المنشطات:** منها الكوكايين والقات والإمفيتامينات. ولعل أهمها جميعاً هو الكوكايين الذى نتناوله بالتفصيل كما يلى: يتم استخلاص المادة شبه القلوية من الأوراق وتجرى معالجتها كمياوياً. والكوكايين فى العادة مادة ناعمة لونها أبيض وتوجد فى شكل مسحوق بللورى عديم الرائحة. ويتم تعاطيه بعدة طرق منها مضغ أوراق الكوكا والشم والحقن.

● **المهلوسات:** إن عقاقير الهلوسة مواد مخدرة طبيعية ومصنعة تشوه الرؤية الحقيقية للأشياء فتعطى خداعاً حسياً يجعل من الصعب التفرقة بين الحقيقة والخيال، وإذا ماتعاطاها الفرد بجرعات كبيرة فإنها تؤدى إلى الهلوسة، كما تؤدى إلى رؤية ظاهرية لصور وأصوات غير حقيقية، ومن أعظم أخطارها عدم القدرة على التنبؤ بآثارها مقدماً. ومن أهم هذه العقاقير الميشكالين والسيلوسين والديمثيل تربتاً من الدوم والداى اثيل حمض الليسيرجيك، ويتم تعاطيه بعدة طرق منها بلع الأقراص أو الكبسولات، استحلاب الجرعة ثم إذابته فى قطع من السكر أو الحلوى.

● **الحشيش:** والحشيش هو الاسم العربى لمخدر شرقى يستخلص من نبات القنب الهندى. وهى كلمة مشتقة من كلمة شيش العبرية ومعناها الفرح، وذلك نسبة إلى تأثيره المفرح كما يقول متعاطوه. ولكى يصل المخدر المستخرج من النبات إلى المتعاطى يمر بمراحل عدة منها تحضير شجيرات الحشيش وتجفف جيداً فى الشمس لمدة أسبوع ثم تسحق الأوراق الجافة تماماً ثم تنخل فى مناخل من حرير وتخلط نواتج هذه المرحلة كل على حدة وتعبأ فى صفائح تمهيداً لتشكيلها حسب رغبة التجار والمهربين.

ثم هناك مايسمى بزيت الحشيش أو الحشيش السائل. وعن طريق التعاطى يقول المؤلف: إن من أهم الطرق التى يمارسها المتعاطون للحشيش تدخينه بواسطة السجائر أو فى البورى أو الشيشة أو الجوزة وهى الطريقة الأكثر انتشاراً فى مصر.

مناطق إنتاج المخدرات وأساليب التهريب:

تفاقمت مشكلة المخدرات فى السنوات الأخيرة على المستويين المحلى والدولى تفاقماً خطيراً، حيث اقتحمت ميادينها ترويجاً واتجاراً وتهريباً قوى عديدة كان أبرزها تلك العصابات الدولية

المنظمة القائمة على شبكات محكمة . ولقد أصبحت مواجهة هذه الموجة التخريبية ضرورة حتمية يمليها الواجب الوطنى . وفى حرب المخدرات ، غير أن إغلاق منافذ التهريب يعتبر أهم العوامل المؤثرة فى سد منابع ورود المخدرات ، ومن ثم الحد من انسيابها داخل الدولة . ومن هنا فإن أحد أساسيات المواجهة هو التعرف على منابع الإنتاج ، بمعنى مناطق الإنتاج والزراعة والتصنيع التى تمول أسواق الاستهلاك فى العالم أجمع لإمكان الوقوف على موقف البلد المراد خوض هذه الحرب فيه من باقى الدول . ويكون خط الدفاع الثانى هو معرفة أساليب التهريب والاتجار التى شاع استخدامها . وفى ضوء ما تقدم يتضمن هذا الفصل مناطق الإنتاج والزراعة وأساليب التهريب والاتجار. وبالنسبة لمناطق الزارعة نجد أن مناطق الإنتاج هذه ومناطق الزراعة تختلف من قارة إلى أخرى فبينما تتركز زراعة نبات الكوكا فى أمريكا الجنوبية نجد شجيرة الخشخاش تنمو وتزرع فى الشرقين الأدنى والأوسط ، ويزرع الحشيش والماريجوانا فى أماكن متفرقة من العالم وبالنسبة لأساليب التهريب نجدها تتمثل فى الوسائل أو الأساليب : التهريب الذاتى ـــ التهريب بالسيارات ـــ التهريب بالطائرات ـــ التهريب بالسفن والشاحنات المائية .

نماذج يومية لضحايا الإدمان :

غريب هذا الذى يحدث هذه الأيام لأبنائنا .. لشبابنا .. لمجتمعنا . أن حجم جنون الأدمان يتعاظم كل يوم بشكل مخيف بين كل طبقات المجتمع . لا يفرق بين غنى وفقير وبين مثقف وجاهل . وكثيرون سقطوا فى دائرة الادمان وأصبحوا عبيدا لأنواع شتى من المخدرات . فكل يوم تطالعنا الصحف بصور شتى مخيفة لضحايا الإدمان .

فمن منا لم يسمع عن السيدة التى رهنت ابنها البالغ من العمر اثنى عشر شهرا من أجل شمة الهيروين ولما لم تجد المال الذى تدفعه لاسترداد الرهينة اندفعت لممارسة البغاء من أجل الحصول على المال !! .

ومن منا لم يسمع عن المقاول الذى كان يعيش فى رغد العيش يتنقل هو وأسرته فى ثلاث سيارات فاخرة ويمتلك العمارات والأموال ، ثم سقط فى هوة الادمان فباع كل ما يملك وأصبح عبدا لتجار المخدرات يسخرونه فى حمل الهيروين ، ولما لم تسعفه أجرته أقنع زوجته بمساعدته فى نقل الهيروين وإخفائه فى مهبلها ، وانتهى بها الأمر إلى ضبطها ودخولها السجن لتنفيذ عقوبة الأشغال المؤبدة ودخول زوجها مستشفى الأمراض العقلية .

وطالب جامعى ابن موظف كبير أدمن الهيروين بعد موت والده ، وحاولت أسرته علاجه أكثر من مرة فى إحدى المصحات الخاصة غير أنهم لم يفلحوا معه ، وبعد أن نفدت نقوده قام

ببيع عفش منزله والتحف التى جمعها والده طوال مدة خدمته فى خارج البلاد وانتهى به الأمر إلى الاتجار فى الهيروين حتى يستطيع توفير حاجته من الشم إلى أن ضبط ومعه ١١ شمة كان يروجها لأصدقائه.

وموظف كبير ابن وزير حالى عاش حياة مدللة لأنه الابن الوحيد، اعتاد تدخين السجائر وشرب الخمر وتعاطى الحشيش أثناء دراسته الثانوية والجامعية، أدمن الهيروين وأنفق عليه كل دخله وكل مايستطيع الحصول عليه من عائلته. وبعد أن نفدت أمواله اتجه إلى تجار المخدرات لمساعدتهم فى تجارتهم وتزوج ابنة أحدهم ففصل من عمله وازداد توتره العصبى، ويوما ما أطلق الرصاص من مسدسه على زوجته لعدم إمكانها توفير الهيروين ودخل السجن انتظارا للحكم عليه. والأغرب من هذا اتجاه كثير من الشباب والمثقفين إلى العمل فى التهريب والاتجار بالمواد المخدرة من أجل تحقيق الكسب السريع أو من أجل تحقيق الأموال اللازمة للإنفاق على الإدمان.

أسباب تعاطى المخدرات وخصائص الإدمان:

إن الإدمان هو حالة نفسية أو جسدية ناجمة عن التفاعل الداخلى بين العقار والكائن الحى ويتميز بالاستجابة السلوكية التى تحدث لدى الإنسان فتضطره إلى تناول العقار بصفة مستمرة أو دورية لكى يظهر الأثر النفسى المستهدف تفاديا للاضطرابات النفسية أو الجسدية التى تنتاب الشخص إذا لم يتعاط تلك المادة. وتتفاوت قوة تحمل العقار من شخص لآخر. وقد يكون الشخص الواحد مدمناً لأكثر من نوع واحد من العقاقير. وعبارة العقاقير المسببة للإدمان نعنى بها إحدى المواد التى تحدث تنشيطاً أساسياً فى الجهاز العصبى المركزى والهبوط فى الجهاز العصبى كذلك كما تحدث خللاً فى الإدراك الحسى أو المزاج أو التفكير أو السلوك أو وظائف الأعضاء.. والإدمان نوعان: إدمان نفسى حيث يتولد من الإحساس والشعور بالرضا. وإدمان جسدى، وهو يعتبر أشد فتكاً من الإدمان النفسى لأنه يؤدى بالمدمن إلى حالة من الاعتماد الجسمى على التعاطى؛ ومن ثم فإن الامتناع عن تناول العقار يؤدى إلى ظهور عوارض جسدية خطيرة قد تحدث الوفاة أو تصيب الشخص بأعراض بدنية خطيرة. ومن أهم الأسباب الخفية لتعاطى المخدرات العوامل الذاتية والعوامل الاقتصادية والعوامل السياسية والعوامل الثقافية.

طرق علاج المدمنين:

إن مشكلة الإدمان عميقة الجذور بعيدة الغور.. ولايكفى فيها بيان إضرار المخدرات ومساوئها، لأن المدمن يعلم فى الغالب هذه الأضرار، ورغم هذا يقدم على المخدر.. والطرق المتبعة فى علاج المدمنين لاتختلف كثيراً عن تلك المتبعة فى علاج الأفراد الذين يعانون الاضطرابات المزمنة المصحوبة بانحراف فى السلوك الاجتماعى، وتتلخص تلك الطرق فيما يأتى:

١ــ اكتشاف الحالة.
٢ــ تشخيص أو تقييم الحالة.
٣ــ إعداد طريقة سليمة وسريعة أو طويلة المدى مناسبة للشخص المعالج.
٤ــ إظهار معاونة ومشاركة المريض فى العلاج لتحقيق النجاح.
٥ــ إعداد وسائل الإسعاف الطبى وعلاج المضاعفات المصاحبة للإدمان.
٦ــ تغيير سلوك المدمنين.
٧ــ التقييم الدورى لفاعلية وسائل العلاج والتأهيل. ولإجراء التقييم السليم لفاعلية وسائل العلاج يجب أن تكون الأهداف التى يسعى إليها الطبيب المعالج واضحة. والهدف المثالى لهذا العمل هو الوصول إلى الانقطاع الكامل عن المخدر وإزالة الأسباب التى يعانى منها المريض والشفاء من الإدمان وتحسين حالته الاقتصادية وظروفه الاجتماعية.

وبادىء ذى بدء نقرر أنه من الضرورى دخول المريض المستشفى للعلاج للأسباب الآتية: علاج أعراض الانسحاب ــ علاج المضاعفات الجسدية ــ احتمال وجود تشخيص آخر غير الإدمان ــ عزل المريض عن مسرح الإدمان، والحقيقة الهامة أنه لا يوجد علاج متخصص للإدمان ولكن هناك علاجاً يتخصص فى مساعدة المدمن والعبور به من مرحلة إلى مرحلة، وتشير الإحصائيات إلى أن حوالى ٧٠٪ من المدمنين لا يصمدون بإرادتهم حتى يكتمل علاجهم بل يختارون لأنفسهم نهاية من ثلاث: السجن أو الجنون أو الموت.

طرق المواجهة على المستويين المحلى والدولى:

إن السياسة العامة لمكافحة المخدرات تعتمد على مواجهة هذه الآفة وتكاتف الجهود الوطنية داخل حدود الدولة مع الجهود الدولية من أجل حماية البشرية من المخاطر المؤكدة التى تنبع من هذه الآفة. وتنقسم المواجهة إلى مستويين: المستوى الوطنى والمستوى الدولى. بالنسبة للمستوى الوطنى أو المحلى تعتمد سياسة المواجهة على هذه المحاور الأربعة: السيطرة على التجارة المشروعة ــ الوقاية من الطلب غير المشروع ــ قمع الاتجار غير المشروع ــ العلاج وإعادة التأهيل.

أما تدابير المواجهة على المستوى الدولى فتنقسم إلى مبحثين أحدهما عن الاتفاقيات الدولية لمكافحة المخدرات والثانى عن الأجهزة الدولية المعنية بالمكافحة.

حكم الشرع فى تجريم المخدرات على المستوى المحلى:

إذا كانت المجابهة تتسع لتشمل جهوداً فى ميادين شتى منها: الثقافى والدينى والتعليمى والاقتصادى والصحى والأمنى فإنه يبقى التشريع ميداناً من أهم ميادين هذه المجابهة حيث يقوم بتأثيم الأفعال المتعلقة بهذا النشاط والعقاب عليها بدوره كقوة الرد الأساسية فى درء هذا الخطر.

ولم يكن تجريم إ. راز وتعاطى المخدرات وزراعتها وتعاطيها والاتجار فيها فى مصر وليد اجتهاد فجائى، وإنما كان مستمداً من شرع الله ومن الآثار المدمرة التى تنجم عن هذه المخدرات وتأثيراتها على الاقتصاد القومى وعلى قوة العمل بل وعلى بناء الإنسان نفسه. ولهذا فإن استعراض أبعاد تجريم المخدرات فى مصر يتم من خلال ثلاثة مباحث:

الأول: عن حكم الشرع الحنيف تجاه المخدرات.

الثانى: عن تجريم المخدرات فى التشريع الوضعى المصرى.

الثالث: عن القانون الجديد لمكافحة المخدرات.

أما بالنسبة لحكم الشرع فإنه لم يرد فى الكتاب أو السنة أو فى الاجتهاد أو الاستحسان أية إشارة صريحة عن المخدرات لا فى حلها ولا فى حرمتها. كذلك لم ينقل عن الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب الأربعة قول عن الحكم الشرعى تجاه المخدرات. ويرجع ذلك إلى أن المخدرات لم تكن معروفة فى تلك الأزمنة السابقة، وإنما ظهرت كما قال الإمام ابن تيميه فيما بين المائة السادسة والمائة السابعة من الهجرة حينما ظهرت دولة التتار، ومنذ ظهورها اجتهد الفقهاء فى استنباط الحكم الشرعى لها بالقياس على الخمر وذلك عن طريق: الأدلة الشرعية على تحريم الخمر ــ آراء الفقهاء فى المخدرات.

أسئلة يطرحها المؤلف فى حاجة إلى إجابات:

وبعد.. فقد كنا فى جولة فى آفاق هذا العالم المجهول، لقد تناولنا بالإيضاح والتبسيط كل أنواع المخدرات بكل أنواعها. وقد نتساءل وأتساءل معكم.. ألا من سبيل لوضع خاتمة لهذه الكوارث التى تصيب الأبناء والأشقاء.. وكيف تقف سلطات المكافحة مكتوفة الأيدى أمام هذا الزحف، وهل أدى الإعلام دوره؟.. وهل استنفد العلماء وعلماء الدين الإسلامى والمسيحى جهودهم؟ هل انتهى الخير ليحل الدمار؟! لا تجزع أيها الصديق، فالمشكلة كبيرة والتخطيط لاستمراريتها محكم، فهناك أعداء للإنسانية استعبدهم الشيطان ليجعل منهم أعواناً يتخذون من ابنى وابنك مطية لرفاهيتهم الدنيوية ولا تهم النتيجة ما دام الشيطان حليفهم. ولهذا أعلم أن الأمر بيدك.. احذر رفقة السوء لابنائك، تعمق فى مشاكلهم، اجعل من شخصك الوالد والوالدة والصديق أو الصديقة فى آن واحد. احذر من التجربة ولو على سبيل الدعاية أو التسلية فالعواقب وخيمة.

وباء جديد يهدد البشرية بالفناء
اسمه « إيدز »[1]

ألم تشعر أبداً فى يوم ما من أيام حياتك بزلزال يعتصرك من الداخل .. وخوف وألم شديدين ؟! ألم تحس بنوع خاص من الشعور المصحوب بألم ولوعة وضيق بعدما قرأت أى كتاب .. أو حتى مقال ؟! أظن أننا جميعاً أصابنا مثل ما حكيت وأكثر، فى مناسبات عديدة ولأسباب مختلفة ، هذا بالضبط ما أصابنى .. بل وزيادة ، لقد اجتاحنى الرعب من الأيام المقبلة .. وما يخبئه القدر لنا كسكان الكرة الأرضية .. إن مصدر ذلك كله كتاب « الإيدز » الذى وضعه الأستاذ الدكتور محمد صادق صبور أستاذ ورئيس قسم الأمراض الباطنة بكلية طب جامعة عين شمس .. ولقد تأثرت وسوف يتأثر معى القارىء العزيز من محتويات هذا الكتاب والصراحة المخيفة التى لمستها فى كلمات المؤلف .. ورغم أننى قرأت كثيراً عن هذا المرض .. بل وكان لصفحةَ كتاب جديد الريادة فى هذا الميدان ، حيث قدمت من خلالها أكثر من كتاب عن هذا المرض المسمى بطاعون العصر. إلا أن ما قرأته وما عرفته من خلال متابعتى لصفحات كتاب « الإيدز » هذا .. يختلف إختلافاً كلياً وجذرياً مع غيره مما سبق أن كُتب .. حيث تناول المشكلة والمرض والعلاج والأسباب بشكل راق وبأسلوبه السهل الممتنع الذى جعلنى أنا شخصياً أكون فكرة عامة وهامة عن هذا المرض من كافة جوانبه ، وأستطيع أن أتحدث عنه وعن أسباب وكيفية علاجه تماماً كأى طبيب معالج ..

(١) إيدز — تأليف د. محمد صادق صبور — نشر بالوفد بتاريخ ١٠ يناير ١٩٩٠ .

اعتذار واجب .. وفهم بيننا وعهد :

هذا الكتاب الذى نعرض له هنا هذا الاسبوع للأمانة عن مطبوعات عام ١٩٨٨ وصادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر. وهذا الاعتذار اعتبرته واجباً على ؛ وذلك لأننى قد خرجت عن طابع الصفحة المميز والذى يفرض عرض كتب جديدة جداً .. وصادرة حديثة .. والغرض من اللجوء لعرض هذا الكتاب بالذات أننى قد اقترحت أن تكون الصفحة هذا الأسبوع مميزة عن غيرها .. باعتبارها أول صفحة تعرض من خلالها الكتب خلال العام الجديد .. هذا التميز سيكون تخصيص هذه الصفحة للحديث عن الكتب التى تتحدث عن موبقات العصر والأمراض التى تحيط بنا ، ليس إلا من أجل دق جرس إنذار قوى حتى نعتبر. لقد اقترحت أن تزيد مساحة باب «فى المكتبات الآن» لنعرض فيه كتابين عن المخدرات أحدهما بقلم الأستاذ إبراهيم نافع والآخر بقلم الاستاذ وجيه أبو ذكرى .. وتساءلت فما المانع إذن من إضافة كتاب يحدثنا عن مرض الإيدز الذى له صلة مباشرة وقوية بالمخدرات !!؟ وقد كان حيث سنعرض هنا . وكما ذكرت لكتاب «الإيدز» ــ مرض نقص المناعة المكتسب .

كل كلمة لها معنى .. حتى لوحة الغلاف :

بصدق وبأمانة معهودة فى نفسى .. اكتشفت أن كل كلمة من كلمات هذا المؤلف صغير الحجم تساوى وزنها ذهباً !! لأنه كاشفنا بحقائق وأمدنا بمعلومات كنا نسمعها أو نقرؤها على سبيل التسلية أو إضافة المعلومة إلى عقلنا فقط ، إنه بمثابة جرس إنذار أو شئت فقل بمثابة كشاف مبهر سلط الأضواء على هذا المرض الملعون .. وجعلنى أقول فى كل لحظة سبحان الله الذى أكد سبحانه تعالى فى كتابه العزيز ــ القرآن الكريم ــ أن ممارسى اللواط والشواذ لهم عذاب الدنيا والآخرة . هذه بالضبط قمة العبارات والعبر الهامة التى نخرج بها من هذا الكتاب ، ليس على سبيل الخطب والكلمات الجوفاء ، ولكن بأسلوب علمى مقنع وحديث ودى يدخل من القلب إلى العقل .. ويجعلك تفكر مليون مرة قبل أن تقترف مثل هذه الموبقات حتى ولو على سبيل التجربة أو المشاهدة !! حتى الغلاف شارك بلوحته فى صنع هذه البانوراما المرعبة .. فترانا نشاهد انفجاراً يماثل انفجار القنبلة الذرية فى فضاء تحيط به ألوان الرعب .. وسحابة كثيفة من

الأتربة والغبار الناتج عن انتشار مرض الإيدز وانفجاره داخل جسم الإنسان إذا أصيب به تحول على حد قول الدكتور صبور كالدولة التى تخلى عنها جيشها وهرب الجنود، فكيف يكون مصير هذه الدولة؟ هل يمكن أن تعيش لحظات؟! أم ستكون مرتعاً للغزو من كل صغير أو كبير! هذا هو الإيدز.. وهذا هو طاعون العصر الحديث!!

لأول مرة.. عدد حالات الإصابة فى مصر:

ها نحن على أبواب أول صفحات الكتاب.. نمشى معه خطوة خطوة، أو كلمة وراء كلمة مصاحبين مؤلفنا العالم القدير فى كل مايقوله مستمعين له، حتى نصل معاً إلى القدر الكافى من المعلومات التى تجعلنا بعيدين، بعد السماء عن الأرض عن هذا المرض، يقول المؤلف تحت عنوان مقدمة الطبعة الثانية: كما توقعت عند كتابة التمهيد للطبعة الأولى من كتاب «إيدز» فى مارس عام ١٩٨٦ تزايدت الحالات تزايداً سريعاً، وانتشرت فى معظم أنحاء العالم انتشار النار فى الهشيم، فقد تم تسجيل حالات فى ٩٥ بلداً من بلدان العالم وكان عدد البلدان المسجل فيها رسمياً هذا المرض منذ ظهور الطبعة الأولى ٧٢ بلداً.. واعترف ممثل الاتحاد السوفييتى فى المؤتمر الدولى لمرض الإيدز الذى عقد فى باريس فى صيف ١٩٨٦ بوجود حالات فى بلده لم تبلغ رسمياً لمنظمة الصحة العالمية. ويقدر عدد المرضى بهذا المرض حالياً (يوليو ١٩٨٧) بحوالى مائتى ألف مريض ثلثهم فى أمريكا!! وقد وصل هذا المرض إلى مصر وبلغ عدد الحالات المسجلة حتى الآن إلى ٤ حالات: الأولى شخصت فى فبراير عام ١٩٨٦ لمريض مصرى جاء من إحدى الدول العربية عمره ٣٢ سنة، وكان قد أعطى نقل دم فى مايو عام ١٩٨٣ والثانية لمريض مصرى آخر جاء من إحدى دول الخليج عمره ٤٥ عاماً وكان قد أعطى نقل دم عام ١٩٨٠ وتم تشخيصه فى نوفمبر ١٩٨٦ وتوفى فى يناير ١٩٨٧ والثالثة لسيدة مصرية كانت مقيمة فى نفس الدول العربية التى أقام بها المريضان السابقان، عمرها ٣٧ عاماً أعطيت نقل دم بعد عملية ولادة قيصرية عام ١٩٨٢. أما المريض الرابع فهو المريض الأمريكى وعمره ٤٠ عاماً الذى دخل إلى مصر فى نوفمبر ١٩٨٦ لزيارة صديقه الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ودخل مريضاً بدرجة متقدمة ومات فى ديسمبر عام ١٩٨٦! وتم ترحيل صديقه الأستاذ من مصر فى الحال. مما هو جدير بالذكر أن المرضى المصريين الثلاثة تم انتقال العدوى لهم بعد عملية نقل دم فى هذا البلد العربى الذى كان يستورد زجاجات الدم من الولايات المتحدة وظهرت حالات كثيرة من مرض «إيدز» بين مواطنين وتم منع استيراد الدم من الخارج فى هذا البلد منذ عام ١٩٨٥.

قصة هذا المرض.. وثورة الخوف المرعب:

يتضاعف عدد المرضى المصابين بمرض «إيدز» سنوياً فى أمريكا ــ هذه حقيقة ــ هذا المرض لا علاج له ويؤدى بالمصابين به إلى الموت لا محالة وهذه حقيقة أخرى. إذا استمر الحال

على هذا المنوال فسيقضى على الشعب الآمريكى بأكمله بنهاية هذا القرن ـ هذا افتراض ـ هذا المرض الذى لم يعرفه العلم إلا منذ خمس سنوات صار حديث الناس فى مشارق الأرض ومغاربها، وصار العناوين الرئيسية للصحف والمجلات فى مختلف بلدان العالم وبكافة اللغات. وتسببت أنباء هذا المرض الجديد التى ذاع انتشارها فى العالم فى إصابة الكثير من الناس بالرعب والقلق الشديدين حتى إن أطباء الأمراض النفسية وصفوا فى السنوات القليلة الماضية مرضاً جديداً انتشر بين الناس وسموه «الخوف من إيدز» ويختلف قلق الناس من هذا المرض باختلاف المجتمع الذى نشئوا فيه واختلاف البلد الذى يعيشون به. إن الأمريكى يرتعد خوفاً من «إيدز» لكونه المرض المعدى الوحيد الذى يصيب رجالاً فى كامل صحتهم ولياقتهم البدنية، مرض انتشر فى المجتمع الأمريكى بشكل وبائى وتسبب فى موت جميع المصابين. لقد نسيت هذه المجتمعات المتقدمة الأوبئة منذ زمن بعيد، وبالرغم من هذا أخذت هذه المجتمعات على حين غرة بمرض معد جديد عليها. ولأنه جديد ما زال الكثير من أسراره فى طى الغموض!! ولهذا الغموض أصاب الخوف الكثير من الناس، وواجبنا أن نعرف هؤلاء المعلومات الصحيحة عن هذا المرض! إن الهدف من هذا الكتاب تبصير كافة من يهمهم الأمر بالحقائق العلمية عن المرض. حيث يتسبب «إيدز» عن عدوى بفيروس معين يهاجم جهاز المناعة بالجسم فى مقتل ويترك المريض هكذا مرتعاً للإصابة أى هجوم يعبث فيه. ومريض «إيدز» الذى فقد القدرة على مقاومة الغزاة من كافة الأصناف والأشكال تهاجمه البكتريا والطفيليات والفطريات والفيروسات وترتع فيه الخلايا السرطانية ولا تتركه هذه أو إحداها إلا بعد القضاء المبرم عليه. يشبه هذا المريض الدولة التى فقدت جيوشها وحصونها وخطوط دفاعها، فاستباح الغزاة من كل صنف ومن أدنى جنس حرماتها وعاثوا فيها فساداً. وهذا المرض يدمر نوعاً معيناً من الخلايا اللمفاوية التى تعتبر حجر الزاوية فى هيكل المناعة الخلوية. ومن المؤكد أن هناك نسبة كبيرة فى الوقت الحالى من حاملى الفيروس بين الفئات التى انتشر فيها المرض انتشاراً كبيراً: الرجال المصابون بالشذوذ الجنسى ممن يمارسون اللواط، مرض الهيموفيليا، مدمنو المخدرات التى تتعاطى عن طريق الحقن بالوريد. وللآن لم يتوصل العلم إلى لقاح ضد المرض يقى من يتعرض للفيروس من الإصابة بالمرض وللآن لم يتوصل العلم إلى علاج لهذا المرض.

الأسئلة التى مازالت تحير العلماء:

مازالت هناك أسئلة عديدة تحير العلماء.. لماذا ظهر مرض نقص المناعة المكتسبة هذا فى أواخر السبعينيات من هذا القرن؟! ولماذا انتشر بشكل وبائى خطير بسرعة متناهية حتى أصاب مايقرب من ٢٥ ألف شخص فى العالم الغربى خلال ٥ سنوات؟ وماذا عن قصة الكشف عنه فى أفريقيا؟!

وتحت عنوان فرعي «درجة انتشار المرض» يقول المؤلف: ولقد اهتمت الدوائر الصحية الأمريكية اهتماماً كبيراً بهذا الوباء الجديد وعقدت العزم على الكشف عن أسراره ووضعت الخطط لمتابعته وكلفت مراكز الوقاية من الأمراض المعدية فى كافة الولايات المتحدة بمحاولات الكشف عن المرض بكل الوسائل. بجانب ذلك بدأت إدارات الطب الوقائى ومكافحة الأمراض المعدية فى بريطانيا ومعظم دول غرب أوروبا تضع خططاً بشأن الكشف عن مرض «إيدز» لديها وأكدت هذه الاستراتيجية أن هذا المرض ينتشر بصورة وبائية فى أمريكا الشمالية خاصة بالولايات المتحدة وفى أوروبا الغربية، وبينت أيضاً أن هذا المرض لا يقتصر حدوثه على الشواذ بل يصيب طوائف أخرى فى المجتمع، وأن المرضى الذين يعالجون بنقل الدم ومدمنى المخدرات، وأن مواطنى دولة هايتى بالبحر الكاريبى ممن يعيشون فى أمريكا ــ معرضون جميعاً ــ مثل شواذ الرجال للإصابة بمرض «إيدز».

المعرضون للإصابة الشواذ وآخرون:

نظرياً يمكن أن يصيب هذا المرض أى إنسان يتعرض لدم يحتوى على الفيروس أو منتجات الدم المحتوى عليه. ولكن دراسة المرض كما انتشر فى أمريكا ثم فى غرب أوروبا ثانياً ثم فى أفريقيا ثالثاً تشير إلى أن هناك مجموعات خاصة من البشر أكثر عرضة للإصابة به وهى:

● الرجال ذوو الشذوذ الجنسى الذين يمارسون اللواط.. أو الطبيعيون ذوو العلاقة الجنسية المزدوجة الذين يمارسون اللواط مع الشواذ من الرجال ويمارسون العلاقات الجنسية السوية مع النساء فى نفس الوقت. ولقد تأكد من تشخيص المرض أن ٩٠٪ من المصابين من الرجال. هم من هذا الصنف. ومن بين مجموعة الشواذ المصابين بهذا المرض تحدث الإصابة غالباً فى الشاذ السالب (أى المفعول فيه) حيث بلغت نسبتهم فى إحدى الإحصائيات فى بريطانيا ٩٧٪ من المصابين بالمرض بينما كانت النسبة ٣٪ فقط بين الشواذ الإيجابيين (أى الفاعلين) بجانب ذلك أثبتت الاحصائيات أن الإصابة تكثر جداً بين الشواذ الذين يتعرضون لعدد كبير من الفاعلين بينما تقل إذا اقتصر الشاذ على فاعل واحد!! كما أثبتت تلك الدراسات أيضاً أن انتقال المرض يحدث فى الأغلب بين من يمارسون العلاقة الوثيقة بالإيلاج الكامل فى الشرج!! بينما لا تحدث عادة بين من يمارس معهم الحك بدون ايلاج. كذلك هؤلاء الذين يتعاطون المخدرات البيضاء عن طريق الحقن من الشواذ السلبيين الذين يمارسون الجنس مع العشرات من القرناء ممكن أن تكثر إصابتهم بالأمراض التناسلية الأخرى. ولعل من أخطر الكشوف الحديثة التى عرفت مؤخراً أن الغطاء المطاطى الواقى الذى يستخدمه الرجال لمنع الحمل أو للوقاية من الأمراض التناسلية عند ممارسة الجنس مع المومسات لا يقى من الإصابة بمرض «الإيدز» إذ أن الفيروس دقيق الحجم وينفذ من هذا الغلاف. ومرضى الإيدز من الشواذ أو الحاملين للفيروس

منهم قبل ظهور أعراض عليهم يحملون الفيروس في دمهم وقد ينقلون المرض إلى غيرهم إذا تبرعوا بالدم لبنوك الدم. ولعل أكثر الأنباء ازعاجاً في العالم الطبي هو ما ثبت من أحد الأبحاث الأمريكية عام ١٩٨٥ التي أكدت أن من بين ٢٠٠ من الشواذ تبرع عشرون منهم بالدم لبنوك الدم، بعضهم أكثر من مرة وأعطوا ٣٦ كيساً من الدم ما بين أعوام ٨٢ — ١٩٨٤ أما بقية الفئات المعرضة للإصابة بهذا المرض فهي:

- مدمنو تعاطي المخدرات عن طريق الحقن: وثبت أن معظم هؤلاء المصابين يتعاطون الهيروين أو الكوكايين حقناً بالوريد.

- مرضى الهيموفيليا: الذين يعانون من نقص وراثي بأحد البروتينات اللازمة لتجلط الدم. ويحتاجون إلى الحقن تباعاً طوال حياتهم بالبروتين الذي ينقصهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جميع مرضى الهيموفيليا في بريطانيا الذين أصيبوا بمرض «إيدز» عولجوا بحقن مستوردة من الولايات المتحدة.

- المرضى الذين يعالجون بنقل الدم أو منتجاته، ونصيحتي الخاصة في هذا الشأن للأطباء والمرضى على السواء هو تجنب نقل الدم لأي مريض لا يكون في حاجة ماسة له لإنقاذ حياته والنصيحة الثانية للمسئولين في الدولة هو تجنب استيراد الدم من دول غرب أوروبا ومن أمريكا التي انتشر فيها المرض بشكل وبائي.

- ممارسو الجنس طبيعياً مع مرض «إيدز» مما هو جدير بالذكر والملاحظة أن مرض «إيدز» لا ينتشر بين النساء إلا بصورة قليلة بين ممارسي الجنس الطبيعي مع مرضى «إيدز» من الرجال، ويختلف ذلك عن الأمراض التناسلية المعروفة كالزهري والسيلان.

- مرض «إيدز» بين الأطفال: حيث ينتقل المرض للأطفال عن طريق أمهاتهم المصابات بالمرض أو الحاملات له، إما بمرور الفيروس عبر المشيمة إلى الجنين أو بدخوله إلى جسمه أثناء الرضاعة حيث ثبت أنه يفرز بلبن الأم.

- أهالي أفريقيا الاستوائية والمتصلون بهم: وتشير الدراسات الحديثة لهذا المرض في أواسط أفريقيا أن الطريقة الأساسية لانتقال المرض هي الممارسة الجنسية السوية بين الرجل والمرأة وهذه الحقيقة قد بنيت على ما يلي: لا توجد علاقة بين انتشار المرض في أفريقيا وبين ممارسة اللواط، ولا بينه وبين تعاطي المخدرات بالحقن، أن ٨٠٪ من المومسات في المدن الكبرى بأواسط أفريقيا لديهم أجسام مضادة لفيروس «إيدز» مما يشير إلى سابق تعرضهم للعدوى !!

طرق انتقال العدوى لمرض «إيدز»:

ينتقل فيروس «إيدز» بإحدى الوسائل التالية:

- **العلاقة الجنسية:** ينتقل المرض عن طريق السائل المنوى من رجل إلى رجل أو من رجل إلى امرأة، وانتقاله من امرأة إلى رجل ممكن ولكنه قد يكون نادر الحدوث. وعندما ثبت وجود الفيروس فى السائل المنوى بدأت منظمات التلقيح الصناعى فى اختبار السائل المنوى المحفوظ فى بنوك المنى لديها للتأكد من خلوه من الفيروس المسبب للمرض. كما ثبت أن المرض ينتقل بين الشواذ أساساً فى الشاذ السلبى وكلما زاد عدد الفاعلين فى الشاذ زاد احتمال إصابته بالمرض. وقد أثبتت الدراسة كذلك أن هناك بعض الأفعال التى قد يمارسها الشواذ وتزيد من احتمال إصابتهم بالمرض مثل ممارسة الجنس بالفم، إدخال قبضة اليد أو الساعد بأكمله فى الشرج والمستقيم أو لعق الشرج!! وهناك رأى علمى قوى يشير إلى أن العدوى تحدث أساساً بوصول فيروس المرض إلى الدم.

- **انتقال الفيروس مباشرة إلى الدم:** لكى تحدث العدوى فإنه لابد للفيروس من دخول الدورة الدموية مباشرة ولا تحدث العدوى من مجرد تلوث الجلد بالدم.

- **الانتقال الرأسى للمرض:** قد يصاب الطفل حديث الولادة بمرض نقص المناعة المكتسب.

- **العدوى عن طريق اللعاب:** ثبت حديثاً وجود الفيروس المسبب لمريض «إيدز» فى لعاب المريض فى أطواره الأولية قبل تمكن المرض منه. وكذلك فى لعاب المخالطين لمرضى مصابين بمرض «إيدز» وهذا يثير احتمال أن المرض قد ينتقل عن طريق التقبيل.

تاريخ الكشف عن فيروس إيدز والعوامل المساعدة:

تم عزل فيروس من نوع الفيروسات المنقلة فى معهد باستور بباريس بواسطة الأستاذ لوك منتانييه وفريق البحث الذى يقوده وذلك فى مايو عام ١٩٨٣ من مريض من الشواذ جنسياً وكان يعانى من تضخم بالعقد الليمفاوية وأطلقوا على هذا الفيروس الجديد اسم «الفيروس المصاحب لتضخيم العقد اللمفاوية» (ووو) وبعد عام كامل فى مايو عام ١٩٨٤ تمكن روبرت جالو وفريق البحث الذى يقوده فى معاهد الصحة القومية بالولايات المتحدة من عزل الفيروس المسبب لمرض «إيدز» وتمكن فريق آخر من العلماء من سان فرانسيسكو بقيادة الدكتور ليفى عام ١٩٨٤ أيضاً من عزل الفيروس من المرضى بمرض «إيدز» وسموه «وووو» وقد عرف الآن أن جميع هذه الفيروسات التى عزلها العلماء فى أماكن متفرقة هى كلها نفس الفيروس المسبب للمرض، وبمقارنة ما نشر من معلومات عن هذه الفيروسات يتبين الآتى:

- تصيب الفيروسات الثلاثة خلايا « ت » اللمفاوية المعاونة وتدمرها تدميراً.
- تم عزل الفيروسات الثلاثة من المرضى بمرض « إيدز ».
- تبين وجود أجسام مضادة للفيروسات الثلاثة بنفس النسبة لدى المرضى بمرض « إيدز »، المرض بالأطوار الأولى للمرض (ماقبل الإيدز)، الشواذ جنسياً المخالطين لمرضى « إيدز» والمتطوعين لبنوك الدم فى جمهورية زائير.

ولم يتضح للآن الدور الذى تلعبه العوامل المساعدة لحدوث مرض نقص المناعة المكتسبة بالإضافة إلى العدوى بالفيروس، ولكن تتجه الانظار العلمية إلى هذه العوامل ويثار حولها الحديث والجدل.. ومن هذه العوامل: الاستعداد الوراثى ــ تأثير السائل المنوى على جهاز المناعة ــ تثبيط المناعة بعدوى مسبقة بفيروس الخلايا العملاقة ــ تأثير العقاقير المنشطة والمهيجة للجنس.

المظاهر المرضية التى ترجح الإصابة بالمرض:

نفصل فى الصفحات التالية ما تم جمعه من البحوث الطبية التى تم نشرها فى المجلات والكتب العلمية والطبية وما تم نشره من بحوث ألقيت فى المؤتمرات العلمية المختلفة خلال السنوات الخمس الماضية مما تلخص المظاهر المرضية لمرض نقص المناعة المكتسبة. وهى:

١ــ شعور شديد بالإرهاق يستمر لأسابيع طويلة بدون أى سبب واضح يمكن أن يفسر به هذا الإنهاك الشديد الذى يشعر به المريض.

٢ــ تضخم العقد اللمفاوية فى جانبى الرقبة وتحت الإبطين وفى الاربتين.

٣ــ فقد سريع فى الوزن يتعدى ٥ كجم خلال شهرين.

٤ــ ارتفاع مستمر فى درجة الحرارة وتتسبب العرق بغزارة خاصة بالليل، وتتسبب هذه الظاهرة الأخيرة عادة عن الإصابة بعدوى الفيروس المسبب لتضخم الخلايا أو بباسيل الدرن أو بباسيلات مشابهة لباسيل الدرن.

٥ــ ضيق فى النفس ولهثة وسعال مستمر ــ عادة ما يكون سعالاً جافاً غير مصحوب بإفراز البصاق ويستمر لعدة أسابيع.

٦ــ ظهور بقع حمراء أو قرمزية اللون، مسطحة أو مرتفعة عن سطح الجلد تشبه الكدمات وتظهر هذه البقع فى جميع أنحاء الجلد وفى الفم وعلى الجفون. كما يكثر أيضاً ظهور الالتهابات الفطرية بالجلد والتهابات صديدية ببصيلات الشعر وأنواع مختلفة من الاكزيما.

٧ــ تكثر الإصابة بأعراض التهابات بالجهاز الهضمى.

ألا نعتبر؟! ألا هل بلغت :

بعد أن تم الكشف عن كثير من أسرار هذا الوباء الخطير الذى اجتاح العالم على حين غرة فى الربع الأخير من القرن العشرين وأصاب أكثر المجتمعات تقدماً وأكثرها ثراء، ألا نتوقف لحظة لنتأمل ونتفكر ثم لنتدبر ونعتبر؟

هل الثراء المادى وارتفاع الدخل القومى ومتوسط دخل الفرد السنوى هو مقياس الحضارة؟

إن الله تعالى خلق الإنسان جسداً وعقلاً وروحاً والإنسان المتكامل هو من صح بدنه واكتمل عقله، وسمت روحه. ماذا ترى فى زماننا هذا؟ نتسابق ونتناحر ونجرى ونتصارع لتحقيق التقدم المادى نسبياً وتناسينا البناء الوجدانى للفرد. وبدون الإيمان لا يكون هناك قلب يحس بقرصة جوع المحروم ولا بفقدان العدالة للمظلوم، لا يكون هناك تعاطف ولا تراحم وتختفى القيم وتنمحى الأخلاق وتتراجع الفضيلة وتتوارى العفة. أليس هذا هو ما حدث؟!! مرض «إيدز» هو مرض ينتقل بالممارسة الجنسية غير المنضبطة بين الشواذ ومع المومسات ولم يجد تقدم مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ومجتمعات أوروبا المادى ولا ثرائها ولا وصولها إلى قمة الحضارة فى منع هذا المرض من الانتشار والفتك بأهلها؛ إذ أن أسلوب حياتهم هو نفسه التربة التى مهدت الطريق لهذا المرض للانتشار هذا الانتشار الفظيع؟! إن العلم لم يكن يتصور مدى خطورة اللواط حتى ظهور مرض نقص المناعة المكتسبة. كل ما كان يعرف عن ممارسيه أنهم مرضى نفسياً يزداد عددهم فى المجتمعات المغلقة والمجتمعات التى ضعفت فيها الراوابط الأسرية وافتقد فيها التراحم والتعاطف، ثم عرف فى السنوات الحديثة أنهم قد يصابون بالأمراض التناسلية المعروفة ولكن ليس بقدر إصابة المومسات وممارسى الجنس معهن حتى أمطرهم الله بهذه اللعنة المدمرة التى تفتك بهم فتكاً بعد تعذيبهم لسنوات قبل وفاتهم.. تعذيبهم عذاباً مرضياً وتعذيبهم عذاباً نفسياً إذ ينبذهم المجتمع ويفر منهم ويطالب بعزلهم كما يعزل المجذومون وحتى المجتمعات التى تنادى بالحرية الشخصية للفرد وبعدم اضطهاد الشواذ كانت أول المجتمعات التى نبذتهم وجعلت سنوات حياتهم الأخيرة لا تحتمل. ألا نعتبر؟ ألم يحذرنا الله تعالى فى أكثر من موضع من القرآن الكريم من أن نفعل كما فعل آل لوط؟: بسم الله الرحمن الرحيم: (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت فى الصادقين، قال رب انصرنى على القوم المفسدين). صدق الله العظيم.

الفصل الرابع

شخصيات وتراجم

ـ مع الخومينى فى كشف أسراره

أحمد كمال شعت ـ حلقتان

ـ فاروق الأول ـ الملك الذى غدر به الجميع

عادل ثابت

ـ مذكرات الجمسى «حرب أكتوبر ١٩٧٣»

المشير محمد عبد الغنى الجمسى

ـ الشعراوى ـ القيثارة الإيمانية

كمال محمد على

ـ ثورة يوليو الأمريكية ـ علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية ـ ٥ حلقات

محمد جلال كشك

مع الخوميني في كشف أسرار افتراءاته على الله وعلى الرسول(١)

وأنا في بحثي الدائم عن كلمات تصلح لمقدمة تكون همزة وصل بيني وبين الكاتب والقارىء.. خلال الرحلة التي سوف تبدأ بعد لحظات مع كتاب «مع الخوميني في كشف أسراره» تأليف الدكتور أحمد كمال شعث.. خلال بحثي هذا وجدت أن خير هذه الكلمات ما سطره المؤلف نفسه، لأنه أكثر الذين عايشوا هذا الكتاب وذاقوا مرارة ما فيه من أغلاط وافتراءات على دين الله.

ولنسمعه يقول تعبيراً عن هذه المعاناة النفسية والغيرة الإسلامية الحقة.. وقع في يدي بعد بحث ومحاولات كتاب «كشف الأسرار» للسيد الخوميني روح الله وآياته ونائب الإمام المنتظر!! هذا الكتاب يعتبر من أهم كتب السيد الخوميني، فقد طرح فيه أهم معتقداته وأفكاره ومبادئه.. وقد كتب الخوميني هذا الكتاب قبل أن تنجح ثورته في إيران بسنوات لذا فإن هذا الكتاب يعطينا فكرة عن فلسفة الخوميني وأفكاره ومبادئه في فترة نضاله ضد الشاه. وما إن جرت عيني على الأسطر حتى شعرت بالثورة والغيرة على الإسلام والغضب لدين الله القيم. ونويت العزم بعد الاستعانة بالله للرد على ذلك الرافض. مدعي الإسلام وأصوليته.. فقد انقشعت الغمامة وانزاح الضباب عن أعين المسلمين وعرف الجمع والجميع مسلمين وغير مسلمين عن الشيعة الخومينية وأهدافها من حربهم وكتاباتهم

(١) مع الخوميني في كشف أسراره ــ أحمد كمال شعث ــ حلقتان الأولى: نشرت بتاريخ ١٠ مايو ٨٩

وفكرهم الذى ظل سريا لمدة طويلة. إن الحقد والبغض والكره الذى يجرى فى دماء الشيعة وتنطق به ألسنتهم جهاراً نهاراً لن يلقى إلا مثله. لقد كان عدم رد الفعل ينطلق من مبدأ حسن الظن بهم.. أما وقد اتضحت الحقيقة وبان المستور بعد أن استقرت للخومينية دعائمها فى إيران المسلمة فرد الفعل جاهز.. والمدافعون عن الإسلام على استعداد للموت وليس فقط للكتابة عن عقائدهم ودينهم».

ألم أقل لك عزيزى القارىء منذ البداية.. إن خير كلمات تصلح لبناء جسر يوصل بيننا جميعاً فى ميدان المعرفة.. إنها كلمات الكاتب والمؤلف الدكتور أحمد كمال شعت. ولنا معاً بعد لحظات استكمال بقية المشوار.. على مدى حلقتين كاملتين.

بداية الرحلة من الفهرس:

حتى نكون منصفين فى هذا العرض.. حتى نكون معاً على أرض واحدة تضمنا فى مجال المعرفة.. أود أن أسرد لك عزيزى القارىء محتويات الكتاب الذى بين يديك اليوم من الفهرس، مستعرضين معاً فصوله على سبيل الإجمال.. ومن بعدها ننطلق إلى التفسير معايشين كلمات الكاتب بالتفصيل الواجب.

يقع الكتاب فى أكثر من مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير.. وهذه هى محتويات الفهرس.

- رجاء مشروع إلى كافة المسلمين.
- فى التوحيد.
- السؤال الأول:
- هل طلب الحاجة من الرسول والإمام يعد شركاً؟!
- عن الشفاعة.
- فى البداء.
- فى الاستخارة.
- تعليق عام.
- فى الإمامة.
- نظرة أخرى إلى الإمامة.
- حديث الغدير.
- حديث المنزلة.
- حديث الثقلين.
- ثواب الزيارة الحسينية.
- الحديث الثالث الروحانى.
- الخمس والروحانى.
- المجالس والإدراك.. ورغبة فى بث الفتن..

والملاحظ أن الخومينى عندما يظن أن له رأياً وصاحب حجة فإنه يستشهد بالعقل والقرآن. ولكن لأننا أهل إيمان فسوف نستشهد بالقرآن أولاً ثم العقل. لذا فلا داعى للعجب والاستغراب عندما نسمع عن كلمات الخومينى وعن رأيه فى القرآن يقول الخومينى «لقد كان سهلاً عليهم ــ يعنى الصحابة الأول ــ أن يخرجوا هذه الآيات من القرآن ويتناولوا الكتاب السماوى بالتحريف ويسدل الستار على القرآن ويغيبوه عن أعين العالمين. إن تهمة التحريف التى يوجهها المسلمون إلى اليهود والنصارى إنما تثبت على الصحابة».

نعم هذه كلمات الخومينى نفسه فى نفس الكتاب الذى نتناوله .. وهو يتهم أهل السنة بتحريف القرآن.

قضية التوحيد بين الشيعة وأهل السنة:

إن مؤلفنا الدكتور شعت يفسح العديد من الصفحات من أجل فضح أساليب الشيعة وطرقهم المختلفة لتزوير التاريخ:

- الحسينية. ● الحكومة.
- القانون والحكم الإسلامي.
- الحديث. ● أخبار الشيعة.
- المستحدثات الخومينية فى البدع الدينية .. ثم الخلاصة.

رجاء مشروع لأصحاب العقول:

قبل الخوض فى تفاصيل ما جاء فى فصول هذا الكتاب استوقفنى رجاء عظيم يوجهه مؤلفنا لكل أصحاب العقول حين قراءة وتناول ما جاء فى كتابه .. وهو يقول عن طبيعة هذا الرجاء إن الواجب أن نتجنب الأفكار المغرضة ولا نتأثر إلا بالحق مستندين إلى إيمان ثابت لا يتزعزع بقرآن رب العزة والصحيح الثابت من الأحاديث المروية عن الثقات من أهل السنة الكرام. وإذا احتج الخومينى بقوله .. وإذا ما تبين وثبت بأن أهل السنة يؤمنون بالله والقرآن حقاً .. فإنهم ينبغى أن يكونوا متقبلين دوماً لهذه الأحاديث. ويزعم الرجل قدرته على الإقناع فيؤكد أنه سيثبت فى كتابه أن أهل السنة إنما يصدرون عن فكر يدل على خلل فى الفهم الإسلامى مما يخدم مذهبهم على حساب مذاهب أهل السنة .. ولعلنا معه ومن خلال هذه الكلمات نعرف هذه الطرق، وكيفية الرد المنطقى عليهم، وعن ذلك يقول:

«فى هذا الباب سوف نتناول قضية تمس روح الإيمان وأساس العقائد بل هى بالقطع محور جميع الأديان السماوية. ألا وهى قضية التوحيد، وسنحاول أن نظهر وجهة نظر الشيعة مقابل فقه أهل السنة فى التوحيد والذين يسميهم الملالى بأهل العامة. وبداية نقول إن للتوحيد مظاهر

وأشكالاً هي بالقطع فقط اختلاف بين أهل السنة المحمدية وأهل الخومينية الرافضة. وفي كتاب الخوميني أشار السيد الملالي إلى بعض مظاهر وأشكال التوحيد وحاول إقامة الحجة على وجهة نظره وفهمه لمسألة التوحيد. وقد طرح الخوميني وجهات نظره على هيئة أسئلة وهي:

- هل طلب الحاجة من النبي والإمام شرك؟
- هل طلب الشفاء من التربة شرك؟!
- هل السجود على التربة شرك؟!
- هل إقامة القباب والأضرحة شرك؟!

المثلث الثابت وعقيدة الشيعة:

ونحن نبدأ رحلة البحث عن إجابات لهذه الأسئلة التي طرحها الإمام الخوميني سوف يكون لنا العديد من الوقفات مع الكاتب والمؤلف لإلقاء مزيد من الضوء على فكر هذا الإمام أملاً في تفنيد آرائه هذه والتي طرحها وكما ذكرت على شكل أسئلة. ولعلي ولضيق المساحة سوف أنتقي بعض هذه الردود حتى نوصل المعنى كاملاً للقارىء على أمل أن يستكمل قراءة هذا الكتاب الهام ويسعى كي يضمه إلى مكتبته بأي شكل وبأي ثمن.

ومن هذه الوقفات الهامة التي نركز عليها هنا.. رأي الإمام الخوميني وما ذكره عما أسماه المؤلف بالمثلث الثابت.. أو كما يقول الكاتب. لو لجأنا إلى التحليل العلمي الإيماني لطلب الحاجة من الرسول أو الإمام حسب مفهوم وعقيدة الشيعة لوجدنا أطراف هذا العمل هم:

- الإله العزيز القدير.
- الرسول.
- الإمام.
- والإنسام المسلم.

ولا توجد غير أطراف ذلك المثلث.. ليس فقط عند طلب الحاجة والدعاء بل وأيضاً في الشفاعة، وطلب الحاجة من الموتى والغيب وغير ذلك من المسائل الفقهية.. ونتساءل: هل جاء في القرآن ما يوضح ويعلل ويحدد العلاقة بين الأطراف الثلاثة في تلك المسائل؟

بالنسبة للإله: فإن آيات القرآن تمتلىء بإشارات إلى أن الله هو مالك كل شيء وهو القادر فوق عباده وأيضاً إشارات إلى أن طلب الحاجة إنما يجب لله لا إلى غيره.

أما بالنسبة للرسل أو الإمام: فإن معجزات الأنبياء ثابتة في القرآن وفي أكثر من موضع.. على أن ما يجب الإشارة إليه أن هذه المعجزات إنما هي حجج أسبغها الله على رسله لتؤيدهم في دعوتهم. أما عن الائمة.. فلا إشارة إليهم في كل القرآن.. ولا معجزات.

أما الإنسـ المسلم وهو ثالث ضلع المثلث فهناك آيات تشير إلى وجوب الطلب من الله وحده والتوجه إليه مباشرة دون وسيط إلا أن الإمام الخومينى يطابق هذا المفهوم بفلسفة واهية مستنداً إلى أن النبى قد طلب الحاجة من الآخرين من أصحابه فأجابوه .. وأن نظام العالم كله قائم على طلب الحاجة من الآخرين !! فإن هذا التطابق غير مقبول وغير سليم ولا تصح مساواته بالطلب والعلاقة بين الخالق والمخلوق.

طلب الحاجة من الأموات:

يوضح الخومينى رأيه فى هذه المسألة ويقول إنه ليس شركاً أن نتوجه بالطلب إلى الموتى ويضع الرجل قانوناً للشرك مفاده: «أن الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهاً .. أما دون ذلك فليس بشرك» .. كذلك فإن طلب الحاجة من الحجر والصخر ليس شركاً !! بل أكثر من ذلك يقول مستخلصاً النتيجة الآتية:

«ثم إننا نطلب المدد من الأرواح المقدسة للأنبياء والأئمة .. ممن قد منحهم الله القدرة !!» لأنه قد ثبت بالبراهين والأدلة أن الروح بعد خلاصها من الجسد إنما تظل باقية .. وأن إحاطة الأرواح بهذا العالم تكون بعد الموت بشكل أعلى وأكثر!!

تخاريف الخومينى والرد عليها:

وقبل أن ننتقل بالقارىء إلى الحديث عن فرية أخرى أو إحدى تخاريف الخومينى التى ذكرها فى كتابه «كشف الأسرار» لابد أن نشير إلى الرأى الصواب الذى وصل إليه مؤلفنا واستند فيه ــ كما يقول فى رده على الخومينى وأفكاره ــ إلى كتاب الله. ففيه الهداية والحجة والبينة.

وعن رده هذا يقول: ونعود الآن إلى أطراف هذا المثلث المشتركين فى مثل ذلك الأمر:

أولاً: الإله: هناك من الآيات الكثيرة التى تشير بمنتهى الوضوح إلى أن طلب الحاجة يجب أن يكون إلى الله كما أنها تشير بوضوح كذلك إلى عجز أى غيره من الأموات أو الأحياء على أن يأتوا بشىء إلا بإذنه.

ثانياً: الأنبياء وغيرهم: أما عن قدرة الأنبياء فالآيات القرآنية تحتوى على إقرارات من هؤلاء الانبياء توضح قدرتهم فى إجابتهم للدعاء والطلبات المختلفة من عامة البشر. أما عن الأئمة فلم نسمع بكلمة واحدة فى القرآن تشير إلى أن الدعاء بهم مستسحن. أن هدف الخومينى الأساسى من استرساله السابق هو أن يصل إلى أن الدعاء للإمام لا يعتبر شركاً!

أما قوله: إن طلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركاً وإن يكن عملاً باطلاً على أساس أن طلب الشخص لم يتواكب باعتقاده أن هذا الحجر أو تلك الصخرة ليست إلها.. فالرد على ذلك من أهون الأمور.

ثالثاً: الإنسان المسلم: فإن هناك من الآيات ماتدل على أن الله عز وجل قد نهى عن الدعاء إلى عباد الله، ويقر المولى أنهم لا يستجيبون للدعاء من أنفسهم. كذلك فإنها أيضاً تشير إلى عدم بنى الإنسان أن يصل بدعائه إلى الموتى فوسيلة السمع بين الأحياء والموتى مقطوعة بالموت ذاته «وما أنت بمسمع من فى القبور». صدق الله العظيم.

طلب الشفاء من التربة:

يعتبر الخومينى أن طلب الشفاء من التربة ليس شركاً ويقول: «الشرك إذا هو طلب الشفاء من أحد على أساس كونه إلهاً أو شريكاً للإله أو فى استقلالية فى التأثير، لكن ذلك لا يعد شركاً ولا كفراً إذا ما تم الطلب على أساس أن الله قادر على أن يستجيب للطلب من خلال من يتفانى من أجل دينه وخسر روحه من أجل الله تعالى.. ويستشهد بالآية الكريمة التى تقول «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون» ثم يستهجن قول من قال «إن تربة الإمام إذ تشفى كل مرض وتقى من كل بلاء فالأفضل أن تغلق أبواب المستشفيات والصيدليات وكليات الطب!!».

ويستطرد الخومينى فيتحدث عن أثر العلاج النفسى وأهميته لتأكيد اقتناعه أن التربة الحسينية تشفى كل مرض وتقى كل بلاء. كذلك يقول «لقد منح الله للتراب القدرة على إحياء الارواح وليس فى مقدور أحد، يقول إن الله لا يقوى على أن يجعل التراب الذى لأروح فيه سببا فى إعادة الحياة، لذا فإنه سبحانه وتعالى لو منح التراب الذى أريقت فوقه دماء الحيٰة الأبدية!!.. مثل هذه القدرة فإن ذلك ليس ببعيد عن مشيئته.

الإمام عالم الغيب وصانع المعجزات:

عندما يدعى الخومينى أن جذور أفكار المعجزات الغيبية تعود إلى أفكار «أبو الفضل كلباً يكانى» لتلك المعجزات فى كتابه «الفرائد» والذى ألفه لترويج البابية والبهائية وينكر فيه قدرة البابا أو البهاء فى إتيان المعجزات إنكاراً تاماً حتى لا يقوم أحد بطلب المعجزة من أى منهما.. فإنه يسقط ويجنح.. فبكل قحة وحقد شبه الخومينى هؤلاء الكفرة بأتباع السنة المحمدية.. ومتبعى آراء ابن تيمية شيخ الإسلام وسماهم وحوش نجد!!

وهنا نتوقف قليلاً أيها الرجل المعجزة ــ والكلام لا يزال للمؤلف ــ فإن كنت تؤمن بالزام الأئمة بالمعجزات فأظهر لنا ذلك ووضح. فأنت أمام الشيعة الأكبر ونائب المهدى المنتظر.

وطبعاً لن تقدر.. فعندما يكفر أهل السنة بأفكار البابية والبهائية فإن استنادهم يقوم على عقائد إيمانية ثابتة وواضحة ومحددة فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهى أيضاً تلك المبادىء والأسس الثابتة التى أقنا بها الحجة على ما تدعيه من فهم وما تتباهى به من فلسفة يا روح الله وآياته.

.. وسقطت تلك المعجزة:

وبمناسبة المعجزات الخومينية نتذكر جيداً حادثة سقوط طائرة أمريكية لنقل الجنود بعد اصطدامها بطائرة حربية أمريكية أخرى قرب مطار «طبس الإيرانى» وهما تمدان الثوار الأفغان بالمعونات.. ونتذكر جميعاً كيف أن أجهزة الإعلام الإيرانية أظهرت الحادث فى مظهر المعجزات والكرامات وبدأت تشبه سقوط الطائرات الأمريكية إثر العواصف الرملية بسقوط جيش أبرهة من جراء طير أبابيل!. وهكذا مفهوم الخومينية للمعجزات. فقد استغلت أجهزة الإعلام الرافضة هذا الحادث وبنت عليه حملة إعلامية صبغتها بالصبغة العقائدية وبمفهوم القوم للمعجزات خاصة أن الخومينى كان فى ذلك الوقت يحتجز أفراد السفارة الأمريكية كأسرى وكانت هناك أزمة سياسية كبرى بينه وبين أمريكا فى ذلك الوقت.

وهنا جاء الفرج وخرج الشعب الإيرانى الساذج يطبل ويزمر ويتظاهر فى الشوارع ابتهاجاً بالنصر المبين.. فهناك إمام وعلى يديه تظهر المعجزات!! على أن الثابت تاريخياً وسياسياً أن صادق الطباطبائى كان على اتصال دائم بأعضاء من وزارة الخارجية الأمريكية وكان يطلب ويتمنى حل المشكلة سياسياً وبأى شكل خاصة بعد هزيمة كارتر وفوز ريجان فى انتخابات الرئاسة.. ويعلم كل العالم أن مشكلة الرهائن قد حلت تماماً.

السجود على تربة كربلاء ثواب لله:

وهل السجود على التربة شرك؟!

يقول الخومينى أن السجود على تراب أو قبر من أجل الله وإطاعة أمر الله هو توحيد لله.. ويقول أيضاً إن السجود على التربة الحيدرية الحسينية «كربلاء» إنما هو سجود للإله ولمجرد الحصول على ثواب أكثر من الله. ويدعى الرجل على أهل السنة اعتقادهم أن السجود على التربة أياً كان هو شرك! كما يشير إلى أن الله قد أمر ملائكته أن يسجدوا لآدم.. وأن يعقوب وأولاده سجدوا ليوسف! بل أكثر من ذلك أن الشيعة جميعهم يشدون الرحال إلى مشاهدهم وأراضيهم المقدسة فى كربلاء والنجف وقم حيث يعظمون قبور أئمتهم ويصلون إليها مستدبرين القبلة ويطوفون حولها وينحرون الذبائح ويطلبون من هؤلاء الأئمة أصحاب القبور ما يتمنون وما لا يجوز ولا يجب. وأن أحد علمائهم ألف كتاباً أسماه «مناسك حج المشاهد» يوضح فيه مناسك الحج إلى تلك الأماكن المقدسة.

بالنسبة للإجابة عن سؤال الخوميني الذي يقول فيه: «هل طلب الشفاعة من الأموات شرك» يقول المؤلف: نتعجب كل العجب من تسلط الفكر الفلسفي لرجل دين مثل الخوميني والأعجب من كل ذلك هو تناقض هذه الفلسفة مع الثابت في القرآن من ناحية وفي أخرى من عدم معقولية هذه الفلسفة الحائرة.

جاء في الكافي ـ بخاري القوم ـ أن الله كان قد حدد العام السبعين بعد الهجرة لقيام القائم بالحجة «المهدي المنتظر» لكن حيث إن الناس قد قتلوا الحسين فإن الله غضب على أهل الأرض وأرجأ القيام إلى سنة ١٤٠٠ هجرية ويضيف الخوميني: وحيث إننا نقلنا لكم ذلك وقتم أنتم بنقله إلى الناس فإن الله لم يحدد وقتاً محدداً لذلك.. والشيء الغريب والمريب أن الكافي قد حدد موعد ظهور المهدي بعام ٧٠ هجرية ثم يدعي تأجيل ذلك الموعد نظراً لقيام الناس بقتل الإمام الحسين.. ثم يأتي الخوميني بعد أكثر من ألف ومائتي عام ليشرح ويفسر ويقول بأن الله لم يحدد وقتاً محدداً لذلك!! . ولم يذكر الرجل ما الذي استند إليه في فتواه هذه، على أية آية أو حديث متواتر.

الخمينى من أصل هندى ..(٢)

كان من المفروض أن نظل سائرين على نفس طريق كشف الستار عن تخاريف الخومينى تلك التى سطرها فى كتابه كشف الأسرار.. والتى تفضل الأستاذ الدكتور أحمد كمال شعت وفضحها.. وكشف عنها حتى نظل مفتوحى الأعين على كل من تسول له نفسه أن يخوض فى دين الله دون علم وعلى ضلال. ولكننى آثرت هذه المرة أن أحيد عن هذا الطريق ولو للحظات، وبالذات فى هذه الحلقة.. وأن أسرع الخطى نحو آخر صفحات الكتاب حتى نلقى بمزيد من الأضواء على مؤلف كشف الأسرار وخبايا الأمام المزعوم الخمينى.. وحتماً بعد إلقاء مثل هذه الأضواء سوف نعاود المسير نحو صفحات الكتاب بالترتيب المسطر فى الفهرس.

---

(٢) الحلقة الثانية من عرض الكتاب نشرت بالوفد بتاريخ ١٧ مايو ١٩٨٩.

فى البدء وقبل ثمانى سنوات على وجه التقريب تمكن شيخ عجوز آت من بلاد الفرنجة على ظهر طائرة ضخمة من القضاء على أعتى امبراطورية شرقية إسلامية. وكان المنظر العام يدعو للذهول العجيب «رجل دين بمفرده وحتى وهو بعيد غاية البعد عن وطنه يستطيع أن يقلب الأمور رأساً على عقب ويقيم الدنيا ويقعدها ويزلزل أركان أقوى دولة إسلامية وأغنى امبراطورية دامت حتى ٢٥٠٠ عام وبدون سلاح أو حرب».

على أنه وقبل كل شىء يجب أن نعرف شيئاً عن شخصية الملالى صاحب المعجزات، فالأحداث تشير إلى شخصية بطلها قبل كل شىء عند التحليل العلمى الدقيق لهذا الحدث.

الإمام الخمينى يدعى أنه من سلالة الإمام موسى بن جعفر.. كما يحمل توقيعه ذلك! على أن جميع وسائل الإعلام تتغافل عمداً وتتناسى تماماً أب الخمينى وأصله ونسبه وموطنه. إن الجميع يعرفون أن جد الخمينى.. وكان يدعى أحمد قد قدم إلى إيران من الهند منذ مائة عام تقريباً وأن ابنه مصطفى وهو والد الخمينى سكن قرية خمين، وقد قتل وهو شاب فى هذه القرية والخمينى هذا هو ابنه. هذا هو تاريخ الأسرة منذ أن وطئت إيران منذ مائة عام فقط لا غير والمائة عام فى التاريخ العائلى ليست كبيرة على الإطلاق.. إنما تمثل ثلاثة أجيال فقط لاغير. ومن هنا فإن الأصل العائلى أو شجرة العائلة ليست إيرانية قطعاً.. وهنا يطفو سؤال: لماذا انقطعت صلات الخمينى بأصله فى الهند..؟ والإجابة عن هذا السؤال قد نعنى أشياء كثيرة.. لكنها لا تعنى الكثير من الوجهة الفقهية والتأهيلية لأى شخص مسلم.. فالإنسان بعمله لا بنسبه.

وبعد هذه العجالة الهامة التى ساقها لنا الكاتب والتى حدثنا من خلالها عن الإمام الخمينى.. يخرج إلى نتيجة نحن جميعاً فى شوق إلى معرفتها وهى كما يقول الكاتب فى ظنى أن التاريخ يعيد نفسه فما حدث ويحدث الآن شبيه إلى أقصى حد بما فعله كهنة المجوس وأحبار اليهود من كيد للإسلام فى صدره الأول وبما أفرخته من مذاهب وفرق كان من نتيجته أن تضعضع البنيان الإسلامى وخرج بعض المسلمين عن المضمون والمفهوم الإسلامى الحقيقى. كانت هذه الحركات المشبوهة مصبوغة أيضاً بالصبغة الدينية والفلسفية الباطنية. والحركة

الخمينية تحذو بالتمام حذو أسلافها من حركات الغلو والزندقة التى جمعت بين الشعوبية فى الرأى والاتجاه والفساد فى العقيدة بالفلسفة الباطنية والمتاجرة بكل ذلك بمشاعر المسلمين وجماهيرهم.

إن الخطط الخمينية قد خلطت فى منهجها الحركى الفاسد المدمر كل موجات الحركات السرية الباطنية ومناهجها القائمة على التلقين السرى والاعتصام بالتقية والاستجداء من المجوسية لتتحول فى النهاية والغاية كأخواتها وأبناء عمومتها فى التاريخ إلى مدرسة ممتازة فى الغدر وإلى منهجية شريرة ذات شعب عدة وأهداف عديدة منها إفساد العقيدة وطمس معالم التاريخ الإسلامى وتشويه مقاصده النبيلة.

من أقوال الإمام:

ولعلك عزيزى القارىء فى شوق مثلى لتعرف بعض أقوال الإمام المزعوم حتى تكتمل دائرة المعرفة، ويحق لنا الحكم عليه مثلما فعل غيرنا.. ومن هذه الأقوال:

● قال الخمينى للإمام الحكيم فى النجف وهو يحاوره: «قتل أتاتورك تسعين عالماً دينياً فى واقعة واحدة.. وزرت مقابر هؤلاء عندما كنت بالمنفى فى تركيا.. فلماذا لا نضحى نحن بالجملة على غرار أولئك ليبقى اسمنا فى التاريخ مخلداً.. فأجابه الإمام ساخراً، وهل نقتل ليبقى اسمنا فى التاريخ قط؟!

وقد فعل الخمينى ما فعل بالأئمة من علماء الدين وغيرهم فى إيران. وسيخلد اسم الخمينى كأكبر ديكتاتور دينى فى العصر الحديث. وسيدفع هو وزمرته جزاء كل ذلك.

● وقال أيضاً: «إن الإسلام بدأ بالدم ولا يصلح أمره إلا بالمزيد من إراقة الدماء» !!

ونحن جميعاً نشهد على أن أقواله تنفذ، فقد قتل الآلاف من أبناء الشعب من الأقليات العرقية ومن المعارضة ومن طوائف الشعب المختلفة. فأين ذلك من الإسلام؟ دين السلام والصلح والعفو والمغفرة.

● وقال الخمينى: سأقطع لسان من يقول كلمة ضد الجمهورية.. كما قال فى خطاب له بتاريخ ١٩٨١/٩/٢٢ عند استقباله أعضاء اللجان الإسلامية فى أوروبا: انطلاقاً من واجبى الشرعى أطلب من الشعب مراقبة كل دار فكل دار عليها مراقبة الدار الأخرى.. إن ما أقوله واجب شرعى.. أى أن يقوم الناس فى جميع أنحاء البلاد بمراقبة الدور المجاورة.. وهكذا يدعو إلى أن يتجسس الأب على ابنه والأم ضد أولادها!!. غريب أمر هذا الملالى.. فالإسلام ينهى عن التجسس والغيبة والفتنة.

المستحدثات الخمينية فى البدع الدينية :

عندما يصل رجل ديكتاتورى إلى الحكم فمن الطبيعى تصور حدوث أى شىء.. وعندما يصل فيلسوف وبصفات الخمينى إلى الحكم فأيضاً من المتصور حدوث أى شىء.. على أن الشىء الذى لم يكن أحد يتوقع حدوثه هو استحداث بدع خمينية فى الدين.. خاصة من رجل يحكم باسم الدين ويرفع رايته.

ومن هذه البدع والمستحدثات التى تستوجب تكاتف كل علماء المسلمين.. ما يلى :

١ــ منذ فترة ومن رزقه الله ثواب الحج ورأى جماعات الحج الإيرانية وهتافاتها فإنه ولابد أن يكون قد سمع هتافهم المشهور، «الله أكبر.. خمينى رهبر». أى خمينى هو القائد !!

٢ــ أدخل الخمينى اسمه فى أذان الصلوات وقدم اسمه بكل قحة على اسم النبى الكريم، فأذان الصلاة فى إيران بعد أن تمكن الخمينى من زمام الأمور فى ذلك البلد المسلم البائس وفى كل جوامعها كما يلى: الله أكبر الله أكبر خمينى رهبر «ثم أشهد أن محمداً رسول الله.. الخ.. نعم هذا هو الأذان الإسلامى الحديث لمن يدعى أصولية الإسلام ولمن يرفع شعار الدين».

٣ــ ومن هذا المنطلق الفلسفى البغيض تفاعل الزمن مع نفوس الجهال وأنتج ما أنتج.. فقد جرت العادة فى البلاد الإسلامية إذا ذكر اسم النبى الكريم أن يصلى عليه الحاضرون إجلالا وإكباراً.. على أنه فى ايران الخمينى الأغبر.. إذ ذكر الخمينى صلى الحاضرون على اسم حضرته ثلاث مرات !!

٤ــ من هذا المنطلق الكاذب يدعى هذا المنافق أن العرب كفرة والعراقيين كفرة !!

عود على بدء :

ونعود الآن من حيث بدأنا معاً رحلة المعرفة عبر هذا الكتاب القيم، لنتتبعُ معاً أهم ما جاء فيه من خلال الفهرس الذى سطره الكاتب، وبعدما تعرفنا وتألمنا كثيراً لما ذكره هذا الأخطل المخرف عن الدين الإسلامى الحنيف.. وما أدخله من بدع تستحق القتل إن جازت تلك العقوبة. بل أشد، ولسوف ننتقى لك عزيزى القارىء أهم تلك الخرافات لنرد عليها.. بالقول الصائب والمعرفة الحقة.. والدليل على ذلك كما ذكر الكاتب نفسه كتاب الله وسنة رسولنا الكريم.

طلب الشفاعة من الموتى ليس شركاً:

هل طلب الشفاعة من الأموات شرك ؟!..

نتعجب كل العجب من تسلط الفكر الفلسفى لرجل دين مثل الخمينى والأعجب من كل ذلك هو تناقض هذه الفلسفة مع الثابت فى القرآن من ناحية وفى أخرى من عدم معقولية هذه الفلسفة الحائرة.

يقول الخمينى: «إن الشفعاء لن يكونوا أمواتاً بل إن موتهم يعنى خلودهم وخلود أرواحهم فى العالم الآخر ووقوفهم على الكثير من الأمور المسلم بها، وبجرأة وجنوح يقول الفيلسوف مواصلاً حديث الضلال واستناداً إلى فلاسفة الروح القدامى فإن طلب الشفاعة من الإمام والنبى الذى يصبح بعد الموت كقطعة خشب أو حجر وأى جماد آخر لا يعد شركاً !!

هذا هو مفهوم السيد الخمينى رجل الدين وإمام الشيعة المتأخر.. يستند أول ما يستند إلى فلاسفة الروح القدامى فى مبدأ عقائدى ودينى. ثم يفتى الرجل بأنه استناداً إلى تلك الفلسفة فإن طلب الشفاعة من الإمام والنبى الذى يصبح بعد الموت كقطعة خشب أو جماد لا يعد شركاً.

الإمامة عمود المذهب الشيعى:

لئن كانت الإمامة الأصل الرابع من أصول الدين حسب المذهب الشيعى الرافض فلماذا لم يشر الله فى القرآن إلى هذا الأصل حتى لا يحدث مثل هذا النزاع حول ذلك الأصل ؟

هذا السؤال يتناول الإمامة وتحديدها فى القرآن.. وعند أهل السنة المحمدية والإمامة هى عمود المذهب الشيعى ونخاعه وأساسه.. لذا فإن الإيمان به من ألزم اللوازم فى عرف الشيعة الإمامية الرافضة.

وبعد أن يشير الخمينى إلى قيام الرسول بإرساء وتثبيت دعائم الإسلام يقول: ونحن نسأل الآن عقلاء وقادة البنيان.. هل بقاء هذه الأسس الثابتة والمبادىء السماوية الكبرى يعتبر عند ذوى العقل والحكمة من الأمور الهامة. ومن هنا فإن الله كان عليه أن يضع أسساً لثبات هذه المبادىء بعد النبى حتى لا يترك الناس حائرين فى أمرهم.. وحتى لا يجعلهم يقعون فى فريسة حفنة من الانتهازيين. ومرة أخرى يصف هذا المخرف الجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ بأنهم حفنة من الانتهازيين المتربصين وبعد عدة أسطر يصفهم بأنهم حفنة من القراصنة الوقحين. بعد ذلك يصل الخمينى إلى النتيجة التالية: وهى أن وجود إمام حسب ما يرتضيه العقل اللازم للرسالة المحمدية متمم لها حسب فهمه وفهم رافضته. ويضيف إلى ذلك قوله: إن الإمامة مسلم بها فى الإسلام، أمر بها الله نفسه سواء جاء ذكر ذلك فى القرآن أم لم يجىء !! ويصل به حد

الوقاحة إلى قوله إنه ليس لنا «نحن أهل السنة» أدنى معرفة بأصول الإسلام وفروعه فقد ألفت فى أمور الإمامة بحوث كالبحر لا نهاية لها.. كما أن للإمامة مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون. وأن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل!!

ثواب الزيارة الحسينية:

مامدى صحة مايقال من أن ثواب الزيارة أو إقامة التعزية الحسينية تعادل ثواب ألف نبى وشهيد؟!

السيد الخمينى لا ينفى هذا السؤال ولا ذلك التساؤل.. ولأنه أستاذ فلسفة يتصور فى نفسه التمكن من التأثير على القراء بفلسفته الضحلة فهو يتحاشى بخبث ولؤم شديدين الإجابة المباشرة والتحليل وإقامة البينة على فهمه.

يلجأ الخمينى إلى الفلسفة فهى سلاحه.. فيذكر نعم الله على بنى البشر، وما سخره لخدمتنا من آلاف النعم الكبرى ونحن نختصر كل ذلك. ثم يتساءل الفيلسوف لم هذه النعم؟!. وما الذى قدمناه نحن من خدمة إلى الله حتى يمن علينا بهذه النعم؟! إن نظرة إلى هذا الكون تثبت أن الله قد منح هذه النعم بدون مقابل بل أعطاها لمن تمردوا على حكمه أيضاً!! فجميع نعماء الله دون ثمن وقد منحنا إياها بدون مقابل.

إن الخمينى يريد أن يرمى إلى المفهوم القائل إن عطاء الله دون مقابل على عظمته وغفرانه وسع كل شىء لثواب الزيارة وإقامة التعزية الحسينية.. وهى تعادل فى ذلك أو تزيد عن ثواب ألفى نبى وشهيد!!

الحكومة الإسلامية ونظرة أهل الشيعة:

يقول الخمينى: من الطبيعى أن نعترف أن الحكومة والقانون لازمان للبشر فهما الطريق والوسيلة لتنفيذ القانون وتحديد مصالح المجتمع وحفظ الحقوق وإقامة الواجبات ــ لكن القوانين الوضعية تخالف العقل والمنطق فمثلاً.. قانون المالية.. قانون صبيانى يعطى صلاحيات تامة لشخص جاهل عديم الاطلاع يستطيع أن يعبث بأرواح الناس وأموالهم كما يشاء. وما يقره الخمينى من لزوم قيام القانون على الطريقة الإسلامية شىء نقره تماماً ونتمناه لكل الشعوب الإسلامية.. ولكن إذا كان الشيعة قد تقولوا كذباً على الأئمة ووضعوا على ألسنتهم قوانين ومفاهيم تخالف القوانين الإلهية فى القرآن.. وعند ذلك نادوا كذلك بوقوع تحريف فى القرآن فإن الأساس المشترك الواجب الاتفاق حوله بين جميع المسلمين من حكام ومحكومين قد شرحه

هؤلاء الرافضة.. وأضحت قوانين الإله ذاتها موضع خلاف.. وإذا كان المصحف العثمانى محفوظاً برعاية الله، ثم جاء بعض الملالية الرافضة وادعوا وتقولوا عليه الأقاويل.. أنؤمن بكتاب الله المحفوظ برعايته وهو على كل شىء قدير.. أم نستمع لهؤلاء الأفاقين المدعين الجهلة رغم أنهم ملالية ؟

هذا المثال يشير إلى أن الإيمان مع ارتباطه برجال الدين فإن أزمة الإيمان والرسالات إنما هى فى اتباع الصحيح لرجال الدين لما أمر الله به ونهى عنه فهم القدوة والتاريخ خير شاهد.

من هم أولو الأمر؟:

يقول الخمينى: إنه قد أوضح فى الحديث عن الإمامة معنى أولى الأمر.. ويقول أيضاً: إنه لو أدوا واجباتهم فإن طاعتهم أمر لازم حيث إن القرآن قد أوضح «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم».

ولكن هناك أولى أمر من أنماط رضا خان، ومصطفى أتاتورك وهؤلاء إن قالوا أمراً يخالف ماقاله الرسول الكريم فإن علينا طاعة الله والرسول لأننا إن إطعناهم فإننا نخالف أوامر الله. وقد سلمنا بأن من يخالف أوامر الله لا يليق أن يكون من بين أولى الأمر لأن أولى الأمر لا يخالفون أمراً لله ورسوله. إذن.. فإن أحد أولى الأمر هو ذلك الذى أمسك الرسول أمام سبعين ألف شخص يساعده وقدمه للحاضرين.. وهو كذلك ذلك الغائب الآن عن الأنظار وبيده أمور اليوم!!

عجباً أو لا عجب من ملالى رافض ركن ظهره وارتاح على الوهم والخيال والجهل ثم نادى بالعقل حكماً على آرائه.

التطاول على الأنبياء حتى على الرسول الكريم:

بل أكثر من ذلك يقول الخمينى عن المهدى المزعوم وأثره على البشرية: لقد جاء الأنبياء جميعاً من أجل إرساء قواعد العدالة فى العالم لكنهم لم ينجحوا.. حتى النبى محمد خاتم الأنبياء والذى جاء لإصلاح البشرية وتنفيذ وتربية البشر لم ينجح فى ذلك.. وإن الشخص الذى سينجح بالفعل ويرسى قواعد العدالة فى جميع أنحاء العالم وفى جميع مراتب إنسانية. الإنسان وتقويم الانحرافات هو المهدى المنتظر!!. فالإمام المهدى الذى أبقاه الله سبحانه وتعالى ذخراً من أجل البشرية سيعمل على نشر العدالة فى جميع أنحاء العالم وسينجح فيا أخفق فى تحقيقه الأنبياء.. إن السبب الذى من أجله أطال سبحانه وتعالى عمر المهدى عليه السلام هو أنه لم يكن بين البشر من يستطيع القيام بمثل هذا العمل الكبير حتى الأنبياء، وأجداد الإمام المهدى عليه السلام لم ينجحوا فى تحقيق ما جاءوا من أجله!!

وقال أيضاً: لو كان الإمام المهدى عليه السلام قد التحق إلى جوار ربه لما كان هناك أحد بين البشر لإرساء العدالة وتنفيذها فى العالم. فالإمام المهدى قد أبقى ذخراً لمثل هذا الأمر، ولذلك فإن عيد ميلاده أكبر أعياد المسلمين وأكبر عيد لأبناء البشرية لأنه سيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، ولذلك يجب أن نقول إن عيد ميلاد الإمام المهدى هو أكبر عيد للبشرية بأجمعها، وعند ظهوره فإنه سيخرج البشرية من الانحطاط ويهدى الجميع إلى الصراط المستقيم ويملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً.

إن ميلاد المهدى عيد كبير بالنسبة للمسلمين. يعتبر أكبر من عيد النبى محمد.. ولذلك علينا أن نعد أنفسنا من أجل مجىء الإمام المهدى عليه السلام!!. إننى لا أتمكن من تسميته بالزعيم لأنه أكبر وأرفع من ذلك.

ولا أتمكن من تسميته بالرجل الأول لأنه لا يوجد أحد بعده وليس له ثان.

لذلك لا أستطيع وصفه بأى كلام سوى المهدى المنتظر الموعود. وعلى جميع الأجهزة فى بلادنا ونأمل أن نتوسع فى سائر الدول ــ أن تهيىء نفسها من أجل ظهور الإمام المهدى عليه السلام وتستعد لزيارته!!

هذا الإمام المهدى المجهول لا ذكر له فى القرآن ولا إشارة.

ملك مصر الذى غدر به الجميع !! (١)

أسئلة وعلامات استفهام كثيرة، متنوعة الأشكال والأحجام، تتقاذفها الأفواه فى الجلسات الخاصة والعامة. والسبب صدور كتاب يحدثنا عن الملك السابق فاروق.. من هذه الأسئلة ما هو مغالى فيه ومتطرف، ولكن أغلبها يلف ويدور حول توقيت صدور هذا الكتاب.. وهل ينبىء بشىء فى الأفق.. أم بماذا نفسر هذه الطبعات تلو الطبعات التى تقذف بها مطابع أخبار اليوم تلبية لرغبة هذا العدد الهائل من القراء الذين يتسارعون من أجل الحصول على نسخة رغم ارتفاع ثمنها.

وبهدوء شديد.. وبكلمات يفهمها كل الناس نقول: إن هذه الضجة الكبيرة التى أحدثها ولا يزال صدور مثل هذا الكتاب ترجع فى المقام الأول من وجهة نظرى الشخصية البحتة إلى أننا كنا نعيش ــ وخلال أكثر من ثلاثين عاماً ــ داخل حفرة من التاريخ المزيف الذى كتب لخدمة أغراض معينة، هذا الزيف طمس على قلوبنا كل ما هو جاد وعظيم من تاريخ بلادنا سواء على مستوى الاشخاص أو مستوى الأحداث. وأكثر شرائح مجتمعنا الذين عانوا من هذا الزيف، هم الشباب الذين فتحوا عيونهم على تاريخ لقنوه لهم فى المدارس كتب على هوى الملقنين، وساقوا لنا الحجج الكثيرة للهروب من هذه الجريمة. حتى الملك فاروق نفسه، عاش وراء

(١) فاروق الأول ــ الملك الذى غدر به الجميع ــ عادل ثابت ــ نشر بالوفد بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٨٩.

دخان كثيف من الكراهية والتعمية .. لا لشىء .. إلا لمجرد أن حظه التعس قد أتى به أيام الانقلاب الذى قام به بعض ضباط الجيش.

والشىء المثير حقاً .. والذى شارك بقوة فى صنع هذه الضجة المصاحبة لكتاب فاروق .. أن أحد المقربين إلى الملك، بل أحد أقاربه هو الذى تصدى لإزاحة الستار عن آخر أيام هذا الملك الذى غدر به الجميع، وكما يقول المؤلف. إن الذى ألفه ليس إستاذاً فى التاريخ ولا عالماً من علماء الكتابة حسب المزاج .. بل إنه أحد أفراد الأسرة المالكة .. أو أحد الذين ينتسبون إلى هذه الأسرة. لذا جاء الكتاب مليئاً بالأسرار.. وبشكل محايد، وليس كما يتصور البعض أنه كتاب تم تأليفه خصيصاً للدفاع عن الملك المخلوع فاروق. ولسوف نعرف هذا المنهج وهذه الطريقة من خلال متابعتنا لما جاء به.

ولقد حرصت من جانبى أن أقدم وأعرض لهذا الكتاب حتى تتضح الرؤية ويشارك أكبر عدد من القراء فى الاطلاع على ما جاء به .. وإنها لفرصة طيبة كى يثير فينا فضيلة المناقشة والبحث، مع تكرار دعوتى لكم بأن ليس كل ما جاء فى الكتاب يؤخذ بشكل مسلم ودون مناقشة .. لقد مر زمان الاستسلام، ونعيش الآن فى زمن النقاش والبحث حتى نصل إلى الحقيقة مجردة .. وليعيش تاريخ أمتنا منزهاً عن كل غرض وكل صاحب هوى !!

لقد رصدت إدارة مكتبات أخبار اليوم كل إمكاناتها الفنية والطباعية من أجل إخراج كتاب الملك فاروق بما يليق به وبمكانته فى التاريخ المصرى الحديث.. وقد كان. لقد عهدوا برسم غلافه إلى الفنان الكبير مصطفى حسين، الذى أبدع وأخرج لنا الملك السابق وهو يعيش داخل برواز من ذهب، مجرد صورة جميلة تعلق فقط فوق الجدران، وبجواره تلك الفتاة الغانية التى تنم ضحكتها عن سخرية شديدة ومرة.. هذه المرأة الضاحكة.. تشير بأصابعها إلى المؤلف عادل ثابت.. ولا أعرف هل هذه الإشارة مقصودة من الفنان أم جاءت بفعل مخرج ومنفذ الكتاب.. ويعلو هذا البرواز الذهبى عنوان كم هو جميل أيضاً خطا ولونا يقول «فاروق الأول ـــ الملك الذى غدر به الجميع».

ومن الغلاف إلى المقدمة.. حيث نسمع بعض كلمات واضع الكتاب أو مؤلفه كما يقول الغلاف الأخير فى التعريف به.. إنه عادل محمود ثابت من مواليد القاهرة عام ١٩١٩ كان رقيباً على الصحف الفرنسية والإنجليزية فى فترة الحرب العالمية الثانية ثم عهد إليه عام ١٩٤٥ للسعى لدى شاه إيران من أجل طلاق الامبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق.

تقول كلمات هذه المقدمة «ليست هذه سيرة ذاتية لحياة الملك فاروق، بل هى أقرب فى طبيعتها إلى تقرير شخصى عن تجارب المؤلف وعلاقته بالملك، والتى بدأت عندما كان قريباً له من بعيد، وانتهت بعد أن أصبح معاوناً مقرباً ووسيطاً للملك وعبد الرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية خلال السنوات الحرجة التى سبقت وأعقبت كارثة حرب ١٩٤٨ فى فلسطين».. وفى موضع آخر يقول «لقد تعمدت تجاهل الكثير من القصص المروعة والمثيرة التى أحاطت بذكرى فاروق، إذ أنها إما زائفة وإما مبالغ فيها إلى حد بعيد».. وسوف يلاحظ القراء أن لهجة الكتاب ليست انتقادية فى قسوة ولا تضيف هالة من القداسة.. ولقد افترضت أن فاروق كان ضحية سلسلة لا نهاية لها من أعمال الغدر.. إلى أن غدر هو بنفسه فى النهاية.. فإن السبب الحاسم فى تنازله عن العرش هو غياب الحوار بينه وبين الضباط الشبان المتحمسين.. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى نظام القصر الذى خلق حاجزاً بين الملك وبين رعاياه!!

المحتويات بشيء من التفصيل الموجز:

نظراً لضيق المساحة المتاحة لنا .. وأملاً فى أن تكون الفائدة على درجة عالية من التوصيل .. فإننى سوف أقدم لكم محتويات الكتاب مع الانتقال بين فصوله .. حتى يتعرف القراء على أغلب ما جاء به .. ولو على سبيل التفصيل الموجز.

وعادة حينما ألجأ إلى ذكر المحتويات .. أقلب صفحات الكتاب حتى أصل إلى آخرها. ولا أعرف سبباً واضحاً لتقيد مكان المحتويات هذه بآخر صفحات الكتاب .. أى كتاب.

المهم دعونا معاً نقرأ هذه الكلمات .. يحتوى الكتاب على ثلاثة أجزاء كبيرة بالإضافة إلى ملحقين أحدهما عن مسودة خطاب استقالة الجنرال شميث .. والآخر يحتوى على مذكرة للخلفية التاريخية والسياسية للأسرة المالكة المصرية .. وبجانب ذلك هناك ألبوم نادر من الصور الملكية من كل نوع وشكل .. وجميعها تظهر تلك الأبهة والعظمة الملكية التى ضاعت مع الأيام ورحلت هنا وهناك لمن يستحق أو لا يستحق .. أما عن محتويات الأجزاء الثلاثة فهى كالتالى:

الجزء الأول: بعنوان ملك فى الانتظار:

ومكوناته هى: دادات ومربيات ـــ الأمير طالب الكلية العسكرية ـــ الملكة الأم ـــ خليفة عائلة الملكة نازلى ـــ تركة الملك فؤاد ـــ سياسات القصر ـــ زواج ملكى ـــ المتاعب الأولى ـــ القصر والأحزاب والقمصان الزرقاء ـــ أطوار ملكية غريبة ـــ عيد الميلاد ورأس السنة فى الأقصر ثم أخيراً حادث عابدين.

وباستعراض سريع لعناوين هذا الجزء يتضح أنه يلقى الضوء المبهر على تلك الأيام فى حياة الملك الشاب فاروق .. وكيف كان يعيش .. ثم كيف أصبح الملك الشاب المليء بالوطنية والحماسة المصرية .. ثم كيف انهار كل ذلك وأصبح الملك الألعوبة فى يد رجال القصر!!

أما الجزء الثانى فهو بعنوان: الفجوة الإيرانية:

ومكوناته هى: تحالف بين الأسر الحاكمة ـــ زائرون من أسرة الامبراطور ـــ امبراطور فى محنة ـــ فى فيللا انطونيادس ـــ وأخيراً مجموعة الزهرية. وكما هو واضح من هذا الاستعراض لهذه العناوين فإنه يحدثنا عن فترة تاريخية فى حياة مصر والملكية .. فترة التقارب بين إيران ومصر من خلال علاقة النسب التى تمت بين فاروق ملك مصر وبين محمد رضا بهلوى شاه إيران.

الجزء الثالث: ملك كاذن:

ويحتوى على هذه العناوين الفرعية: مصر الكبرى ضد مصر الصغرى ـ الجامعة العربية والحرب الإسرائيلية العربية الأولى ـ أسباب الهزيمة وعواقبها ـ التعرف على الجنرال ـ الاهتمام بسعادة الجنرال ـ الضباط الأحرار ـ والاتصالات الأمريكية ـ العام الأخير. وأخيراً ملك يرحل. وأعتقد أن هذا الجزء غنى عن التعريف خاصة وأنه وكما تشير عناوينه الفرعية يتناول الفترة الأخيرة من حكم الملك فاروق خاصة فترة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وما أعقبها من كوارث أدت جميعها فى النهاية إلى أن يحمل فاروق عصاه ويرحل.

الملك فاروق فى أحضان الإنجليز:

سوف نبدأ حالاً رحلتنا مع المؤلف وهو يحكى قصة ملك مصر الذى غدر به الجميع وقد اختار بداية مثيرة لحديثه حيث يلقى الأضواء المبهرة على البيئة التى تربى فيها الملك فاروق وهو لا يزال طفلاً وكيف كان يتنفس حتى الثقافة الإنجليزية.. وعن ذلك يقول.. كان أبغض الأشياء لدى الملكة نازلى أم فاروق هى المربية الإنجليزية للبلاط الملكى مسز نايلور..!! ويبدو أن الملك فؤاد كان يسعى لوضع زمام محكم حول أسرته، ولهذا الغرض استخدم مهارات مسز نايلور الصارمة التى كانت تحكم الجزء المخصص للأطفال بيد من حديد.

هذا عن التربية. أما عن الثقافة فيقول المؤلف.. وكان فاروق بطبيعة الحال قد قرأ كل ما أمكن الحصول عليه فى هذا الحقل الخصيب للثقافة البريطانية وعندما تجاوز العاشرة كان قد حصل على معلومات شاملة عن وسائل البريطانيين!! واستمر تأثير الدادات على الملك الشاب حتى حينما تولت العمل بعد رحيل مسز نايلور المربية السابقة مس بروديت والتى جاءت بعد وفاة الملك فؤاد.. هذه المربية التى عقدت العزم على إقامة علاقة ودية مع الملك الشاب فاروق!! بل أكثر من ذلك فقد تلقى فاروق علومه العسكرية فى الأكاديمية العسكرية البريطانية، وقد حدث فى صيف عام ١٩٣٦ وأثناء احتضار الملك العجوز فؤاد أن اتصلت الملكة نازلى بأمى تليفونياً (المقصد هنا والدة المؤلف).. وقالت بالحرف: «إن فؤاد يحتضر، وهناك شائعة بأن البريطانيين سوف يضعون الأمير محمد على العرش بدلاً من فاروق، ولابد أن نفعل شيئاً بسرعة».. ودعى مؤتمر للانعقاد على عجل فى قصر الدوبارة وتقرر ارسال برقية إلى فاروق للعودة إلى الوطن من إنجلترا فى أسرع ما يمكن وأن تطلب الحكومة المصرية رسمياً من السلطات البريطانية إعادة وريث العرش الشاب من أكاديمية وولوتش العسكرية بطريق الجو، وتم تنظيم الدعاية المناسبة له فى الصحف.. باعتباره الملك الجديد لمصر.

الملكة نازلى.. المرأة الشابة وأم فاروق:

لقد تخيرت هذه اللقطة عن الملكة الأم حتى نستطيع أن نعيش معها كل أبهة الحكم والسلطان.. وكيف كانت هذه المرأة هى كل مملكة مصر.. وعن ذلك يقول المؤلف عادل ثابت: فى الوقت الذى عاد فيه فاروق إلى مصر وإلى أحضان أمه، كانت نازلى مازالت امرأة شابة تمسك بدقة الأمور بقوة.. وكانت حياتها الزوجية فى حياة الملك فؤاد مقيدة بشدة وهى السيدة القوية الجميلة؛ إذ كانت تعيش فى سجن فعلى وراء أسوار القصور الملكية الثلاثة: عابدين والقبة والمنتزة.. وكانت تهوى التصوير الفوتوغرافى وتقوم بتحميض وطبع الصور بنفسها، كما كانت رسامة جيدة.. وكانت كبيرة وصيفاتها سيدة يهودية هى مدام قطاوى باشا القصيرة، البدينة.. والتى كانت فيما سبق صديقة حميمة للملك فؤاد.. وكانت الحياة بالنسبة للملكة الأم تمضى فى هدوء وراحة.. وكانت تشاهد الأوبرا فى موسم الشتاء. ويقول التاريخ عن خلفية عائلة هذه الملكة.. إن أهم أجدادها هو محمد شريف باشا الذى كان من أبرز الشخصيات فى تاريخ مصر المعاصر.. وكان شريف باشا هو ابن محمد شريف أفندى قاضى عسكر الوالى العثمانى لمصر فى المراحل الأولى لتولى محمد على السلطة فى بداية القرن التاسع عشر.

الملك الشاب بين المصرية الزائفة والتربية الخوجاتى:

تحت عنوان سياسة القصر يحدثنا المؤلف عن الوجه الآخر لبعض ملامح تربية الملك الطفل فاروق وكيف حاول أبوه أن يخلق فيه المصرية الصحيحة ويبصره عن تأثير التربية التركية والإنجليزية. وعن ذلك يقول: كان من الآثار الأولى لخطة الملك فؤاد التعليمية هى عزل ابنه عن الأطفال الذين فى سنه، إن تعليم فاروق المصرى عزله بصفة عامة عن أطفال الأمراء الآخرين من أعضاء الأسرة الذين كانت خلفياتهم أجنبية بصورة سائدة حيث نشأ بعضهم فى استانبول.. وكانت تركيا العثمانية منتجعاً راقياً لقضاء عطلات الأمراء المصريين فى السنوات السابقة للحرب. وكان الخوف يجعل التآخى مع بقية أعضاء الأسرة عند أدنى حد، وهكذا نجد لدينا صورة عن فاروق الصغير الوحيد. وشقيقاته يعيشون فيما يشبه السجن وسط بيئات مترفة بقصر القبة فى القاهرة والمنتزه بالإسكندرية. كما أصبح التغلب على المربية مسز نايلور هو الشغل الشاغل للشاب الذى سيصبح ملكاً، وقد ساعده الحظ على العثور على حلفاء بين موظفى القصر، فقد كان انطونيو بوللى كهربائى القصر إيطاليا أنيسا كتوماً. فأصبح موضع ثقة. كما كانت الحلوى التى تمنعها المربية البريطانية تصل إلى سموه بواسطة أعضاء آخرين من العاملين فى القصر!!

زواج فاروق وفافيت ذوالفقار:

وحتى نسير مع المؤلف سيراً طبيعياً. نحو الأحداث.. سوف نصحب المؤلف فى حديثه عن زواج ملكى. وكيف انتقى الملك فاروق زوجته الأولى صافيناز ذو الفقار.. إنه يحدثنا كثيراً

عن هذا الزواج فى فصل فرعى تحت عنوان زواج ملكى .. وعنه يقول : فى نوفمبر عام ١٩٣٦ أصبح معروفاً أن فاروق يحب صافيناز «فافيت» ذو الفقار، التى كنا التقينا بها من قبل خلال غارتنا على القصر لمقابلة الأميرات الصغيرات .. وكانت الملكة نازلى أم الملك قد تأكدت من ذلك .. وكانت الخطوة الأولى هى أن تجعل فاروق الذى مازال فى طور المراهقة نقياً ، يستقر ويتزوج فى أمان من فتاة طبيعية مطيعة ومؤدبة .. فتاة من العامة كما كانت هى ذاتها ، وبعيداً عن مجال تأثير الأميرات .

وكان ثمة اعتبار آخر هو خلافة الملك ، وكلما أسرع الملك الشاب بإنجاب ابن كان ذلك أفضل ، فقد كان أمراً ضرورياً لمواجهة التهديد الكامن المتمثل فى مطالبة الأمير محمد على توفيق ولى العهد الذى بلغ العقد السابع من عمره الماكر الطموح بحقه فى وراثة العرش. وكانت صافيناز التى تطلق عليها أسرتها اسم «فافيت» مناسبة إلى حد ما ، فقد كانت جميلة مرحة ذات طموح ، وكانت الملكة الأم ترقب بارتياح قدرتها على السيطرة على المغريات النسائية والمغازلات التى لابد منها لاصطياد الملك الشاب الساذج. حيث كان هدفاً سهلاً لغزو النساء .. وقد جاء إعلان الخطوبة بعد حفل التنصيب .. وأثار الملك الشاب ذو الطلعة البهية والملكة الشابة الحسناء والصورة الجميلة الوقورة للملكة الأم خيال الشعب وحماسته وخرج المصريون يهتفون للملك والملكيته من أعماق القلوب. لقد أصبح أخيراً لمصر ملك مصرى وطنى يتكلم اللغة العربية ويتزوج مصرية من العامة.

القصر والأحزاب والقمصان الزرقاء:

تلقت المواجهة بين القصر والأحزاب الوطنية وخاصة الوفد والتى كانت لعبة توازن القوى تعتمد عليها ــ تلقت هزة خطيرة بوفاة الملك فؤاد ومقدم الملك فاروق، وأصبح الجميع يخمنون عمن يكون الأكثر شعبية لدى الوطنيين المصريين : الحزب أو الملك وعقب توقيع المعاهدة الانجلو ــ المصرية فى عام ١٩٣٦ . وسرعان ما برزت الخلافات فعلاً بين الملك الشاب والزعيم الوطنى مصطفى النحاس الذى خلف سعد زغلول العظيم كزعيم للوفد بعد وفاق قصير الأجل؛ فقد كانت هناك قوى قوية تعمل ضد هذا التقريب وبرزت منافسة لا يمكن تجنبها بين شخص الملك فاروق ذى الشعبية المرتفعة والوفديين الذين وجدوا تحدياً جدياً بل وخطيراً. وكانت هناك دائماً السفارة البريطانية فى قصر الدوبارة التى كانت ترى أن وفاق فاروق مع النحاس قد يؤدى إلى عواقب سياسية غير مرغوب فيها من وجهة نظرهم وقد كان .. فلم يكد فاروق يجلس على عرش مصر حتى كانت الوسائل المشروعة وغير المشروعة لفصل العرش عن حزب الوفد، قد بدأت. وكانت معارضة القصر للوفديين يقودها فى الجزء الأول من حكم فاروق على ماهر باشا والشيخ مصطفى المراغى الرجل القادر الذى كان على رأس قائمة من ينادون بإحياء دور مصر

الإسلامى، ونقل المركز الإسلامى وثقله من استانبول إلى القاهرة. هذا إلى جانب أن السنوات الأولى من حكم فاروق شهدت المنافسات القديمة بين الحكومة والقصر كما استمرت حول الامتيازات المتضاربة. هذا بجانب مسألة القمصان الزرقاء حيث برز فى مصر فى ذلك الوقت تشكيلان لأصحاب القمصان: القمصان الخضر التابعون لحركة مصر الفتاة، وتشكيلات القمصان الزرقاء للشباب الوفدى.

محاصرة قصر عابدين وحادث ٤ فبراير:

لنصل الآن إلى واحد من أخطر الحوادث فى العلاقات المصرية ـــ البريطانية، وأعنى به تحرك السير مايلز لامبسون ضد قصر عابدين فى فبراير ١٩٤٢. ذلك البريطانى الحاكم العسكرى الأكبر من حجمه الحقيقى الذى يمثل جورج الخامس ملك انجلترا، ولقد عرفت أنه ليس شخصية خجولة أو عزوفاً عن الدعاية، ومع ذلك فقد قيل باستسلام ظاهر تنزيل مرتبته من الوضع الرفيع كمندوب سام وشريك فى حكم مصر مع الملك الراحل فؤاد إلى مرتبة ممثل معتمد كسفير لدى الملك فاروق بن فؤاد. كان فاروق مصدر إحباط كبير للسير مايلز «فالغلام» كان يفعل دائماً الشىء الخطأ، إنه يستفز السفارة ويتشاور مع وزراء مصريين غير مناسبين من أعداء بريطانيا. وقد أدت كراهية السير مايلز لفاروق إلى المضى فى بعض السبل الخيالية العجيبة، فقد كان يعتقد أن فاروق يتآمر بوضوح ضد الامبراطورية البريطانية، وأنه يأوى جواسيس إيطاليين، ويدير شبكة مخابرات تزود جيوش هتلر وموسولينى بمعلومات عسكرية حيوية!! ولنصل إلى مشهد حصار القصر لحظة بلحظة وكما يصفها المؤلف قائلاً: «المشهد فى صباح ٤ فبراير عام ١٩٤٢ فى القاهرة أكبر مركز حربى بريطانى خارج بريطانيا ذاتها، هناك أكثر من مليون جندى بريطانى فى مصر.. ومع ذلك فإن السير مايلز لامبسون كان يشعر كما يبدو أنه فى حاجة إلى حراسة أكثر من لواء من الرجال تساندهم الدبابات والمدافع لتطويق ميدان عابدين. ويبدو أن نقص المساحة هو الذى منع فقط وجود حشد أكبر من ذلك!! ودخل السفير البريطانى وألقى بالعادات الدبلوماسية المتحضرة فى الهواء ليزيح جانباً اثنين من الأمناء تقدماً نحوه لاستقباله بأدب، وتقدم إلى مكتب الملك واندفع داخلاً كى يستقبله ملك يبتسم!! هذه الحكاية عن حادث عابدين مؤسسة على شرح فاروق الشخصى للحدث كما أبلغنى إياه فى وقت تال.

قصة الزواج الملكى بين مصر وإيران:

كان جم سفير إيران رجلاً وقوراً قصيراً ومرحاً. وكان صديقاً لأبى محمود ثابت باشا مدير البروتوكول بوزارة الخارجية. وعندما عاد السفير الإيرانى فى فبراير عام ١٩٣٩ أعلن وصوله فى مكتب أبى، وكان أبى وموظفوه يعالجون بعض أنواع الأزمات، ولكن الأمر لم يكن كذلك،

لقدجاء السيد جيم لجس نبض أبى عما إذا كان ابن الشاهنشاه العظيم رضا بهلوى يمكن أن يقبل كطالب للزواج من شقيقة الملك فاروق الكبرى الأميرة فوزية، وقدم الطلب كما ينبغى إلى فاروق الذى كان رده المتميز «إنهم من المسلمين الشيعة» وعندما أبلغه مستشاروه إن ذلك ليس عقبة خطيرة للزواج، قال الملك: «إن إيران بعيدة جداً.. فهل ستكون فوزية سعيدة هناك»؟! لقد كان يبدو بوضوح أن جلالته غير متحمس للفكرة، ولكنه أعطى رده أخيراً قائلاً: «الأمر متروك لفوزية لتقرر بنفسها، وسوف أوافق على قرارها».

ولقد آثار زواج ابن الشاه من أخت فاروق ملك مصر تعليقات واستفز تخيلات تشوبها الشكوك فى أذهان الضباط والسياسيين والعسكريين البريطانيين، فقد كان الشاه الكبير معروفاً بموالاته لألمانيا وأنه يتبنى كل أشكال الطرق الألمانية، وبالنسبة لأذهان عديدة كانت إيران حليفاً محتملاً للمحور.. أما ماذا كان فى استطاعة شقيقة الملك الجميلة أن تفعل فى هذا الصدد، فقد كان ــ كما يبدو ــ أمراً لا يزعج أحداً، ترى هل استقبلت المؤسسة المصرية الزواج بحماسة، وهل يمثل امتداح الصحافة المصرية التفكير الحقيقى للمصريين؟! وتحت عنوان فرعى آخر «الامبراطورة فى محنة» يقول المؤلف: كانت الأنباء الواردة من طهران فى أواخر ١٩٤٤ تثير القلق.. فقد قيل إن امبراطورة إيران الشابة شقيقة فاروق تعانى مرضاً خطيراً.. وعندما قابلناها جاءت بمفردها لا يصحبها أحد، وقد أذهلنا أنا وأبى ظهورها بهذا الشكل إلى حد كبير فلم تكن تلك المرأة الشابة الجميلة.. فقد كانت بارزة العظام ويبدو عليها شبح الهزال الشديد!! ولقد كان أبى قد قرر بعد تردد إبلاغ الملك بأن إنهاء الزواج أمر حصيف وأصبح واجبى أن أبلغ الملك بالموقف، وطرت إلى القاهرة حيث استقبلنى الملك على الفور وقام باستجوابى بدقة عن الحالة الصحية لشقيقته.

فاروق يحاول أن يكون الرجل الأول:

قال لى فاروق فى مباهاة «لقد نسوا أننى من سلالة محمد على الكبير».. كنا نتناول العشاء فى خريف ١٩٤٤ بحدائق شبرد القديم بالقاهرة. وفى اليوم السابق كان فاروق قد أسقط حكومة النحاس بما يشبه الانقلاب الملكى!! وكان هذا الانقلاب يعتبر لقطة تحول فى الشئون المصرية.. وكان المظهر السياسى لمصر الصغيرة على وشك أن ينهار، وبدأت محاولة محددة تعمل للاستيلاء على الزعامة المصرية فى السياسات العربية، لقد كانت إقالة النحاس والاختفاء الفعلى للتدخل المذل للورد كيلرن فى السياسة المصرية تعنى فى الواقع أن فاروق أصبح لأول مرة فى عهده، الزعيم الحقيقى لبلده بينما أصبح كبار موظفى البلاط، حسنين باشا وحسن يوسف باشا والباقون وزراء ظل فى حكومة عليا، ومع حل السلطة الثلاثية التى كان يمثلها مجلس وزراء حزب الوفد والسفير البريطانى وقصر ضعيف موضوع على الرف إلى حد

كبير، تولى فاروق امتيازات وسلطات مجلس الوزراء ورفع حرية القصر، ولكن هناك سؤالاً يفرض نفسه هو: ماهى النوايا التى فى صدر فاروق إزاء هذه الخلفية السعيدة من السلطة السياسية التى استعادها ؟!

حرب ٤٨ ـ الهزيمة وعواقبها:

لعل حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل.. كانت واحدة من أسوأ الحروب فى التاريخ الحديث.. كانت نتاجاً غير عادى فى تصورها والإعداد لها، لقد وضعت موضع التنفيذ بوساطة فريق دولى من الملوك ورؤساء الوزارات والسياسيين، يطيعون جميعاً ولاءات مختلفة، والكثيرون مستعدون سراً للغدر بواحد من الآخرين لأسباب انتهازية.. ومن بين هؤلاء جميعاً أصبح فاروق الضحية البريئة وكان على بلده مصر أن تدفع أغلى ثمن من الرجال والأموال.. لقد فقدت مصر عدة آلاف من القتلى والجرحى بالإضافة إلى سمعتها، وفقد الملك عرشه فى النهاية! فبالرغم من التحذيرات المتكررة من الدول العربية بأن الحدث سوف يطلق سلسلة من ردود الفعل سوف تستمر أجيالاً فإن العالم الغربى بمساعدة صوت روسيا آثار الدهشة، استخدم العنف إلى حد الموت لإنشاء دولة إسرائيل من خلال الأمم المتحدة، وقد أمكن الحصول على الأغلبية اللازمة فى الجمعية العامة من الأصوات لدخول إسرائيل المنظمة الدولية فى آخر لحظة.. وبمجرد أن برزت إسرائيل أصبحت تحدياً مباشراً لأعضاء الجامعة العربية.. وكان دورى كحلقة اتصال بين عزام باشا والملك يحوطه كتمان شديد ومع ذلك وجدت نفسى وسط الأحداث، فقد طلب منى عزام أن أؤكد لجلالته الحاجة إلى اتخاذ إجراء عسكرى فعال.. فى الوقت الذى كان فيه الملك محاط بعصابة، من منافقى القصر والمتملقين.. الذين كانت آراؤهم تعكس الكثير من المصالح غير المصرية، وكان مما يساعد الجانب السلبى بقوة هوميل كبار قادة الجيش بزعامة حيدر باشا وزير الدفاع جدياً إلى توقع الحرب العلنية أو الإعداد لها.. وهكذا كان فاروق يواجه مأزقاً.. فقد كان فريق عزام يطالب باستعداد جدى للحرب والتى كانت عدا الاعتبارات العسكرية، تتطلب قدراً عالياً من التضامن والهدف العربى، وفى المقابل كان فاروق يواجه عمليات حث من أصحاب نفوذ آخرين فى القصر، وهناك جانب آخر للأمور يلفت النظر فى ذلك الحين وهو الوصول المفاجىء لعشرات من تجار الأسلحة الدوليين، إلى مسرح الأحداث!! ولكن بعد كل ماقيل، فإن حرب ١٩٤٨ ضد إسرائيل ضاعت خلال مجموعة من عدم كفاءة القادة العسكريين المصريين والحلفاء العرب غير الموثوق بهم، وكان على فاروق باعتباره المخطط الرئيسى للحرب أن يتحمل وطأة الاتهامات ضد جلالته وعزام باشا!! وكان هناك بجانب ذلك عامل آخر للهزيمة هو النقص الخطير فى مستوى أركان حرب الجيش وعلى رأسهم حيدر باشا.

ليلة رحيل الملك .. وسقوط فاروق:

ويصور لنا المؤلف فى آخر رحلته معنا .. اللحظات الأخيرة فى حياة ملك مصر، فاروق وقبل أن يحمل عصاه ويرحل .. ولعلى مثلكم فى غاية الاشتياق لمعرفة الشيء الكثير عن تلك اللحظات .. ولكن المساحة ضيقة، ومع ذلك سوف نترك له المجال ليقول كلاماً كثيراً: يقول المؤلف تحت عنوان ملك يرحل: كانت ليلة ٢٢/٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى الإسكندرية يسودها جو منعش وكانت الأميرة فايزة قد قررت القيام بنزهة فى ميناء الإسكندرية فى الرملة البيضاء حيث تصيد الجمبرى ومخلوقات البحر الأخرى، وكان الميناء فى هذه الليلة أشبه بمكان ساحر يتلألأ بالنور، كان الصيد فى تلك الليلة ممتازاً واستطعنا فعلاً التقاط الجمبرى من الماء، وفى الرابعة صباحاً أقلعنا عائدين إلى مرسى نادى اليخت الملكى، وبينما كنا نمر بجوار مدمرتين سمعنا أصواتاً من الأبواق توقظ إطقمها .. وعندما وصلنا إلى السيارات التى تقف خارج النادى، أدهشنا أن نلاحظ وجود حشد صغير من طلبة الكلية البحرية فى الشارع ونظروا إلينا فى فضول، وكان هناك توتر واضح فى الجو!! وعدت إلى بيتى، ولكن فى الساعة السابعة تماماً أيقظنى زميلى فى الجامعة العربية وأبلغنى أن هناك شيئاً قد حدث خلال الليل فى القاهرة، ولو أن فاروق فى هذا الصباح الأول للانقلاب أخذ سيارته وقادها مباشرة إلى قيادة جامعة الإسكندرية بمصطفى كامل لاستطاع أن يتولى قيادة قوة عسكرية كبيرة يزيد عددها كثيراً على متمردى القاهرة!! وكذلك البحرية ظلت ساكنة وترك الأحداث تسبقه وبعد بضع سنين أعربت عن دهشته لهذا الخمول السلبى لإسماعيل شيرين فقال: «لقد أراد الملك تجنب سفك الدماء وأن يقاتل المصريون المصريين، ولم يستغرق الأمر أكثر من ٤٨ ساعة لكى يؤمن فريق عبد الناصر موقفهم وأن ينقلوا قوات كافية من الموالين لهم لتأكيد قبضتهم على الإسكندرية، وبعد أن حقق ذلك فإن الخطوة التالية كانت مطالبة الملك بالتنازل عن عرشه، وتحركت الأحداث بسرعة مذهلة ففى خلال ثلاثة أيام من الانقلاب كان فاروق يتأهب للرحيل وتم تنازله عن العرش فى ٢٦ يوليو، وكانت الأوامر قد صدرت لليخت الملكى بالاستعداد. ونظم حفل رسمى للرحيل فى رأس التين شهده اللواء محمد نجيب زعيم الانقلاب وضباط آخرون من زعماء الانقلاب، وكان غياب عبد الناصر واضحاً، ولكن شخصين آخرين لم يتغيبا هما الأميرتان فايزة وفوزية اللتان قررتا ضرورة رؤية شقيقهما قبل مغادرة البلاد.

مذكرات أحد قادة العبور(١)
كشف فيها عن أسرار جديدة

لأننى من الجيل الذى عانى وعايش هزيمة عام ١٩٦٧، ومن هؤلاء الذين كانوا يسمعون الكلام.. ويشاهدون عكسه!! ولأننى أيضاً من هذا الجيل الذى أسعده الحظ كى يعيش لحظات الفرح والانتصار بعبور أكتوبر العظيم.. وهلل وكبر، لإزاحة كابوس الهزيمة عن النفس المصرية والعربية.. لكل ذلك ولغيره من الأسباب التى نعرفها والتى لانعرفها.. فرح قلبى ورقص بين ضلوعه.. حين وصلنى كتاب أحد أبطال هذا النصر العظيم ـ إنه المشير البطل محمد عبدالغنى الجمسى.. صاحب الكشكول الذى به أدق تفاصيل هذه الحرب والرجل الذى كان يسكن بجوار قلب المرحوم الرئيس السادات. ولا يقلل من قيمة هذه المذكرات أنها نشرت مسلسلة فى زميلتنا مجلة أكتوبر.. بل بالعكس يجعل الشوق لاقتنائها يزيد.. لأنه إذا عرفنا أن تلك المذكرات التى كتبها هذا البطل المصرى الشجاع، يصل حجمها ككتاب بالقطع الكبير إلى ما يقرب من أكثر من ستمائة صفحة.. فإنه سيكون الدافع الحقيقى من أجل السعى قدماً نحو ضمها كأغلى كتاب يزين العقل والمكتبة، فما أحوجنا إلى مثل هذه الكلمات التى أعتبرها الزاد والمعين الذى كلما بلغ بنا الشوق إلى أن نتذوق حلاوة النصر.. رجعنا على الفور إليها.. لنعيش لحظات هذا النصر الذى ما يزال يعيش بيننا بآثاره الحميدة.. ونتائجه التى لا تخفى على أحد.

---

(١) مذكرات المشير الجمسى ـ نشر بالوفد حلقة واحدة بتاريخ ١١ إبريل ١٩٩٠.

رسالة رقيقة .. بقلم بطل شجاع :

قد يتصور البعض منا .. أن الشجاعة يمكن أن تتجزأ .. ويكون لنا عليها سيطرة بحيث نطلقها وقت أن نشاء ونحبسها كذلك ، ولكن الحقيقة غير ذلك . إن الشجاعة هي الشجاعة .. في كل مكان وفي كل ميدان .. هذه الكلمات تنطبق تماماً على مؤلفنا كاتب هذه المذكرات المشير الجمسي ، ونلمس ذلك من خلال كلماته الرقيقة التي بث فيها كل شعوره .. حيث أخذ يخاطب أحباءه الذين سمح لهم باقتناء كتابه هذا موقعاً عليه بإمضائه الغالي . ويكفيك أن تقرأ معي كلماته هذه وهي موجهة إلى أستاذنا جمال بدوي رئيس التحرير: تحياتي وأطيب تمنياتي .. يسعدني أن أقدم لكم كتابي عن (حرب أكتوبر ١٩٧٣) وهو عمل متواضع عن إنجاز عظيم حققه الشعب المصري وقواته المسلحة . ويضم الكتاب حرب يونيو عام ١٩٦٧ وماتلاها من معارك القناة وحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ومباحثات الكيلو متر ١٠١ ، والمفاوضات العسكرية المصرية الإسرائيلية بالقاهرة بعد زيارة الرئيس الراحل السادات للقدس ، واختتمت الكتاب بباب قصير عن انتهاء خدمتي بالعمل العام بالقوات المسلحة بقبول استقالتي بناء على طلبي . وقد سجلت في مقدمة الكتاب أن كل ما جاء به يعبر عن وجهة نظري الشخصية ، ولا يعبر عن الرأي الرسمي للدولة أو القوات المسلحة . وبكل أمانة ، لا أهدف من هذا الكتاب تأييداً أو نقداً لهذا أو ذاك ، ولكنها شهادة قد تصلح لتكون أمام المتخصصين في كتابة التاريخ وهي شهادة أقدمها لصالح مصر ، عسى أن تنير الطريق إلى مستقبل أفضل .

انتهى كلام المؤلف .. وبقيت لي كلمة واحدة . هي أن هذه الرسالة الرقيقة المعاني قد أغنتني عن استعراض فهرس الكتاب بشكل موسع ؛ لأنها لخصت الفكرة ومحتوياتها . وبقي لنا أن نستعرض بعض ما جاء به على سبيل التذكرة .. وهي كلمات نقدمها من جانبنا تحية تقدير لبطلنا المصري الكبير الشجاع المشير الجمسي .

٥ سنوات غيرت وجه التاريخ :

وأنا أستعد بالفعل للغوص بقلمي داخل أبواب فصول الكتاب الضخم الذي عنوانه «مذاكرت الجمسي ــ حرب أكتوبر ١٩٧٣» والذي نعرض له هنا هذا الأسبوع . استوقفتني

كلمات المؤلف فى مقدمة الكتاب. حيث يقول: خمسة أعوام مضت من أكتوبر ١٩٧٣ حتى أكتوبر ١٩٧٨، وقعت فيها أحداث جسام تركت أثرها على مصر والوطن العربى ومازالت تؤثر فيه. ففى يوم ٦أكتوبر ١٩٧٣ كنت فى مركز عمليات القوات المسلحة أرتدى لبس الميدان حيث بدأت الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل. وكنت أقوم بعملى فيها كرئيس هيئة عمليات القوات المسلحة.. هذه الحرب التى اشتركت فيها امتداد لحروب سابقة فى الصراع العربى الإسرائيلى. وبعد خمس سنوات بالضبط يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨.. انتهت خدمتى بالقوات المسلحة كقائد عام لها وانتهى عملى العام بالدولة كنائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية والإنتاج الحربى. وكنت فى منزلى فى ذلك اليوم مرتدياً ملابسى المدنية أشاهد على شاشة التليفزيون العرض العسكرى الذى يقام سنوياً احتفالاً بالنصر فى تلك الحروب.

بدأت هذه الفترة من تاريخ مصر والعرب بحرب أكتوبر التى هزت الشرق الأوسط هزاً عنيفاً.. وعلى أثرها حدث فض الاشتباك الأول على الجبهتين المصرية والسورية ثم فض الاشتباك الثانى على الجبهة المصرية وأعيد فتح قناة السويس للملاحة وألغيت معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية وقام السادات بزيارة القدس فى أواخر عام ١٩٧٧. وبعد مفاوضات سياسية وعسكرية وصلت إلى طريق مسدود وقع الرئيس السادات اتفاقية كامب ديفيد فى أمريكا فى سبتمبر من العام التالى ١٩٧٨.

حرب يونيو ١٩٦٧.. وكلام من الباب الأول:

رغماً عنى قلبت الكتاب حيث الفهرس، نظراً لضخامته كما سبق أن ذكرت، واعتبرت أن حصولى على مقتطفات من حديث المؤلف عن ذكرياته هذه.. من خلال استعراض سريع لمحتويات الباب الأول الذى خصصه المؤلف للحديث عن حرب أو هزيمة عام ١٩٦٧. من حيث جذورها ثم الطريق إليها، والسؤال الصعب الذى يحاول الإجابة عنه كرجل عسكرى.. هذا السؤال يقول.. هل كانت مصر مستعدة للحرب؟، ثم حديث الحرب والانسحاب من سيناء. وأخيراً الدروس المستفادة من الهزيمة.. وبداية يذكرنا المؤلف بآلام وجروح حفرت مكانها بشكل غائر فى قلوب كل العرب فيقول: لقد كنت ضمن القوات المسلحة فى سيناء فى مايو عام ١٩٦٧ وعدنا منها فى يونيو، شاهدت خلالها أحداثاً سريعة متتالية، بدأت بمعلومات غير صحيحة عن حشد للقوات الاسرائيلية على الحدود السورية للاعتداء عليها، ترتب عليها عمل مظاهرة عسكرية فى مصر تحولت إلى حرب حقيقية لم تكن مصر والدول العربية جاهزة لخوضها. فى حين كانت إسرائيل على استعداد لها..!! ويخوض بنا المؤلف تحت عنوان فصله الأول جذور حرب يونيو ٦٧ دروب السياسة العالمية.. وموقف الدول الكبرى من ثورة يوليو ومناصبتهم العداء لمصر.. بعد هذه الثورة. وكراهيتهم لشخصية عبدالناصر الذى أصبح زعيماً وطنياً فى العالم العربى بلا منازع!

ويبدو أن مؤلفنا البطل أراد بالحديث عن هذه الجذور على حد قوله : وللخروج بالدروس المستفادة من حرب يونيو ١٩٦٧ ، لابد من إلقاء نظرة عليها لأننا نحن العرب مازلنا نعيش بعض آثارها القائمة والعبرة التى يجب أن نخرج بها بالغة الأهمية ، فقواتنا المسلحة اشتركت فى حرب يونيو ٦٧ وحرب أكتوبر ٧٣ ضد نفس العدو واختلفت النتائج اختلافاً واضحاً بين الهزيمة والنصر. وقبل أن نترك حديث الجذور هذا أود أن أسوق إليكم ما كتبه مؤلفنا ولو على سبيل العناوين الفرعية حتى نعيش معه من خلال كلماته لحظة بلحظة . فمن هذه العناوين : العدوان الثلاثى على مصر ــ الوحدة بين مصر وسوريا ــ ثورة العراق ــ لبنان والأردن ــ انفصال سوريا عن مصر ــ حرب اليمن ــ إسرائيل تستعد للحرب ــ ذريعة لبدء الحرب .

الهزيمة بالأرقام .. بين الرجال والأسلحة :

جاءت نتيجة حرب ١٩٦٧ وبالا على قواتنا المسلحة فى الرجال والعتاد . فقد استشهد لنا على الجبهة المصرية تسعة آلاف وثمانمائة رجل بين شهيد ومفقود ، وخسرنا الجزء الأكبر من أسلحة ومعدات القوات المسلحة وتحمل الاقتصاد المصرى عبئاً جسيماً تطلب تضحيات من الشعب أثقلت كاهله .. وتقول الإحصائيات عن هذه الخسائر:

● فى الأفراد ١٧٪ من القوات البرية و٤٪ من الطيارين ــ أما فى معدات القوات الجوية والدفاع الجوى والقوات البرية فقد كانت ٨٥٪ منها .

● وعن خسائر القوات الجوية بالتفصيل فقد كانت ٨٥٪ من المقاتلات القاذفة والمقاتلات وكانت ١٠٠٪ من القاذفات الخفيفة والقاذفات الثقيلة .

السنوات العجاف وخطوات إعادة البناء :

فى الباب الثانى والذى يحمل نفس العنوان الفرعى يحدثنا مؤلفنا المشير الجمسى من خلال ذكرياته عن إعادة بناء القوات المسلحة بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ حيث يقول بالحرف : كانت نقطة البدء بعد حرب يونيو مباشرة هى : إعادة بناء القوات المسلحة بعد أن فقدت الجزء الأكبر من أسلحتها ومعداتها ، وكذلك فقدها الثقة فى قيادتها وتحطمت الروح المعنوية ، كما أن الشعب فقد ثقته بها بعد أن احتلت إسرائيل سيناء . بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدينا قوات متماسكة على الضفة الغربية للقناة بالقدر الكافى للدفاع عن منطقة القناة . وكانت عملية البناء هذه من أصعب وأشق الأعمال . كما كانت الخطوة الثانية لإعادة البناء هى إصدار قانون جديد يحدد أسلوب القيادة والسيطرة على شئون الدفاع من الدولة والقوات المسلحة ويصحح الأوضاع الخاطئة التى كانت سائدة قبل حرب يونيو. أما الخطوة الثالثة عن هذا الطريق فهى إبعاد قواتنا المسلحة

عن كل عمل مدنى سبق تكيفها به. ولقد كانت خطوة من أفضل الخطوات التى اتخذتها القيادة السياسية مع القيادة العسكرية فى هذه المرحلة. وجاءت المرحلة التالية لذلك حيث الصراع المسلح فى مرحلة البناء ثم حرب الاستنزاف.

أطول حرب نشبت بين مصر واسرائيل:

يقول المشير الجمسى: إن حرب الاستنزاف هذه تلك التى بدأت يوم ٨ مارس ٦٩ وانتهت بمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى فى أغسطس ١٩٧٠ واستغرقت تلك المرحلة سنة ونصفاً. وكانت مصر تهدف من وراء هذه الحرب إلى إصابة آلة الحرب الإسرائيلية فى سيناء بقدر مؤثر من الدمار فى الأسلحة والتحصينات فضلاً عن خسائر الأفراد. إن حرب الاستنزاف تعد أطول حرب تشبث بين مصر وإسرائيل، فقد استمرت كما ذكرت عاماً ونصف العام واستخدمت فيها كافة الأسلحة البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوى. وكان لهذه الحرب هدفها السياسى واستراتيجيتها العسكرية وعملياتها ذات الطابع الخاص. ولاشك أنها تختلف فى هذا المجال عن الحرب الشاملة. ومن المعروف أن استراتيجية حرب الاستنزاف من الاستراتيجيات المعترف بها فى العلم العسكرى. ولقد كانت هذه الحرب ضرورة حيوية لقواتنا المسلحة حيث جاءت بعد مرحلة الصمود والدفاع المشترك. كما كانت بالفعل هى المرحلة التحضرية الحقيقية والعملية لحرب أكتوبر فى ظل الظروف التى كانت سائدة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. ولقد كانت هذه الحرب تمثل عبئاً على كل من مصر وإسرائيل. ولكنها كانت أكثر فائدة لمصر وأكثر ضرراً لإسرائيل. هذا من الناحية العسكرية. أما من الناحية السياسية فقد كان شن هذه الحرب من وجهة نظر مصر معناه بقاء مشكلة الشرق الأوسط وأن تظل فى أولويات القوتين العظميين والدول الكبرى.

لعلنا مقتنعون جميعاً أننا أمام موسوعة هامة وعظيمة تستحق منا الاحتفاظ بها إلى الأبد.. لما فيها من قيمة تاريخية وحيوية.. ولعلى أنا شخصياً لضيق المساحة أحاول قدر المستطاع أن أسوق إليك أيها القارىء العزيز روح هذه المذكرات والتركيز على بعض لقطاتها الحية حتى نعيش معاً الحدث بنفس الترتيب الذى أراده المؤلف. ولعلك عزيزى القارىء قد لاحظت ذلك منذ البداية. وها نحن الآن على أبواب الفصل الثالث وحديث عظيم وهام عن حرب أكتوبر التى حضرها منذ بداية الإعداد لها المؤلف. وسيكون لنا معها وقفات عديدة نستوضح خلالها موقف قواتنا المسلحة من هذه الحرب الكبيرة. وتحت هذا الباب قسم المؤلف الحديث إلى فترتين أو فصلين هما مرحلة التخطيط والإعداد للحرب ثم مرحلة إدارة العمليات العربية وسوف نحاول قدر إمكانات المساحة أن نتوقف عند كل مرحلة ولو للحظات.

التخطيط والإعداد لحرب أكتوبر:

بداية يجب أن نكون متفقين أنه مهما تحدثنا عن التخطيط لهذه الحرب خلال المساحة المتاحة فلن نوفيها حقها من الحديث خاصة أن أحد أبطالها ورجالها الأعزاء هو الذى سطر هذه الكلمات. ولكن بقدر الإمكان سنقول مانستطيع قوله.. وبداية نقف مع المؤلف عند منعطف تاريخى هام حين يقول: وبدأ عام ١٩٧٢، وصدر قرار تعينى فى منصب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة فى الأسبوع الأول من يناير من ذلك العام. وكنت أقدر عبء هذا المنصب ومسئولياته فى هذا الوقت العصيب برغم أننى لن أبدأ من فراغ لأن جهد الرجال الذين سبقونى لا يمكن تجاهله أو إغفاله.. وكانت البدائل التى طرحت أمام القيادة العسكرية فى تلك الفترة لتحرير سيناء هى العودة إلى حرب استنزاف جديدة أو القيام بعملية هجومية شاملة لتحرير الأرض واستقر الرأى فى النهاية على القيام بعملية هجومية ضد قوات العدو فى سيناء ضمن إطار استراتيجية شاملة للدولة، يكون الدور الرئيسى بها للقوات المسلحة. مثل هذه العملية العسكرية تنفذ بالتعاون مع القوات السورية، تقوم فيها مصر بالاقتحام المدبر لقناة السويس وهزيمة التجمع الرئيسى لقوات العدو فى سيناء والوصول إلى خط المضايق وفى نفس الوقت تقوم القوات السورية بالهجوم لاختراق دفاعات العدو فى الجولان وتدمير قواته والوصول إلى خط نهر الأردن والشاطىء الشرقى لبحيرة طبرية وتأمينه.

لقد بنيت الاستراتيجية العسكرية المصرية لحرب أكتوبر على أسس رئيسية وهى استراتيجية وضعت من واقع مرير عاشته مصر والأمة العربية بعد يونيو ١٩٦٧ ثم غذتها بمتابعة واستغلال التقدم العلمى والتكنولوجى فى المجال العسكرى، وصاغتها بالفكر والعرق والدم من دروس الحرب السابقة. وكانت هذه الدروس هى كالآتى:

١ ــ **دروس حرب يونيو ١٩٦٧:** ففى تلك الحرب لم يكن لنا استراتيجية عليا للدولة تحقق بين التوازن والهدف السياسى للدولة وقدراتها العسكرية، بل إن القوات المسلحة فوجئت بقرارات سياسية لم تكن على علم مسبق بها لتستعد لتنفيذها.

٢ ــ **تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى:** وكان ذلك يعنى تحدى النظرية الإسرائيلية التى تعتمد على الردع النفسى والسياسى والعسكرى والاحتفاظ بالحدود الآمنة من وجهة نظر إسرائيل على خط القناة.

٣ ــ **إعداد الدولة للحرب:** وبذلت الدولة الكثير بكل أجهزتها للإعداد للحرب، ضحى الشعب بالكثير فى سبيل الاستعداد للحرب لتحرير الأرض.

٤ــ دور الطاقات العربية: وبنيت الاستراتيجية المصرية أيضاً على أساس إدارة الصراع المسلح ضد إسرائيل باالإمكانات الذاتية لمصر بالتعاون مع سوريا وأن القتال نفسه يتيح الفرصة لاستغلال الطاقات بالطريقة التى تراها كل دولة عربية.

غلاف الكتاب:

وعلى ضوء الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية والعسكرية المصرية وضعت مصر خطتها للهجوم فى حرب أكتوبر كما وضعت سوريا خطتها الهجومية أيضاً. وعندما تم الاتفاق على التعاون فى الجبهتين المصرية والسورية تحت قيادة قائد عام واحد وأطلق على الخطة المصرية السورية بعد إجراء التنسيق وتنظيم التعاون بين الجبهتين اسم «بدر». وكانت الفكرة تقضى بقيام القوات الجوية فى الدولتين بتوجيه ضربة جوية فى وقت واحد ضد الأهداف العسكرية فى سيناء والجولان، وكانت فكرة الخطة المصرية هى اقتحام قناة السويس بالجيش الثانى والثالث على طول مواجهة القناة. كما تقوم القوات البحرية وفقاً للخطة ذاتها، بتأمين سواحلنا البحرية والتعرض لخطوط المواصلات البحرية الإسرائيلية فى مضيق باب المندب لإيقاف الملاحة من وإلى إيلات مما يؤثر على الاقتصاد الإسرائيلى وحرمانها من الإمداد البترولى من إيران.

وشهد عام ١٩٧٢ خطوات سريعة فى الطريق إلى الحرب منها: تعيين اللواء أحمد إسماعيل مدير المخابرات العامة وزيراً للدفاع ثم إنهاء مهمة المستشارين السوفييت. أما الخطوة الثالثة فى طريق الحرب فهى القرار الذى اتخذه الرئيس السادات بأن ندخل الحرب بما لدينا من أسلحة، بجانب هذه الخطوات.. ثم رفع شعار قومية المعركة، حيث بنيت الاستراتيجية المصرية على أساس إدارة الصراع المسلح ضد إسرائيل بالإمكانات الذاتية لمصر بالتعاون مع سوريا وأن القتال نفسه يتيح الفرصة لاستغلال الطاقات العربية التى تراها كل دولة عربية. وقد بذلت بعض هذه الدول الجهود لوضع شعار قومية المعركة موضع التنفيذ. كما أن الجامعة العربية حاولت إيجاد تعاون عسكرى بين الدول العربية لتحرير الأرض وحل القضية الفلسطينية. ومن جدول مقارنة القوات للطرفين العربى والإسرائيلى فى ذلك الوقت كان واضحاً أنه بالنسبة للقوات البرية فإن قوات العدو غير قادرة على الدفاع أمام الجبهات الثلاث، وبالنسبة للقوات الجوية لدول المواجهة يمكن قيامها بـ١١٨١ طلعه فى اليوم.

قرار الحرب.. والعبور العظيم:

واستمرت عجلة الاستعداد للحرب دون أن تتوقف لحظة إلى أن جاءت الأيام القليلة الباقية قبيل نشوب الحرب حيث كان العد التنازلى لدخول الحرب قد بدأ فعلاً. وفى يوم ٣٠ سبتمبر

١٩٧٣ اجتمع مجلس الأمن القومي بدعوة مفاجئة من الرئيس السادات جرى فيه استعراض للموقف من جوانبه السياسية والعسكرية ولا يحضر اجتماعات المجلس من القوات المسلحة عادة سوى وزير الحربية. وفي هذا الاجتماع شرح الفريق أول أحمد إسماعيل تصوره للمعركة. كما كانت عملية الاستعداد لشن الحرب تدور بسرعة وفي سرية مطلقة داخل القوات المسلحة دون أن تتوقف لحظة، إلى أن جاء اليوم الأول من أكتوبر عام ١٩٧٣ وفيه بدأ تنفيذ المشروع التدريبي الذي تم تحت ستار اللمسات الأخيرة للاستعداد للهجوم. وتم فتح مركز عمليات القوات المسلحة في المكان المخصص له وبدأ العمل فيه.. وفي مساء هذا اليوم اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة السادات في وزارة الحربية.. وفي هذا اليوم أصدر السادات قراره بالحرب تحت عنوان «توجيه صادر إلى القائد العام للقوات المسلحة» حدد فيه تقديره للموقف السياسي والهدف الاستراتيجي للقوات المسلحة. لقد كان الهدف الاستراتيجي محدداً وأن خطة العمليات التي ستنفذ معروفة تماماً وأن الحرب تبدأ يوم ٦ أكتوبر. وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الثانية وخمس دقائق ظهراً، نشبت الحرب فجأة بمبادأة من مصر وسوريا في وقت واحد ضد العدو الإسرائيلي، وبذلك اندلعت الشرارة في الشرق الأوسط لتحرق الظلم والعدوان الذي أصابتنا به إسرائيل منذ إنشائها.

وعندما نشبت الحرب كانت قواتنا الجوية تهاجم الأهداف الإسرائيلية في سيناء في حين كانت القوات الجوية السورية تهاجم أهداف العدو في الجولان. وكانت المدفعية في الجبهتين تقصف بنيرانها الأهداف الإسرائيلية المحددة لها.

حرب أكتوبر خطوة بخطوة من العناوين الفرعية فقط:

بعد أن يحدثنا المؤلف عن الحرب وعن العبور العظيم.. يفرد لحديث الحرب باباً طويلاً.. سوف نستعرضه من خلال العناوين الفرعية التي اختارها المؤلف لهذا الحديث ــ فأولاً يحدثنا عن الانفجار ــ ثم الضربة الأولى ــ المشاة والصاعقة يقتحمون ــ الصاروخ ضد الدبابة ــ النيران فوق سطح مياه القناة ــ الصاعقة في عمق سيناء ــ المهندسون يعملون ــ إنشاء الكباري ــ الإشارة رقم ٢٢ إلى القيادة الإسرائيلية ــ الصاروخ ضد الطائرة ــ القوات البحرية في البحرين الأحمر والمتوسط ــ نجاح الهجوم مع اقتحام القناة.

وفوق ذلك يحدثنا المؤلف عن الحرب على شكل يوميات يختار لكل يوم عنواناً مستقلاً.. فمثلاً يوماً ٦، ٧ أكتوبر يحدثنا عن ديان ورغبته في الانسحاب من خط القناة.. وفي يوم ٨ أكتوبر يحدثنا عن إسرائيل في خطر. ثم في يومي عشرة و١٣ أكتوبر يحدثنا عن الانتظار الطويل الوقفة التعبوية، ثم معركة الدفرسوار ــ والثغرة في يوم من ١٥ إلى ٢٠ أكتوبر.

نتوقف هنا لحظات لنعرف رأى المشير الجمسى فى الثغرة التى أفسدت طعم ومذاق حرب أكتوبر.. حيث يقول: كان القتال يدور بشدة فى جبهة القناة قطاع الجيش الثانى يوم ١٥ أكتوبر حيث ركز العدو على ضوء معلوماته ونتائج الاستطلاع الجوى الأمريكى ــ بقواته المدرعة والقصف الجوى الكثيف للقيام بهجوم ضد قوات الجانب الأيمن للجيش الثانى منطقة الدفرسوار شرق القناة بغرض اختراق تصل به بعض قواته المدرعة إلى الضفة الشرقية للقناة. وكانت فرقة شارون تقوم بالهجوم على هذا الجانب من الجيش الثانى وبالتالى يمكن عمل قاعدة شرق القناة لإقامة معبر وإنشاء رأس كوبرى حيث تعبر من خلاله فرقة أوان إلى الضفة الغربية. وقد قوبل هجوم شارون بقتال عنيف وعنيد من فرقة عبدرب النبى الذى جعل تقدم العدو بطيئاً ومحدوداً برغم أن العدو تمكن من عمل اختراق فى مواقع الجانب الأيمن للفرقة. إلى أن وصل عدد قواته إلى كتيبة دبابات لتنفيذ مهمة الاختراق. ولم يكن الأمر سهلاً علينا فى القيادة العامة ونظراً لخطورته تقرر رفع درجة استعداد اللواء ٢٣ مدرع بالتحرك إلى الجبهة فى قطاع الجيش الثانى. وفى ليلة ١٧ و١٨ أكتوبر عبرت فرقة أوان..

بعد عودة الرئيس السادات من مركز العمليات ليلة ٢٠ و٢١ أكتوبر إلى مقر عمله فى قصر الطاهرة قرر الموافقة على وقف إطلاق النار وسجل مبررات هذا القرار. وبعدها صدر قرار مجلس الأمن حيث وافقت عليه كل من مصر وإسرائيل على وقف إطلاق النار ــ اعتباراً من الساعة ١٨٥٢ يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت القاهرة. وعندما توقف القتال بقرار مجلس الأمن لم تكن إسرائيل قد حققت هدفاً سياسياً أو عسكرياً أو استراتيجياً. وعندما صدر قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال، كانت إسرائيل برغم موافقتها على تنفيذه تضمر نواياها بعدم احترامه. لقد تركت لجيشها حرية العمل العسكرى على أمل احتلال مدينة السويس حيث حاول لواءات من فرقة أوان المدرعة اقتحام المدينة بعد قصف بالمدفعية والطيران مدة طويلة لتحطيم الروح المعنوية للمقاتلين داخل المدينة. ودارت معركة السويس اعتباراً من ٢٤ اكتوبر بمقاومة شعبية من أبناء السويس مع قوى عسكرية من الفرقة ١٩ مشاة داخل المدينة. واستمرت إسرائيل فى عدم احترام قرار مجلس الأمن بأن تقدمت جنوباً إلى ميناء الأدبية.

بقى لنا وللمؤلف أن نعيش معه بابين هامين هما المفاوضات العسكرية بين مصر وإسرائيل من حيث اكتشاف النوايا ولقاءات عسكرية وسياسية فى ثوب عسكرى ثم لقاءات القمة فى أمريكا ونهاية مرحلة فى الصراع. أما الباب السادس والأخير فيحدثنا المؤلف عن الجمسى يترك الوزارة وبعدها الخدمة مدى الحياة ثم الاستقالة.

الشيخ الشعراوى بين الزعامة السياسية والخواطر الإيمانية (١)

قد يطول الحديث أو يقصر.. عند تناول عرض وتقديم أى كتاب حسبا فيه من مادة.. والقيمة التى تمثلها بالنسبة للعارض والقارىء فى آن واحد، وفى كثير من الأحيان نجد أن هناك من الكتب ما يفرض عليك الإجلال والصمت حين التناول والقراءة.. تلك التى تحمل لنا عبيراً طيباً، صادراً من قلب رجل هو أساس موضوع الكتاب. والشخصية التى هى محور موضوعنا فى هذا العدد عالم جليل ومجتهد فى الله، كرس كل لحظة فى حياته من أجل إعلاء كلمة القرآن الكريم وتوطيد الصلات بين العباد وبين ربهم، إنه الشيخ محمد متولى الشعراوى.. الذى يعتبره المؤرخون المفكر الإسلامى العظيم الذى احتل مكانة الإمام محمد عبده. وقبل أن نغوص فى كلمات وفكر المؤلف الأستاذ كمال محمد على صاحب الكتاب الذى بين أيدينا والذى خرج من المطبعة تحت عنوان «الشعراوى القيثارة الإيمانية».. أود أن أقول: إن هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته مائتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط.. تستطيع عزيزى القارىء أن تلم بما فيه فى دقائق.. وأيضاً تستطيع أن تقرأه فى ساعات طوال. وهذه ليست فزورة.. بل حقيقة نلمسها.. وتلمسها معى عزيزى القارىء من أول صفحة فى الكتاب.. فإذا كنت من هواة التاريخ تستطيع أن تضع يدك بسهولة على أهم محطات حياة الشخصية التى نقرأ لها جميعاً وهو الشيخ محمد

---

(١) الشعراوى ــ القيثارة الإيمانية ــ كمال محمد على ــ نشر بالوفد بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٨٩.

متولى الشعراوىّ.. وكذلك تستطيع أن تعيش معه منذ مولده وحتى هذه اللحظات. أما إذا كنت من محبى القراءة المرتبطة بالفكر والإلمام بجوانب الشخصيات المضيئة.. فإنك تستطيع أن تقضى الساعات الطوال الممتعة مع هذا الكتاب.

ولسوف نحاول خلال هذه المساحة التى بين أيدينا أن نحقق الهدفين أو أن نشفى غليل المتعطشين للجانبين، جانب التاريخ وجانب الفكر والمعرفة.

الطريق يبدأ من الفهرس:

ولعل وكما تعودنا أن يكون طريقنا نحو هذه المعرفة .. الفهرس .. ومحتوياته .. ثم ننتقى منه الشىء القليل المفيد الذى يساعدنا على إلقاء الضوء على الكتاب فى تلك المساحة .

لقد استطاع المؤلف بحنكة وحكمة ــ أن يقسم لنا الكتاب بشكل يسهل علينا طريق الاستيعاب والفهم .. فهو يتناول فى البداية النشأة والتاريخ السياسى للشيخ الشعراوى ، ثم يبصرنا بالأحزاب السياسية التى انضم إليها أيضاً هو وثورة ٢٣ يوليو .. وموقفه من الإخوان المسلمين .. كذلك يلقى بمزيد من الضوء على التواريخ التى لها دلالة خاصة فى حياة الشيخ ثم وهو شاعر .. واختياره وزيراً فى وزارة السيد ممدوح سالم والزيارات العلمية .. وموقف الصهيونية من اجتهاداته الإيمانية ، كذلك يطلعنا على مظاهر التكريم التى نالها فى حياته وكذلك آراء وشهادات المعاصرين .

هذا جزء من كل .. ثم يدخل بنا إلى صلب موضوع كتابه ــ وكلامنا مايزال من الفهرس كما قسم المؤلف ــ حيث المعارك الفكرية التى خاضها مع الأساتذة توفيق الحكيم وزكى نجيب محمود ويوسف إدريس .. ومعركته الخاصة بتطوير الأزهر . ومن المعارك الفكرية إلى الآراء الفقهية ينقلنا المؤلف خلال حديث طويل .. ويذكر لنا بعض هذه الآراء سواء بالنسبة لترتيب القرآن أو الصلاة والبسملة أو الاستخارة أو غيرها .. وللأمانة لقد بلغ عدد هذه الآراء الفقهية التى ذكرها الكاتب فى فهرسه مالا يقل عن ستة وعشرين رأياً .. ثم يلقى بنا فى أحضان خواطره الإيمانية والتى بلغت كذلك وكما ذكرها الكاتب ستة وعشرين خاطراً . نحن فى أحوج الحاجة لنتعرف عليها . بل ونحفظها عن ظهر قلب . ونأخذ أمثلة لما ذكره المؤلف من هذه الخواطر .. الإسلام والقضايا المعاصرة ، شهادات الاستثمار ، النظام الاقتصادى فى البنوك أطفال الأنابيب ، الجمال والإبداع .. ثم خير ختام لهذه الرحلة كلمات الشيخ المأثورة ثم الخاتمة .. وبعد ذلك إليكم تفاصيل الرحلة .. من الألف إلى الياء .

الشيخ الشعراوى فى سطور:

لعلنا جميعاً فى غاية الشوق لنعرف أو لنتعرف على فكر هذا الداعية الإسلامى المستنير.. ونلمس بقلوبنا أهم القضايا التى تحدث فيها وأرشدنا إلى حلولها. ولكن قبل ذلك لابد من إعطاء مقدمة ولو صغيرة عن حياة الشيخ الشعراوى هناك.. قبل مجيئه إلى القاهرة.

ولسوف ننتقى من هذا الكم الهائل من المعلومات التى ذكرها المؤلف عن نشأة وحياة الشيخ الشعراوى.. منها على سبيل المثال أنه ولد بقرية دقادوس على بعد عدة أمتار من مدينة ميت غمر إحدى المدن الهامة لمحافظة الدقهلية الآن والتى كانت فيما مضى تابعة لمحافظة الشرقية. حفظ القرآن منذ الصغر فى كتاب القرية أو كتاب الشيخ عبدالمجيد باشه الذى حفظ على يده مولانا الشيخ وهو فى العاشرة بما كان يكتبه على الألواح الصفيح وحيث التلاميذ يفترشون الأرض بلا حصير.

وكان والد مولانا الشيخ متولى محبوباً بين الناس حلو الحديث والمعاملة.. أدخل ابنه فى عام ١٩٢٨ معهد الزقازيق الابتدائى التابع للأزهر حيث ظهر نبوغه منذ الصغر.. ثم دخل المعهد الثانوى بعد حصوله على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٢ وكان له العديد من الاهتمامات فى مجال الأدب والخطابة.

وعندما حضر إلى القاهرة عام ١٩٣٧ التحق بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف حيث تخرج فيها عام ١٩٤٠.. ثم بعد ذلك حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٤٣. وكان أول عمل له بالتدريس فى معهد طنطا الأزهرى ثم انتقل بعد ذلك للعمل فى معاهد الزقازيق والإسكندرية.

سنوات الإعارة:

ومنذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٩ أعير إلى السعودية حيث عمل مدرساً بكلية الشريعة بمكة المكرمة.. وعندما عاد إلى القاهرة عين وكيلاً لمعهد طنطا الدينى فى عام ١٩٦٠ ثم مديراً للدعوة بالأوقاف عام ١٩٦١ وفى العام الذى يليه عين مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر الشريف ثم مديراً لمكتب شيخ الأزهر عام ١٩٦٤. ثم بعدها بعامين عين رئيساً لبعثة الأزهر بالجزائر وبعد عام ١٩٧٠ أعير أستاذاً بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة حيث المسجد الحرام.

الجهاد وتاريخ النضال:

سوف نحاول تحت هذا العنوان الفرعى أن نجمل قدر المستطاع التاريخ السياسى وفترات النضال فى حياة الشيخ الشعراوى.. إذ يقول الكاتب عن ذلك كان شيخنا معاصراً للكبوة

يؤمن بالنهضة ويتسمك بالحق، عايش الطفرة الوطنية والانتفاضة الشعبية فى ظل الاستعمار، عايش سعد زغلول ووطنيته وأدهشه بلاغته وقوة حماسه وصدق إيمانه بالشعب. عايش حسن البنا وتأثر به.. ذلك الرجل الذى أخذ عن جمال الدين الأفغانى شمول الرسالة وجدية الانفتاح.

إن التاريخ يذكر للشيخ أنه لم يكن منزوياً فى غمار طلاب الأزهر، بل كان ضلعاً كبيرة فى حركاتهم الثورية. حيث شارك فى حركة الثورة التى قامت للمطالبة بعودة الشيخ الإمام المراغى إلى مشيخة الأزهر عام ١٩٣٤، كما شارك فى ثورة الطلاب فى تلك السنة أيضاً وهى السنة التى استشهد فيها جماعة من الطلبة الجامعيين وعلى رأسهم الشهيد عبدالحكيم الجارحى.. وكان من عاقبة مشاركة الشيخ الشعراوى فى هذه الحركات الثورية أن تناله عقوبة الفصل.

الأحزاب السياسية وموقف الشعراوى منها:

ونعود إلى وقت انشغال شيخنا وهو طالب بالسياسة مع باقى الطلبة حيث كانوا يعتبرون أنفسهم سلاحاً للسياسيين.. ولكننا نجد بعض التغيير فى موقفه الآن من هذه القضية.. حيث طالب الشباب من الدارسين بعدم الاشتغال بالسياسة.. عندما امتدت به الأعوام الطوال، رغم اشتغاله بها أيام كان طالباً.. ولا يعنى ذلك أن مبادئه قد تغيرت ولكنها الظروف، وهو لا يوافق على اشتغال علماء الدين الآن بالسياسة، ولكن عندما يكون الدين هو السياسة والسياسة هى الدين فهذه قضية أخرى.. ومن هذا المنطلق لا يقبل أحزاباً سياسية على أساس دينى، لأن السياسة من وجهة نظره صراع فكرى بشرى ضد فكر بشرى آخر، أما الدين فهو خضوع فكر بشرى لفكر سماوى، وعندما عُرض عليه رئاسة حزب الأمة رفض لهذه الأسباب.

أنا عضو بارز فى حزب الوفد:

نعود إلى حيث نشاطات الشيخ واهتماماته السياسية فى مطلع شبابه حيث كان من الأعضاء البارزين فى حزب الوفد ببلدته دقادوس، وكان هو خطيب كل مناسبة سياسية يشترك فيها الوفد.. وأبرزها بالطبع الاحتفال بذكرى سعد زغلول، وعن ذلك يقول الكاتب: «عندما يأتى الثالث والعشرون من أغسطس من كل عام تشهد بلدة دقادوس فى ذكرى الزعيم سعد زغلول أمام الجامع يجتمع أهل القرية من المثقفين وغيرهم ممن لهم ميول حزبية، ولم يكن بالقرية حزب آخر حيث كانت على بكرة أبيها وفدية، وقد عرفت البلدة مولانا الشيخ الشعراوى من هذه الزاوية حيث كان المذهب السياسى وفدياً، وتلقى الكلمات السياسية والحماسية الرنانة ممن أوتوا بلاغة القول وفصاحة الكلمة من الشباب المتعلم، وكان الشيخ مسك الختام حيث كانت كلمته أجود الكلمات وأروعها وأكثرها تأثيراً فى النفوس.

وفى موضع آخر عن هذا الجانب الهام من جوانب اهتمام الشيخ الشعراوى بحزب الوفد يقول الكاتب.. وفى عام ١٩٣٧ خرج حزب الوفد من الحكم. وكان مولانا وفديا كطبيعة البلاد.. وفى العام الذى يليه ١٩٣٨ مُنع الاحتفال بذكرى سعد زغلول فذهب، الوفديون إلى النادى السعدى واحتلفوا بذكرى سعد زغلول؛ لأنهم كانوا يعتبرونها ذكرى لمدرسة وطنية، فانبرى الشيخ الشعراوى منشداً قصيدة فى مدح سعد وخليفته النحاس ولا يزال حافظاً لأبياتها حتى الآن.

الثورة تعيد مصطفى النحاس:

بل أكثر من ذلك يقول الكاتب على لسان مولانا الشيخ: «لقد كنت أتصور على سبيل المثال أن الثورة عندما قامت عام ١٩٥٢ فإنها سوف تعيد مصطفى النحاس إلى الحكم، لأنه الزعيم الوطنى الذى ضحى بالكثير، حيث إذا استعرضنا زعماء البلد فى ذلك الوقت، نرى أقربهم إلى الله ــ حتى نكون بأرواحنا معه ــ فلن نجد إلا النحاس، فهو رجل طيب وإن كان لابد أن نوالى أحد السياسيين فلابد أن يكون النحاس هو الذى نواليه».

ثورة يوليو والإخوان المسلمون:

وفى طفولة ثورة يوليو ١٩٥٢ حيث براءتها ونداءاتها بالشعارات التى تعبر عن أحلام هذا الشعب، نجد أن مولانا ينظم شعراً وأشعاراً عديدة تحية لهذه الثورة الوليدة.. إلا أن شيخنا الجليل عندما اكتشف أن ما توقعه من الثورة ليس خيراً كله.. بل حدث عكسه ردد أبياتاً رد فيها هذه التحية.

وبالنسبة لعلاقته بالإخوان المسلمين يقول الكاتب: «فى مايو ١٩٣٧ صدر أول منشور للشيخ الشهيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان بمصر ومرشدها العام، وكان المنشور الأول من إنشائه ومكتوباً بخط يد الشيخ محمد متولى الشعراوى، وكان مع المرحوم حامد شريت حيث حضر الشيخ البنا من الإسماعيلية واتخذ أول مكتب له فى شارع كعب الأحبار بحى السيدة زينب بالقاهرة. وكان مولانا الشيخ الشعراوى يجلس معه يومياً فى المساء حتى يؤذن الفجر.

الشيخ الشعراوى الشاعر والوزير:

يحدثنا المؤلف خلال هذه اللقطات القادمة عن الشيخ الشعراوى الشاعر الذى كان متفوقاً فى تلاوته وتأليفه. وكذلك مشواره إلى كرسى وزارة الأوقاف.

يقول المؤلف: «أحب الشعر منذ طفولته وتتلمذ على شعراء كثيرين، وحفظ الشعر الجاهلى والعباسى والأندلسى، وأخيراً تتلمذ على يد حافظ وشوقى. ابتدأ قول الشعر منذ عام ١٩٢٨،

وكانت أول باكورة شعرية ظهرت له عام ١٩٣٢، وكان قد قدمها له زميله الأستاذ المرحوم محمد فهمى عبداللطيف. ونشرت عام ١٩٣٦ فى كتاب «منارة الفكر».. وعن ذلك يقول الشيخ الشعراوى عن تلك الفترة: بدأت حياتى الأدبية شاعراً، فقد كنت لا أجد شيئاً من الفنون أجل من الشعر.. وكنت لا أكتب إلا فى الشعر السياسى والمناسبات الأزهرية الخاصة.

أما بالنسبة لمشوار حياته حتى كرسى الوزارة فيقول الكاتب: إنه فى عام ١٩٥٠ عرف الشيخ طريقه لأول مرة إلى الإذاعة المصرية، وكان فى ذلك الوقت يكتب حديثين كل أسبوع. وعندما وصل الشيخ إلى درجة مدير عام وجاء عليه الدور لترقيته إلى درجة وكيل وزارة كتب أحد المديرين فى الوزارة: إن الشيخ رغم علمه وخلقه لا يصلح للمنصب. وعندما تولى الشيخ عبدالعزيز عيسى وزارة شئون الأزهر عام ١٩٧٥ اختاره مديراً لمكتبه، وفى نوفمبر عام ١٩٧٦ اختاره السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك ليكون وزيراً للأوقاف ووزيراً للدولة لشئون الأزهر وظل حتى أكتوبر عام ١٩٧٨.

موقفه من الصهيونية:

احتجت إسرائيل على تفسير الآيات القرآنية التى تخص اليهود والتى يفسرها العلامة الإسلامى، واعتبرت هذا التفسير هجوماً عنيفاً على اليهود وجاء الاحتجاج من قبل السفارة الإسرائيلية بالقاهرة.

ولا تملك إسرائيل أن تغير هذه الحقيقة، ولا نستطيع أن نجامل إسرائيل على حساب الله!! كما أنه من المستبعد أن يغير هذا العلامة والداعية الإسلامى الكبير من طريقته التى اتبعها فى التفسير والتى يطلق عليها «خواطره الإيمانية» وعندما ذهب الرئيس الراحل أنور السادات إلى القدس نقلوا إليه هناك أن مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل آنذاك له شكوى غريبة، فهو يزعم أن الشيخ الشعراوى يهاجم اليهود كيهود وأن هذا من شأنه تعطيل عملية السلام.

ولقد بلغت بهم الجرأة بأن طالبوا على لسان وزير التعليم الإسرائيلى قوله: إنه لا أمل فى أن يتحقق السلام بين مصر وإسرائيل إلا إذا حذف المصريون الآيات القرآنية التى تهاجم اليهود!!

المعارك الفكرية بين الشيخ وهؤلاء:

نتوقف مع الكاتب عند آخر محطات كتابه أو آخر فصوله.. حيث نتعرف من خلاله على تلك المعارك الفكرية والأدبية التى خاضها الشيخ ضد المفكرين المصريين فى مختلف قطاعات الأدب والفن.. ولسوف نسوق منها هنا بعض النماذج:

(أ) مع توفيق الحكيم:

من هؤلاء الأدباء الأستاذ توفيق الحكيم الذى أخرج للناس من الأدب الشيء الكثير.. وإذا به فى أول مارس عام ١٩٨٣ وعلى أربعة أسابيع على صفحات الأهرام يجرى حواراً مع المولى سبحانه وتعالى وسماه «حديث مع الله» ألم يدرك الأستاذ توفيق الحكيم أن الوحى قد أقفل بابه وأن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ؟! وقال فضيلة الشيخ الشعراوى: لقد شاء الله ألا يفارق هذا الكاتب الدنيا إلا بعد أن يكشف للناس ما يخفيه من أفكار وعقائد كان يتحدث بها همساً ولا يجرؤ على نشرها.. وقد شاء الله ألا تنتهى حياته إلا بعد أن يضيع كل خير عمله فى الدنيا حتى يلقى الله بلا رصيد إيمانى.

(ب) الدكتور زكى نجيب محمود:

وافق الشيخ الشعراوى على مناقشة كل القضايا التى أثارها الدكتور زكى نجيب، وبدأ موجهاً كلامه للدكتور: ما الذى أدخلك فيما قصدته أنا من الضلال والإضلال، وما قصدته كان على قول ولم يكن على قائل، لأن القائل ربما كان مخطئاً أو مجتهداً لم يصب الحق وهذا يخص الحكم، وليس لك أنت دخل فى هذه المسألة، وأما بالنسبة للمناظرة فأنا لست فى حاجة إلى هذه المناظرة لأتعملق كما يقول الدكتور فكأنه يرى فى كل شيء عملقة وأقزمة والذى يتعامل مع الله لا ينزل إلى هذا المستوى من الموازين، وقضايا الإسلام يستوى فيها راعى الشاة بالفيلسوف وقد كنت أحب أن نكون أنا وأنت يا دكتور متفقين على الخير، ولا يمكن أن نتفق على الخير إلا إذا اتفقنا على مصدر ذلك الخير لا اختلاف لنا على عدالة مصدرها هو الله جلت قدرته.

(ج) د. يوسف إدريس:

يلقى المؤلف كذلك الضوء المبهر على تلك المعركة الحامية التى وقعت رحاها بين مولانا الشيخ الشعراوى وبين الدكتور يوسف إدريس والتى بدأت بالمقال الشهير الذى نشره الدكتور يوسف إدريس بجريدة الأهرام يوم ٤/٤ من عام ١٩٨٣ والذى كتب فى أوله: «أنا للآن لا أعرف بالضبط ماذا يأخذ الشيخ الشعراوى على شخصى الضعيف أو كتاباتى»!! كما يفرد لنا المؤلف ردود الشيخ الشعراوى ورأيه فى هذه المعركة.

الآراء الفقهية:

ننتقل معاً ومع المؤلف إلى الجزء الثالث من الكتاب ونقصد به آراء واجتهادات مولانا الشيخ الجليل فى المسائل الفقهية، فعلى سبيل المثال لا الحصر ترتيب القرآن. والصلاة التى فرضت فى المعراج. والبسملة إذ أن قولك بسم الله الرحمن الرحيم يعتبر حركة عبودية لك، وهى

قد ضمنت لك ثواب تذكرك لنعمة الله حيث لا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب، ثم الله الذى ليس كمثله شىء لأن صفات الحق فوق إدارك الحق. حيث أتعب الفلاسفة أنفسهم فيما وراء الطبيعة ولم يصلوا إلى شىء لأن عقولهم تقصر عن الإلمام بالله وصفاته. كذلك من بين الخواطر الإيمانية التى تحدث عنها المؤلف والصادرة عن مولانا الشيخ الشعراوى اجتهاداته الخاصة بلفظ لا إله إلا الله وأوصاف النبى ﷺ ثم رسولنا الكريم والسحر حيث يدحض مولانا الشيخ آراء الكافرين حيث قالوا: إن سيدنا محمداً ﷺ ساحر.. فهب أنه قد سحر كل من آمن به فإن عدم إيمان الكافرين به دليل على أنه ليس بساحر.

خواطر إيمانية:

وخير ختام لنا مع هذه الرحلة المباركة إلقاء بعض الضوء على الخواطر الإيمانية العديدة والمتنوعة التى يساهم بها شيخنا الجليل فى تحبيب الناس فى الإسلام وترغيبهم فى التمسك بالإيمان. ونذكر هنا على سبيل المثال رأيه عن الإسلام والقضايا المعاصرة، وكذلك الإسلام والحرية، ثم الاقتصاد الإسلامى والمال الحرام، ثم شهادات الاستثمار، والتأمين والنظام الاقتصادى فى البنوك، ثم السمسرة، ومن أين لك هذا؟ كذلك موقف الإسلام من الحقائق العلمية والوراثة والعلمانية ودوران الأرض ثم الزمان والمكان والليل والنهار، وأطفال الأنابيب، والمرأة العاملة، والكذب، والتخلف، ثم الجمال والإبداع واللعب واللهو.

وقد أورد لنا المؤلف فى الختام الجميل مالا يقل عن مائة قول مأثور عن الشيخ محمد متولى الشعراوى.

ثورة ٢٣ يوليو
وعلاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية(١)

هل أصابتك الحيرة ، وأصابك القلق حين تتناول كتاباً بالبحث والقراءة؟ والإجابة فى تصورى تتوقف على الموضوع الذى يتناوله هذا الكتاب . وعلى مدى اهتمامك الشخصى به .. ولا أخفى عليكم أننى توقفت كثيراً وأصابتنى لعنة هذه الحيرة حين وصلنى كتاب للمؤلف والمؤرخ جلال كشك وهو من أهم مؤلفاته بعنوان «ثورة يوليو الأمريكية» ، علاقة جمال عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية . هذه الحيرة مصدرها إحساس بضرورة أن أكتب مقدمة تربط بيننا وبين المؤلف والكتاب . حتى نجد أرضاً مشتركة فى الفهم والاستيعاب .. ولكن وجدت أن هناك صعوبة بالغة فى كتابة حتى ولو سطر واحد يمس من قريب أو بعيد هذا الموضوع . والسبب فى ذلك يرجع إلى رغبتنى فى سلوك طريق الحيدة . بحيث يقتصر دورى هنا على نقل وجهة نظر المؤلف . من خلال كلماته وفصول كتابه . وصدقونى لقد استرحت حين نويت هذا المسلك ، لأننى على الأقل من جيل ثورة يوليو الذى تعلم فى مدارسها .. ودرس تاريخها الذى كتب خصيصاً لهذه الفترة . أيضاً ورغبة فى معرفة المزيد عن هذه الثورة كأحد الشباب المقبل على حياة طويلة يود أن يعرف حتى يتمكن من تبصير غيره .. والطريق إلى ذلك كما نعلم هو المزيد من الاطلاع على العديد من المصادر وكلمات المؤرخين .

---

(١) ثورة يوليو الأمريكية ــ علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية نشر بالوفد يومياً على مدى خمس حلقات، الأولى بتاريخ ١٨ مارس ١٩٨٩ .

ويبدو أن المؤلف أحس برغبتنا كشباب وكجيل جديد فى معرفة المزيد عن هذه الثورة التى تحولت خلال أكثر من ثلاثين عاماً إلى لغز كبير، تتضح بعض خيوطه رويداً رويداً. كلما سمحت بذلك المصادر!

وهو من أجل ذلك يقول «.. وكل أملنا هو دفع الجيل الجديد للتفكير.. هذا الجيل الذى يتعرض لأكبر عملية غسيل مخ، وتجهيل، عاناها جيل فى تاريخنا، ويكفى أن يطالع القارىء بعض المقارنات التى عقدناها بين روايات هيكل المختلفة للواقعة الواحدة ليرى أننا لم نذهب بعيداً عندما لقبناه بمؤلف التاريخ وليس كاتبه».

هذا الكتاب لهؤلاء:

والمؤلف جلال كشك من خلال هذا الكتاب الذى بين أيدينا يحدد بالضبط لمن يريد أن يوجه حديثه هذا فيقول: «فهذا كتاب للمهمومين بمصير وطنهم وأمتهم العربية، أما إذا كنت تعتقد أن خطاب الرئيس عبدالناصر فى مؤتمر باندونج، أهم من الانتصار الإسرائيلى فى حرب ١٩٥٦ فلا تقرأ هذا الكتاب.. وإذا كنت تعتقد أن الانتصار على الإمام البدر أهم تاريخياً ومصرياً وعربياً من انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ وتحولها إلى الباب العالى فى الشرق الأوسط، وتحول مصر إلى دولة من الدرجة الثالثة فى الشرق الأوسط.. فلا تقرأ هذا الكتاب.. فلا حاجة لك فيه، ولا من أجلك كُتب.

أما إذا كنت تعى وتعيش خطر المواجهة المصرية العربية ــ الإسرائيلية، وتدرك خطورتها ومصيريتها بالنسبة لواقع ومستقبل الأمة العربية والوطن المصرى خاصة، فلا يجوز أن يفوتك حرف مما فيه.. فمن أجلك كُتب.. وعن هذه المواجهة كان العناء فى تأليفه والمخاطرة بنشره.. أقول لو نجحت فى أن أجعل هذا الجيل يهتم ببحث هذه القضية.. بأن تنذر حفنة منهم، نفسها للبحث والاستقصاء وتجميع الأدلة وتمحيص الوقائع حول جذور الناصرية وتطورها وما تركته من آثار على تاريخنا، ولو حدث ذلك فسأكون قد عوضت خيراً عما بذلته من جهد وما تحملته لإخراج هذا الكتاب.. ويشهد الله أن ليس لى مصلحة شخصية أو مادية فى هذا الحديث ولكنها أمانة التاريخ وشرف الكلمة.

وفى موضع آخر من هذا الحديث الودى يقول المؤلف: «أقول للشباب الذى يريد أن يعلم والذى يفزعه ماينشر أحياناً من حقائق، أقول لهم ادرسوا وابحثوا ومحصوا.. فلا حرية ولا اختيار بغير معرفة ولا معرفة بغير قراءة، وبغير الحوار الحر».

ألم أقل لكم إن هذه المقدمة الهائلة من المؤلف.. قد أغنتنى كثيراً عما كنت سأكتبه عن هذا الحدث التاريخى الهام الذى غير مجرى التاريخ المصرى الحديث.. بل وغير معالم منطقة بأسرها تلعب دوراً خطيراً فى العالم. إنها ثورة أو انقلاب ٢٣ يوليو المصرية.

محتويات الكتاب من الفهرس:

بعد لحظات سنعيش فى قلب التاريخ من خلال متابعتنا لما يرويه ويحكيه مؤلفنا جلال كشك.. وكما تعودت معكم.. أفضل أن أنقل إلى القارىء كافة محتويات الكتاب من الفهرس على سبيل الإجمال.. ثم نختار بعض فصوله لنلقى عليه الأضواء المبهرة ونقدمه فوق طبق من فضة لكل القراء.. وهى فرصة طيبة حتى نجنى جميعاً ثمار المعرفة. فتعالوا نتابع ما فى الكتاب من الفهرس.

الخطبة والمدخل:

كتاب «قصة السويس» الذى تطور إلى ملفات السويس والرد عليها، هيكل الفائز بجائزة الملك فاروق، والصحفى الوحيد الذى اتهم بإضعاف الروح المعنوية فى ثلاثة عهود ــ محمد على وعبدالناصر..

الأصل والمسخ.. الموضوعية لا الحياد عودة الناصرية.. الجامعة الأمريكية مركز الفكر الناصرى.. عبدالناصر وبعد المخابرات.. أهداف ناصر.

الفصل الأول: التاريخ البلاستيك وهيكل:

مقارنة بين كتب هيكل عن السويس.. اختلاف فاضح فى الروايات.. الطبعة الإنجليزية تعترف بأمريكية الثورة، وتعلن «أمريكا المنتصر فى معركة القناة».. تزوير حديث الملك عبدالعزيز مع روزفلت.. إخفاء أمريكية الإصلاح الزراعى.. عرض مشوه للحق العربى فى فلسطين ووحدة وادى النيل.. السفارة الأمريكية ترتب مواعيد ومقابلات الزعيم.. ايزنهاور وإعدام الإخوان.. خروج عزام باشا.. أمريكا وإخراج مصر من الجامعة.. البرج والتهامى وروزفلت.. ناصر والحل الفلسطينى.. بالعربى ناصر يرفض وبالإنجليزى يسعى!.. فضيحة القواعد فى ليبيا.. الملك فيصل والوثائق.. هيكل ولقاء عبدالناصر.. من منع التدخل البريطانى.. رواية غريبة عن الغزو الإسرائيلى.. هدف «خريف الغضب».

● **الفصل الثانى: ثورتنا التى أجهضت:**

الأمريكان يسمون نظام يوليو.. مصر كانت حُبلى بثورة أجهضها الانقلاب.. الملك ينذر بانهيار النظام ومهاجمة الإنجليز.. الوفد نسف الجسور مع الاستعمار.. أربع محاولات للبرجوازية المصرية.. كنا على وشك الانطلاق لولا الانقلاب.. الإخوان والشيوعيون ــ حرب فلسطين.. حكاية حرب العصابات.. الذين هزموا فى الحرب وضعوا فى السلطة ــ دور سراج الدين وآمال الأمريكان فى صلاح الدين.. خطة الغزو ضد الوفد وليس ناصر.. أمريكا تصر.. لا حل إلا إسقاط النظام.. موقف الوفد من حرب كوريا والدفاع المشترك.

● **الفصل الثالث: فى البدء جاء الأمريكان:**

شهادة أمريكية الثورية ــ مخابراتى أمريكى يُعلِّم ضباطنا الوطنية ــ مناورات لإخفاء بداية العلاقة ــ تطور موقف هيكل من كوبلاند ــ حروش بين هيكل وأمريكا ــ سر الإفراج وعدم الإفراج عن الأسرار ــ علاقة هيكل وناصر ــ عزلوا السنهورى وقتلوا البراوى ــ التهامى رجل عبد الناصر قبل السادات.

● **الفصل الرابع: حكاية أو زعيم:**

أول انقلاب كان فى سوريا ــ المخابرات تنقذ والخارجية تطنش !!

هدف الانقلاب خط التابلاين والصلح مع إسرائيل ــ الزعيم وافق وإسرائيل رفضت حضور روزفلت إلى مصر ــ اللقاء مع التنظيم الناصرى ــ فلسطين مستبعدة ــ واشنطون سعيدة بثورة يوليو ــ انفتاح نادر المثال على المخابرات الأمريكية ــ الكادر الناصرى الذى ربته الـ C.I.A ــ المخابرات الأمريكية أقامت صوت العرب ــ المخابرات الأمريكية علمت بحادث المنشية قبل وقوعه ــ شهادة مثيرة.

● **الفصل الخامس: الدبة والزعيم:**

البوليس الدولى فكرة الـ C.I.A ــ دور ليكلاند فى منع تدخل الإنجليز ــ سر رفض عبد الناصر تصديق إنذار الحرب ــ استمرار محاربة الوفد ــ نجيب يستأذن السفير الأمريكى فى شنق العمال ــ لماذا اختفت اسماء التهامى وهيكل من الوثائق الأمريكية ــ لندن: نجيب أحسن، واشنطون: عبد الناصر أعظم !! ــ لماذا انهارت علاقة ناصر بأمريكا ــ سر الوثيقة المزعومة عن اغتيال ناصر ــ المندوب الأمريكى أبلغ عبد الناصر بما دار فى الاجتماع ــ معادلة بريطانيا بعد الجلاء كانت لحساب أمريكا ــ هل أراد ناصر تصفية هيكل، وأراد هيكل تصفية عبد الناصر؟ من هم **جهور هيكل ؟!** ــ لماذا رفض عبد الناصر مقابلة أحمد بهاء الدين ١٨ سنة ؟!

● **الفصل السادس: كل القرارات لصالح إسرائيل:**

الضجة حول تأميم القناة لإخفاء الهزيمة فى سيناء ــ أهداف إسرائيل من عدوان ١٩٥٦ وتزييف هيكل ــ لماذا نسفوا الخط الإنجليزى ــ الخيانة الكبرى فى منع المواجهة العربية الشاملة ــ فرصة العمر لهزيمة إسرائيل أو على الأقل حل لصالح العرب ــ عروبة مصر فجرت ودعمت الثورات.. ونظام عبد الناصر أثار ضدنا الثوار والنظم ــ شبهات إسرائيلية يثيرها هيكل حول ناصر ــ اهتمامات عبد الناصر وبن جوريون! ــ عداء هيكل لوادى النيل وسيناء ــ اليهود يزرعون القنابل فى القاهرة ــ عبد الناصر فتح قناة السويس لتجارة إسرائيل ــ وثائق خطيرة عن اتصال عبد الناصر بشخص داخل إسرائيل.

● **الفصل السابع: انتصارات عبد الناصر وخسائر الوطن:**

باندونج ــ الحياد الذى أرادته أمريكا لمصر لا لعبد الناصر ــ صفقة السلاح تمت بعلم وبموافقة المخابرات الأمريكية ــ إسرائيل دفعت عبد الناصر عمداً لشراء السلاح من روسيا ــ وناصر يشترى للهدنة لا للحرب ــ تصرف غريب من محمود فوزى ــ استراتيجية إسرائيل ــ فصم الارتباط المصرى ــ خرافة الإنذار ــ الذين يعادون صناعة السلاح العربية ــ السد العالى ــ إنذار أمريكى من مخاطره ــ وثائق عن حلف بغداد وسقوط صلاح سالم واتفاق ناصر مع الأمريكان ــ دور السعودية فى معارك الخمسينيات ــ نصائح الملك سعود واستفزازات هيكل ــ من أبلغ الأمريكان بالعرض الروسى؟!

● **الفصل الثامن: روسى وأمريكى ع الدفة:**

مفاجأة عزل جلوب ــ فكرة التأميم ــ لماذا محاولات التزييف للدور الأمريكى؟ ــ هيكل يبدل موقفه ثلاث مرات ــ هل ضلل فوزى عبد الناصر؟ ــ تخبط فى القاهرة ــ فشل فى مواجهة الغزو وإصرار على رفض توقعه ــ فضيحة هيكل مع منظمة أيوكا ــ توقعوا سقوط الزعيم بسبب السد.

● **الفصل التاسع: هزيمة فى المعارك ونصر فى الإذاعات:**

الزعيم فى عيد الميلاد، وإسرائيل فى سيناء ــ سيناء سُلمت خالية لإسرائيل والجيش أُمر أن ينهزم!!، والطيران مُنع من توجيه ضربة العمر لإسرائيل ــ الجيش أراد الحرب، والزعيم منعه! ــ ديان ينسق هجومه مع تعليمات القاهرة ــ بقايا جيش محطم ــ بطولة شعب ــ لماذا تنازل عبد الناصر لإسرائيل وكل الظروف وكل العالم معه؟ ــ نتائج فتح الخليج ــ موقف ناصر من صدقى محمود ــ اتهامات فتحى رضوان؟

● **الفصل العاشر: عبدالناصر وإسرائيل:**

عبد الناصر جاء للصلح مع إسرائيل ــ من ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٧ لم يفكر النظام لحظة واحدة في مهاجمة إسرائيل ــ لماذا استبقى عبدالناصر عبدالحكيم بعد هزيمة عام ١٩٥٦؟ ــ حذف فلسطين من برنامج هيئة التحرير ومطالبة البرنامج بالسلام مع إسرائيل ــ ضباط الثورة أقل المصريين اهتماماً بإسرائيل ــ محمد نجيب يدير علاقة تجارية مع إسرائيل ــ رفض الهجوم على إسرائيل فى عهد الوحدة ــ خطة ناصر ــ جاسوس إسرائيل فى القاهرة ــ ملاحظات اللواء طـه الجدوب ــ بلادنا باعها الخونة لليهود.

عود على بدء:

ومن آخر صفحات الكتاب التى تبلغ أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير حيث استعرضنا كما وضح منذ قليل محتويات الفهرس كله، بذكر عناوين الفصول ومحتويات هذه الفصول على هيئة عناوين فرعية ــ من آخر هذه الصفحات نعود من جديد إلى حديث بدأ المؤلف حواره وحديثه معنا. لنسير خطوات بطيئة حتى نلم بما جاء فى هذا الكتاب وعلى مدى خمس حلقات ــ نبدؤها من هذه الحلقة التى نعرض لها الآن.

بين محمد على وعبدالناصر:

لا أدرى لماذا وجدت إصراراً داخل نفسى على أن أبدأ من حيث بدأ الكاتب ليحدثنا عن بعض ملامح تاريخنا الحديث الذى يسبق بأجيال تاريخ حدوث ثورة يوليو. ربما يرجع ذلك إلى شغفى وحبى لأبطالنا القوميين على مدى التاريخ ودورهم فى صنع هذا التاريخ المجيد، وليس كما أرادوا أن يفهمونا بأن تاريخ مصر الحقيقى قد بدأ مع ثورة يوليو!!. وعن ذلك يقول المؤلف: «لم يكن فى خاطرى الكتابة عن عبدالناصر فى هذا الوقت، فهذا عمل كبير حجماً وتأثيراً». وفى موضع آخر يقول: «.. كان التجهيل والتشويه الذى عاش ويعيش فيه جيل الناصرية ضرورياً حتى يمكن سلب رجالات التاريخ المصرى أفضالهم، حتى يجلس أحمد فؤاد فى مقعد طلعت حرب ويعتبر ذلك إنجازاً ثورياً ومكسباً شعبياً، وحتى يعتبر الجيل المبتور التاريخ أن بناء سد على النيل بقرض أجنبى وخبرة أجنبية يعتبر عملاً بطولياً يكفى لمحو ما حدث من أخطاء وخطايا، لأنهم لا يعرفون أن محمد على مثلاً بنى القناطر الخيرية التى كانت فى ظروفها وظروف مصر عملاً خارقاً..

لقد آلمنى أن يقارن بعضهم بين محمد على وعبدالناصر ــ بدعوى أن الاثنين هزما أمام العدو الأجنبى، وأمانة التاريخ بل وكل القيم التى تعارف عليها الشرفاء تأبى هذه المقارنة وترفضها.. فلا وجه للمقارنة إلا كما قلنا بين الأصل والمسخ!!

أنقارن بين من وحد مصر وسوريا بالسيف، بمن أضاع سوريا وهزم فى دمشق على يد مديرى مكتبه ؟؟

محمد على تسلم مصر وليس بها مصنع ولا مدرسة، فأنشا الكليات وعبدالناصر تسلم مصر بها أربع جامعات.. ومات وقد رفضت جامعات العالم شهاداتنا !!

المؤرخ المعاصر وصفة الحياد:

ومازلنا مع المؤلف عند العتبات الأولى من كتابه.. حيث حديثه الممتع والشيق.. الذى يجرنا إليه.. بل يجذبنا بكلماته إلى ضرورة المتابعة والإنصات بالقدر الذى يسمح به الوقت والجهد.. ويبصرنا خلال الفقرات القادمة بدور المؤرخ وحياده، كما يؤكد نقطة هامة وخطيرة أن المؤرخ المعاصر الذى يكتب عن أحداث عاصرها وساهم فيها أو كان طرفاً فى صراعاتها أولى أن يفقد حياده ولا يضيره هذا أو يضير تاريخه ما لم يتبع هواه، ويخرج من هذا القوى بنتيجة يود أن يعرفنا بها قبل الغوص فى صفحات الكتاب.. تلك التى يقول عنها «ومن ثم فليس على من التزام أمام القارىء إلا الصدق خاصة أنه ما من سبب شخصى يدفعنى إلى عداء عبدالناصر، أو التحامل عليه، فلم أكن ملكياً قبل ٢٣ يوليو ولا حلصت على جائزة الملك فاروق فى الصحافة ثلاث مرات، ولا حتى مرة واحدة..! بل بالعكس كنت مقدماً للمحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية.. والدعوة إلى قلب نظام الحكم بالقوة فى عهد الملك فاروق، وجاءت الثورة وأنا فى معتقل فاروق فى قضية الانقلاب. بل أحسبنى مضطراً إلى القول إن ليس بينى وبين محمد حسنين هيكل ذاته أى عداء شخصى بل أنا مدين له، بإخراجى من السجن عندما اعتقلنى أمين شاكر. كما أنه هو الذى عيننى فى أخبار اليوم ولكن الأمر أكبر من أن يكون حسابات شخصية.

ثورة يوليو الأمريكية
علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية(٢)

بعد رحلة قصيرة دامت عدة ساعات قضيناها مع الكاتب جلال كشك من خلال تتبعنا لما كتبه فى الحلقة السابقة.. والتى تناول فيها مقدمة لموضوع خطير سوف نبدأ حديثاً مفصلاً عنه بعد قليل ومن خلال هذه الحلقة الثانية. وتعرفنا كذلك من خلال مقدمته أو خطبته التى بدأ بها حديثه هذا مدى حياده كمؤرخ ليس بينه وبين شخصيات هذا الكتاب أى عداء شخصى. بل هى بادرة منه كى يميط اللثام عن التاريخ السرى لثورة ٢٣ يوليو.. وهى دعوة لغيره من المؤرخين من أجل أن يبصروا أجيالنا والأجيال القادمة بالتاريخ الحقيقى لمصر.. بعيداً عن أى هوى أو زيف.

ونحن معه.. من خلال هذه الحلقة الجديدة سوف نغوص فى أعماق فصول هذا الكتاب التى بلغت عشرة.. نبدؤها حالاً وبعد لحظات..

---

(٢) الحلقة الثانية من الكتاب ونشرت بالوفد بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٨٩.

قد يتساءل القارىء لماذا اركز على هيكل! والجواب ليس فقط للمكانة التى احتلها فى العصر الناصرى، تلك المكانة التى تشكل فى حد ذاتها سؤالاً ضخماً بل عريضة اتهام حافلة للنظام الناصرى.. ولا لأنه هو المتصدى الأكبر للترويج للناصرية.. بل لأنه إحدى الحلقات الرئيسية فى العلاقة الأمريكية الناصرية، لأن هيكل كما جاء فى كتاب «جبال الرمال» ولم يعترض هو ولا اتخذ أى إجراء ضد المؤلف والناشر ــ قد جندته المخابرات الأمريكية كعميل فى أوائل الخمسينيات، وأصبح بطريقة ما المتحدث الرسمى باسم الوطنية الناصرية والقومية العربية.. ومن ثم فإنه يعرض قصة الناصرية من زاوية يهمنا التصدى لها؟!

ليس هدفى الإساءة لعبد الناصر:

والحديث يمتد ويدخل بنا عبر منعطفات تاريخية هامة وخطيرة.. ولا تستحق منا إلا الإنصات فقط، حتى نعى الحقائق كلها.. ثم لمن يشاء أن يناقش ويبحث ليعرف أكثر.

ولعلى هنا أركز على المنهج الذى اختطه الكاتب لنفسه.. ونقله بأمانة وعرضه كما هو حتى نفهم المقصد الذى يرمى إليه.. وحتى تكون الفائدة أعم وأشمل أيضاً، وحتى تتوافر فينا الأمانة التى هى أساس أى حديث بيننا.. وفى موضع هام وجديد يقول المؤلف: «وقد ركزت على قضية العلاقة مع الأمريكان والمواجهة مع إسرائيل ومعركة ١٩٥٦.. وربما يرى البعض أن فصلاً كهذا فى البدء جاء الأمريكان» كان أجدر به لو آخر إلى نهاية الكتاب على أساس أنه النتيجة التى تثبتها هذه الدراسة. ففيه نتحدث عن علاقة الأمريكان بحركة ٢٣ يوليو، ومن ثم فلابد أن نمهد للقارىء حتى يصل إلى الاقتناع بما ندعيه عبر الحقائق والتحليلات لتاريخ الناصرية.. ولكننى رأيت أن أبدأ به فصول الكتاب حتى وإن صدمت القارىء، وحجتى فى ذلك أننى لم استهدف أبداً إثبات تهمة التآمر بين الناصرية والأمريكان حتى يمكن أن يكون ذلك هو عبرة الكتاب. لا، ليس هذا هدفى ولا هو بالهدف الذى يستحق أن يقتصر عليه الجهد. وأنا أكرر ما قلته فى أكثر من موضع، أنه ليس من أهدافى أن أسىء إلى عبد الناصر أو أن أدينه وأتهمه بتهمة ما.. إنما أردت بكشف العلاقة بين حركة ٢٣ يوليو والمخابرات الأمريكية، أن أكشف للشعب العربى التاريخ السرى الذى أشار إليه رجل المخابرات

الأمريكية ومدير شئون ثورة ٢٣ يوليو عندما قال: «إن المؤرخين والدارسين الذين لا تتاح لهم معرفة التاريخ السرى للأحداث، لايمكنهم أن يفسروا مثلاً لماذا تجنب عبدالناصر الحرب مع إسرائيل فى ظروف كان النصر فيها محتملاً.. فى حين قاد بلاده إلى حرب محتومة الخسارة.

السؤال.. واستحالة الإجابة:

هذا الجهل بالتاريخ السرى أوقع البعض فى تفسيرات مجنونة مثل اتهام عبدالناصر بأنه عميل إسرائيل أو أمه يهودية! إن سلوك عبدالناصر والأحداث التى مرت والمواقف التى تبدو كالالغاز والتى تجعل بعض الناصريين المخلصين يرفعون أيديهم فى حيرة العاجز. يطرحون السؤال ويعترفون بإستحالة الإجابة عنه فى إطار المنطق المفترض للناصرية.. كل هذا لايمكن فهمه بدون معرفة مفتاح شخصية عبدالناصر وبدون الإطلاع على التاريخ السرى للناصرية.

ويجدر أن نؤكد هنا أن تنظيم الضباط الأحرار كان فى مجموعه تنظيماً مصرياً وطنياً مخلصاً، نشأ من دوافع مصرية وبنوايا مصرية صادقة، وقد أشرنا وأكدنا أن عبدالناصر لم يكن عميلاً للأمريكان.. وأن علاقته بهؤلاء كانت توجهها المبادىء المقبولة فى الغرب. إنها لعبة شديدة التعقيد أراد عبدالناصر فيها توظيف الولايات المتحدة لخدمة أهدافه، ولكنه أخطأ وخسر لسبب بسيط وهو عدم التكافؤ بين اللاعبين. إن هذه الصلة التى بدت فى البداية والتى جعلتهم يطرحونه زعيماً للقومية العربية.. بل المساعدة فى تحرير الوطن العربى.. هذه العلاقة أو التاريخ السرى بين الناصرية والمخابرات الأمريكية كانت تنمر فى الجذور بقدر ما تبهج بالزهور الوقتية!! وخاصة فيا يتعلق بالصدام العربى ــ الإسرائيلى والوحدة العربية والبناء الحقيقى لقدرة مصر الذاتية.. ففى هذه الميادين قادتنا هذه العلاقة إلى الإفلاس.

التاريخ البلاستيك وهيكل:

قبل الدخول فى تفاصيل الحديث عما جاء بهذا الفصل «عندما يكتب التاريخ بهدف إخفاء جريمة.. فهو تزوير فى أوراق وطنية». ونحن معه فى هذا التشبيه البليغ. ولعلها وسيلة ذكية من الكاتب كى يفتح شهيتنا وشهية القراء لمتابعة حديثه الهام.

يقول الكاتب فى بداية هذا الفصل «مؤرخ الناضرية»، يشكو فقدان المصداقية ــ فهو كما يقال (يقتل القتيل ويمشى فى جنازته). وذلك أنه كمسئول عن الإعلام الناصرى الذى وضع أسسه خبراء ألمان اختارتهم واستأجرتهم المخابرات الأمريكية لإنشاء وتطوير هذا الإعلام الناصرى، كان من الطبيعى أن يتسلح نجم هذا الاعلام بشعار جوبلز «اكذب ثم اكذب واكذب أكثر.. وأخيراً سيضطر الناس لتصديقك»!!

بالطبع يتطلب دعم الكذب ومنع المعلومات عن الناس، أن تشكك فضلاً عن مناقشة ما يقدمه الإعلام الرسمي من أكاذيب تحت طائلة السجن والتعذيب والموت أحياناً، عندئذ تصبح الكذبة هي وحدها المتاحة.

وهكذا كان الإعلام المصرى الناصرى وهيكل فارسه بلا حرج لإحياء وتزييف الواقعة كيفما شاء وعدة مرات وفقاً لتطورات مواقف السلطة. وفى موضع آخر يقول: وإننى أردت أن أقدم صورة من أكاذيب هيكل فى هذا الفصل باستعراض بعض الأمثلة للاستهتار الذى يتعامل به هيكل مع التاريخ والقراء، خلال المقارنة بين وقائع محددة، ذكرها هو نفسه مرة فى ملفات السويس الصادر باللغة العربية ثم عاد فأوردها بصورة مخالفة وذلك فى نفس الكتاب، كما يؤكد هو ــ الذى صدر بالإنجليزية تحت عنوان «السويس: قطع ذيل الأسد» الإشارة أحياناً إلى الخلاف بين ملفات السويس العربية وأصلها الذى صدر منذ عشر سنوات باسم قصة السويس!!

الطبعة العربية للمغفلين:

أما عن الخلاف الواضح بين الطبعتين، فلا مجال للاعتذار أو التبرير بخطأ المترجمين أو غشهم لسببين:

ــ أن الاختلاف كما سنرى هو فى وقائع وليس مجرد صيغ، وأن الخلاف دائماً فى خدمة الهدف أو التهمة التى نتهمه بها. وهى محاولة تضليل القارىء العربى بإخفاء حقائق العهد الناصرى وخاصة فيما ثبت بين عبدالناصر والمخابرات الأمريكية أو الترويج للولايات المتحدة والفكر الصهيونى؛ ومن ثم فالمصلحة واضحة فى الاختلاف، مما يؤكد تعمد التزوير.

ــ أما السبب الثانى فهو اعترافه بأنه هو الذى ترجم.

ومن ثم فمن حقنا إزاء ما تعمد إخفاءه فى الطبعة العربية أن نقول عن هذه الطبعة: إنها كتبت للمغفلين للرعايا المتخلفين، المحظور عليهم المعرفة. أما الطبعة الافرنجية فكتبت للمتقدمين الذين يعرفون.

لقد ظن أن أحداً لن يهتم بمراجعة النسختين وكشف ما بهما من تناقض.. وهكذا شاء حظه أن نقرأ الكتابين بل الثلاثة.

أوجه الاختلاف:

... ومنذ البداية نلاحظ الخلاف بين أسباب إقدامه على التأليف، ففى طبعة المتخلفين نجد حديثاً مما يطرب له هؤلاء المنبهرون وتتغنى به جوقة الناصريين.. فهو يحدثنا عن حشد من

الناشرين من شتى الأجناس ـــ يذكرنا بصدى عالمى لخطاب عبدالناصر ـــ يحدثنا عن تجمع ناشريه، يطالبونه بأن يخرج للناس كتاباً عن السويس.

أما فى الكتاب المنشور بلغة هؤلاء الناشرين، فقد رأى أنه لا يستحسن الكذب عليهم. بمثل ما يقال للعرب وهكذا اختفت تماماً حكاية مظاهرة الناشرين الذين نبهوه إلى العيد الثلاثين للسويس الذى كان قد نسيه.. فعل الزوج غير الوفى!

وفى موضع آخر وعن نفس الموضوع يقول: وإن كان الاعتراف هو سيد الأدلة.. فإن ما جاء على غلاف هيكل بالإنجليزية هو أوضح وأصرح اعتراف بأمريكية الناصرية من ناحية المنطلق والتحرك والأهداف، وإن كان هذا التلخيص لا يثبت أو يشير إلى علاقتها مع المخابرات الأمريكية، ومن ثم يبقى الكثير من القول.. ومرة أخرى فإن حصر الاختلاف المقصود بين النسختين، جهد يفوق طاقتنا، حتى ولو اقتصرنا على التحرير السياسى وتزييف الوقائع أو تهذيبها.. فحسبنا إذن استعراض بعض هذه الاختلافات لا بترتيب أهميتها بل بترتيب ورودها.

مواقع التزوير واختلاف الروايات:

وقد تعرضنا فى بقية فصول الكتاب لنماذج أخرى من تحويره وتبديله لرواياته هو ذاته، فهذا الفصل ليس إلا فاتحاً للشهية:

● خذ مثلاً واقعة لقاء الملك عبدالعزيز مع الرئيس روزفلت.. هذا اللقاء يقدمه هيكل فى صورتين. مرة فى الطبعة العربية بما يكفل عدم مصادرة الكتاب فى المملكة. وما قد يغرى السعوديين باستخدام مواهبه فى تجلية التاريخ. فالملك فى هذه الطبعة منطقى ومفحم فى رده على روزفلت «لماذا لا يعود اليهود إلى بلادهم التى هاجروا منها خوفاً من النازى»! نعم مادمنا هزمنا النازية فلماذا نحقق هدفها باستبعاد اليهود من أوروبا، لماذا يستمر طرد اليهود؟ لماذا لا يعوضون على حساب دول المحور.. ما ذنب فلسطين لتدفع ثمن خطايا الآخرين؟ ثم تأتى المفاجأة.. ففى النسخة العربية نجد الملك يقول لروزفلت «إن اليهود العرب لن يتعاونوا أبداً فى فلسطين والعرب يشعرون بالتهديد المتزايد». ولكن فى الطبعة الأجنبية التى كان أحرى به أن يحسن فيها تقديم الموقف العربى. نجده على العكس من ذلك يشوه الموقف ويسىء إليه عند الألمانى واليابانى.. هناك نجده يعرض موقف الملك على هذا النحو: قابل الملك عبدالعزيز ظهر اليوم التالى، فتدارسا مشكلة اليهود المشردين فى أوروبا فأصر الملك على استحالة التعاون بين العرب واليهود فى فلسطين أو فى أى مكان» فى الطبعة العربية وقف عند فلسطين.. أما فى الطبعة الافرنجية فأضاف «أو فى أى مكان آخر».

● ونمضى فى المقارنة .. فنقارن بين صفحتى ٤٩ع و٨غ فنفاجأ بأن الأستاذ قد أتحفنا بنص رسالة الوزير الأمريكى المفوض فى مصر عن اللقاء بين فاروق وروزفلت. وترجمها مشكوراً.. ومنح الخطاب رقم ١١ فى قائمة «الوثائق» ومن أجل استرداد المصداقية التى ضاعت إلا أننا نكتشف أنه حتى فى الوثائق فإن الأخ الأكبر لا يتورع عن تنقيح التاريخ. ففى الوثيقة العربية سقط عن عمد أهم ما قاله الرئيس الأمريكى للملك فاروق. الأمر الذى لم يكن بوسعه حذفه من الطبعة الإنجليزية.. أو من يدرى لعله فعل وأضافه الناشر الإنجليزى لتعزيز المصداقية إياها. والنص الخفى هو «.. واقترح الرئيس الأمريكى على ملك غير متجاوب، اقترح روزفلت تقسيم الملكيات الكبيرة فى (مصر) وتسليمها إلى الفلاحين لزراعتها». لماذا ضن هيكل على البؤساء من قرائه العرب بهذا النص البالغ الخطورة؟!. رغم التطويل المتعمد فى الطبعة العربية والاختصار فى الطبعة الإنجليزية. لماذا؟! الجواب معروف: لأنه يعزز حجم القائلين بأن الإصلاح الزراعى هو أصلاً مطلب أمريكى قديم منذ ١٣ فبراير عام ١٩٤٥ أى قبل الثورة بسبع سنين.

● ولنفس الهدف ومن نفس المنطلق الذى دفعه لتزوير حجج الملك عبدالعزيز نجده يزور أيضاً حقائق المواجهة العربية الإسرائيلية الأولى.. وهذا العرض المشوه المزور لطبيعة الحرب الوطنية الفلسطينية وفى كتاب مصرى بالإنجليزية لا يمكن إلا أن يضاف إلى ترسانة الإعلام الصهيونى.

قصة أم الرشراش (ميناء إيلات):

● وفى الطبعة العربية عرضت قصة أم الرشراش (إيلات) بصيغة موفقة ترضى الملك حسين والرقابة فى الأردن وتخفى دور الأمريكيين.. ورغم أنه أشار لقرائه العرب إلى نص أبو الهدى رئيس وزراء الأردن إلا أنه حذف الفقرة الخاصة بدور أمريكا فى تسليم هذا الموقع لليهود كما حذف دور عبدالناصر والأمريكان فى حرب ١٩٥٦ فى تطويره إلى أهم ميناء إسرائيلى وأخطر ميناء على البحر الأحمر بفتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية ففى الصفحة ١٩ من الطبعة الأوروبية نقل عن توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن فى اجتماع رؤساء الحكومات العربية فى يناير عام ١٩٥٥ أن السفارة البريطانية أبلغته بوصول رسالة من وزير الخارجية البريطانى تقول: إنه كان يتمنى من كل قلبه أن يمنع اليهود من احتلال أم الرشراش ولكن الحكومة الأمريكية ضغطت علينا.. هذه الفقرة حذفت من النص العربى ستراً لعورة الحكومة الأمريكية عن أعين المتعصبين العرب!

وغير ذلك من وقائع الاختلاف:

● وقد فات الجوقة أن تشيد بمهارة هيكل ككاتب سيناريو متفهم لروح العصر.. ومن ثم فهو يكتب لكل محطة ما يناسب جمهورها.. ففى إذاعة القاهرة ترى حكيم زمانه جمال عبدالناصر يبدى رأيه بالرمز فى سياسة أمريكا حين اختار هدية يحملها الدكتور أحمد حسين للرئيس ايزنهاور ليسلمها له يوم تقديم أوراق اعتماده له سفيراً جديداً لمصر فى واشنطن وكانت الهدية نسخة من تمثال الإله أبيس وهو رمز الحكمة عند قدماء المصريين. وقبل أن نصيح إعجاباً: يامعلم!! تسلبنا الطبعة المتحضرة سعادتنا وفخرنا.. فقد وردت بها التعديلات الآتية:

١ـ محمد نجيب هو الذى أرسل التمثال وليس عبدالناصر!

٢ـ بينما القصة فى الطبعة العربية توحى بأن «النغزة» جاءت من مصر أو عبدالناصر.. نجد أن الطبعة الإنجليزية تفيد أن هذه الخصائص للإله أبيس جاءت على لسان الرئيس الأمريكى إيزنهاور.

٣ـ فى النسخة الإنجليزية واضح أن التمثال أصيل.. ولكن لما كان المؤلف قد هاجم أنور السادات بتهم إهدار آثار مصر ولما كان جمهور الشباك يريد أن تنسب الواقعة لعبدالناصر فقد اقتضى إضافة كلمة نسخة وتركت لمدى فهمك.. فإما أن تفهمها على أنها نسخة بالكربون أو واحد من عدة تماثيل متشابهة وأصيلة.

ولعلى هنا أستأذن المؤلف والقارىء معنا على سرد ماتبقى من وجهات الاختلاف بين الطبعتين العربية والانجليزية لكتاب حسنين هيكل الواحد على سبيل الإجمال كما يلى.

● وواقعة أخرى نتعلم منها درساً فى فن الكتابة على المستويين: ففى مصر لامصلحة فى إبراز كراهية الإنجليز للنظام السابق وبسبب تبنى هذا النظام لشعارات ومطالب الجماهير.. ومن ثم يختصر الموضوع فى هذه العبارة المشبوهة «ورد إيدن بحديث طويل عن مزايا اللورد كيلرن وعن ذكرياته هو شخصياً مع الملك فاروق وباشوات مصر القدامى».

● فى الطبعات العربية نجد الولايات المتحدة هى المتبنية لحلف بغداد، مصممة على ضم مصر إليه، ولكن بسبب مقاومة مصر قررت عزلها فترة حتى تستبعد مصر وتأثيرها عن الموضوع كله حتى يستقر رأيها على ماسوف تفعله وسوف تجد نفسها فى النهاية مرغمة على اللحاق بالآخرين. أما فى الطبعة الأفرنجية فقد وضعت الحقيقة على بلاطة.. أكد الأمريكيون لعبدالناصر أنه لانية لديهم فى الانضمام لحلف بغداد».

• لو أن مؤرخ الناصرية قد أشار إلى دور أمريكا فى خلع «جلوب» بالطبعة العربية إلا أنه لدواعى الأمن العام والصالح الوطنى لم يشأ أن يكشفها بوضوح وصراحة كإحدى عمليات السى. أى. إيه أو واحدة من ضربات روزفلت التى كان يكيلها للإنجليز فى المنطقة.

• وقد أعفى «مؤلف» التاريخ قراءه العرب من حكاية اتصال عبدالناصر بهيكل عقب وصول أنباء الاجتياح الإسرائيلى لسيناء.. وحسنا فعل.. ولكنه للأسف نشر هذه الفضيحة فى الطبعة الإنجليزية، ولعلها نوع من التشفى فى الزعيم الذى كان على وشك أن يفتك به لو لاحظ هيكل.

قال: «حولت لى مكالمة من ناصر على الفندق.. الإسرائيليون فى سيناء ويبدو أنهم يحاربون الرمال لأنهم يحتلون موقعاً خالياً بعد موقع. إننا نراقب ما يجرى عن كثب ويبدو لنا كما لو أنه كل ما يريدونه هو إثارة عاصفة رمال فى الصحراء، لا نستطيع أن ندرك ما يجرى.. إقترح أنك تأتى».

والله.. لولا أننا لا نشك بعد فى وطنية عبدالناصر ولا نثق إطلاقاً فى رواية هيكل لظننا أنها مكالمة بين جاسوسين لإسرائيل يتبادلان التهانى..!

وقبل الدخول فى حديث الفصل الثانى بالتفصيل أود أن أقول للقراء: إن المؤلف يحرص كل الحرص بعد نهاية كل فصل على كتابة ملاحق ومصادر ومراجع ما يكتبه.. وبأرقام الصفحات التى ينقل منها.. وهذه أمانة محمودة تجعله يساعدنا كثيراً فى الرجوع إلى معرفة المزيد من التفاصيل لتلك الأحداث التى يشير إليها.

أما قوله عن أحداث الفصل الثانى.. فقد بدأه هكذا أيضاً.. «مهما تكن سياسة الحكومة الجديدة فالمهم أننا تخلصنا من الوفد..».

وليس هذا فقط.. بل يثير فينا لعاب المعرفة حتى نظل مربوطين فى أحرف كلماته دون فكاك. ولنسمعه يقول «الجيل الذى لم يعش سنوات ما قبل انقلاب يوليو، من حقه علينا أن نعرفه حقائق تلك الحقبة.. ومن واجبه أن يعرف.. وأن يعى بداية أن تاريخ تلك الفترة قد تعرض لعملية تشويه شاملة وهو وضع طبيعى ومتوقع، لأن مصدر الشرعية أو المبرر لأية ثورة أو انقلاب أنها تثور أو تنقلب لتخليص الشعب من نظام سيىء، وعندما تنجح فى قلب هذا النظام وإلى أن تتحقق لها إنجازات مباشرة ملموسة، يكون إنجازها الأكبر هو إزاحة النظام السيىء.. ومبرر استمرارها فى السلطة هذا حماية الوطن والشعب من خطر عودة النظام البغيض.. ومن ثم يغدو الإعلام الثورى هو الذى يبرر مساوىء العهد البائد وتصبح أية اشادة ولو جزئية بذلك النظام أو رجاله عملاً غير ثورى وطعناً فى الانقلاب وتشكيكاً فى مشروعيته ومن ثم محظورة.

ثورة يوليو الأمريكية
علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية (٣)

مازال المؤلف يثير فينا شهية المعرفة .. والرغبة فى الوقوف على أرض صلبة فيما يتعلق بالماضى القريب والبعيد. ماضى ما قبل الثورة أو الانقلاب. وعن ذلك يقول : من حقكم أن تعرفوا ، ومن واجبنا أن نعرفكم أن انقلاب يوليو لم يكن ثورة ، بل الثورة المضادة التى دبرت لإجهاض الثورة الحقيقية .

فقد كانت مصر حبلى بنذر الثورة .. بل نحن نعتقد أنه لو بقى الوفد فى الحكم أسبوعاً واحداً بعد معركة البوليس فى الإسماعيلية وصدرت المراسيم التى كانت قد أعدت فعلاً بقطع العلاقات الدبلوماسية وإقالة حاكم السودان وإلغاء شرعية الوجود البريطانى فى السودان وإصدار الأمر للجيش المصرى هناك بالمقاومة إذا ما تعرض له الإنجليز، لو تم ذلك لتفجرت فى وادى النيل ثورة وطنية شاملة تحمل إمكانات تغيير وجه التاريخ وتاريخ المنطقة . على الأقل هذا ما توقعه الأمريكيون وتؤكده وثائقهم . ولم يكن وجود القصر يشكل عائقاً مستحيل التجاوز .. فثورة ١٩ قامت فى ظل ملك أسوأ وأكثر فجوراً وقدرة من فاروق .. وثورة المغرب .. قامت وحققت استقلال الوطن مع القصر المغربى أحياناً بالقصر .. وأحياناً رغم القصر .. !!

---

(٣) الحلقة الثالثة .. نشرت بتاريخ ٢١ مارس ١٩٨٩ .

لقب ملك مصر والسودان:

على أية حال كان القصر الملكى فى مصر قد شل تماماً بإلغاء المعاهدة، كما بدأ يفقد شرعيته، فمن ناحية كان لقب ملك مصر والسودان الذى صدر مع مراسيم إلغاء المعاهدة قد قيد حركة الملك والمتعاونين معه. وقد أشرنا إلى الوثائق الأمريكية والبريطانية التى تتحدث عن عقدة اللقب والعجز عن التغلب عليها ـ لإصرار مصر كلها على التزام بوحدة وادى النيل تحت التاج المشترك أو ملك مصر والسودان. وهذه الوثيقة من الوثائق التى لا يراها مؤرخ الناصرية لأنها من نوع خاص ومكتوبة بحبر سرى لا يرى بالعين المجردة!!

وفى موضوع آخر عن نفس الموضوع يقول: «.. وهكذا فإن القرار الوفدى بإعلان فاروق ملكاً على مصر والسودان قد شل يد السراى بالتالى فقدت أهميتها بالنسبة للاستعمار، فلم تعد أداة ضغط على الحكومات والأحزاب للتنازل عن القضية الوطنية، بل أصبحت هى ذاتها أسيرة المواقف وعقبة وعنصراً من عناصر التشدد.. ولذا فعندما تأكد الأمريكيون استحالة قبول بريطانيا لوحدة وادى النيل بين مصر والسودان اتخذوا قرارهم بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية». ويؤكد على رأيه هذا بقوله.. وإذا بشهادة ناصرية تؤكد ما وصلنا إليه وهى شهادة فتحى رضوان الذى ظل وزيراً فى حكومة عبد الناصر ست سنوات.. فقد شهد أو اعترف بأن إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية كان قراراً أمريكياً.. ورغم هذه الشهادة القاطعة يحاول أن يوارى هذا السبب فيقول «إن الملكية ألغيت خوفاً من تآمر الطفل أحمد فؤاد أو امرأة تدعى «نسل شاه» مع الإنجليز..

الوفد ومواجهة الاحتلال البريطانى:

ومن ناحية أخرى فإن المواجهة التى طرحها الوفد ضد الاحتلال البريطانى، وضعت السراى فى موقف المشبوه وخاصة عندما عين الملك «حافظ عفيفى باشا». رئيساً للديوان الملكى.. وكان معروفاً بموالاته للإنجليز وعدائه «للوفد» وعندها خرجت المظاهرات الصاخبة محتجة. وفى الجامعة هتفوا بسقط «عفيفى وحافظ عفيفى». والتقط ممثل الحزب الشيوعى المصرى فى

الجامعة. وكان طالباً فى كلية التجارة.. التقط الخيط أو المبادرة من الجماهير وهتف بسقوط الملك وحياة الجمهورية.. وزلزلت الأرض وانتشر الهتاف للجمهورية لأول مرة فى مصر منذ ثورة ١٩ عندما أعلن النائب الوفدى جمهورية زفتى.

وهكذا اكتملت الثورة، ضد الاستعمار «الانجلو ــ أمريكى» كما كانت الجماهير قد حددت عدوها.. وضد السراى وفلول الرجعية وفى نفس الوقت كان الفلاحون فى الريف يخوضون فعلاً المناوشات التحضيرية لثورة الفلاحين الكبرى». وحتى لو قلنا إن الوفد ــ وقتها ــ كان بتشكيله وحقيقة وجوده فى السلطة غير مهيأ لقيادة الثورة الوطنية فقد كان بكل تأكيد يفتح لها الأبواب.

هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى فقد كان كفاح الوفد لصالح الرأسمالية الوطنية يتمثل فى تدعيم السلطة الوطنية وأبرز المنجزات إلغاء الامتيازات الأجنبية فى معاهدة ١٩٣٦ ومحاصرة النفوذ البريطانى بالتمسك بالدستور والإصرار على أن تكون كل السلطة للمجلس النيابى المنتخب حيث ينعدم تأثير هذا النفوذ.

وجاءت الحرب العالمية الثانية بدفعة قوية للرأسمالية المصرية نقلتها إلى مرحلة جديدة.. ولكن هذه الانطلاقة كانت تتطلب إنهاء السيطرة الاستعمارية على النظام المصرى. وبدأت كل القوى تستعد للمعركة الفاصلة.

وعلى الجبهة السياسية. كان إنشاء الوفد للجامعة العربية وقبول العرب بلا جدال، أن تكون مصر هى المقر الدائم وأن يكون أمين الجامعة مصرياً، وهرع زعماء حركات التحرير العربية إلى مصر طلباً للجوء أو الدعم لنشاطهم ضد الإنجليز أو الفرنسيين. لقد كانت الثورة الوطنية المقبلة تبشر فقط باستكمال تحرير مصر وتصنيعها.. بل وأن يكون هذا التحرر والتصنيع فى إطار وحدة عربية بصيغة ما.

لماذا الإسهاب فى حديث الثورة الوطنية:

وقد أسهبنا فى حديث الثورة الوطنية لنكشف لماذا كان إنقلاب يوليو تعبيراً عن إرادة القهر الاستعمارى لسحق هذه الثورة. سحق الرأسمالية الوطنية فى مصر والوطن العربى كله. وقد حقق عبدالناصر ذلك بالتأميم والمصادرات التى كانت تستهدف القضاء المبرم على الرأسمالية المصرية، ووأد محاولتها إقامة اقتصاد عربى موحد. كما دمر عبدالناصر القيادة الفكرية والسياسية بالاستبداد والإرهاب وإفساد التعليم على نحو لم ينجح استعمار بربرى فى إلحاقه بعدو للدود تمكن منه.

وكان الوفد قد قرن قبوله للحكم فى عام ١٩٤٢ باستكمال استقلال مصر بعد انتهاء الحرب لذلك تعجل الإنجليز فى طرده من الحكم فور تحسن الوضع العسكرى للحلفاء عام ١٩٤٤.

وقبل أن يبصرنا بدور هذه الثورة فى محاربة الصهيونية واليهود.. يعطينا خلفية تاريخية عن حرب عام ١٩٤٨.. وهى الحرب التى زرعت إسرائيل فى فلسطين.. فتعالوا نسمع منه بقية الحديث الطيب.. يقول الكاتب «خرج علينا البعض بأن حرب ٤٨ كانت فخاً أعد بعناية وساقنا إليه الإنجليز، وكان الحذر وربما الوطنية يفرضان علينا رفض الانسياق للخدعة البريطانية.. وإن مصر لم تكن تريد هذه الحرب، على الأقل فى هذا التوقيت، فضلاً عن أنها لم تكن مستعدة لها. ويقول هيكل: إن ضابطاً مصرياً شاباً هو البكباشى جمال عبدالناصر لاحظ أنه كان غريباً أن يكون الإنجليز على قاعدة قناة السويس هم الذين يفتحون لنا الطريق ونحن نتقدم عبر سيناء إلى فلسطين. ولقد أثار دهشتى أننا كنا نتقدم لنحتل مواقع الفرقة الثانية البريطانية حول غزة فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الفرقة تخلى مواقعها عائدة إلى مصر!! وإذا كان للبكباشى عذره فى هذا الوقت بسبب نقص معلوماته السياسية ولأنه لم يكن قد اجتمع بعد بالمخابراتى اليهودى كوهين وتثقف على يديه كما يخبرنا هيكل إلا أن ترديد هذا القول بعد أربعين سنة إنما يصدر من منطلق آخر أخطر من الجهل وهو إخفاء الدور الأمريكى، فلاشك أن حرب ٤٨ كانت فى إحدى جوانبها صورة للصراع الأمريكى البريطانى.

ونعود إلى دور الثورة الوطنية فيقول عنها المؤلف «باختصار فإن الثورة الوطنية المصرية وجدت نفسها تضيف إلى مهامها عن وعى وعن حق مهمة التصدى للغزوة الصهيونية، ولكن كما هو الحال دائماً فإن أعداء أقل أهمية فرضوا أنفسهم بثقل أكبر لأنهم كانوا الأقرب وهم الإنجليز وأعوانهم فى مصر والوطن العربى. ولم يكن خطأ التصدى لهذا العدو فهو المباشر وقتها والمقيم على أرض مصر والذى يشل حركتها فى المواجهة الأساسية مع إسرائيل. ومن ثم لم يكن هناك بد من التصدى للاستعمار البريطانى وتصفيته، ولكن الأهم هو أرضية التصدى، فإن الوعى بأهداف الثورة الوطنية وأبعادها كان لابد سينبه إلى أن المعركة مع الإنجليز والرجعية المصرية تأتى فى إطار المواجهة الشاملة مع إسرائيل والولايات المتحدة.

ولابد من كلمة ولو موجزة هنا عن الوفد والدور الذى لعبه فى إنضاج الظرف الثورى عام ١٩٥١.. فالوفد مهما قيل أو نسب من أقوال لبعض شخصياته، كان مقتنعاً بأنه يدين للشعب وحده باستمراره. وبمكانة زعمائه ووصولهم للسلطة أو الزعامة ابتداء من سعد زغلول الذى كان مجرد موظف ممتاز فى الجهاز أو إن شئت فى النظام الحاكم، فإذا بالشعب يتوجه زعيماً تاريخياً، بل ويحله مكانة تفوق مكانة السلاطين والملوك. وتفوق ما ناله الأبطال الوطنيون الذين نجحوا فى تحرير بلادهم فعلاً.

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن مصطفى النحاس القاضى المجهول أو المنسى بكل احترام فى ثلاجة الحزب الوطنى، فإذا به فى الوفد يتربع على عرش الزعامة الشعبية التى رفعته إلى مصاف أولياء الله فى بلد اعتاد أن يحول أبطاله الوطنيين إلى قديسين وأولياء. لقد احتل الرئيس الجليل ـ كما كان لقبه ـ مكانة خالدة يتطلع إليها العديد من زعماء العالم الثالث، وأصبحت حلماً يسعى الطامحون لتكراره. ورغم ذلك لم يستطيعوا ولا اطمأنوا ولا صدقوا أنهم وصلوا إلى سفح الزعامة أو القبول الشعبى الذى تربع عليه مصطفى النحاس أربعين سنة بلا دبابات ولا إذاعات.

بجانب ذلك كله كان زعماء الوفد يعرفون أن ثقة الشعب هى كل رأس مالهم ومصدر قوتهم ومبرر وجودهم. وقد روى فاتح «الملفات» أن النحاس باشا فى أول لقاء مع محمد نجيب بعد انقلاب يوليو.. فاجأه بقوله «أنت قائد مائة ألف وأنا زعيم عشرين مليوناً»، وبصرف النظر عن كل ما قيل عن تهاون الوفد أو تخوفه من الانقلابيين الأمر الذى تكذبه هذه الواقعة التى تؤكد مدى الثقة بالشعب، والتقدير الحقيقى لمركز قوة الانقلاب، ومدى اقتناع زعيم الوفد بمصدر قوته وحجم هذه القوة، ورفضه أو استحالة تصور تنازله عنها.. وأيضاً مواجهتهم علنا رغم دباباتهم أنهم لا يمثلون الشعب.. ولا يعطيهم الانقلاب حق ادعاء قيادته.

من هو ممثل الشعب الحقيقى:

هذا الاقتناع بأن الوفد يمثل الشعب، بل الممثل الوحيد للشعب، انعكس فى مفهوم خاص، تحول إلى حقيقة تاريخية هى استحالة وقوع مواجهة بين الوفد والشعب، استحالة أن يحكم الوفد بالقمع، فليس فى تاريخ الوفد واقعة تزوير انتخابات أو حل أحزاب أو تعذيب معتقلين أو سجناء سياسيين. كان الوفد فى الجانب المقهور وهو خارج السلطة.. وكان أغلب عمره خارج السلطة تهتف له الجماهير «يحيا الوفد.. ولو فيها رفد».. والوفد لا يأتى إلى السلطة إلا بإرادة الشعب أو رضاه على الأقل.. ولم يكن بالذى يقبل أو يستطيع الاصطدام بالشعب.. ومن هنا، كان لابد أن يحدث ما حدث فى حكومته الأخيرة. من ممارسات للحريات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر.

ولم يكن الوفد يريد ولا يستطيع ضرب الحركة الوطنية الساعية للصدام مع الإنجليز، ولا كان يطيق أن ينعزل ويتركها تتخطاه خلف قيادة أخرى، ومن ثم كان قدراً محتوماً، أن يصطدم الوفد بالاستعمار البريطانى وهو فى السلطة.. ولكن أحب هنا أن أتوقف عند عنصر خاص وهو وجود فؤاد سراج الدين.

زعيم الوفد:

فهذا الشاب فؤاد سراج الدين الذى أمم البنك الأهلى، وكان أخطر إجراء نحو تحرر مصر المالى قبل عام ١٩٥٢.. وهو أيضاً الذى نوع غطاء العملة المصرية فحول جزءاً من الأرصدة الاسترلينية إلى ذهب ودولارات. ذلك الشاب لم يشترك فى ثورة ١٩١٩، وإن كان قد وعى أحداثها. لم تكن أسرته من عائلات الوفد، ولكنه بكفاءته النادرة حتى بين ساسة مصر قبل عصر الرجال.. استطاع أن يصعد بين صفوف الوفد حتى أصبح معروفاً ومقبولاً أنه هو الوريث الشرعى، والأوحد لمصطفى النحاس. ولكن كان لديه من الذكاء، ماعرف به أن زعامة الوفد لاتورث ولاتكتسب بالأقدمية أو بالدور.. بل هى زعامة تصدر براءتها من جهة واحدة هى الشعب. وبموجب مستند واحد وقتها.. هو «شهادة الجهاد ضد الإنجليز».

كان سراج الدين يريد عودة روح وظروف ثورة ١٩١٩ ليشترك مع باشوات الوفد فى محاربة الإنجليز ويحصل مثلهم على التفويض والمستند الشرعى بزعامته.. ولذا يقف المؤرخ الماركسى حائراً منذهولاً وهو يرى الباشا فى منصب وزير الداخلية يتحرش بالإنجليز ويخاطر بكل شىء، بل ويشترك فى عمليات فى مستوى الشباب المتطرف من الطلبة والعمال. مثل المشاركة فى خطة لتلغيم أو نسف قناة السويس أو تحريض العمال على الإضراب، والانسحاب من الخدمة أو خوض معركة بقوات البوليس ضد الجيش البريطانى.. وتقول تقارير الحكومة البريطانية عن هذه الفترة: «هناك معلومات عن وزراء فى الحكومة حرضوا الشعب على القتل». «إن لدينا معلومات بأن وزير الداخلية نفسه لديه ارتباطات وثيقة مع المنظمات الإرهابية. ووقائع الحكومة البريطانية تثبت أيضاً أن بريطانيا قررت أنه لاسبيل للمساومة مع الوفد، وأنها كانت تطلب رأس الوفد ورأس سراج الدين».

بريطانيا تحارب الزعيم:

نجح سراج الدين فى نسف كل الجسور مع بريطانيا، كما ألغى كل شرعية للوجود البريطانى وأعاد الموقف إلى نقطة البدء عشية ثورة ١٩١٩، ووضعت بريطانيا بدورها خطة لإعادة احتلال مصر هى الخطة «روديو» التى وضعت ضد حكومة الوفد فى خريف عام ١٩٥١، ومطلع عام ١٩٥٢ ولامعنى للتمسح بها وادعاء أنها كانت ضد عبدالناصر.. بريطانيا لم تفكر فى محاربة عبدالناصر عام ١٩٥٢، بل كانت تفاوض عنه أمريكا وتضغط بها عليه. اما خطة «روديو». فوضعت فى عهد سراج الدين وحكومة الوفد.

ولمواجهة ثورة حقيقية كانت تتطور بسرعة هائلة إلى مايشبه ثورة ١٩١٩ مع فاروق تقدم الوعى، والتنظيم مصريا وعربياً وعالمياً.. كانت ثورة تتجمع وتستعد من خلال ممارسة ثورية

فعلية وكان لابد من وجهة نظر الاستعمار العالمي أن تجهض وأن تضرب هذه الثورة، قبل أن تلد تنظيمها وترسخ جذورها.. وجاء «حريق القاهرة» الذى ربما كان آخر ضربة لأخبث جهاز مخابرات، أول عملية كبيرة للـ وووو أو من فعلها معاً. لا أحد يجزم، ولا ندرى إن كنا سنعرف أم لا؟ لأنها أقذر من أن يعترفوا بها، ولأن المخابرات البريطانية لا ملفات لها وعملياتها لا تنشر ولو بعد ألف عام.

انقلاب يوليو بالأمريكاني:

على مدى ثلاث وسبعين صفحة.. هى كل عدد صفحات الفصل الذى خصصه الكاتب للحديث عن علاقة عبد الناصر وثورة يوليو بالمخابرات الأمريكية.. وذلك مستنداً على كل كبيرة وصغيرة مما أخرجته وتخرجه المخابرات الأمريكية من وثائق ومؤلفات يكتبها أغلب العاملين بها.. ولقد اختار المؤلف لهذا الفصل عنواناً يقول: «فى البدء جاء الأمريكان».. وذيله بعبارة منسوبة لخالد محيى الدين تقول.. الصلة بين الضباط الأحرار (....) وأمريكا بدأت فى مارس عام ١٩٥٢..

على أية حال.. سنحاول من خلال هذه المساحة أن نسوق بعض ما ذكره المؤلف حول هذا الموضوع الهام والخطير. وما يتبقى عليك أنت عزيزى القارىء إلا أن تواصل البحث والتدقيق لنصل جميعاً إلا لب الحقيقة الخطيرة.. سواء بقراءة هذا الكتاب أو باللجوء لغيره من الكتب السياسية التى تخدم الموضوع الذى نتحدث عنه.

إذا كانت جوقة الناصريين والخاضعين لابتزاز هيكل قد استطاعت مستغلة جهل قارئيها، أن تصورنى وكأنى أنا الذى اكتشفت البارود، أعنى علاقة انقلاب يوليو بالأمريكان، فذلك شرف لا أدعيه وتهمة لا أنكرها. فلست من الغرور بحيث أسكت على هذا الادعاء مغتبطاً به، ولست أيضاً شديد التواضع إلى الحد الذى يدفعنى لإنكار ما ساهمت فى نشره وتطويره.. فالحق أنه لا تكاد توجد وثيقة أو حكاية تتعرض لتاريخ انقلاب يوليو إلا وأشارت إلى علاقة هذا الانقلاب بالمخابرات الأمريكية، كأمر مفروغ منه، لا يحتاج إلى نقاش أو إثبات، وبعض الدراسات عن تلك الفترة أو عن نشاط المخابرات الأمريكية بصفة عامة تورد هذه الحقيقة فى الهامش، تماماً كما يتعرض أى مصدر محترم لما يسمى بالثورة العربية أو حركة الشريف حسين فى الحرب العالمية الأولى. فإن هذه المصادر أو الدراسة لا تجد نفسها مطالبة بتسويد الصفحات لإثبات علاقة تلك الثورة بالمخابرات البريطانية. وخاصة أن لورنس وعلاقته بتلك الثورة أشهر من الشريف حسين نفسه.

نوعية المصادر وتعددها:

هذه المقدمة الشيقة.. التى تفتح شهية كل قارىء لمتابعة القول القادم.. تجعلنا نحاول ومن خلال بقية حديث المؤلف تتبع المصادر والوثائق التى استند إليها الكاتب فى قوله السابق. ولعلها فرصة طيبة لنعلم ونعرف منه الشىء الكثير.. وربما يضيق بنا المقام هنا.. ولذا سيجدنى القارىء فى كثير من الأحوال ألجأ إلى الاختصار دون الإسهاب الموجود فى الكتاب الذى بين أيدينا. ودون أن يمس جوهر الموضوع.

أول هذه المصادر: الرواية الإنجليزية «امرأة من القاهرة» تأليف نويل باربر.. والتى حصل عليها المؤلف مصادفة من مكتبة فى مطار لندن.

وتقول سطور المؤلف عن هذه الرواية: إنها رواية تاريخية عن القاهرة من عام ١٩١٩ إلى ما بعد ثورة يوليو. ولقد لفت انتباهى (ومازال الحديث على لسان مؤلفنا جلال كشك). ادعاءان جاءا عرضاً فى سياق فصول الرواية:

الأول: أن طائرة عزيز المصرى لم تسقط بسبب خطأ الميكانيكى الذى أعدها والذى يقال: إنه نسى وأغلق مفتاح الزيت بدلاً من فتحه! بل يقول «باربر» إن المخابرات البريطانية هى التى دبرت عن طريق عميل لها كان معهم، إسقاط الطائرة التى كان يقودها ذو الفقار صبرى شقيق على صبرى الذى تحيط به ألف علامة استفهام.

الثانى: قوله أن «ناصر» كان على اتصال بضابط المخابرات الأمريكية ستيفنسون خلال الحرب العالمية الثانية.

وحتى لا يبدو الأمر بالنسبة لكاتبنا مجرد تصديق كاتب روائى.. فهو يحرص على القول بأن «الحق أن الأمر يبدو أكبر مما نحاول إثباته.. ومع ذلك فأنا لا آخذ ما جاء فى الرواية كدليل بل مجرد قرينة، ففى الروايات التاريخية يسمح بالخيال ولكن فى حدود الممكن بالنسبة للشخصية التاريخية.

جانب آخر هام يشير إليه المؤلف جلال كشك بالنسبة لهذه النقطة بالذات قوله: إننى لست الوحيد الذى أثار هذه القضية ولا حتى الأول، بل إنها خرجت من كتب التاريخ لتأخذ مكانها فى الفن والقصص والفلكلور كبديهية مسلم بها.

ثورة يوليو الأمريكية
علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية[٤]

وفى نطاق الحديث عن قرب أو بعد الثورة أو الانقلاب بالمخابرات الأمريكية يقول المؤلف فى موضع آخر عن هذا الفصل، وفى هذا المجال أخيراً يمكن البحث عن الدور الخاص والمسئولية المتميزة التى ألقيت على عاتق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية!

الولايات المتحدة فى شوق إلى تصفية النفوذ البريطانى فى مصر وأداتها فى ذلك المخابرات الأمريكية وفجأة يصل إلى الحكم فتية آمنوا بأمريكا ويستخفون ببريطانيا تحيط بهم شبهة الاتصالات بالمخابرات الأمريكية من فوقهم ومن تحتهم ثم لا تفسير لهذه المصادفة السعيدة.

ودراويش الناصرية قالوا: أن القصد السيىء كان فعلاً فى نية أمريكا، ولكن مقاومة وصلابة الشعب المصرى منعت حدوثه، بل أصابت الأمريكان بقارعة هى ثورة يوليو!!

ينقلنا الكاتب إلى الحديث عن دليل آخر من الدلائل القوية التى استند عليها فى حديثه عن علاقة ثورة يوليو بالمخابرات الأمريكية. وعن ذلك يقول: «... ولا أظن أن القارىء لكتاب لعبة الأمم، وما كتب عنه فى الصحف الأمريكية والعالمية كان

---

(٤) الحلقة الرابعة نشرت بالوفد بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٨٩.

بحاجة إلى طرح هذا السؤال البسيط فالرجل «يقصد مايلز كوبلاند»، قد عرف بنفسه وبوظائفه والمهمات التي عهد له بها، واتصالاته في مصر مع هيكل وعبد الناصر والعديد من المسئولين المصريين. وكلها أسماء رسمية ذات صفة عليا في الجهازين الأمريكي والمصري..» وفي موضع آخر من هذا الحديث يقول المؤلف.. يقول هيكل «مايلز كوبلاند ــ وهو يعترف بذلك في كتابه ــ أحد موظفي إدارة المخابرات المركزية الأمريكية الذين عملوا في مصر فترة من الزمن»:

صحيح.. وهذا ما قاله الرجل وافتخر به، بل قدمه كوثيقة ودليل على صدق معلوماته. ولكن هيكل يقفز فوق (والكلام لا يزال للكاتب) هذه الحقيقة ليستنتج أنه لا يمكن أن يؤلف وينشر إلا بموافقة المخابرات الأمريكية، وبالتالي فالهدف هو تلطيخ سمعة جمال عبد الناصر كجزء من حملة «الدعاية السوداء» كما يسمونها ضد الثورة وقائدها!!

على أن الأدلة التي أوردها السيد هيكل، وهو طرف مباشر في الموضوع تؤكد صحة المعلومات التي أوردها مايلز كوبلاند، ولا تضعفها فضلاً عن أن تنفيها لهذه الأسباب:

● الرجل كان موظفاً في المخابرات الأمريكية، وليس موظفاً عادياً ــ ولولا أنه كان موظفاً في المخابرات وليس عميلاً لما كان لكتابه أو شهاداته هذه الأهمية.

● الرجل على صلة بالحكومة المصرية التي تعتبر مسئولة ولو أدبياً عن الحفاظ على مستوى معيشته.

المخابرات الأمريكية والسماح بنشر الكتاب:

● ويبقى السؤال: لماذا سمحت المخابرات الأمريكية بنشر هذا الكتاب؟ ويبادر هيكل فيسد علينا الطريق لطرح إجابة.. إنها مؤامرة لتشويه سمعة الزعيم.. ونحن لا نرفض أبداً هذا التفسير، بل بالعكس نجد أنه محتمل جداًأنه محتمل جداً. فالعلاقات منذ عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ كانت قد تدهورت بين القاهرة وواشنطون والأجهزة الأمريكية المؤيدة لناصر كانت قد هُزمت أمام الأجهزة النفطية والإسرائيلية والبيروقراطية المعادية لنظام حكمه. وكانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرار تحجيمه إن لم يكن إسقاطه.

الأسماء المصرية التي أوردها الكتاب:

وتأمل كل الأسماء التي وردت في كتاب «لعبة الأمم» كمتصلين بالمخابرات الأمريكية تجدها مازالت بعد ١٩٦٩ في مكانها على القمة أو عادت للتألق بعد فترة خفوت.

خذ مثلاً «حسن التهامي» الذي يعد من الحلقة الضيقة التي كانت تعرف كل شيء والتي تعاونت تعاوناً مطلقاً مع المخابرات الأمريكية وبالذات مع مايلز كوبلاند.. حتى إنه هو الذي تسلم وعد الثلاثة الملايين دولار التي قدمت رشوة أو هدية للزعيم الخالد. لقد جاء حسن التهامي بعد النكسة، لكي يعيد ترميم الجسور مع القوى الخفية التي ساندت النظام أطول مدة ممكنة إلى أن استحال عليها الدفاع عنه.. وها هو عبد الناصر يثبت أنه مستعد للحوار رغم ما فعلوه فيه بحرب ١٩٦٧.

خبير الانقلابات في القاهرة:

ونعود إلى حديث كتاب لعبة الأمم وتعليق الكاتب على ما جاء به من وقائع وهو نفسه يقول: أما إن الأوان أن نترك ثرثرة هيكل ونعود إلى الجذور وحديث المعلمين لا الصبيان؟!

لقد شاعت رائحة الدور الأمريكي منذ اللحظات الأولى للانقلاب ــ عندما رأى الناس السفير الأمريكي «جيفرسون كافري» خبير الانقلابات كما عرف منذ تعيينه في القاهرة

وكتبت عنه الصحف التقدمية، رأوه يتصرف كعراف النظام الجديد، ويشرف على ترحيل الملك فاروق ويتعهد بسلامته، ثم ربطوا ذلك بما كتبه الصحفى الأمريكى الوثيق الصلة بالمخابرات الأمريكية فى صحف أمريكا قبل ٢٣ يوليو عن انقلاب عسكرى قادم من مصر.

ونصل فى حديثنا هذا مع المؤلف إلى الفصل الرابع، حيث يحدثنا تحت عنوان له يقول «حكاية أول زعيم».

وبداية يحلو له أن يوضح لنا نقطة هامة.. وهى أن المخابرات الأمريكية ظلت تبحث طويلاً عن أرض خصبة تبدأ منها التغلغل بالنفوذ إلى المنطقة كلها.. غير مكتفية بإقامة إسرائيل.. بل أخذت تبحث جيداً عن تلك الأرض التى تبدأ فيها الانقلاب وتسانده بكل قوة.. وعن ذلك يقول: نعود لقصة مايلز كوبلاند عن البحث عن بلد ينفذون فيه انقلابهم قال: كانت العراق هى الاحتمال الأول لكونها دولة بوليسية ولكن العراق كان البلد الذى يستحيل فيه على فريق سياسى مدرب أن يهمس بدون علم البريطانيين، أما السعودية فلم تكن ناضجة بعد للديمقراطية.. لبنان ـ مصر ـ استبعدتا لأسباب أخرى.. وهكذا لم يكن أمامنا سوى سوريا.

البحث عن قائد حقيقى فى مصر:

ونصل معاً ومع المؤلف إلى لب الحكاية القذرة التى دبرتها المخابرات الأمريكية لتوسيع قاعدة وجودها فى العالم العربى.. يقول المؤلف جلال كشك «ابحث عن لاعب حقيقى وليس مخلب قط» هذا عنوان الفصل الذى يتحدث فيه عن عمليتهم فى مصر هكذا بوضوح وصراحة.. ولكن البعض لايؤمن حتى يدخل الأصبع فى جرحهم هم.

وفى موضع آخر يقول: «فى مطلع ١٩٥٢ أعدت لجنة الخبراء تقريراً كاملاً عن لعبة الأمم فى الشرق الأوسط ـ وأصبحنا مستعدين لعملية كبيرة، وكان الضغط الدولى كبيراً بحيث رأينا أنه لايمكن تأجيل العمل أكثر من ذلك».

وفى النهاية أستقرا رأينا على أن مصر هى نقطة الانطلاق، فقد كانت مصر بلداً تستحق الأولوية فى حد ذاتها ولنفوذها على الدول العربية الأخرى مما يجعل أى تحول فيها للأحسن سيكون له صداه فى العالم العربى.

وكان فى رأينا أن العملية ليست أكثر من «زقة» ليس فقط لطبيعة الأهالى وسياستهم بل لأنه كان لنا بعض المدبرين الذين ثبتت خبرتهم ولهم معرفة جيدة بالبلد بما فيهم «كيرميت روزفلت نفسه».

الدبة والزعيم ورسالة مصطفى أمين:

اعتقل مصطفى أمين فى عام ١٩٦٥ عندما وصلت العلاقات الناصرية الأمريكية إلى الصفر ـ وكان عبدالناصر قد ضاق باللعبة مع الأمريكان وتدهورت أسهمه فى بورصة الحرب الباردة وصراع النفوذ، فقبض الأمريكان يدهم، واستبد به الروس وحز فى نفسه تصرف مصطفى أمين ونسى ما فعله مصطفى أمين، من أجله وما فعله هو بمصطفى أمين فأمر باعتقاله بتهمة التجسس.

عبد الناصر وبداية العداء بينه وبين أمريكا:

ولو أن خلاف ناصر مع الولايات المتحدة، لا يقع زمنياً فى إطار هذا الكتاب، إلا أننى وجدت من الضرورى أن أعرض بإيجاز لتطورات هذا الانفصال، حتى تكتمل ملامح الصورة.. فكما قلنا.. كانت نقطة الخطأ هى فى قبول دور المكنسة لصالح أمريكا أو قبول التعاون والتعامل من خلال المخابرات، الأمر الذى أدى إلى محاولة تغطيته بخلق معارك إعلامية ضد الولايات المتحدة وسياستها المعلنة، وبالتالى إعطاء القوى المعادية لمصر مادة لإثارة المؤسسات الدستورية والرأى العام فى أمريكا ضد مصر وعبدالناصر، وما يتبع ذلك من ردود فعل. وبعد صفقة السلاح، كانت هذه القوى المعادية تتشكل أساساً من بريطانيا وإسرائيل. ورغم موافقة الـ C.I.A على صفقة السلاح، بل وقبولها من جانب القيادات العليا فى أمريكا، والاتفاق التام بين عبدالناصر والمسئولين الأمريكيين سراً وعلناً على أن هذه الصفقة لن تؤثر على العلاقات الطيبة بين النظام المصرى وواشنطن، بل والأمل فى استثمار الصفقة لتحقيق هدف إيجابى وهو تبرير الموقف مع إسرائيل أو إعطاء دفعة للجهود الأمريكية التى كانت جارية فى هذا الوقت لعقد صلح مع إسرائيل مع كل الآمال المعلقة على النظام الناصرى فى جر النظم العربية إلى هذا الصلح. وكان يمكن أن تستمر هذه الآمال وتلك الجهود لولا عاملان:

- الجماهير العربية التى تعادى أمريكا، بوعيها الفطرى السليم وبحكم تناقض مصالحها مباشرة مع المصالح الأمريكية أو من خلال الدعم الأمريكى للاحتلال الصهيونى للأرض العربية فى فلسطين. هذه الجماهير رأت فى صفقة السلاح عملاً معادياً للولايات المتحدة وخروجاً من دائرة نفوذها، فانفجر تأييدها معبراً عن هذا الفهم، راغباً فى المزيد.. فارضاً على ناصر هالة من الوطنية المعادية لأمريكا، لم تكن فى نيته ولا رغبته.
- أما العامل الثانى والأهم فهو أعداء ناصر فى تلك المرحلة: الإسرائيليون والإنجليز. ويؤكد الكاتب على هذا المعنى فى موضع آخر من هذا الفصل قائلاً: إننا نؤكد هنا أننا يجب أن نرفض أى ادعاء بأن الخلاف بين عبدالناصر والأمريكان كان بسبب مواقفه التحررية أو

معارضته لسياستهم الامبريالية، وإنما هو أساساً حول أسلوب معاملتهم وانتصار المدرسة الإسرائيلية فى الإدارة الأمريكية.

كل القرارات لصالح اسرائيل:

ونقترب رويداً رويداً من قلب ورأس فكر الكاتب جلال كشك، إذ نصل معه فى الفصل السادس، حيث يحدثنا عن المواجهة التى تمت بين العرب وإسرائيل.. كل ذلك يقوله لنا تحت عنوان «كل القرارات لصالح إسرائيل». ثم يقول أيضاً «.. لو كان الذى يحكم مصر يهودياً.. لما خدم إسرائيل بأكثر مما فعل عبدالناصر». وهو يحاول تأييداً هذا الرأى والاستعانة بالحوادث التاريخية التى يدلل بها على ما وصل إليه.. ونحن معه.. وكما ذكرت نسير خطوة خطوة حتى نلم بتفاصيل الموضوع الذى يحدثنا عنه خلال هذا الفصل.

حرب السويس بين الهزيمة والنصر:

يبدأ الكاتب حديثه عن هذا الجانب بقوله: «يأسف هيكل فى قصة السويس» لأن الذكرى العشرين لما يسميه حرب السويس قد مرت دون أن نحتفل بها كما يجب. ويرى أن السبب هو «أن التقويم السياسى الجديد فى مصر يعتبر حربها هزيمة ضمن الهزائم التى لحقت بالعرب فى مواجهتهم المستمرة مع إسرائيل وذلك خلط بلا نهاية». ولذلك قرر هو أن يحيى ذكرى هذه الحرب وله الحق، فقصة حرب سيناء كانت نموذجاً للتضليل الإعلامى الذى دفعت الأمة العربية ثمنه فادحاً بعد عشر سنوات. ويشكو فاتح ملفات السويس: ومما يثير العجب فعلاً، أن هناك فى مصر من وصفوا السويس بأنها كانت هزيمة، فى الوقت الذى يعتبر فيه شركاء العدوان الكبار على مصر بريطانيا وفرنسا، أنهم هزموا فى السويس، وأن موقعتها الكبرى كانت نهاية الامبراطورية بالنسبة لهما. ولقد كانت النقطة التى اختل فيها التوازن هى الخشية من نسبة السويس إلى جمال عبدالناصر.

تأميم القناة والغزوة الإسرائيلية:

ينوه الكاتب إلى ضرورة التفريق الحذر بين قضيتين هامتين ومرتبطين بالتاريخ المصرى الحديث هما.. الخلط بين قضية تأميم قناة السويس ومحاولة بريطانيا وفرنسا إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء والرجوع إلى منطقة الشرق الأوسط هذا من جهة وبين الغزوة الإسرائيلية كجزء من المواجهة المستمرة بين العرب وإسرائيل من جهة أخرى.

فتأميم القناة إجراء وطنى مصرى تمتد جذوره إلى منتصف القرن التاسع عشر.. حيث كان هذا التأميم إجراء وطنياً فى مواجهة النظام الاستعمارى القديم. أما الغزوة الإسرائيلية وإن تمت تحت المظلة الانجلو ـ فرنسية فكانت منعطفاً جديداً ونقطة تحول ذات أبعاد حاسمة وشديدة

الخطورة، قلبت موازين الصراع العربى الإسرائيلى وحكمت السلوك العربى خلال السنوات العشر القادمة مما مهد بل حتم هزيمة يونيو عام ١٩٦٧.

إسرائيل لا كانت فى شركة قناة السويس ولا كانت تريد إرجاع الشركة، ولا مصلحة لها فى أن تكون قناة السويس محتمية بالمساهمين الإنجليز والفرنسيين، وإسرائيل لم تكن تمر فى قناة السويس فى عهد الشركة الأجنبية.. ولم تستطع أن تمر لا فى الخليج ولا فى القناة قبل الثورة حتى فتح لها عبد الناصر الخليج وفتح لها رفيقه ونائبه السادات القناة.

عبد الناصر وأسطورة باندونج:

وينقلنا المؤلف الواعى للحديث خلال هذا الفصل عن الأمجاد الشخصية التى اصطنعها عبد الناصر لنفسه على حساب وطنه. ويالها من معادلة غريبة وعجيبة، تترك فى النفس التساؤل المشوب باللوعة.. إذ كيف نهتم بالمؤتمرات والانتصارات الشخصية للزعيم حتى ولو كانت على حساب البلد الأمين.. ولنسمع قول بن جوريون الذى نقله لنا المؤلف لنعرف مدى الفرق بين هؤلاء الذين يسعون لمجد شخصى والذين يحاولون بناء الوطن من أى شىء. فهو يقول عن هذه النقطة بالذات.. وقد قرأنا تحليل جولدا مائير عن بن جوريون وأنه لم يكن يهتم إلا بما يضيف للقوة اليهودية المادية ولا يهتم قلامة ظفر بالمؤتمرات الدولية والصحافة العالمية.

رواية مثيرة:

ولن نتمسك كثيراً بالرواية المثيرة التى أثبتها مايلز كوبلاند والتى تزعم أن خطة عمل الوفد المصرى فى مؤتمر باندونج وضعها خبراء واشنطن.. وراجعها ونقحها رجال المخابرات الأمريكية فى القاهرة. ومع ذلك فلا بأس من إثبات ما رواه قائلاً: قبل سفر عبد الناصر إلى باندونج كان أصدقاؤه الأمريكان منتعشين وكانوا أيضاً يشجعونه على الاعتقاد بأنه سيجد لنفسه مكاناً فى نادى الكبار.

ثورة ٢٣ يوليو
وعلاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية(٥)

حين يقع بين يديك كتاب، يمثل بالنسبة لك أهمية خاصة.. مؤكد أنك لاتريد الانتهاء منه بالسرعة المعهودة.. لأنه يغذيك بالمعلومة التى أنت فى حاجة إليها دوماً، والتى ربما لا تجدها بعد أن تترك هذا الكتاب.. هأنذا بالضبط مثلك فى مثل هذا الموقف، فقد قاربت الرحلة على النهاية، وأصبحت بين قاب قوسين أو أدنى مع المؤلف جلال كشك.. وكتابه «ثورة يوليو الأمريكية»، ولست فى حاجة، ولا أنتم، إلى إثبات ما سبق قوله فى أول حلقة من أننا ننشد الحياد مع المؤرخ للحصول على المعلومة المجردة من الأهواء الشخصية، اللهم إلا إضافة هامة لشىء جديد يدخل حياتنا الفكرية وبالطبع قابل للنقاش والرد.

على أية حال.. ماقصدت قوله.. أننا أصبحنا على مشارف الصفحات الأخيرة من الكتاب الذى عرضنا ونعرض له هنا على مدى الحلقات السابقة، وبقى لنا مع المؤلف من رحلته الشىء القليل، والمساحة المتبقية التى تحكم تحركنا خلال لحظات هذا اللقاء، وحمداً لله أننا وفقنا فى نقل أكبر مساحة من الكتاب حتى وصلنا معاً إلى الفصل الثامن وعنوانه «روسى وأمريكى ع الدفة».

---

(٥) الحلقة الخامسة من الكتاب ونشرت بالوفد بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٨٩.

أين الشجاعة في هذا المؤتمر؟ :

ومع ذلك نسأل أية شجاعة أو غرابة في الاشتراك في هذا المؤتمر؟! المؤتمر اشتركت فيه كل من سوريا ولبنان والسودان والعراق والأردن والسعودية وليبيا واليمن ؟! أي أن جميع الدول العربية المستقلة وقتها والمرتبطة بمعاهدات أو قواعد سواء مع بريطانيا أو أمريكا.. فلماذا يكون اشتراك مصر عجباً وحده؟! وبالإنجاز التاريخي والتحول العالمي.. والموقف الوطني الذي تجلى بمجرد السفر إلى باندونج ؟

سيقول الناصري.. ليس المهم الاشتراك.. وإنما المهم المكانة البارزة التي كانت لعبد الناصر في المؤتمر!!

وهذه المكانة هي من شقين: شق من صنع الإعلام المصري الذي قال عنه سلوين لويد إن «جوبلز يحسد عبدالناصر» وكانت هذه تلميحة منه للخبراء الألمان الذين جاءت بهم المخابرات الأمريكية لمساعدة الإعلام المصري والذي يمكن القول بأنه كان أقوى إعلام في تلك الفترة في العالم الثالث كله.

والهدف رفع شعبية عبدالناصر على حساب الأحداث:

وكان الهدف من وراء ذلك رفع شعبية عبدالناصر بعد اتفاقية الجلاء وتأكد انفصال السودان ومذبحة الإخوان المسلمين وتحويل الوطن إلى سجن كبير لشتى القوى السياسية من اليمين إلى اليسار.. وقصة الخلاف حول تنظيم الاستقبال الشعبي للقائد من باندونج معروفة، وقد طارت فيها رأس جمال سالم الذي كان نائباً لرئيس الوزراء.. أي حاكم مصر في غياب عبدالناصر أو هكذا كان يعتقد!! وأراد أن يكون استقبال عبدالناصر عند عودته من باندونج استقبالاً عفوياً وبمبادرة الجماهير.. وكان ذلك يعني أن عبدالناصر سيصل للمطار ويتوجه إلى بيته دون أن يدري أحد، كما حدث لكل الوفود التي شاركت في المؤتمر..

السبب الحقيقى:

هذا عن العنصر الأول .. فى أسطورة نجم باندونج .. أما العنصر الثانى والحقيقى فهو مكانة مصر التى جعلت نهرو خلال زيارته لمصر يتحدى عبد الناصر ويصر على مقابلة الرئيس مصطفى النحاس المحددة إقامته وقتها .. ولكنه كما قال «إن الحركة الوطنية فى الهند تتلمذت على حزب الوفد» .

هيكل وقصة تأميم القناة:

يقول الكاتب .. الاجتهادات حول الوقت الذى طرأت فيه فكرة تأميم شركة القناة على خاطر عبد الناصر كثيرة ومتباينة ، ومتفاوتة الذكاء والإسفاف أيضاً ــ ومن هذا النوع الأخير زعم هيكل أنه هو الذى أوحى لعبد الناصر بتأميم القناة ، على الأقل أن الفكرة خطرت لهما فى وقت واحد !! وإليك رواية هيكل :

استيقظ محمد حسنين هيكل صباح ٢١ يوليو وقناة السويس فى رأسه .. واتصلت به «الماء تعود على عبد الناصر» .. تليفونياً فى غرفة نومه ، وكانت الساعة الثامنة والربع صباحاً وتبادلنا حديثاً عادياً مما يتبادله الأصدقاء فى الصباح ، ثم قلت له «إننى فكرت طويلاً فيما تستطيع أن تفعله إزاء القرار الأمريكى» وقال : «اللى هو عبد الناصر» ــ وهل توصلت إلى شىء .

وقلت : هل تذكر ما كنت تقوله عن انتظار فرصة ملائمة للتقدم فيها بطلبنا للمشاركة والحصول على نصف الدخل ؟!

وأغلب الظن أن عبد الناصر وصل للقرار عقب سحب تمويل السد العالى وما أحاط به من صورة قاتمة ، إذ اعتبر فى الدوائر المعنية قراراً بسحب الثقة من عبد الناصر وأن أمريكا لا يمكن أن تعامله بهذا الشكل إلا إذا افترضنا أنه حالة ميئوس منها أو كما صور هيكل الموقف بأنه بعد سحب تمويل السد العالى جاءت النهاية وأوشك الستار أن ينزل على قصة عصر عبد الناصر وصعوده فى الشرق الأوسط .

أمريكا والسد العالى:

ومهما يبدُ ذلك غريباً الآن فقد كان الشعور وقتها .. أن الامريكان قرروا فعلاً إسقاط عبد الناصر وأنهم قادرون على ذلك باعتبار دورهم فى ظهوره واستمراره .. فكان لابد من إجراء «دراماتيكى» يجبر ادارة المسرح على استمرار رفع الستار ، ويبقى المتفرجون فى مقاعدهم بمنطق الممثلين الذى يحكى به هيكل .

والدليل على إن القرار كان مفاجئاً أنه لم تكن هناك دراسات جادة لردود الفعل الممكنة فى بريطانيا وفرنسا .

ولكننا إذا قلنا أن القرار كان مفاجئاً وكرد فعل على سحب تمويل السد العالى فإننا نؤكد أن الفكرة ذاتها كانت دائماً فى رأس جمال عبدالناصر وكانت على رأس قائمة المنجزات التى حلم بتحقيقها حتى قبل أن يصل إلى السلطة .

تأميم القناة قبل عبدالناصر:

لقد كانت القناة بوضعها قبل التأميم نموذجاً للامبريالية فى أبشع صورة وما كان يمكن أن تستمر لحظة واحدة فى بلد مستقل ، بل كان تأميمها يقترن دائماً فى خاطر الحركة الوطنية بتحقيق الجلاء .

- منشورات فتحى الرملى وهو اشتراكى من الرواد المصريين ومن الأوائل الذين تنبهوا إلى خطورة التغلغل اليهودى فى الحركة الشيوعية المصرية .
- برنامج الحزب الاشتراكى بزعامة أحمد حسين .
- برنامج الحزب الشيوعى المصرى الصادر عام ١٩٥٠ .
- كتاب «الجبهة الشعبية» لمحمد جلال كشك الصادر عام ١٩٥١ والذى حكمت المحكمة بمصادرته لدعوته إلى قلب نظام الحكم القائم وقتها ، أما مصطفى الحفناوى فلم يطرح قط مطلب التأميم ولما بلغه عبدالناصر بالقرار إصابه الهلع وقال لعبدالناصر إنه يسمع باذنيه أزيز الطائرات التى ستهجم علينا !

تأميم القناة إذن ، كان مطلباً وطنياً مصرياً ، بل على رأس الأمانى المصرية .. وعبدالناصر كان مصرياً وطنياً وقائداً وزعيماً عندما اتخذ هذا القرار، الذى لا ينتقص من شأنه الغزو الانجلو فرنسى .. حتى ولو انتصر الغزاة واستردوا القناة ، بل احتلوا مصر لفاز عبدالناصر بمكانة وتقدير المصريين لأحمد عرابى على الأقل ، فالوطنية ليست جائزة تمنح للمنتصرين وحدهم .

أمريكا وإنجاح التأميم :

والقضية التى سننتقل إليها ، هى دور «الكارت» الأمريكى فى نجاح عملية التأميم وهزيمة بريطانيا وفرنسا .. فقد خاضت الولايات المتحدة كما سنرى معركة ضد بريطانيا وفرنسا على جميع المستويات وراء الكواليس ، وأمام منبر الأمم المتحدة ، وفى المؤتمرات الصحفية ، وفى اجتماعات حلف الاطلنطى ، وفى المظاهرات الانتخابية ، وتعاونت مع الاتحاد السوفييتى لأول

مرة منذ قيام إسرائيل، تعاوناً مثيراً، ولكن لا يجوز أن نحمل التناقض الامريكى ـ البريطانى ـ وحده الفضل فى النصر المصرى ولا أن يكون هذا الدور الأمريكى هو مجرد عامل مساعد، مهما كانت أهميته، أما النتيجة الحاسمة والدائمة فتقررها العوامل المحلية.

فالاعتماد على القوى العالمية أو وضعها فى الحساب ممكن، بل ضرورى أحياناً.. شرط أن يكون واضحاً أن الكلمة الحاسمة هى للقوى الذاتية أو المحلية.. وبنفس القوة لا يجوز أن نزور التاريخ ونتعامى عن الحقائق مما يؤدى إلى الجهل والتجهيل ليس فقط بتاريخنا بل لحساب المستقبل، ومن ثم فعندما يصر هيكل على أن أمريكا كانت الشريك الرابع لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى معركة القناة.. علينا أن نتحسس رءوسنا ونتساءل ماذا يقصد؟ وماذا يريد أن يخفى بهذا التزوير المفضوح؟!

نحن لا نحتاج إلى تزوير التاريخ إلا لأننا نكره الاستعمار الأمريكى.. ولكن هيكل وأمثاله يريدون أن يخفوا حقيقة يفزعهم ظهورها، وهى أن المصالح الأمريكية والروابط الأمريكية كانت موجودة وملتقية مع السياسة الناصرية فى الفترة من ١٩٥٢ وربما إلى عام ١٩٦٥ بدرجات متفاوتة.

الهجوم الإسرائيلى والإنذار البريطانى:

إن الفترة من ١٢ أكتوبر حتى ٢٩ منه، معروفة: فقد كان موعد المفاوضات المقبلة هو نفس اليوم الذى تحدد فيه الهجوم.. حيث وقع الهجوم الإسرائيلى والإنذار البريطانى، وألقى كل طرف باللثام وكشف عن نواجذه.. فهى الحرب. لقد أصبحت المعركة علنية وصريحة ومريرة بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا من الجانب الآخر، ولم تشفع لهما مشاركة إسرائيل، بل العكس هل إثمهما وكراهيتها على إسرائيل بنت أمريكا وكانت أول وآخر مرة تقف فيها أمريكا ضد إسرائيل بهذا الوضوح والجدية.

أمريكا تندد بالعدوان وتساند مصر:

فور العدوان أعلن ايزنهاور ـ رئيس أمريكا ـ أنه سيقف إلى جانب مصر وطلب من القائم بالأعمال البريطانى أن يبلغ ذلك لحكومته، وفسر هذا الموقف بأنه للحفاظ على شرف ومصداقية أمريكا حيث إن سمعتها أصبحت على المحك وذلك بحكم ارتباطها بالتصريح الثلاثى الذى يتعهد بالدفاع عن المعتدى عليه فى الشرق الأوسط، ولكن الأهم من الشرف والمصداقية كان هذا القرار الأكثر حسماً.. وهو قول ايزنهاور «أن الذين بدءوا هذه العملية عليهم أن يجدوا نفطهم»، ولما سأل دالاس: ومن أين سيحصلون على النفط فرد عليه: ربما يعتقدون أننا

سنضطر إلى تزويدهم به ، كان جواب ايزنهاور حاداً وقاسياً : إنهم لا قيمة لهم كحلفاء مخاتلين ، بل ربما كانت قيمتهم لنا أقل بكثير مما يعتقدون .

وهكذا ومنذ ٣٠ أكتوبر حتى قرار وقف إطلاق النار والانسحاب .. استخدم دالاس ومساعدوه المخلصون وسائل قاسية مع حلفائه .. وهى شن حملة مسعورة من الاستنكار والتنديد فى الأمم المتحدة ثم منع عن حلفائه إمدادات البترول .. لقد أدت الحرب التى شنها دالاس على حلفائه إلى إذلال هذه البلاد لصالح ناصر وصديقه الدائم الاتحاد السوفييتى !!

هزيمة فى المعارك ونصر فى الإذاعات :

إن أحداث عام ١٩٥٦ أثبتت أن العمالة بمفهوم التضحية بمصالح الوطن التزاماً بتوجيهات أمريكا أكثر انطباقاً على مصر الناصرية من إسرائيل ..

هكذا يبدأ كاتبنا جلال كشك فصله التاسع .. والذى ذكرت لكم عنوانه كعنوان فرعى سيدور خلفه ما يستجد من حديث .

ويبدأ القول المفيد فى هذا الفصل متسائلاً : كيف دارت المعركة على أرض سيناء فيما وصفه هيكل بأنه أكمل نصر فى الحروب المحدودة ، بل أكمل نصر عربى فى تاريخهم الحديث ؟

«فى الساعة الخامسة بعد الظهر تحرك لواء ميكانيكى إسرائيلى فى اتجاه الكونتيلا وعلى آخر ضوء تم إسقاط كتيبة مظلات إسرائيلية فى منطقة سدر الحيطان فى ممر متلا !!

أين كانت القيادة المصرية ؟! وكيف وصلها النبأ ؟ ومن الذى أبلغها النبأ ؟ اليد ترتجف والجبين يقطر خزيا وعاراً .. والقلب ينكسر ، ولعل ذلك ما قصد إليه هيكل فى إيراد هذه الرواية : كان جمال عبد الناصر ساعتها يشترك فى احتفال عيد ميلاد ابنه عبد الحميد وسلمت إليه برقية وكالة يونايتدبرس تنقل البيان الرسمى الإسرائيلى وقرأ عبد الناصر البرقية ثم ناولها إلى عبد الحكيم عامر ، وكان يحضر حفلة عيد الميلاد ، وخرج الاثنان من القاعة المليئة بالأطفال وتوجها إلى غرفة مكتب عبد الناصر ومن هناك راح عبد الحكيم عامر يتصل بمقر القيادة العسكرية المصرية فى كوبرى القبة .. ولم تكن الوحدات المصرية فى الميدان قد أبلغت بعد عن حدوث شىء !

ولولا وكالات الأنباء :

يعنى لو لم تصدر إسرائيل بلاغاً عسكرياً بهجومها وتوزعه على وكالات الأنباء وتحرضها على إبلاغه للعالم كله ، لو لم تفعل إسرائيل لاستمر الرئيس والقائد العام للقوات المسلحة بين

الأطفال أحباب الله إلى نهاية الحفل السعيد ثم انصرف إلى السهرة أو النوم أو قطع فروة صلاح سالم!

ولا يجوز إتهام إسرائيل بالغفلة فى إفشاء سر غزوها، لمن لا يريد أن يعلم، بل ذلك كان ضمن الاتفاق الانجلو ــ فرنسى ــ الإسرائيلى وهو أن تعلن إسرائيل أنها تشن حرباً.. وليس مجرد مناوشات، حتى يبدأ العد التنازلى لتنفيذ الجانب الانجلو ــ فرنسى ــ بتقديم الإنذار!

ومن المسئول؟:

لا اتصال بين القيادة والجبهة.. لا القيادة السياسية ولا القيادة العسكرية التى لم يكن لديها أى خبر من الوحدات المصرية فى الميدان، حتى بعد قطع التورتة وإذاعة وكالات الأنباء الخبر، لا مخابرات ولا أجهزة إلا إذا كان يتعلق بوفدى أو إخوانى أو شيوعى.. أو ضابط غير متجاوب فى الجيش، عندها يكون عند القيادة الخبر اليقين؟!

هيكل يحملها «للوحدات الميدانية» فهى التى لم تكن قد أبلغت شيئاً.. تبلغ من؟! القيادة التى لم تسمع ولم تعلم رغم مرور ساعتين على الإنزال وبعد صدور البلاغ الإسرائيلى الثانى.. لم يكن لها أى اتصال بالجبهة!! وحتى بعدما ذهبوا إلى القيادة وحضر بغدادى لم يكن الموقف قد عرف بعد على حقيقته حتى تلك اللحظة ولم تصل أخبار بعد عن نزول قوات مظليين فى سدر الحيطان!

وحتى بعدما وقع الغزو يقرّر هيكل أن عبدالناصر كان يستبعد من ذهنه احتمالات التواطؤ ثم إن الطريقة التى بدأت بها العملية لم تنقل إليه الإحساس بأنه أمام شىء خطير!! نحن إذن أمام خطأ فادح فى التقدير.. وإهمال جسيم فى الاستفادة من المعلومات بل التصرف على عكس ما تتطلبه تماماً.. مما أدى إلى إضعاف المقاومة المصرية وتسهيل مهمة العدو فى احتلال سيناء وتدمير جميع المنشآت فيها وتدمير السلاح الروسى وسلاح الطيران المصرى!!

ألم يكن سكوتنا عن مناقشة هذه الأخطاء عشر سنوات سبباً لتكرارها فى عام ١٩٦٧؟! أيجوز أن نستمر فى السكوت اليوم؟! وعندما تأكد أنه الغزو ماذا فعلت القيادة؟ اضطراب وتخبط وانقسام وزعل وأوامر متعارضة متضاربة كلها لصالح العدو!!

أسئلة تبحث عن إجابة:

يقول بغدادى إن عامر لم يقبل طلب ناصر أن يشرف بغدادى على الطيران ففضلت عدم إحراج نفسى ولا إيجاد مشاكل فى هذه الظروف خاصة أنه ليس هناك قرار واضح يحدد مسئوليتى مباشرة بالنسبة لهذا الشأن.

لا أحد يلوم عبد الناصر كثيراً على أنه لم يصدر أمراً بإقالة صدقى محمود فى هذه اللحظة وتشكيل مجلس عسكرى فى الموقع وإعدامه .. وإن كان الاحتياط يتطلب إحالته إلى التقاعد وتسليم السلاح لضباط محترفين .. لا لعبد اللطيف البغدادى الذى لم يتعرف على طائرة عسكرية منذ عام ١٩٥٢ ..

ولا أحد يلوم عبد الناصر كثيراً على أنه فى هذه اللحظة لم يسأل صدقى محمود : كيف تترك قاعدة تموين القاذفات بدون بنزين وهم يتوقعون غزواً .. بلاش إسرائيل حتى ولو كانت النسبة عشرة بالمائة ؟! وأين سيستخدم البنزين أفضل من تطيير الطائرات ؟! ولكن اللوم كل اللوم أنه لم يحاسبه بعد الهزيمة .. بل أبقاه ١١ سنة حتى فعلها فينا مرة أخرى عام ١٩٦٧ ؟! وربما نجح الإعلام « الهيكلى » فى تغطية حقيقة ما جرى فى سيناء عام ١٩٥٦ .. بل حقيقة ما جرى على صعيد المواجهة العربية الإسرائيلية .. ولذا لا أحد يهتم بمغزى عجز الطيران المصرى أو شلله خلال الـ ٢٤ ساعة الفاصلة فى مصير الشرق الأوسط ما بين الهجوم الإسرائيلى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر والإنذار البريطانى فى الرابعة من بعد ظهر يوم ٣٠ أكتوبر، لقد كان الطيران المصرى أقوى من الطيران الإسرائيلى والطيارون أفضل من زملائهم فى عام ١٩٦٧ .. والدليل على ذلك ما ذكره سلوين لويد من أن بن جوريون طلب منا تعهداً بتصفية السلاح الجوى المصرى قبل أن تتقدم قواته فى سيناء وإلا فإن مدن إسرائيل مثل تل أبيب ستمحى من الوجود !! إلى هذا الحد كان الرعب من مصر !! وبعد عشر سنوات من العمل الثورى وبناء قوة مصر والدخول فى عصر الحضارة ، تدمر إسرائيل الطيران المصرى بدون معاونة السلاح الجوى البريطانى !!

ويبقى السؤال : لماذا لم يقم طيارون بغارة على تل أبيب ومدن إسرائيل .. من الذى شل يد طيارينا عن تحقيق أمنية العرب العادلة ؟!

قرار الانسحاب عام ٥٦ بين عبد الناصر وعامر:

وفور التأكد من الهجوم الإسرائيلى أصدر عبد الناصر الأمر للجيش بعبور القناة شرقاً والتوجه إلى سيناء .. واتخذ عامر وضع الهجوم ، ومنذ هذه اللحظة تحولت القوات المصرية إلى حالة اندفاع إلى سيناء ، ولم يكن الوقت قد سمح لها بعد بتحقيق انتصارات ، ورغم الصعوبات الطبيعية التى واجهت تلك القوات ، حيث بدأت تأخذ مواقعها وتوزع مهماتها وتحاول تحديد مكان العدو .. وفجأة انقلب كل شىء رأساً على عقب .. حيث قرر الرئيس الانسحاب !! وكان جمال عبد الناصر فى مقر قيادة القوات المسلحة فى كوبرى القبة يواجه مواقف بالغة العنف .. دخل هو إلى القيادة وفى ذهنه الانسحاب الكامل من سيناء ضرورى حتى لا تقع كارثة كان يخشاها ويتحسب لها ، وكان عبد الحكيم يعارض قرار الانسحاب من سيناء !!

الفصل الخامس

أوراق فى الحب والاجتماع والاقتصاد

- النيل والمستقبل

عبد التواب عبد الحى

- وصف مصر بالعبرى

د. رفعت سيد أحمد

- الحب ....

تعريب فؤاد شاكر

- محنة الإقتصاد والإقتصاديين

د. حازم الببلاوى

- صاحب الجلالة التليفزيون

محسن محمد

- خطة التنمية الحكومية

د. ابراهيم العيسوى

النيل والمستقبل(١)

على هامش التقديم:

هذا الكتاب يضم رحلة فريدة بطول نهر النيل، من المنبع حتى المصب.. تعقيباً لإجابة عن سؤال مفعم بلهفة الحياة: هل يفيض النيل.. كل عام.. أو يغيض؟! مشيت ٦٧٠٠ كم بطول النهر، واستعنت بـ٣٧ مرجعاً وبحثاً علمياً، لأصل إلى نتيجة: أن الجفاف احتمال مقيم.. رغم فيضان هذا العام الذى جاء استثناء على قاعدة الشح العظيم!

وقد تعرض الكتاب، أثناء الطبع للمنع من النشر.. بخطاب أرسله المهندس عصام راضى وزير الاشغال والموارد المائية، إلى الناشر.. فيه يدعى أن الكتاب «يضر بمصالح مصر وعلاقاتها بدول النيل»! كما أرسل خطاباً مشابهاً إلى اللواء محمد نمر، مدير المخابرات العامة، الذى طلب الاطلاع على أصول الكتاب!

ووجه الحقيقة أننى فى تقصى أسباب انفجار الحديث عن الجفاف فى مصر ــ نوفبر ٨٧ ــ إثر تحقيق «التايمز» الذى كتبه مراسلها فى القاهرة «ايان موراى» استناداً إلى تقرير المكتب الاستشارى البريطانى ميردوخ ماكدونالد».. اكتشفت أن الذى سرب التقرير إلى مراسل «التايمز» هو د. عبدالهادى راضى ابن شقيق الوزير، والذى كان وكيلاً للوزارة لشئون مكتب الوزير، ثم غضب الوزير عليه فأقصاه إلى منصب: مدير معهد بحوث توزيع المياه وطرق الرى! لم أذكر القصة بحذافيرها وخلفياتها التى أعرفها، وإنما

---

(١) النيل والمستقبل ــ عبد التواب عبد الحى ــ نشر بالوفد بتاريخ ١٩٨٩/٢/٨.

أشرت إليها فى الكتاب موجزة وبدون أسماء. ورغم ذلك، كانت هذه الجزئية التى تسربت إلى علم الوزير، أثناء تجهيز الكتاب للنشر — ولست أدرى كيف ؟! — هى التى أثارت حفيظته، ودفعته إلى التعدى على اختصاص الناشر — أعرق دور النشر فى مصر! — وتقليب أجهزة الدولة، فى محاولة لمنع نشر الكتاب.

لكننى صمدت للعاصفة. وساندنى الموقف «الرجولى» للأستاذة نوال المحلاوى مدير مكتب الأهرام للترجمة والنشر. صدر الكتاب!

خلال التسع السنوات الماضية .. مرت علينا أيام طاردنا خلالها شبح العطش .. والجفاف .. ارتجفت القلوب .. ودارت العقول على الأبواب تسأل الناس الترشيد .. قبل الهلاك .. وبات كل منا، يتابع بالعين والأذن .. آخر منسوب وصل إليه النيل .. هناك على بعد آلاف الأميال .

وبعد كل ساعة تمر بخير.. نرفع الأيدى شاكرين الله وداعين أن يزيح عنا هذا الشبح .. ولن أضيف أو أطيل أكثر من ذلك .. فقد كنا جميعاً نعيش المأساة أو الكارثة التى كانت على وشك الوقوع .. لكن الله سلم . وجاء الفرج .. وأمسك الواحد تلو الآخر منا مقياساً يقيس به المستقبل من خلال نقطة الماء التى تزيد خلف بحيرة السد العالى .. ومنها إلى كل الترع والمصارف قبلى وبحرى ، فسبحان الله الذى قال فى كتابه العزيز «وجعلنا من الماء كل شىء حى» . صدق الله العظيم .

أضف إلى ذلك أننا أصبحنا نبحث عن أى عالم أو باحث فى الداخل أو الخارج يضيف لنا أى جديد يجيب عن هذا التساؤل ..

وهل انحصر عنا شبح العطش .. وزال خطر الجفاف ؟!

ويبدو أن الفرج والفرحة كليهما قد أجلا حوار النفس والسؤال الباحث عن هذه الإجابة ــ وعدنا كما كنا ــ لانسأل .. لانتكلم .. مادام النيل يجرى ومياهه تملأ البحيرة وتفيض على الترع هنا وهناك !!

إلا أنه لاح من بعيد ضوء ساطع .. متمثل فى كتاب جديد لم تجف أحباره بعد .. يحمل لنا البشرى والتحذير فى آن واحد .. إنه «كتاب النيل والمستقبل» تأليف الزميل الصحفى عبدالتواب عبدالحى نائب رئيس تحرير مجلة المصور.

وكما تعودنا .. مع كل كتاب لنا مقدمة .. نعيش من خلالها مع المؤلف وكلماته وفصوله .. سواء ما أكتبه أنا أو ما أنقله من كتاب المؤلف .. والحقيقة .. لقد فرحت تماماً حين قرأت مقدمة الكاتب وعنوانها المثير .. وفضلت أن أبدأ بها حديثى خلال هذا العرض وهذا التقديم .

حتى يتم تعريف القارىء بكل ما جاء فى هذا الكتاب وبشكل واف.. نظراً لأهمية الموضوع الذى يتناوله سواء فى الحاضر أو المستقبل. فهيا بنا لنبدأ الرحلة معاً.. ولعلها تكون رحلة سعيدة تنال رضاكم.

قبل البلل:

يقول المؤلف فى مقدمته هذه «قبل أن تبتل بمياه النيل ـــ رغم الجفاف الداهم ـــ فى رحلة على الطبيعة الآسرة، بطول ٦٧٠٠ كيلو متر.. من بحيرة فيكتوريا إلى بحيرة تانا.. حتى بحر الإسكندرية.. وقبل أن تبل إصبعك لتقلب الصفحات وتواصل المشوار الطويل المثير المتعثر بالمفاجآت لى معك كلمة».

ونحن نرحب بالضيف الكبير على هذه الصفحة.. لنسمع منه ليس فقط كلمة.. بل كلمات وموضوعات نعلق عليها الآمال العريضة.. حتى نقف على أرض صلبة.. من فوقها نتحرك بعيداً عن أشباح العطش والجفاف..

والمؤلف يقول فى كلمته لى ولكم «أصبح الحديث عن جفاف النيل» حنفية سايبة تنقط فى كل بيت، ولباناً من التوتر على كل لسان، والناس تسأل بلهفة: هل يفيض النيل هذا العام.. وكل عام.. أو يغيض؟!. وقد اندلع الحديث عن الجفاف كالحريق، عندما نشرت صحيفة التايمز البريطانية يوم الخميس ٥ نوفمبر عام ١٩٨٧، تحقيقاً صحفياً مثيراً لمراسلها فى القاهرة تحت عنوان «مهد الحضارة العظيم يجف»!!!

واعتمد المراسل البريطانى فى تحقيقه على إرهاصات علمية تقول: إن حزام المطر على الهضبة الاثيوبية قد تحرك نحو الجنوب.. وإن بعض العلماء يرى أن ذلك قد يدوم، ويحرم النيل من فيضانه..!! تتبعت (والكلام لا يزال على لسان المؤلف) ـــ أسانيد هذا التحقيق الصحفى فوجدتها تعتمد على تقرير لمنظمة الأرصاد العالمية بعنوان النظام المناخى ـــ رصد مناخ الأرض ـــ ولقد حصلت على هذا التقرير فوجدت فى صدره تحذيراً يقول: هذا التقرير أعد بدون مراجعة فنية شاملة من سكرتارية المنظمة.. ولهذا لا يعتبر منشوراً رسمياً. وتوزيعه بصورته هذه لا يضفى أى سند علمى على الأفكار الواردة فيه!! هو إذن تقرير غير رسمى والمعلومات الواردة فيه لا ترقى إلى مستوى الحقيقة العلمية المعترف بها..

وماذا عن الإجابة عن سؤال الجفاف:

ويبقى معلقاً ذلك السؤال المفعم بلهفة الحياة: هل يفيض النهر.. كل عام أو يغيض؟!

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال. الذى يحمل لنا رحيق الحياة.. يقول المؤلف.. وبحثاً عن جواب يروى عطش السؤال، شدت الرحال إلى المنبع الأول للنيل عند خط عرض ٤

جنوب الاستواء.. بجمهورية بوروندى، هناك ينبع نهر لوفيرونزا.. وهو الرافد الرئيسى لنهر كاجيرا.. الذى يعد الرافد الأساسى والوحيد لسيدة البحيرات العذبة: فيكتوريا.. لهذا تعتبر منابع نهر لوفيرونزا: النبع الأول للنيل.. ومن أجل ذلك اتخذتها نقطة البدء لرحلتى الطويلة مع النيل، من المنبع الأول حتى المصب الأخير.

نهر النيل العجيب:

من الملاحظات الجغرافية الهامة التى يشير إليها المؤلف أن كل أنهار الدنيا تنبع من الشمال وتنحدر إلى الجنوب.. باستثناء نهر النيل ـ إنه على النقيض ـ ينبع من الهضبة الاستوائية جنوباً وينحدر إلى الشمال الجغرافى!!

وكل من حاولوا استكشاف النيل ومنابعه، عبر التاريخ، تتبعوه من الشمال إلى الجنوب.. مشوا عكس تيار النهر ـ من هيرودت إلى إسماعيل بن محمد على ـ ومن البكباشى سليم إلى صمويل بيكر، والبعض شق طريقه إلى المنابع الاستوائية من الشرق إلى الغرب. ويضيف المؤلف إلى ما سبق أن النيل كله لم يكتشف منابعه، مستكشف واحد فقط. اللهم إلا أجزاء فقط من هذه المنابع، ولكن أحداً من قبل لم يرحل رحلتى ـ والكلام لا يزال على لسان المؤلف ـ على النيل ومعه من منابعه الاستوائية إلى منابعه الاثيوبية، ثم يهوى معه قرابة ٢٠٠٠ متر إلى مستوى الصفر عند بحر الإسكندرية! . كل ذلك من أجل البحث عن إجابة السؤال الذى يتعلق بحياة كل منا على هذه الأرض الطيبة.. هل يفيض النهر.. كل عام.. أو يفيض ؟!

فصول الكتاب وأجزاؤه على سبيل الإجمال:

ومازلنا نعيش مع كلمات المؤلف من خلال استعراضنا لما خطه قلمه فى مقدمة الكتاب.. حيث يذكر لنا على سبيل الإجمال أجزاء الكتاب وفصوله. وقبل الدخول فى حديث الإجمال هذا يقول «تتبعت جريان النهر، وأسراره وقضاياه عبر حدود سبع من دول النيل هى بوروندى ـ رواندا ـ تنزانيا ـ أوغندا ـ السودان ـ اثيوبيا ثم مصر..» ويجيء هذا الكتاب فى خمسة أجزاء هى فى الجزء الأول: بانوراما النهر، فى منابعه الاستوائية والنيل مازال فى المهد صبياً من منبعه الأول وحتى مصبه ثم فى بحيرة فيكتوريا سيدة البحيرات العذبة، ومنها إلى بحيرة كيوجا ثم إلى بحيرة ألبرت، عبر أرض فرس النهر.. ثم إلى جبال رونزورى المعممة بالثلوج. ثم نتابع نهر السمليكى العجيب وهو يجرى بين بحيرتى إدوارد وألبرت.. ثم نيل البرت.. حتى سهول جنوب السودان الموحشة.

وفى الجزء الثانى نتابع بحر الجبل فى جنوب السودان ثم قناة جونجلى التى توقف بها العمل ولم يكتمل.. ومع تيار النيل الأبيض إلى الخرطوم ثم إلى النيل الأزرق جنوباً وجنوبا بشرق إلى سنار والرصيرص ومقياس الديم، ثم نعود مرة أخرى إلى الخرطوم لنواصل المشوار مع النيل الرئيسى شمالاً إلى عطبرة ومنها نتابع جريان نهر عطبرة ومع تيار النهر شمالاً حتى حلفا على الحدود المصرية.

وفى الجزء الثالث: نستكشف النبع الأثيوبى للنهر، أما فى الجزء الرابع فنمشى مع النيل فى بر مصر ١٥٠٠ كيلو متر، من حلفا حتى دمياط مارا ببحيرة ناصر ثم السد العالى، ونواصل الرحلة مع النهر فى الصعيد حتى يدخل القاهرة ونتوقف مع قناطر النيل، من قناطر محمد على وحتى قناطر دمياط، ثم نخطو مع النيل خطواته الأخيرة إلى شاطىء البحر!!

وفى الجزء الخامس والأخير.. نبحث عن أجوبة لأسئلة كثيرة تنبض بلهفة الحياة، هل للنيل مستقبل.. وهل يفيض النهر أو يغيض؟ من أين ينشأ الفيضان وكيف تجىء أمطاره؟ وكيف تتحرك مصر لتحقيق الأمن المائى فى مواجهة الجفاف!.

وماذا بعد..؟!

وقبل أن نوسع نطاق رحلتنا خلال أجزاء الكتاب.. لنستعرض بعض ما جاء بها حسبما تسمح به المساحة.. يقول المؤلف.. ولعل صدمة الجفاف جاءت لتوقظ الجميع، وتغرس فى قلوبنا الحرص على نعمة النيل، وحمد المنعم.

وليس هذا فقط، بل يراود أحلامنا.. ويوقظ بداخلنا الشوق إلى الماضى حتى يكون دافعاً لنا لنصل إليه أو حتى على الأقل نقلده.. وكى لانسرح بالفكر بعيداً نتوقف عند قوله: «كان قمح مصر، خبز روما لأحقاب طويلة بفضل النيل، لكن منابع النيل كانت طلسما مجهولاً تلفه الأساطير، لدرجة دفعت نيرون أن يهتف يوماً. وهو فى عزته وصولجانه: أيها النيل إنى أضحى برأس من أجل أن أعرف أين تخبىء منابعك الغامضة؟

وهذا هو النيل بين يديك ملفوفاً فى منديل.. من المنبع للمصب.. بأسراره وناسه، وقضاياه، وخطر جفافه المحيق! ولتبق الرءوس جميعها فوق أعناقها.. تقرأ.. تستمع.. معى.. وتشارك بالذود عن الحياة فى مواجهة الخطر..!!

مشوار طوله ٧ آلاف كيلو متر:

ومن الإجمال إلى التفصيل.. لنا مع المؤلف وقفة، بل وقفات، أو إن شئت فسمها قفزات.. نتابع من خلالها رحلته عبر مياه النيل.. تلك الرحلة التى استغرقت واحداً وسبعين

يوماً .. بطول ٦٧٠٠ كم متر، تبدأ من منابع نهر لوفيرونزا حتى بحر الإسكندرية وعن ذلك يقول تحت عنوان فرعى .. والنيل فى المهد صبيا ! «بحسبة بسيطة نحسب المشوار: ٦٧٠٠ كيلو متر هى طول النيل بالكامل من منابع نهر لوفيرونزا حتى بحر الإسكندرية ، ولوفيرونزا هذا رافد رئيسى من روافد نهر «كاجيرا» .. الذى يعتبر النبع الرئيسى لسيدة البحيرات «فيكتوريا» ، وفى موضع آخر يقول «ونحسبها بمعامل المسافة ـ الوقت: لو أن بشرا استطاع أن يمشى على جسر النيل ويتابع مجراه شمالاً دون أن يقهره عائق ، بمعدل سير الإنسان العادى: ٢٠ كم فى اليوم .. فإنه سيصل الشاطىء المصرى للبحر بعد ٣٢٥ يوماً أو ١١ شهراً .. لكننى قمت برحلتى فى ٧١ يوماً .. باعتبار أن ملازمة جسر النهر على طول المسافة شىء مستحيل لكثرة العوائق .. وقد اضطرتنى ظروف الرحلة أن استعمل طابوراً من المواصلات . وبحس العالم الجغرافى المدقق يلقى المؤلف الضوء على طبيعة الهضبة الاستوائية حيث ينبع النيل من بحيراتها العظمى الثلاث .. أيضاً تتبع بعين الصحفى دقيق الملاحظة بداية جريان النيل ومنابعه حيث نهر كاجيرا الذى ينبع من رواندا عبر أطراف الشمال الشرقى لتنزانيا . ويسجل لنا بالكلمة والصورة مشاق هذه الرحلات والصعاب التى واجهها فى تلك المناطق الوعرة وعلى سبيل المثال يقول: «فجأة هبت رياح عاتية .. ثم هواء نسيم .. بعدها هاج الزئبق وتلاطم موجه بارتفاع يزيد على المتر . والحقيقة أننى لمست من خلال متابعته للصور الكلامية التى يرسمها لنا» المؤلف بأسلوبه الشيق ـ أننى أمام مصور مبدع «ينقل بالحروف مايلمسه ويشاهده بأمانة وصدق ، تلك الصور التى ترقى إلى المستوى الأدبى البديع .

جنوب السودان والنهر الخفى:

ونفرد أشرعتنا متتبعين مؤلفنا عبر نهر النيل العظيم .. حتى وصلنا معه إلى جنوب السودان .. ومازال يذكرنا بحديثه قائلاً: وباتساع ٢٠٠ متر يدخل النيل مدينة نيمولى على الحدود بين أوغندا والسودان . وليسمح لى القارىء هنا أن أنقل له كلام المؤلف مجملاً عن هذا الجزء من الرحلة حيث ذكر أنه تابع بحر الجبل فى جنوب السودان .. وبعدها خاض مستنقعاته على ظهر إحدى البواخر البطيئة .. وهناك شاهد قوات جون جارنج وهى تطارد صنادل مهندسى الرى المصريين فى مستنقعات بحر الجبل الخفى ! ومنه أطل على قناة جونجلى التى توقف العمل بها ولم يكتمل ، كما شاهد من خلال رحلته فى هذا الجزء من النيل مذبحة فى مدينة ملكال بين قبائل النوير والشلك بسبب رأس فار!! ومن بحر الجبل مشى مع التيار حيث النيل الأبيض إلى الخرطوم ، ورياح الهبوب التى تطفىء الشمس ..

ومن فوق الخرطوم يشهد لقاء النيلين الأبيض والأزرق .. ويحدثنا عن الفلاتة ـ هؤلاء القوم الذى يأتون مثلما يأتى الخريف وفى أعقابه الشتاء وقصة صيد أسد حقيقى .. وأخيراً هل يمكن نسف شلالات النيل ؟!

قناة جونجلى وأطول بحيرة صناعية فى العالم..

وأتوقف معكم هنا عند هذا المنعطف الذى يحدثنا فيه المؤلف عن أطول بحيرة صناعية فى العالم من الممكن جداً لو اكتمل العمل بها لقضت تماماً على شبح العطش والجفاف ليس فى مصر وحدها وإنما فى السودان الشقيق كذلك: ولنسمعه يحدثنا عن هذه البحيرة الخرافية: غادرنا مستوطنة جونجلى نبحث عن «سارة» الفتية.. ذلك الحفار الضخم الذى يقوم بكل العمل فى حفر القناة، وكان ارتفاعه ٢٥متراً. بطول عمارة من ثمانية طوابق ـــوقد كان يحفر قناة شبيهة فى إقليم البنجاب بباكستان ثم شحنوه من كراتشى إلى بورسودان بعد أن فككوا أجزاءه إلى ٧٤٢ قطعة! وفى موضع آخر يقول مواصلا حديث القناة العملاقة: قضينا ليلتنا ضيوفاً على «سارة» وقفلنا فى الصباح عائدين إلى فم السوباط.. إلا أن قوات جون جارنج شنت أول هجوم لها على مواقع العمل وخطفوا عدداً من المهندسين والفنيين الفرنسيين، لكن «سارة» واصلت العمل فى ظروف أمنية مضطربة حتى ديسمبر عام ١٩٨٤.. وقبل أن تتوقف تماماً عند الكيلو ٢٦٥. وقد أنجزت ٧٣٪ من حجم العمل فى القناة بتكلفة بلغت ١٠٠مليون جنيه!!

النيل فى أثيوبيا:

ونواصل المسير.. من وادى حلفا نعود إلى الخرطوم ومنها نطير إلى أديس أبابا لنستكشف عن قرب المنابع الاثيوبية للنهر، ونتابع فى رحلة جوية قصيرة بحيرة تانا ومجرى النيل الأزرق شديد الانحدار، شديد الغموض.. منذ مخرجه من بحيرة تانا، وحتى تخوم الحدود السودانية.. وها نحن الآن مع المؤلف نعود إلى أرض أثيوبيا، حيث الصورة الفوتوغرافية لمشروعات اثيوبيا السرية على منابع النيل.. ثم شلالات تيسيسات أو النار الهادرة ونطير بالهليكوبتر فوق بحيرة تانا والنيل الأزرق ونلاحظ أن الهضبة الأثيوبية تتحرك ٢سم كل عام! ثم يلقى بنا المؤلف بعد ذلك فى أحضان العلاقات المصرية الاثيوبية. وهل نتفق.. وكيف؟ ثم قرار تحويل النيل إلى إسرائيل يفجر الخلاف بين البلدين ثم المشروع الحلم وهيئة حوض النيل.. وتساؤلات اثيوبية وإجابات مصرية.

انتبهوا .. هذه تفاصيل الاختراق الإسرائيلى للعقل المصرى(١)

حين وصلنى هذا الكتاب .. كى يكون ضيفاً عليكم من خلال تقديمه وعرضه فى هذه الصفحة .. خفق قلبى كثيراً .. وارتسمت أمام عقلى آلاف من علامات الاستفهام على مختلف أشكالها وأحجامها . والسبب أنه يتحدث ـ وربما لأول مرة منذ تطبيع علاقاتنا بدولة إسرائيل وبشكل مسجل فى كتاب ـ عن المحاولات التى يقوم بها الجهاز السياسى الإسرائيلى الموجود رسمياً فى مصر لاختراق العقل المصرى إلى الدرجة التى جعلت المؤلف الدكتور رفعت سيد أحمد يتساءل فى بداية أوراق كتابه هذا «ماذا حدث فى مصر؟ وماذا حدث لها؟ الصهاينة يجوبون شوارعها .. ينتهكون أدق أسرارها ويعيثون فساداً فى الاقتصاد، فى السياحة، فى الثقافة، فى الفن، ولم يتركوا شيئاً إلا وحاولوا التغلغل فيه ومحاولة تصديره بعيداً إلى حيث «تل أبيب» .

مثل هذا التساؤل وهذه المحاولة من جانب المؤلف تجعلنى أنا شخصياً أفرد لها أقصى ما يمكن من مساحة متاحة لا لشىء إلا لعرض وجهة نظره والتعرف على ما يريد أن يوصله لنا .. بغض النظر عن تأييدنا لما جاء به أو اعتراضنا عليه .

---

(١) وصف مصر بالعبرى ـ د. رفعت سيد أحمد ـ نشر بالوفد بتاريخ ٣١ مايو ١٩٨٩ .

ولمزيد من التفاصيل والمتابعة لما جاء في الكتاب الذى يحمل عنوان (وصف مصر بالعبرى ـ تفاصيل الاختراق الإسرائيلي للعقل المصرى) أريد أن أفسح المجال للمؤلف كى يحدثنا حتى من خلال مقدمة كتابه عن الهدف الذى من أجله خط بقلمه هذا الكتاب.. والأسانيد التى اعتمد عليها فى إثارة هذه القضية الخطيرة.



منذ زار السادات القدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧ وحتى اليوم ومصر تعيش على صعيد الاقتصاد والسياسة والمجتمع، محاولات إسرائيلية دوءوبة لاختراق المجتمع ونزع لافتات العزة والكرامة التى ظلت عنواناً ثابتاً لسياساته طوال الحقب التاريخية الماضية، وهى محاولات سعت إلى زعزعة أصول الهوية القومية والإسلامية التى شكلت ركيزة أساسية لإنسان هذا الوطن.. جاء كل ذلك عبر سيناريوهات عدة، وأساليب متنوعة مثل الوفود السياحية، والأنشطة الدبلوماسية للسفارة الإسرائيلية بالقاهرة، ومحاولات التعاون العلمى والفنى والثقافى، وشبكات التجسس فى التطبيع العقلى، والاختراق المنظم للمجتمع خلال عقد من السنين يمتد من عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٧ وهى الفترة التى نحاول فى هذه الدراسة أن نرصدها ونحللها للمواجهة تحفيزاً للإدارة الوطنية على مزيد من الصمود من خلال كشف دقيق لتحركات العدو على أرضنا وكشف عملائه بالقاهرة الذين يحاولون «وصف مصر بالعبرى».

دراسة لأول مرة:

ويؤكد الكاتب ما ذكرته منذ البداية.. من أن هذه المحاولة تكاد تكون الأولى على نوعها من المستويين السياسى والثقافى وهو يحاول وضع النقاط على الحروف فى علاقاتنا مع إسرائيل على كافة المستويات وفى كافة المجالات.. وعن ذلك يقول: «وبقى وصف مصر بالعبرى وهو مالم ينشر بشأنه دراسة متكاملة حتى اليوم. ورغم جهود العديد من الكتاب والباحثين، فإن المسألة مازالت بحاجة إلى دراسة متكاملة تجمع أطراف القضايا المختلفة.. وعليه فسوف نقوم فى هذه الدراسة بتقديم رصد لعمليات التجسس العلمى والثقافى والسياحى الإسرائيلى فى مصر. وهو رصد سوف نكتفى فى بعض مراحله بتقديم نماذج للتغلغل، وليس كل محاولات التغلغل التى لا تعد ولا تحصى. وسوف نقسم هذه الدراسة إلى الأجزاء التالية:

● فصل أول : احتلال العقول : الإطار العام لعمليات الاختراق الثقافى .

● فصل ثان : اليهود المصريون : الدور والاتجاهات فى إطار استراتيجية الاختراق الإسرائيلى .

● فصل ثالث : التطبيع وأزمة الهوية العربية فى مصر .

● فصل رابع : سيناريو الاختراق : تفاصيل الاختراق الثقافى الإسرائيلى لمصر من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٨ .

● فصل خامس : شهداء عمليات وصف مصر بالعبرى .

وليس هذا فقط بل يقول المؤلف .. ومن هذه الأجزاء .. وحولها تدور أخطر معاركنا السياسية والحضارية مع الكيان الصهيونى فوق أرض من الغزو والاحتلال العقلى .. فماذا نحن فاعلون ؟! وإلى أين تتجه قوانا ؟! وبأى المعارك سنبدأ .. ؟ ذلك هو موضوع دراستنا الحالية والتى قدر لبعض أجزائها أن ترى النور من خلال بعض الدوريات العربية المتخصصة .. ونرجو أن تساهم هذه الدراسة كطلقة أولى على الطريق .

وسائل احتلال العقل وأسبابه ؟ ! :

بداية ساخنة ومشوقة وداعية إلى التفكير .. تلك المقدمة التى سوف يحدثنا عنها المؤلف والتى سنتعرف من خلالها على أهداف احتلال العقل فى مرحلة متطورة جداً بعد فشل احتلال الأرض ونهب الثروات وهو يقول عن ذلك : « إن أغلب الدراسات الغربية التى عالجت قضية الغزو الثقافى للعالم الثالث والذى يدخل فيه عالمنا العربى ـ أجمعت على أن الاهتمام باحتلال عقول هذه الشعوب نشأ أساساً لموازاة الاتجاهات التوسعية والاستعمارية المبكرة فى العالم العربى ..

ومن هنا جاء العديد من الوسائل كالاستشراق وازدواجية النظام التعليمى وغربيته وخلق نخبة مثقفة تمتد جذورها خارج الحدود لتخدم فى ذات الاتجاه .. ويأتى احتلال العقل امتداداً مباشراً لما سمى « بوظيفة العلم » .. والعلماء فى الاستراتيجية الغربية فى خلق مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حين أصبح العلم أداة للاستثمار والإشباع تماماً كالسلعة ، فلقد وجد العلم هناك أساساً لخدمة الأهداف السياسية والاجتماعية والصناعية المتقدمة حيث يمثل عائداً نفسياً .

ولأن لاحتلال العقول فى العالم أجمع أدواته المختلفة ، فإن الصحافة تأتى فى مقدمتها جنباً إلى جنب مع البحوث الممولة والمشتركة » .

نماذج من أبحاث احتلال العقل العربي:

من أهم وأخطر المؤسسات في عالمنا العربي ذلك المركز الذى أنشأته إسرائيل بالقاهرة عام ١٩٨٢ ـــ ونحن هنا ننبه الباحثين العرب آملين أن تصل صرخاتنا هذه إليهم لمحاصرة نشاط هذا المركز ـــ واسمه المركز الأكاديمي الإسرائيلي ـــ وقد تم إنشاؤه عقب اتفاقات كامب ديفيد وتولى رئاسته كل من « شيمون شامير » ثم « جبرائيل واربورج » و« أشير عوفاديا » .. وهم من عتاة الباحثين الذين تدربوا على أيدى الموساد. وبنظرة سريعة على نوعية الأبحاث السياسية والثقافية والاجتماعية التي قام بها المركز منذ إنشائه وحتى اليوم يبرز لنا عمق الخطر الذى يمثله كأداة للموساد الإسرائيلي تجاه العقل المصرى والعربى.. وعلى سبيل المثال فهو يبحث فى الأصول العرقية للمجتمع المصرى.. وفى كيفية تفتيت مصر طائفياً، وفى الوحدة الثقافية والعقائدية بين اليهودية والإسلام فى الشعر العربى الحديث، وقضايا التعليم والزراعة والميكنة الزراعية واستصلاح الأراضى، وفى توزيع الدخل، وحياة البدو وكيفية السيطرة عليها، وفى تأثير السلام على العقل العربى. كما قامت إسرائيل من خلال المركز ببعض الأبحاث الهامة فى مصر مثل أبحاث حول (رؤى الصراع العربى الصهيونى) والجماعات الإسلامية فى مصر وبحث عن بدو مرسى مطروح.

اليهود المصريون ودورهم فى استراتيجية الاختراق:

إن الحديث عن الغزو الثقافى الإسرائيلى لمصر بعد كامب ديفيد لابد أن يسبقه الحديث عن اليهود المصريين ودورهم فى قضايا التطبيع.. وبداية نقرر أن الكتابات والدراسات الاجتماعية عن اليهود العرب، فى مرحلة ما بعد زيارة السادات للقدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧ قليلة. فلم نقرأ على سبيل المثال إحصائية دقيقة عن الذين هاجروا منهم إلى إسرائيل أو الذين بقوا أو الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى يعيشون فى ظلها منذ ذلك التاريخ الفاصل فى مجرى الصراع العرب الصهيونى، واللافت للانتباه أن أزمة عدم الاهتمام باليهود العرب تلك تمتد إلى المرحلة السابقة على عام ١٩٧٧، وإن استفحلت نتائجها فى السنوات التالية لهذا التاريخ.

وسوف يحاول الباحث أن يتناول الوجود اليهودى ـــ العربى من زاوية محددة تعد فى تصوره من أهم زوايا التحليل لأوضاع اليهود بعد زيارة القدس واتفاقات كامب ديفيد، وهى زاوية منهج التعامل العربى مع هذا الوجود، كيف كان ووضعيته اليوم وكيف ينبغى أن يكون ؟!

مزايا جديدة وأدوار خطيرة:

بعد زيارة الرئيس السادات للقدس ودخول مصر إلى حلبة حل الصراع وفق مفهوم السلام، دخلت أساليب التعامل مع اليهود المصريين مرحلة جديدة نسبياً عما سبقها، واتسمت هذه المرحلة بمجموعة من الخصائص والمزايا الجديدة من أهمها:

• استثمار عدد من كبار اليهود المصريين الرأسماليين لحالة السلام بين مصر وإسرائيل وحالة الانفتاح الاقتصادى الاستهلاكى المتلازمة معها فى خلق سوق اقتصادية مصرية تابعة للسوق الاقتصادية الإسرائيلية.

• انتهز عدد من اليهود المصريين العائدين بعد الزيارة إياها ثم اتفاقيات كامب ديفيد الفرصة للتجارة والتجسس معاً، حين قام بعضهم ببيع بعض المعابد اليهودية القديمة مثل معبد ليفى شالوم بحى الظاهر وأرض الجبانة اليهودية بحى المعادى والمعابد الموجودة بحى الدراسة بقلب القاهرة. وهناك من الأسماء اليهودية المشهورة التى تقوم بهذا العمل تمهيداً لهدم هذه المعابد وتحويل أرضها إلى محلات تجارية بجانب تورط عدد من اليهود المصريين فى تجارة المخدرات وأشهرها قضية يوسف طحان فى خريف عام ١٩٨٥ هذا بالنسبة للتجارة.. أما بخصوص التجسس فبالإضافة إلى الروايات المتواترة والمعروفة عن ضبط أجهزة المخابرات المصرية لبعض اليهود قبل زيارة القدس عام ١٩٧٧ حدثت أيضاً عمليات تجسس مشابهة كان لبعض اليهود المصريين دور بارز فيها، بعد أن استطاعت السفارة الإسرائيلية وأجهزة الموساد تجنيدهم لخيانة الوطن الذى أواهم، وكنموذج لهذه العمليات ما اكتشفته أجهزة الأمن المصرية فى ١٩٨٥/٨/١ من شبكة تجسس يهودية واسعة النطاق كان أطرافها بعض المصريين العاملين بالسفارة الإسرائيلية والمركز الأكاديمى الإسرائيلى وبعض الدبلوماسين فى القاهرة بالإضافة إلى عدد من اليهود المصريين الذين هم على اتصال وثيق بالسفارة الإسرائيلية فى مصر.

• وثالث هذه الخصائص الخطيرة: استخدام الوجود اليهودى المصرى وتحديداً لعناصر من غير كبار السن، كستار لعملية اختراق وغزو منظم للعقل المصرى والجامعات والهيئات العلمية المصرية، تمثل ذلك فى أبحاثهم الميدانية المشتركة وفى زيارات بعض صفحييهم إلى مصر. ولقد لعب المركز الأكاديمى الإسرائيلى دوراً هاماً فى عملية التجسس العلمى هذه والتى لعب أيضاً «الموساد» الإسرائيلى دوراً مهما فيها للوصول إلى الأسر اليهودية فى أرجاء مصر تحت دعوى رعايتها وتأمين اتصالاتها بأرض إسرائيل!!

سيناريو الاختراق وتفاصيل الغزو الثقافى الإسرائيلى:

فى هذا الفصل نحاول أن نرصد أبعاد وسيناريوهات قضية الغزو والاختراق الثقافى فى مختلف مجالاته، كما تمت من خلال أحدث وأبرز النماذج المعاصرة، وذلك عن اقتناع مؤداه أن هوية وطن بكامله أضحت عرضة للافتراس، وأنه إذا كانت بريطانيا قد لعبت دوراً هاماً فى أزمة الهوية فى مصر، مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإن كياناً مصطنعاً مثل الكيان الإسرائيلى سوف يؤدى الدور ذاته وعلى امتداد مساحة جغرافية أكثر اتساعاً هى المنطقة العربية. إننا بهذا المعنى، نحاول أن نجيب عن ثلاثة أسئلة، تشكل محاور هذا الموضوع:

أولاً: ما هي تفاصيل السيناريو العام الذى انتهجته إسرائيل تجاه المجتمع المصرى بعد توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد على ساحة التجسس العقلى ؟!

ثانياً: كيف تطورت تكتيكات التجسس العقلى الصهيونى فى مصر لتتجاوز حدود اللقاءات والندوات والبحوث المشتركة ــ إلى التواجد المؤسس الثابت والنموذج الحى له هنا المركز الأكاديمى الإسرائيلى.. كيف تطور ذلك ؟ وماذا عن هذا المركز ؟!

ثالثاً: إذا كان هذا حال التجسس العقلى الصهيونى على مصر ــ كمدخل للمنطقة العربية ــ فهل من سبيل إلى المواجهة ؟!

المخابرات الإسرائيلية تمول هذه الأبحاث :

إن المتتبع لمجريات أمور التطبيع يلحظ أنها اتسعت لتشمل مجالات الحياة كافة من تجارة ونقل إلى السياحة والثقافة وفتح الحدود والأسواق.. ومايهمنا هنا هو ذلك الجانب المتعلق بالاختراق الموجه إلى العقل المصرى.. وهنا نلحظ الأدوار والوظائف التى قام بها بعض الباحثين الإسرائيليين فى مصر وبين العديد من الهيئات والمنظمات اليهودية المشبوهة. وإن جاء التداخل بهدف واحد هو الحصول على أكبر قدر من المعلومات والبيانات التفصيلية عن نواحى الحياة والمجتمع فى مصر وتصديرها إلى تل أبيب. ومن هنا يأتى الدور الخطير الذى قام به ولا يزال اليهودى الأمريكى ليونارد بايندر الذى عمل مستشاراً لجولدا مائير أبان حرب عام ١٩٧٣ وشارك فى حرب عام ١٩٤٨ مقاتلاً ضد العرب، وهو الآن أستاذ زائر فى الجامعات الأمريكية فى مصر، وتمثل دوره فى قيامه بدراسة التيارات الإسلامية فى مصر والتغيرات الاجتماعية والسياسية، وقامت المخابرات الإسرائيلية بتمويل عدد من أبحاثه الأخيرة التى قام بها خلال الفترة من عام ١٩٨٤ ــ١٩٨٦ من خلال المركز الأمريكى بالقاهرة. وهى أبحاث دارت حول احتمالات الثورة الإسلامية فى مصر وتأثير ذلك فى مجريات الصراع العربى الإسرائيلى.. بجانب ذلك تتابعت سيناريوهات التجسس الإسرائيلى على العقل المصرى منذ عام ١٩٨٠.

والحقيقة أن ماذكره المؤلف ومانقلنا منه هنا هو مجرد بعض النماذج لهذه المحاولات التى سجلها الكاتب وكلها تقريباً وبتواريخها فى الكتاب الذى بين أيدينا.

المركز الأكاديمى الإسرائيلى وكر عمليات التجسس:

بعد توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد وبالتحديد فى العام ١٩٨٢ وبإيعاز وإلحاح من مناحم بيجين أنشىء المركز الأكاديمى الإسرائيلى ليمثل أخطر مظاهر الاختراق الصهيونى للعقل المصرى فى المرحلة التالية لمبادرة القدس عام ١٩٧٧، إذ أنه يقدم نفسه كإطار مؤسس للتجسس،

متجاوزاً بهذا الجهود الفردية ، والبحوث المشتركة التى كانت تجرى بشكل غير منتظم . إن المركز الاكاديمى بهذا أضحى أرقى صور التغلغل ، ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن تكتشف فى داخله خلال عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ ثلاث شبكات للتجسس مكونة من عدد من الأمريكيين والإسرائيليين واليهود المصريين ، بل ويؤكد هذا الدور التجسسى الجديد مجرد إلقاء نظرة متأنية على الأبحاث السياسية والثقافية والاجتماعية التى قام بها المركز منذ إنشائه وهى الأبحاث التى تبرز لنا ــ وبوضوح ــ عمق الخطر الذى يمثله هذا المركز كأداة متقدمة للمخابرات الإسرائيلية فى مصر!!

وفى مجالات أخرى أكثر خطورة:

ولأنه ليس للاختراق الإسرائيلى للعقل المصرى حدود فإنه امتد إلى الآثار خاصة بعدما قال بيجين للسادات عام ١٩٧٩ قولته الشهيرة «إن أجدادى هم الذين بنوا هذه الأهرامات» . ثم التطبيع فى مجال الفيزياء حيث وصلت إلى قسم الفيزياء بكلية علوم القاهرة، فبعد عدة جولات بحثية لهذا القسم مع الإسرائيليين خلال الأعوام من ١٩٨٣ وحتى ١٩٨٧ تأتى جولة أخرى من البحوث المشتركة بين مصر وإسرائيل من خلال هذه الابحاث. وليس هذا فقط بل امتد مسلسل الاختراق إلى مجال السينما والفيديو حيث اتضح أنه جاءت فترة كانت كل الأفلام المعروضة معظمها من إنتاج وإخراج صهيونى ، كما قامت إحدى شركات الإنتاج الإسرائيلى بإغراق السوق المصرية بالعديد من الأفلام التى تركز على تمجيد المستعمر وتبرير سياساته العدوانية . ثم يأتى الدور على التطبيع السياحى حيث اتضح من خلال إحصاء رسمى أن سدس سكان إسرائيل قد زاروا مصر (٥٨ ألف إسرائيلى) منذ عام ١٩٨٠ وحتى العام الماضى . ويضيف الكاتب متسائلاً ونحن بالطبع معه ، فإن ثمة علامات استفهام عديدة سوف تثار وفى مقدمتها التساؤل حول جدوى التنشيط السياحى الإسرائيلى لمصر، وهل كانت أهدافهم بريئة تماماً وبغرض السياحة فقط والنظر إلى معالمنا السياحية أم لأهداف وأغراض أخرى ؟!

أساليب وقف هذا الغزو:

يحلو للكاتب المؤلف الدكتور رفعت سيد أحمد فى ختام حديثه معنا أن يوضح لنا أننا مع ذلك لم ولن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه المحاولات الخطيرة .. ولقد أسماها أساليب المقاومة الرسمية والشعبية لعمليات الغزو والتطبيع ، وركز فيها على الفترة التى تلت حكم الرئيس السادات وارتباطها بفترة حكم الرئيس حسنى مبارك . وعن ذلك يقول : «أخذت عمليات مقاومة الغزو الثقافى وموجات التجسس العلمى والسياحى الغربى بالإجمال والإسرائيلى بخاصة أشكالاً متنوعة خلال الفترة التالية لحادث المنصة وحتى اليوم وهى الفترة المعروفة بفترة حكم

الرئيس مبارك ، أتت أهم أساليب المقاومة من النقابات المهنية ذات التاريخ السياسي العريق مثل نقابتى المحامين والصحفيين فنقابات المهندسين والاطباء ، وأعقبت هذه النقابات الجامعات والأحزاب المعارضة ثم ردود الفعل الشعبية التلقائية . ولعله بإعطاء نماذج من أساليب وأشكال مقاومة الغزو الثقافى الصهيونى للعقل المصرى ما قد يفيد فى إلقاء الأضواء وتكوين الرؤى وشحذ الهمم ، لتقديم البدائل وخلق الخطط لمحاصرة عمليات التغلغل الإسرائيلى فى مصر وهى بالشكل التالى :

١ ـ نماذج من أساليب المقاومة الشعبية لهذا الغزو الخطير.
٢ ـ نماذج من أساليب المقاومة للنقابات المهنية .
٣ ـ نماذج من أساليب مقاومة التطبيع أثناء الانتفاضة الفلسطينية .
٤ ـ نماذج من المقاومة الحكومية ، للتطبيع .

وأخيراً .. كيفية المواجهة :

نعتقد أن حجم الاختراق الإسرائيلى للعقل العربى حتى الآن لا يزال محصوراً فى نطاق النموذج المصرى من ناحية وفى نطاق التعاون غير المباشر عربياً مع المؤسسات البحثية الغربية من ناحية أخرى . ومن ثم فإن أية تصورات جديدة للمواجهة لابد وأن تنبع من الحقائق التى بين أيدينا وأن نتعامل معها وليس خارجها ، وعليه فالتصور الجديد ينبغى له أن يسير فى اتجاهين .

الأول: دعم عربى منظم ومبرمج لضرب ومحاصرة الاختراق الصهيونى الثقافى فى مصر.

الثانى: مقاطعة عربية واعية لمؤسسات البحث الغربية التى تتعامل مع الصهيونية تحت ستائر خفية وخلق مؤسسات عربية بديلة ومؤسسات بحث علمى على المستوى القومى .

الحب ...[1]

عندما حاولت تقييم العلاقة التي نشأت بيننا عزيزي القارىء.. أنا وأنت منذ بدأنا معاً مشوار الكتاب الجديد برز لى من خلال هذا التقييم معنى إنسانى جداً، وقيمة.. طالما أخذنا نفتقدها مع مرور الأيام.. هذه القيم وهذا المعنى هو الحب، الذى يربط بيننا على الدوام.. حب الخير وحب المعرفة..

هذه كلمات وجدتها مناسبة جداً كمقدمة لحديث آت عن الحب بمعناه الواسع. ولعلكم تعرفون.. كم من المؤلفات وكم من الوقت بذل على مدى عمر الإنسانية من أجل الحديث عن هذا الحب وعن سماته وصفاته.. فى كل المجالات حتى الجامد منها.. أو ما نسميه مجال العلوم!! وبكل لغات العالم.. حتى بإشارات الرجل البدائى فى الغابة.

والأمر الجديد فيما سوف نتحدث عنه بعد قليل هو كتاب وضعه أستاذ أمريكى فى علم التربية حاول إخضاع الحب كظاهرة عاطفية يتميز بها الإنسان دون غيره من مخلوقات الله للاختبارات العملية والغوص فى قلوب العشاق المحبين من أجل تقنين هذه الظاهرة الإنسانية الفريدة. ولقد تصدى لنقل هذا العمل القيم إلى اللغة العربية الزميل فؤاد شاكر.. ولم يكن مجرد مترجم.. بل اتخذ طريق التعريب من أجل أن ينقل لنا روح هذا الكتاب ومضمونه بالشكل الذى نرضى عنه كعرب وكمسلمين. والكتاب هو بعنوان «الحب»

(١) الحب ــ تعريب فؤاد شاكر ــ نشر بالوفد ٦ سبتمبر ١٩٨٩.

أول دراسة عالمية ولأهم ظاهرة إنسانية .. ومن أجل التشويق وزيادة الجرعة المنشطة لقلب القراء وعقولهم .. لجأت مكتبة التراث الإسلامى إلى وضع هذه الجملة أعلى الغلاف : الكتاب الذى وزع أكثر من مليون نسخة فى الطبعة الانجليزية .. وطبعاً جميعنا يتمنى أن يوزع ضعف هذا الرقم على مستوى القارىء العربى المستنير.. لأنه بالفعل يحمل الشىء الكثير والجديد الذى نتعرف عليه لأول مرة .. وسيراً على طريق بث أضواء التشوق ووضع درجات الترغيب للقارىء يقول المعرب فؤاد شاكر فى تقديمه : «لو أننا استخدمنا الإحصاء ــ ونحن نعيش عصر الإحصاءات والحاسبات الالكترونية ــ وحسبنا كم نستخدم فى الحياة اليومية كلمة «الحب» ومشتقاتها ومترادفاتها وتوابعها ومضاداتها .. وكم استخدمها من سبقنا من أدباء وشعراء وكتاب وفنانين وسياسيين وإعلاميين ومعلمين وروحانيين وتجار وسمّار وشطار ومشعوذين لوجدنا عجبا !!»

علامات تعجب !!! :

ودائماً يحلو لى أن أمهد الطريق لقول المؤلف عن محتويات كتابه.. بذكر بعض الجمل والألفاظ التى تربطنا جميعاً بالموضوع وحتى لانفاجأ بالدخول فى التفاصيل مباشرة دون بداية موفقة أو إشارة واضحة للبدء. وإشارة البدء هنا.. كلمات المعرب والمؤلف معاً.. نجملها حتى تكتمل المعرفة فى القول التالى.. هذا الكتاب فريد فى مضمونه لا فى موضوعه !! وما أكثر ما كتب عن الحب والأحباب وما أكثر الغث وأقل الثمين. وربما لم يتجاوز مؤلفه حقيقة الواقع إذ يقول: من العجب أن العلماء الأكاديميين تجاهلوا «الحب».. لقد رجعت مع طلابى أثناء دراسة هذا الموضوع إلى كتب علم النفس وإلى مراجع علم الاجتماع وإلى مطبوعات علم الأجناس البشرية وبذلنا جهوداً شاقة فى الحصول ولو على إشارة كافية شافية لكلمة «الحب».. وأصبنا بصدمة !!.. لأننا نعلم علم اليقين أننا جميعاً فى حاجة إلى «الحب» وأننا جميعاً نبحث عنه ومع ذلك فليست هناك دراسة أكاديمية عنه وخيل إلينا أنه شىء يأتينا من قوى خفية فى الحياة !!

اقتحام.. الشجاع :

واقتحم المؤلف هذا المجال بشجاعة وصبر وقوة وطرافة وعمق وبمنهج علمى سديد لاينكره العالم ولايضيق به القارىء العادى وبأسلوب جذاب سلس متعدد الإيحاءات فليس غريباً إذن أن يوزع الكتاب فى أول طبعاته أكثر من مليون نسخة. لقد قدم الكتاب الذى بين أيدينا خلاصة دراسة جادة أجراها المؤلف طوال سنوات وهو يناقش تلك الظاهرة المستقرة فى حياتنا اليومية موضحاً العوائق التى تقف أمام الحب الصحيح مبينا كيف يتم تجاوزها. وفى مواجهة القلق الذى نعيشه الآن يبين لنا الكتاب مقدرة الحب وقوته الدافعة إلى التغيير فى حياتنا نحو الأفضل. ولعلنا نطالع ولأول مرة جوانب من المعرفة الصحيحة عن الحب الصادق وهو بمثابة حافز قوى لنا لنشارك فى الحب الإنسانى الصادق، كما يجب أن يكون. ومن الأمور التى تعطى قيمة لهذا الكتاب أن مؤلفه الدكتور «ليوفيليس بوسكاجليا» أستاذ التربية بجامعة جنوب كاليفورنيا نال قبولاً وشهرة عالمية من خلال مؤلفاته العديدة ومحاضراته الواعية. ومحور نظرية هذا العلامة أن الحب يتعلم وأن من الواجب على كل إنسان أن يتعلمه وهو عليه قادر.

الكتاب الذى نعرض له هنا هذا الاسبوع يحمل غلافه قلباً كبيراً.. وسط حياة مبهجة.. محاطاً بالألوان الزاهية.. يقول الفهرس الذى سطره المؤلف فى أكثر من مائة وخمسين صفحة. يحتوى الكتاب على اثنى عشر فصلاً بالإضافة إلى صفحة أخيرة أو كلمة أخيرة.

الانتحار.. والدعوة إلى الحب:

فى ذكاء شديد يحاول المؤلف أن يوضح لنا دافعه نحو تأليف هذا الكم الهائل من أحاديث الحب.. وياللعجب فقد كان الانتحار هو سبيله كما يقول لنا هذا الحديث الشيق. أنها قصة طريفة تستحق أن نلقى الضوء عليها.. حيث يقول المؤلف: فى شتاء عام ١٩٦٩ ارتكبت إحدى طالباتى وكانت على درجة عالية من الذكاء والحساسية جريمة انتحار. كانت ــ على ما يبدو لى ــ من أسرة على جانب من الثراء المتوسط وتقديراتها الدراسية فى الجامعة ممتازة وكانت مألوفة وذات أثر طيب فى محيطها. كانت فى سن العشرين. ولم أستطع نسيان عينيها.. كانت تغمرهما الحيوية والتألق وصحوة الأمل.. كما لم أنس أوراقها الدراسية وإجاباتها عن أسئلة الامتحانات. لقد قفزت لتتحطم فوق كتل الصخور فى العمق.. لم تترك أية رسالة ولا مجرد كلمة واحدة كاشفة. وأتعجب الآن: ماذا كنت أقرأ فى عينيها أو أستشف من أوراق إجاباتها لو طالعتها بما أعرف اليوم ــ ولكن وكما يحدث لنا مع كثير من الناس وعديد من المواقف، فإننا نتناول الأمور بسطحية وهى تمضى بنا أو نعبرها نحن دون تفحص.. ولو استرجعناها ــ وهذا محال ــ لتناولناها على نحو مختلف.

هذا السؤال وحده كان الدافع فى ذلك العام لبداية تكوين فصل تجريبى.. لم يكن فصلاً دراسياً بالشكل المألوف.. فهو قائم على العمل التطوعى.. وكان واضحاً منذ البداية أن الموضوع الأساسى الذى التف حوله الجميع وأصبح محور اهتماماتهم هو: الحب، ولهذا أطلقت على هذا الفصل اسم «فصل الحب».

كنت على يقين منذ اللحظة الأولى أننى لن أستطيع أن أعلم بالمعنى الحرفى المعروف لهذه الكلمة مثل هذا الفصل الدراسى المقصود به الحب.. إذ ليست لدى الجرأة على ادعاء ذلك، فعلوماتى وخبراتى فى هذا الموضوع محدودة متواضعة فكنت مثل أى طالب أو طالبة فى المجموعة أشعر بحماس شديد نحو اكتشاف المعنى الحقيقى لتلك الكلمة «الحب». كان باستطاعتى فقط أن أعين المشتركين فى المجموعة على الإنجاز ونحن نسترشد فيما بيننا لنقترب من فهم واضح للظاهرة الإنسانية اللذيذة الدقيقة التى نسميها الحب. وكان هذا الكتاب.. إنه يحمل مسحة الدراسة المنهجية ويحاول أن يغوص نحو الأعماق الفلسفية لمجال محدد عن الحب. إنه بالأحرى حصيلة بعض المشاركة والتأملات التى انبعثت عن مجموعة العمل هذه والتى يبدو لى أنها

تكشف القناع عن الحالة الإنسانية .. ويمكن القول بأن هذا الفصل الدراسي بأجمعه شارك معي في تأليف الكتاب .. فهو إذن كتاب من تأليف أربعمائة كاتب معاً !!

هيا بنا إلى الحب:

عنوان يشدنا نحو مواصلة قراءة مأسوف يحويه من كلمات .. هكذا يبدأ المؤلف الحديث الجدي عن رحلة الحب الإنساني .. بدعوة يوجهها لنا جميعاً .. حيث يقول : إننا نعيش اجتماعياً في عصر يفرض منذ البداية أن ننظر إلى الحياة من كل جوانبها ونسأل : ما الهدف ؟ ماقيمة المعرفة ؟! . ما هي عوامل التغيير؟ لقد أصبحنا على علم بمسميات جديدة . لذا فمن الأحرى إذا قررنا أن نحب ، ومن الأهمية بمكان أن نعرف أو تعرفني من أنا .. وأين أقف ؟!

لقد بدأنا العمل في فصل الحب منذ نحو خمس سنوات بالجامعة وأظن أنه الفصل أو القسم الجامعي الوحيد الذى اقتحم هذه التجربة ، كنا نلتقى مساء كل ثلاثاء نجلس أرضاً في ترابط نحسب أن نبضه يسرى في العالم كله وبالطبع لست أستاذاً يعلم الحب وإنما كنت مجرد معين على تهيئة الوسائل المؤدية إلى نمو المعرفة عن الحب . إن الحب ظاهرة نتعلمها .. وأعتقد أن رجال الاجتماع وعلماء الأجناس وعلماء النفس لا يبخلون علينا بعلوماتهم عن تلك الظاهرة .

الإيمان بالتغيير إلى الأحسن :

إننا نؤمن عن يقين بشيء أكثر من غيره من الأشياء ألا وهو الإيمان بالتغيير.. وبناء على هذا ، إذا لم تكن راضياً عن صيغ الحب التى تمارسها ففى استطاعتك أن تغيرها ، بأن تبتكر أساليب جديدة . عليك فقط أن تطرح ماعندك بعيداً وهذا هو الأمر الصعب .. المعجز!! لأنك إذا كنت تملك الحب فأنت تعطيه وإذا لم تكن فكيف تعطى!؟ لكن الأمر لا يتعلق بالعطاء .. إنه يتعلق بالمشاركة ، ومهما كان القدر الذى أملكه ضخماً أو ضئيلاً فإننى أستطيع أن أدعوك للمشاركة فيه . ومن العجيب أن العلماء تجاهلوا « الحب » لقد رجعت إلى كتب علم النفس وإلى كتب الاجتماع وإلى كتب ومراجع علم الأجناس البشرية وبذلنا جهداً شاقاً في الحصول ولو على إشارة كافية شافة لكلمة « حب » وأصبنا بصدمة !! لأننا نعلم علم اليقين أننا جميعاً في حاجة إلى الحب وأننا جميعاً نبحث عنه .. ومع ذلك فليست هناك دراسة أكاديمية عنه وخيل إلينا أنه شيء يأتينا من خلال قوى خفية في الحياة !!

لماذا يتهرب العلماء من الحب ؟ :

نستطيع أن نقول مع التحفظ الشديد إن مهمة التعامل مع الحب تركت للشعراء والفلاسفة ورجال الفكر الخالص .. أما العلماء فيبدو أنهم تجنبوا الخوض في هذا الموضوع .. يقول « إبراهام

ماسلاو» من الغريب أن العلم التجريبى لم يتعرض إلا قليلاً لموضوع الحب.. والأعجب من ذلك صمت علماء النفس خاصة.. وإذا ما تحدث عنه علماء النفس والاجتماع فى كتبهم، فغالباً لا يتناولون إلا الجانب البائس المهيج، دون أن يذكر أحد منهم تعريفاً محدداً لموضوعه. إن العلم والعلماء سوف يظلون فى صمت إزاء موضوع الحب.. يعترف بعضهم بأنه حقيقة بينما يرى الآخرون أنه مجرد حبكة طريفة للإيهام بانتحال معنى لما ليس له فى الحياة معنى.. بل إن البعض يوجه الاتهام إلى الحب باعتباره.. متطفلاً دخيلاً على علم الأمراض. وما من شك فى أن الحب ليس موضوعاً بسيطاً فى التعامل معه وربما خُيل إلى من يقترب من آفاقه أنه يخطو حيث تخاف الجنيات أن تمشى. إلا أنه من المضحك حقاً أن تظل تلك القوة النافذة فى الحياة مجهولة وخارج نطاق الدراسة والبحث بل موضوع اتهام من علماء الاجتماع.

المرء لا يقع فى الحب:

إذا أراد أحدنا أن يعرف الحب، فعليه أن يعيش الحب بالفعل وبالممارسة. قد يفكر فى الحب أو يقرأ عن الحب، أو يتحدث باستفاضة ويتناقش حول الحب، وهذا كله حسن وجميل، لكنه فى النهاية لا يكفى وحده لتقديم إجابات حقيقية وافية شافية. إن الأفكار والقراءات والأحاديث والمحاورات لا تكون ذات قيمة، إلا إذا طرحت تساؤلات تدفع إلى العمل. فالإنسان لن يعرف حقيقة الحب إلا عن طريق الإدراك الجديد العذب، إن المرء يعيش طوال عمره يسأل ويستفسر ويتساءل ويستوضح فإذا كان حتماً عليه أن يفعل ذلك يصير منطقياً أن يتعلم كيف يصوغ السؤال، وكيف يعرضه.. وحين يعايش أسئلته واستفساراته فإنه سوف يتلقى ويتعلم الكثير من الحقائق عن الحب.. ومن بين تلك الحقائق، ما يؤكد أن الحب ليس شيئاً.. إنه لا يعطى قط إلا عن رغبة وإرادة ويهدى عن طواعية وسعادة.. ومن الناس من لديه استعداد للبيع: بيع جسمه وعقله باسم الحب.. لكن الذى يظن أن الحب يباع ويشترى لا يخدع إلا نفسه وهو فى ضلال مبين.

عقبات فى طريق المحبين:

أن تحب وتنمو فى الحب ويستمر ويدوم، ليس أمراً سهلاً هيناً، فعندما يقرر المرء أن يعيش فى حب، سيواجه عدة عقبات.. ولكن عندما يعكف فى روية وتبصر على دراسة تلك العقبات وتحليلها سيكتشف إن حالفه الحظ أنها جميعاً عوارض مصطنعة وأن معظمها مما جنت يداه. بل قد تكون فى الحقيقة والواقع غير قائمة.. والجانب الأكبر فى تلك العقبات متعلق بانتحال المعاذير هرباً من مواجهة تحديد الحب. والذى يقع فى حبائل تلك الروادع ويصده عن الحب مثل هذه العقبات المزعومة سوف يتهم نفسه دائماً بالعجز والقصور والفشل. ولكن مع ذلك هناك حقاً من المبررات ما قد يسمح للمرء أن يدير ظهره للحب. لأمور خارجية عنه. وخلاصة

القول أن الإنسان يبدو فى قمة سعادته حين يبدع ويبتكر.. وفى الحق.. أن ذروة القدرة الإنسانية لا تظهر إلا حين يعمل ويجتهد ويجدد.. والحب دائماً يجدد ويبتكر ويبدع، ولا يهدم أبداً أبداً ولا يحطم.. وهنا فقط يكمن فى الإنسان الرجاء.

أحب نفسك أولاً:

لكى تحب الآخرين، يجب أن تحب نفسك أولاً.. لقد ذكرنا أكثر من مرة أنك لن تعطى إلا ما تملك.. وهذا يصدق فى الحب.. لن تقدم لغيرك ما تجهل ومالم تجرب ــ وبما أن الحب ليس شيئاً فإنه لن يضيع منك إذا قدمته وأعطيته. تستطيع أن تعطى حبك لمئات الأشخاص وتظل تحتفظ فى نفس الوقت بنفس القدر من الحب الذى لديك أصلاً. إنه كالمعرفة: إن الرجل الحكيم يعلم الناس ويعطيهم كل ما عنده من علم ومعرفة وحكمة. دون أن يفقد مما يحمل منها شيئاً وإنما عليه أولاً أن يعرف.. من الأفضل دائماً أن نقول إن المرء «يتقاسم» الحب كما يتقاسم المعرفة لكنه يشاطر ويقتسم فقط حين يملك. أن يحب المرء نفسه لا يتضمن الأنانية والتركز حول الذات.. أن يحب المرء نفسه يعنى بالتحديد: العناية غير الزائفة بها، الرقابة الحذرة، الاهتمام بما يصلحها، والاحترام.. إن أساس الحب: رعاية الإنسان لنفسه.

استخدم دائماً كلمة نعم:

إذا أراد المرء أن يكون محباً ومحبوباً فعليه أن يستفتح الحب بكلمة «نعم» فعندما يقول للحب نعم يتحتم عليه أن ينظر بعناية فى الكلمات التى يستعملها فى الحديث مع زوجته، مع أولاده، مع رئيسه، مع زملائه، مع مرءوسيه، مع جيرانه، مع أصدقائه المقربين، مع بائعة المتجر، ومع العامل فى محطة البنزين. لأن الكلمات التى تستخدمها سوف تخبرك من أنت؟ ماذا أبصرت؟ ماذا تعلمت وكيف تعلمت؟ وما أنت إلا كلماتك. وقد تكون تلك الكلمة هى الخطوة الهامة والمتسعة على طريق البحث عن.. الحب!!

الحب بين المسئولية والاعتراف بالحاجات:

وقبل أن يحب المرء أى إنسان.. أو الناس جميعاً، تكون مسئوليته الأولى الحب، وستظل دائماً نحو نفسه هو.. الحكمة ــ المأثورة تقرر أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك من الخير.. فهى تفترض مسبقاً حب الإنسان الخير لنفسه أولاً وتوحى بأنه سوف يحب الآخرين إلى المدى الذى يحب فيه ذاته.. إنه بقدر المدى والعمق فى شعور المرء بالمسئولية عن النمو السليم فى الحب بقدر ما يشعر بها نحو مساعدة الآخرين على الإحساس بالمسئولية مثله. من أجل ذلك نجد أن الحب يحقق الائتلاف خاصة ائتلاف الجهد البشرى.. كما أن إشاعة البهجة تعد مسئولية أخرى تترتب على الحب، إذ أن السرور أو البهجة لصيقان بالحب لا ينفصلان أبداً. والحب المسئول يتطلب

التعبير عنه بجانب ذلك فالحب يعترف بالاحتياجات البشرية إذ أن للإنسان حاجات جسمية وعاطفية. وبالرغم من أنه ينفق معظم وقته ومعظم حياته سعياً ودأباً من أجل تلبية المطالب الجسدية إلا أنها الأسهل فى الإشباع. إن للإنسان مطالب عديدة واحتياجات كثيرة منها الحاجات العاطفية. ورغم أنها تبدو حاجات بسيطة إلا أن كل جزء منها على جانب كبير من الأهمية، لأن اليأس والإحباط الشديد والعزلة والتوتر المفرط كلها مالم تلق إشباعاً عاطفياً ونفسياً تسبب هزالاً وضعفاً وذبولاً فى الجسم يفضى إلى الموت أو إلى حياة أقرب إلى الموت.

صفحة أخيرة:

ها نحن الآن على مشارف آخر صفحات كتاب الحب.. وقبل أن نغادره.. علينا أن نستمع إلى تلك الكلمات التى سطرها تورنتون وايلدر.. حيث يقول: «.. ونحن أيضاً سوف نحب لفترة ماثم يطوينا النسيان ولكن يظل فى الحب اكتفاء.. تلك النبضات الدافقة من الحب، يرجع الفضل فيها لصانعها.. الحب.. حتى إن الذاكرة والذكريات، ليست ضرورة للحب. هناك أرض للإحياء وأخرى للموتى، وبينهما هوة يستحيل عبورها إلا فوق جسر الحب.. كل شيء يزول إلا المعنى وحده.. فهو يمكث على الأرض» !!

حديث من القلب.. عن الأزمة الاقتصادية فى مصر[1]

إلى كل الأساتذة المتكلمين.. وفلاسفة الاقتصاد الذين أغرقونا حتى آذاننا فى المشاكل.. إلى أصحاب الايدلوجيات والأفكار التى باتت وعاشت غريبة عنا.. إلى كل الذين حبسوا أنفسهم داخل المكاتب المكيفة على أمل إيجاد حل يرضى جميع الأطراف لنخرج من جحيم المشكلة الاقتصادية التى تكاد تحرقنا جميعاً، وحتى هذه اللحظة لم يصلوا ولم نسمع منهم سوى الكلمات المعسولة والمصحوبة بالهروب الكبير!! إلى كل هؤلاء وهؤلاء.. وإليك أيضاً عزيزى القارىء.. أقدم هذا الكتاب الخطير الذى يشرّح آلامنا الاقتصادية ويفضح مشاكلنا، ويلقى الضوء المبهر على عناصرها وتاريخها وكيفية الحل.. إنه كتاب «محنة الاقتصاد والاقتصاديين» تأليف الدكتور حازم الببلاوى.. وللأهمية القصوى للمشكلة التى يتحدث عنها المؤلف.. وبالصراحة غير المعهودة فى بعض علمائنا.. سوف نتناول بالعرض والتقديم الكتاب على مدى حلقتين، نترك خلالهما كامل الحرية لمؤلفنا كى يتحدث عما يدور من قريب أو بعيد عن المشكلة الاقتصادية فى مصرنا الحبيبة!!

---

(١) محنة الاقتصاد والاقتصاديين ـ د. حازم الببلاوى ـ نشر فى حلقتين بالوفد: الأولى ٢٧ سبتمبر ٨٩

وأثناء بحثى الدائب عن كلمات تقدم الكتاب والمشكلة .. حتى تكون إشارة بدء ساخنة، تعطى القارىء المثقف الإحساس بالخطورة والأهمية فى آن واحد لم أجد سوى كلمات المؤلف خير بداية .. ولنسمع ماذا يقول: «المشاكل الاقتصادية القائمة فى مصر الآن ليست فقط نتيجة تطور تاريخى بعيد بل هى أيضاً حصيلة ظروف وأوضاع اقتصادية محيطة. وإذا كان لم يعد فى وسع أية دولة معاصرة أن تتجاهل ما يحدث حولها وعلى ساحة الاقتصاد العالمى فإن ذلك لابد وأن يكون أشد صدقاً فى ظروف دولة مثل مصر تعكس اختلالها الاقتصادى فى اعتماد متزايد على الاقتصاد الخارجى». بل أكثر من ذلك قوله فى موضع آخر من الكتاب؛ «إن إحدى الحقائق التى تبرز من مراجعة تاريخ مصر الحديث هى التناقض المستمر بين قدرات مصر السياسية وعجزها الاقتصادى»!!

من أين نبدأ الرحلة ؟!:

على أية حال .. إن ما مر علينا منذ لحظات من كلمات قاسية تحمل الحقيقة فى قلبها والمرارة فى طعمها سوف نقرأ غيرها وغيرها داخل هذا الكتاب .. وقد تكون الحقيقة مرة .. ولكن لابد من معرفتها حتى تكون البداية جحيماً والعلاج حاسماً .. ولقد بلور المؤلف هذا المعنى حين قال فى بداية فصله الثانى من الباب الأول «لابد من التنويه منذ البداية إلى أنه لا يوجد حل بلا ألم للاقتصاد المصرى أو غيره .. فالمشكلة الاقتصادية كلها تدور حول فكرة «التضحية» أو «التكلفة» والكفاءة هنا تتحقق عندما لا تتجاوز هذه التضحية حدودها المعقولة وعندما تتناسب مع العائد من ورائها، وتتحقق العدالة عندما توزع التضحيات بشكل لا يثير الشعور العام.

من الفهرس أولاً:

وليسمح لى القارىء أن أعود من حيث بدأت .. ليكون الحديث مرتباً بشكل منطقى. وخير عودة لنا هى أن نتحدث من خلال الفهرس أو المحتويات، والكتاب فى مجلد من القطع المتوسط ويحتوى على مائتين وخمس وثمانين صفحة. وبه ثمانية أبواب مقسمة على النحو التالى:

١ــ هموم الاقتصاد المصرى المعاصر: عن الاقتصاد والاقتصاديين ــ انطباعات عن الاقتصاد المصرى ــ لحظات الحقيقة ــ قوة فى السياسة وضعف فى الاقتصاد.

٢ــ عن المستقبل والحتمية: المشروع التاريخى: عناصر للحوار ــ مستقبل دور الدولة فى الوطن العربى.

٣ــ الدولة والإدارة الاقتصادية: العقد الاجتماعى وضرورة التغيير فى مصر ــ الدولة ومجتمع الموظفين.

٤ــ مفاهيم شائعة: مشكلة الخسائر وحسن الإدارة الاقتصادية ــ الوسطاء فى النشاط الاقتصادى ــ استراتيجية الاعتماد على الذات ــ فائض السيولة وعجز المدخرات ــ التعليم والمجانية.

٥ــ الأموال الهائمة: المنافسة الدولية على أموال المصريين ــ الدولة والسيطرة على موارد الاقتصاد القومى ــ ضريبة التركات والأموال الهائمة.

٦ــ ما رأى الدين: حقائق الاقتصاد المعاصر ومسألة الربا ــ قدرة المكلف وعجز الأمة: عن الحج والعمرة فى ظروف الشدة.

٧ــ رسائل قصيرة: حزب المتوسط الإحصائى ــ شقة للإيجار ــ الانتخابات الفردية والقائمة.

٨ــ حوارات: مقابلة الرئيس أنور السادات ــ حديث صحفى مع جريدة الجمهورية.

محنة الاقتصاد والاقتصاديين بدأت من هذا التاريخ:

قبل الدخول فى تفاصيل الحديث عن محنة الاقتصاديين والاقتصاد المصرى.. يعود بنا المؤلف خطوات إلى الخلف ليعرفنا بالبداية الحقيقية لأزمة الاقتصاد التى نعانى منها الآن.. فتحت عنوان فرعى يقول اكتشاف العالم الثالث وظهور قضية القيمة الاقتصادية يقول: فى كل زمن وجد الفقر والغنى كما قامت دول غنية إلى جوار دول فقيرة.. ولكن الوعى بمشكلة الفروق فى مستوى المعيشة بين الشعوب والعمل على إزالة هذه الفروق لم يصبحا من اهتمامات العالم إلا منذ الحرب العالمية الثانية، ولم تشذ مصر عن هذا النمط العام. فلم تحتل المشكلة الاقتصادية المكان الرئيسى من الاهتمامات العامة إلا بعد الحرب وخاصة منذ الخمسينيات حقاً. لقد عرفت مصر ومنذ بداية الكفاح للاستقلال السياسى مع ثورة ١٩١٩ إرهاصات للعمل من أجل الاستقلال الاقتصادى وكانت محاربة الثلاثى «الفقر والجهل والمرض» أحد أهم الأهداف العامة. على أن الوقت لم يسمح ببلورة رأى عام حول قضية التنمية الاقتصادية، فلم تلبث أزمة ١٩٣٠ أن أمسكت بخناق الاقتصاد المصرى بشأن معظم الاقتصاديات، فانصرفت الجهود إلى

محاولة تطويق آثار هذه الأزمة .. ثم بدأت بوادر الاستعداد للحرب الثانية ، مما أدى إلى وضع الاقتصاد المصرى كله فى خدمة الحرب.

الفكر الاقتصادى وقضايا التنمية :

وحتى يكون حديث المؤلف عن محنة اقتصادنا القومى بشكل علمى نراه يمهد لحديثه القادم بتلك الخلفية العلمية التى يبصرنا من خلالها بالفكر الاقتصادى وبدايته ، ودوره فى العلاج الناجح من الأزمات الاقتصادية بشكل عام .. وعن ذلك يقول : إنه بعد الحرب الثانية بدأ يتميز فرع جديد من فروع النظرية الاقتصادية ويهتم خصيصاً بقضايا التخلف فى الدول الفقيرة. ولقد عرف الاقتصاديون الأوائل آدم سميث ومن تبعه اهتماماً عالمياً بقضايا النمو بصفة عامة. ولكن الفارق الأساسى بين هؤلاء الكتاب وبين كتاب التنمية الاقتصادية المحدثين هو أن هؤلاء الأخيرين لم يهتموا بمشكلة تطور المجتمعات ونموها الاقتصادى بصفة عامة ، وإنما بظروف التطور الاقتصادى لدول لم تستطع أن تشارك بشكل فعال فى التقدم الاقتصادى العالمى. وواضح أن ظروف الدول المتخلفة أوضاعها لا تعانى فقط من الفقر والتخلف ، ولكنها تعانى بشكل خاص من وجودها فى أدنى سلم التطور فى عالم قطع أشواطاً هامة من التقدم والرقى وبالتالى فهى تعانى من مشاكل التأخر الزمنى !!

علامة استفهام كبيرة !! :

ولعل الملاحظة الأولى التى ترد على الفكر الاقتصادى فى قضايا التنمية هى أن بداية وأساس هذا الفكر قد ولدا فى العالم المتقدم ومن اقتصاديين من دول غربية غنية !! ولم تبدأ المساهمات الأصلية من أبناء العالم الثالث فى مناقشة قضايا التنمية والبحث عن حلول لمشاكلها الاقتصادية إلا فى فترة متأخرة واقتصرت بشكل عام على مساهمات من الهند وأمريكا اللاتينية ، أما مساهمات المفكرين العرب والمصريين النظرية فقد كانت محدودة ولم يلمع منهم على المستوى العالمى سوى أقل القليل !!

السلطة العسكرية السياسية فى مواجهة القضايا الاقتصادية :

فى مواجهة الإطار الفكرى لقضايا التنمية الاقتصادية تولت الحكومات الوطنية فى مصر مسئولية السياسة الاقتصادية منذ نهاية الحرب الثانية. وفى عام ١٩٥٢ قامت الثورة وبذلك ارتبطت جهود التنمية الاقتصادية فى مفهومها الحديث مع سياسات حكومات الثورة المتعاقبة. وقد أدى التوافق بين بداية الأخذ بسياسات التنمية الاقتصادية وبين قيام الثورة إلى طبع التجربة بأكملها بطابع خاص وهو الهيمنة والسيطرة الساحقة للسلطة السياسية على التطورات الاقتصادية. وبالإضافة إلى أن الإطار الفكرى الاقتصادى كان هشاً فى مسائل التنمية

الاقتصادية قبل الثورة، فإنه بقيام هذه الثورة قد بدأت المواجهة لقضايا التنمية الاقتصادية أمام فكر اقتصادي مشتت وغير متجانس ومصالح اقتصادية ضعيفة وغير منظمة ومن ثم فقد كان للسلطة العسكرية السياسية الدور الكاسح فى رسم توجهات التنمية الاقتصادية .. ومع ضعف وإلغاء الأحزاب وعدم تنظيم القوى الاجتماعية توافر للسلطة السياسية سيطرة شبه كاملة على مسار التطور الاقتصادى اللاحق . بجانب ذلك وإزاء هذه الأوضاع كان دور الاقتصاديين محدوداً للغاية .

تناقض غريب :

لقد أدت هذه السيطرة أو الهيمنة للسلطة السياسية إلى عدد من النتائج التى أثرت على مسار التجربة المصرية . ولعل أهم هذه النتائج هو الأولوية المطلقة التى أعطيت لتدعيم واستمرار السلطة السياسية القائمة . إن مفهوم التنمية الاقتصادية فى ذلك الوقت قد غلب عليه لفترات ليست بالقصيرة فكرة قوة الدولة وقد أدى هذا المفهوم التجارى لقوة الدولة الاقتصادية إلى مزيد من الاهتمام بإبراز مظاهر قوة الدولة فى الخارج وقبل أن تكتمل عناصر قوتها الإنتاجية فى الداخل .

من الزراعة إلى الصناعة :

كان الاتجاه السائد بخصوص النشاط الاقتصادى بعد الثورة بين المفكرين الاقتصاديين هو أن التصنيع هو طريق التنمية وأن الدول المتخلفة إنما تعانى من مشاكلها الاقتصادية بسبب عدم دخولها مجال التصنيع . وقد وجد هذا الاتجاه ترحيباً من السلطة السياسية الجديدة فى مصر، فأنشأت وزارة للصناعة وتم وضع أول برنامج للتصنيع عام ١٩٥٧ . وهذا التغيير فى توجه الاقتصاد من الزراعة إلى الصناعة كان يحتاج بالضرورة إلى عناصر بشرية ومؤسسين لكى تحقق هذا التغيير. وقد فرضت الظروف القائمة آنذاك الاعتماد على الدولة لتحقيق هذا التغيير الهيكلى . ويرجع ذلك إلى ندرة عناصر المنظمين من المواطنين الذين لهم تجربة مفيدة .. الأمر الذى جعل الدولة تواجه فراغات فى العناصر التى يمكن أن تساندها فى تحقيق التطوير الاقتصادى المطلوب !! بجانب ذلك فقد أبرز عدد من المفكرين الاقتصاديين عجز جهاز السوق ودافع الربح عن ولوج الصناعة الأساسية التى تحقق تغيير الهيكل الاقتصادى بشكل فعال ، كما بدأت مصر فى هذه الفترة العودة إلى عادة قديمة مارستها قبل ذلك بقرن من الزمان وهى عادة الاقتراض من الخارج !!

ومن الابرة إلى الصاروخ :

بدأت الستينيات بوضع الخطة الخمسية الأولى وفى بداية تنفيذها لجأت الدولة إلى الإجراءات الاشتراكية التى لا يجوز التجاوز على سلبياتها ، حيث اتضح أن أخطر ما واجهته تلك

لخطة هى أنها لم توجه العناية الكافية للتنسيق بين الصناعات التى أوصت بإنشائها أو بعبارة خرى فقد غلب على برامج التصنيع آنذاك الجوانب الفنية دون الاعتبارات الاقتصادية فى الربط بين العائد والتكلفة. وهذا هو الوقت الذى طرح فيه شعار من الابرة إلى الصاروخ وهو شعار يتضمن حسن النية والمقصد الطيب بقدر ما يخفى من السذاجة وقصر النظر. وعرفت مصر عجزاً فى محصول القطن آنذاك.. وفى نفس الوقت بدأ الانغماس فى حرب اليمن فأوقفت أمريكا المعونات مما أدى إلى انهيار الخطة فى سنتها الأخيرة وتدهور معدل التنمية إلى أقل من ٢٪ وجاءت هزيمة ١٩٦٧ لتوجه الضربة القاضية للاقتصاد المصرى.

ظهور نجم .. البيروقراطية :

مع الدور المتزايد للدولة فى النشاط الاقتصادى منذ أوائل الستينيات بدأ تغلغل الأجهزة الإدارية باسمائها المختلفة (حكومة مركزية ــ إدارة محلية ــ قطاع عام ــ هيئات عامة ــ جمعيات تعاونية ــ نقابات) يسيطر على الحياة الاقتصادية.. ومما ينبغى التأكيد عليه هو الدور الذى تباشره هذه الإدارة فى التأثير فى توزيع المزايا والاعباء الاقتصادية بمقتضى قراراتها الإدارية مما جعلها مصدراً وقوة اقتصادية لا يستهان بها. وهذا الخطر الذى تمثله الإدارة لا يرجع إلى طبيعة الملكية العامة بقدر ما يرجع إلى أسلوب الإدارة الذى يستند إلى اعتبارات السلطة وليس إلى اعتبارات الكفاءة وكانت هذه هى التربة الطبيعية لنشأة وظهور البيروقراطية وظهور نجمها الساطع.

الدولة توفر كل شىء :

ويبدو أنه مع تزايد دور الدولة فى النشاط الاقتصادى ساد شعور عام بأن الإنتاج هو مسئولية الدولة وتخلى الأفراد بالتالى عن مسئولياتهم ــ فالدولة تضمن للأفراد التعليم والصحة والخدمات الأساسية، بجانب توفرها السلع بأسعار رخيصة وهكذا أصبحت مسئولية الإنتاج ملقاة على عاتق الدولة وتخلى الأفراد بالتالى عن مسئولياتهم ليصبحوا عالة على الدولة. وفى هذا الجو غلب النفاق العام وانفصل القول عن الفعل. ومع كثرة الحديث عن المصلحة العامة تمكنت المصالح الشخصية على عدد كبير من قرارات واجراءات الإدارات والأجهزة وأخيراً فقد كان «الكيف» إحدى ضحايا هذه العلاقة الأبوية بين الحاكم والمحكومين فمع رغبة الدولة فى ارضاء أكبر عدد من العيال فقدت قدرتها على تقديم خدماتها على مستوى مقبول.

سياسة الانفتاح ومحاولة البدء من جديد:

ولا يمكن مناقشة فترة السبعينيات دون بدأ تطبيق هذه السياسة فى ظل نظام كان يغلب عليه تدخل الدولة بشكل أوسع ولكنه قليل الفاعلية، فهناك دولة كبيرة ولكنها مترهلة وضعيفة وكان

الغرض من سياسة الانفتاح هذه هو تخفيف القيود الإدارية والعودة للمؤشرات الاقتصادية فى الكفاءة مع فتح الباب للقطاع الخاص للمشاركة فى النشاط الاقتصادى على نحو أكثر فاعلية ودعوة رؤوس الأموال العربية والأجنبية للاستثمار في مصر. على أن أخطر ما واجه سياسة الانفتاح تلك هى أسلوب تطبيقها والذى ساعد على تشويه العديد من ممارستها.

تواريخ هامة فى حياة الاقتصاد المصرى:

دون الدخول فى متاهات التاريخ، فإن أوضاع مصر الاقتصادية المعاصرة هى حصيلة اختلال جوهرى بين النمو السكانى والنمو الاقتصادى من ناحية واجهاض محاولات التحديث من ناحية أخرى وهناك تواريخ هامة فى حياة إقتصادنا المصرى يمكن أن نوجزها بالشكل التالى:

- الفترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٥٨ وفيها استخلصت مصر بشكل خاص الموارد المتراكمة لها خلال الحرب من الأرصدة الاسترلينية التى بلغت حوالى ٤٣٠ مليون جنيه استرلينى أرصدة لدى بريطانيا. وفى نهاية ١٩٥٨ استهلكت مصر تقريباً كل تلك الأرصدة !!
- الفترة من عام ١٩٥٨ — ١٩٦٤: وفى هذه الفترة اعتمدت مصر على الكتلتين الغربية والشرقية فبدأت منذ عام ١٩٥٧ الاستفادة من المعونات الزراعية الأمريكية وبدأ منذ عام ١٩٥٨ أول قرض سوفييتى للسد العالى.
- الفترة من عام ١٩٦٤ — ١٩٧٤: هذه فترة التيه، فبعد توقف المعونات الغربية وعدم زيادة القروض الشرقية لتعويض النقص بدأ الاقتصاد المصرى يعانى الكثير وساعد على ذلك استمرار حرب اليمن ثم جاءت حرب ١٩٦٧ فأجهزت على ماتبقى من قدراتنا الذاتية.
- الفترة من عام ١٩٧٤ — ١٩٧٨: وهذه فترة الاعتماد على التمويل العربى.
- الفترة من عام ١٩٧٩ — إلى (١٩٨١): وقد ازداد فيها الاعتماد على المعونات الغربية من ناحية وظهر اعتماد مصر على النفط بشكل كبير من ناحية أخرى. وبذلك ازداد الاختلال الاقتصادى.

قضايا مطروحة:

يخصص مؤلفنا هذا الجزء لمناقشة العديد من القضايا المطروحة والمتعلقة بالتنمية الاقتصادية فى مصر.. وكلها قضايا هامة وتستحق الدراسة ولكن نظراً لضيق المساحة سوف نستعرضها على سبيل الإجمال.. ونفسح المجال أكثر لبعضها حتى يطول الحديث عنها لما لها من أهمية قصوى:

(أ) الضرائب: يلاحظ أن تعديلات قوانين الضرائب لم تأت بأى جديد على قانون ١٤ لسنة ١٩٣٩ فمازال نفس المنطق والفلسفة مع تعديل نص هنا أو تغيير نص هناك !!

(ب) التضخم: مازال مشكلة عالمية ..

(جـ) الصرف الأجنبى: لا تزال سياسة مصر بالنسبة للصرف الأجنبى يشوبها الكثير من عدم الوضوح.

(د) صورة مصر فى سوق الاستثمار الدولى: وتملك مصر عدة أوراق هامة فى هذا الصدد: استقرار سياسى، سوق داخلى، دور أساسى فى المنطقة العربية.

(هـ) الاستثمار العربى فى مصر: إن الظروف تبدو مهيأة للقيام بحملة مكثفة للاستثمار العربى التجارى فى مصر.

(و) السكان: لعل أهم وأخطر مشكلة تواجهها مصر هى السكان .. وهى المشكلة التى على ضوئها ستحدد نجاح أو فشل المشروع المصرى كله.

محنة الاقتصاد والاقتصاديين (٢)

على مدى حلقة كاملة قضينا الاسبوع الماضى أمتع الرحلات مصاحبين لكتاب « محنة الاقتصاد والاقتصاديين » للأستاذ الدكتور حازم الببلاوى .. ومن خلال أوراقه البيضاء وضعنا أيدينا على أعراض داء الأزمة الاقتصادية التى دوختنا السبع دوخات حتى لحظة كتابة هذه السطور.. ولم نعرف سواء نحن أو الاقتصاديون المتخصصون متى سيكون الخلاص من هذه الأزمة الطاحنة التى يستفحل خطرها لحظة تلو الأخرى !! واليوم نكمل مسيرة قراءة هذا الكتاب لنقضى معه ومع مؤلفه بقية الفصول حتى نعيش الصورة بكل تفاصيلها .. ونلم بأبعاد أزمتنا الاقتصادية إن لم يكن على سبيل التفكير فى الحل والمشاركة .. فهو من باب العالم بالشىء خير من الجهل به !!

---

(٢) الحلقة الثانية ونشرت بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٩.

عن المستقبل والحتمية:

وحتى يكون هناك تسلسل مرتب للموضوعات والأفكار التى يعالجها الكتاب، فسوف نستعرض بشكل سريع بعضها.. ونتوقف عند البعض الآخر..

ويحكمنا فى هذه القاعدة قرب الموضوع أو بعده عن أزمة مصر الاقتصادية. فتحت عنوان رئيسى عن المستقبل والحتمية يحدثنا المؤلف عن المشروع التاريخى أو القومى لكل دولة.. ثم فى حديث شيق هام يعرج بنا ــ ومن خلال هذا المشروع ــ إلى حديث مستقبل دور الدولة فى الوطن العربى.

ضرورة التغيير فى مصر:

تواجه مصر فى الربع الأخير من القرن العشرين أخطر تحديات التنمية، فإنها تطرح فى نفس الوقت العقد الاجتماعى وعلاقة الحاكم بالمحكومين وأثر كل ذلك على جهود التنمية. وفى العصر الحديث، عرفت مصر تطورات هامة، كثير منها إيجابى وكثير منها أيضاً سلبى. ومع ذلك وبالرغم من كل ما تحقق من إيجابيات، فقد بلغت الجوانب السلبية حداً يقتضى إعادة النظر والعمل على إحداث تغيير أساسى فى المجتمع المصرى. ومع الاعتراف بخطورة استمرار الوضع القائم، فلا ينبغى أن ننسى أن هذا الوضع يمثل مصالح عديد من الفئات ومزايا لكثير من القطاعات. ومن ثم فإن أى تغيير لابد وأن يقاوم من أصحاب هذه المزايا والمصالح.. ولذلك فإن أى تغيير لا يتوقع أن يحدث أثره مالم يكن بجرعة قوية ومتكاملة من الإجراءات المستمرة وإلا ذهب هباء مثل العديد من الصرخات السابقة.

السلوكيات والقيم أولاً:

مع الاعتراف بأن تدهور الأوضاع يرجع إلى اعتبارات متعددة.. يرجع بعضها إلى جانب الموارد والتكنولوجيا المتاحة والبعض إلى اعتبارات متعلقة بالقوانين واللوائح والنظم التى تحكم عملية الإنتاج والملكية والتوزيع بجانب التطورات الدولية والإقليمية. فقد تكون نقطة البدء هى محاولة إحداث تغييرات إيجابية فى سلوك الأفراد والجماعات من خلال تغيير القيم السائدة. إذ

تمثل ظواهر سلبية خطيرة .. مثل تدهور أخلاقيات العمل .. وفى النظرة إلى العلم والتكنولوجيا وفى البعد عن التجديد والابتكار، وفى الانفصال بين عالم الكلمة وعالم الفعل، وغير ذلك من السلوكيات المدمرة !! وتغيير هذه القيم لا يتم بالوعظ والإرشاد أو تدخل السلطة السياسية .. حيث إنه قد صدر خلال السنوات العشر الماضية أكثر من ٧٥٠٠ قانون. فماذا كانت النتيجة؟ لم نعاصر وقتاً امتهن فيه القانون والإجراءات كما يحدث الآن! وقد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أن قوة الدولة واحترامها قد يتطلبان التخلص من العديد من الأعباء للتركيز على الاهتمامات الأصلية.

الخدمات .. مقابل الالتزام بالشرعية:

منذ بداية الاستقلال السياسى كان هم الحكومات المعلن وغير المعلن هو توفير الخدمات للأفراد مقابل استقرار الحكم. فالدولة بناء على هذه النظرية تقدم الخدمات للأفراد وهؤلاء، عليهم الالتزام بعدم الشغب وضمان استقرار الأمن بما يكفل استقرار الحكومة!! وهكذا بدأنا نعيش فى مجتمع يرى الأفراد فيه أنفسهم «عيالاً على الدولة» التى ينبغى أن تقدم لهم التعليم والصحة مجاناً كما تضمن ظروف العمل والوظائف. والدولة لا تطالب الأفراد بالعمل والجهد، ولكنها شديدة القسوة عندما يتهدد الأمن والاستقرار. وبذلك تحددت العلاقة بين الحاكم والمحكومين على أنها علاقة أبوية توفر فيها الحكومة للأفراد كل شىء مقابل حسن السير والسلوك!! ومثل هذه الفكرة تتعارض بشدة مع فكرة الدولة الصناعية الحديثة. وإذا كان هذا الامر قد بدأ على حياء مع بداية الديمقراطية السياسية فقد ازداد تأكداً مع الثورة عام ١٩٥٢ وشيوع الأفكار الاشتراكية .. وأصبحت الدولة مسئولة عن كل شىء والأفراد يطالبون بكل شىء ما داموا ملتزمين حدود الأدب والطاعة!! من أجل ذلك فإن هناك ضرورة ملحة للبحث عن صيغة جديدة للعقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكومين تتحدد فيه العلاقة بين الطرفين على أساس جديد.

مجتمع الموظفين:

يكثر الحديث هذه الأيام عن حق الدولة على الأفراد بمناسبة ما تتطلبه الأعباء المتزايدة على الحكومة، وبصرف النظر عن الظروف الطارئة التى يواجهها الاقتصاد المصرى حالياً، فإن هذا الحديث يطرح فى الواقع إحدى أخطر قضايا السياسة وهى علاقة الفرد بالمجتمع. وربما تكون هذه هى إحدى أهم قضايا الفكر السياسى والتى شغلت الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة منذ القدم بحيث لا يكاد يوجد جديد يمكن أن يضاف إلى كل ما قيل فى هذه القضية الهامة. ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى الاستمرار فى معاودة التفكير وتقليب الأمور دون أن يمكن الفصل

فيها بكلمة نهائية تحسم الأمور إلى غير رجعة. ويلاحظ أنه من أخطر ماتتعرض له مصالح المجتمع وحقوق الأفراد أن يسود الاعتقاد فى الاندماج بين الدولة والمجتمع وأن كل مايصدر عن أجهزة الدولة إنما هو تعبير عن المصلحة العامة.

مفاهيم شائعة:

أولاً: مشكلة الخسائر وحسن الإدارة الاقتصادية: مع تعثر بعض المشروعات وكثرة الحديث عن الخسائر فى القطاعين العام والخاص بدأت ترتفع بعض الأصوات للاستغاثة وطلب الإنقاذ، كما لو كانت الخسائر كارثة وطنية وليست مجرد مؤشر لاتخاذ القرارات المناسبة فى ظل الاعتراف بوجود هذه الخسائر وعدم محاولة إنكارها.. وقد تكون الخسائر على مستوى المشروع أمراً كريهاً وغير محبب إلى النفس، وإنما معناه أن هناك أموراً تحتاج إلى تعديل وأنه لا يجوز ترك الأوضاع على حالها فهى مؤشر لضرورة التغيير، وتحت هذا العنوان الفرعى الكبير يناقش المؤلف عناصر المشكلة ويفندها، فهو يحدثنا عن الربح والخسارة جزاء للمشروعات ولكنها مؤشران للاقتصاد، كما يشير إلى أن الإفلاس قد يكون نعمة للاقتصاد. فإن كان الإفلاس يعد كارثة اقتصادية بالنسبة لصاحب المشروع، فإن الأمر يختلف بالنسبة للاقتصاد القومى، إذ أن الإفلاس قد يكون تصفية قانونية للمشروع ولكنه ليس تصفية جسدية ومادية له، فأصول المشروع من آلات وأجهزة ومنشآت تظل قائمة مع الإفلاس وإن انتقلت إلى يد أخرى تستغلها بشكل ناجح يعوض الإفلاس والخسائر، المهم أن الإفلاس يؤدى فى النهاية إلى أمرين هامين هما.. تغيير ملكية المشروع من ناحية وتطهيره من الأعباء المالية من ناحية أخرى.

ثانياً: الوسطاء فى النشاط الاقتصادى: كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن الوسطاء والوساطة.. وقد جاء ذلك بوجه خاص فى سياق الحديث عن أشكال الكسب غير المشروع.. ودائماً مايتكرر الحديث عن هؤلاء الوسطاء عند كل إشارة إلى قضايا الانحراف أو الفساد. وبذلك لم يعد غريباً النظر إلى أشكال الوساطة والوسطاء باعتبارها دائماً من أنواع النشاطات الضارة اجتماعياً. وهذه القضية ليست بهذه البساطة والسذاجة وهو أمر عند الحديث عنه يقتضى الكثير من الحذر، إذ تمثل حلقات بالغة الخطورة فى التطور الاقتصادى، ومن الأولى عدم إلقاء الأحكام المطلقة والتعميمات غير المبررة. فالوساطة فى الحياة الاقتصادية هى فى أحد التصورات من أهم أسباب التقدم!

تطرح للمناقشة هذه الأيام قضية التعليم خاصة من زاوية دراسة موضوعات ترشيد الإنفاق العام وبحث أوضاع مجانية التعليم.. الحق أن هذه القضية تطرح أموراً بالغة الأهمية تتجاوز مسائل التمويل لتتعلق بحقوق المواطن ومسئولية الدولة ومستقبل المجتمع ونظرته لعناصر التقدم،

وكلها أمور تتصل بالفلسفة والسياسة والاقتصاد، ومن العبث مناقشة مجانية التعليم بعيداً عن هذه الأمور. ولعل نقطة البداية فى هذا المجال هى التأكيد على أهمية المعرفة ومن ثم التعليم باعتبارهما من أهم مايميز الإنسان عن غيره من الكائنات.. ويعد التعليم أوضح طريق إلى المعرفة، وبهما معاً يزداد الإنسان إنسانية.

حديث العقل أولاً:

والحديث عن المعرفة والتعليم هو حديث العقل، إذ أنه أداة المعرفة وبالتعليم ينمو العقل ويزدهر ومن هذا المنطلق يعد العقل أداة التعليم و نتيجته أيضاً. لذا فإن التعليم ليس فقط أهم خصائص الإنسان بل إنه به نفحة إيمانية، فإن ذلك يظهر بأوضح شكل فى عقل الإنسان وعلمه فالعلم والمعرفة هما البداية، ويتراوح دور التعليم بين الرغبة فى خلق الإنسان الناطق والمواطن الصالح ففى التعليم حق للفرد وحق للدولة.. وبالتعليم تزداد إنسانية الفرد وتنمو قدراته الإنتاجية.. وبالتعليم أيضاً يرتقى المجتمع وتزداد قوته.

التعليم سلعة استهلاكية:

ليس من المستحب دائماً أن تستخدم تعبيرات الاقتصاديين فى مناقشة الأمور الخطيرة مثل التعليم ولكن ليس هناك ضرر كبير من ذلك بل قد ينتج بعض النفع. فأما أن التعليم سلعة فيقصد به التأكيد على أن هذا النشاط أو هذه الخدمة لا تتم بدون تكلفة تتمثل فى استخدام موارد بشرية. وأيا كان شكل تمويل خدمات التعليم فإن المجتمع لابد وأن يتحمل تكاليف هذه الخدمة. وهو بشكل عام يعد سلعة استهلاكية تحقق منافع مباشرة للمستفيد بها. ولكنه فى الوقت نفسه أداة لتطوير قدرات الفرد وإمكاناته الإنتاجية. وهو من هذه الزاوية نوع من الاستثمار الراقى لأنه يتعلق بتكوين رأس المال البشرى. والتعليم بصفة عامة ليس سلعة خاصة تقدم لطالب العلم وإنما هو سلعة عامة تهم المجتمع بأسره وبالتالى فإن أداء هذه الخدمة لايمكن أن يترك فقط لمجرد رغبات الأفراد. وفى هذا العصر لم يعد التعليم بجانب ذلك سلعة محلية متاحة على أرض الوطن، وإنما أصبح سلعة تباع وتشترى من خارج الحدود. وبذلك فقد أصبح سلعة محلية ودولية فى نفس الوقت.

بلد شهادات:

عندنا فى مصر حين نتحدث عن قضية التعليم فإن أذهاننا تتجه مباشرة إلى مختلف الشهادات العلمية المعترف بها باعتبارها جواز مرور للعمل أو المركز الاجتماعى!! وبانتشار التعليم وتنوعه أصبح من الضرورى وضع معايير ظاهرة للتقييم العلمى فى شكل شهادات معترف بها.. ومع ذلك ينبغى الاعتراف بأننا قد انسقنا إلى هذا الطريق بعيداً، حيث كاد التعليم

نفسه يفقد معناه من أجل الشهادات وتسعيرها . وإذا كان من الضرورى أن يعود التوازن من جديد بين الشكل والمضمون وأن يقل تقديس الشهادات وتزداد أهمية المعارف الحقيقية فإنه ولاشك فى ضرورة الاستمرار فى الاعتماد على أسس واضحة فى تقييم المستويات المختلفة لأنواع التعليم ، وحتى لانصبح بحق بلد شهادات . إنه أصبح من المفيد حقاً الإشارة هنا إلى أنه فيما جاوز مراحل التعليم العادى فإن معظم التقدم العلمى أصبح يتم الآن فى مراكز للتدريب والأبحاث فى الصناعة والشركات بعيداً عن الأجهزة التعليمية التقليدية ، ولذلك فإن قضية التعليم أوسع رحاباً من قضية الشهادات ويجب أن نتخلص منها بقدر الإمكان .

أموال المصريين بالخارج وألف علامة استفهام ؟! :

فى الوقت الذى يعانى فيه الاقتصاد المصرى من مشكلة الديون الخارجية تتعدد فيه الشواهد على وجود مدخرات مصرية هامة مودعة أو مستثمرة فى الخارج . وفى الوقت الذى يتردد فيه الحديث عن اتجاه بعض البنوك الأجنبية أو فروعها لتقليل حجم أعمالها فى مصر أو حتى إيقافها كلية ، نلحظ تزايد نشاط العديد من ممثلى البنوك الأجنبية والمؤسسات المالية لجذب مدخرات المصريين بالعملات الأجنبية .. وإذا كانت مصر والمصريون قد استقطبوا خلال عشر سنوات موارد هائلة من النقد الأجنبى قل أن تتوافر مثلها لدولة نامية غير بترولية ، فإن الأمر الذى لايقل أهمية وخطورة هو أن قدراً هاماً من هذه الموارد قد استقر خارج مصر ولحساب مصريين .. وإذا كانت مصر تسعى جاهدة لاستقطاب رءوس الأموال الاجنبية والعربية فإنه يبدو أنها فشلت إلى حد بعيد فى الاحتفاظ بقدر هام من ثروات المصريين أمام المنافسة الدولية . وهكذا تعانى مصر من المنافسة الدولية ليس فقط فى مجال التجارة ولكن بدرجة كبيرة فى مجال اجتذاب رءوس أموال أبنائها العاملين فى الخارج ، بل إنه يبدو أنها عجزت حتى على الاحتفاظ بمدخرات بعض المصريين المقيمين فيها . وإذا كانت هذه الظاهرة قد بدأت باستقطاب مدخرات العاملين بالخارج والذين لاتملك الدولة عليهم سلطة مباشرة ، فإن مايدعو إلى القلق هو امتداد نفس الظاهرة إلى أموال المقيمين حيث يتجه عدد غير قليل إلى الاحتفاظ بأموالهم فى صورة أصول أجنبية (المدخرات بالدولار) !!

الاقتصاد المعاصر ومسألة الربا :

تناقش فى هذه الآونة قضايا تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتعتبر مسألة تحريم الربا وعلاقة ذلك بالمعاملات الجارية وخاصة الفوائد من أكثر الأمور إثارة للجدل والخلاف . وإذا كان مفهوم الربا فى الإسلام بكل أنواعه مما يحتاج إلى جهود علماء الدين وفقهاء الشريعة فإنه ولاشك فى

أن معرفة حقائق الاقتصاد المعاصر مما يزيد فهمنا لهذه القضية الحساسة. ولذلك فإن الحوار بين أصحاب التخصصات المختلفة وخاصة بين علماء الشريعة ورجال الاقتصاد فى هذا الصدد، سيكون له أفضل الأثر على استجلاء النتائج فى وضوح كامل عن أحكام الشريعة وحقائق العصر

صاحب الجلالة التليفزيون(١)

مهما قلت أنا أو غيرى عن الجهاز السحرى المسمى بالتليفزيون .. فلن نوفى حقه من الحديث أو التعليق !! وذلك لأنه أصبح يمثل الآن بالنسبة للشعوب المتخلفة والمتقدمة الشيء العظيم والهام .. كما فرض خدماته على كل ميادين الحياة .. من هنا كانت صعوبة الحديث عنه وعن قيمته .. ومع ذلك .. فقد خصص كاتبنا الصحفى الكبير محسن محمد وقته لينقل لنا حديثاً شيقاً عن هذا الجهاز السحرى والعجيب .. من خلال كتابه الجديد «صاحب الجلالة التليفزيون» . وهذا المعنى الذى أوردته آنفاً يؤكده الناشر عبدالحميد غريب من خلال كلمته التى أنهى بها هذا الكتاب والتى يقول فيها تحت هذا الكتاب «فى الدول الشيوعية أنشيء التليفزيون ليدفع الناس إلى الاسترخاء والهروب من حياتهم ، فقد أصبح هذا الصندوق السحرى الصغير بديلا عن الحرية !! وفى الدول الغربية سمحوا بتقديم محاكمات المتهمين فى جرائم القتل على الهواء ؛ لأنها أكثر ترفيها من الحلقات والمسلسلات . فى هذا الكتاب يقدم الكاتب الصحفى «محسن محمد» أول متخصص فى دراسات التليفزيون فى العالم العربى قصة التليفزيون وتطوره وبرامجه الثقافية والفنية والسياسية وإعلاناته ومسابقاته ومقدمى البرامج .. والكتاب يبين من خلال الأرقام والوقائع وقصص نجاح البرامج وفشلها كيف تغير وجه الحياة فبعد أن كان لقب صاحبة الجلالة يطلق على الصحافة .. أصبح يستحق هذا اللقب عن جدارة «صاحب الجلالة التليفزيون» !!

---

(١) صاحب الجلالة التليفزيون ـ محسن محمد ـ نشر بالوفد بتاريخ ٨ نوفبر ١٩٨٩.

أليس غريباً.. هذ التسمية:

وقبل أن نحيطكم علماً بمحتويات الكتاب كما تعودنا معاً.. نود أن نسوق إليكم رأى المؤلف.. حيث أطلق على هذا الجهاز السحرى لقب صاحب الجلالة ــ ذلك اللقب الذى مازالت الصحافة تتمتع به عن جدارة.

فربما يأتى اليوم وينتقل التاج الملكى من رأس صاحبة الجلالة الصحافة إلى صاحب الجلالة التليفزيون. ولكن لماذا هذه التسمية الغريبة؟ وهل فعلاً تم نقل التاج الملكى أم مايزال فى شارع الصحافة؟ لقد خصص المؤلف فصلاً كاملاً ليؤكد لنا هذا المعنى.. وأنه من وجهة نظره.. لقد تم نقل التاج الملكى بالفعل إلى التليفزيون تاركاً الصحافة تلهث وراءه من أجل استعادة هذا اللقب وبالتالى يعود إليها التاج الملكى!

فهو يقول مؤكداً هذا المعنى: لقد قتل التليفزيون عدداً من المجلات الأسبوعية والشهرية ورأت الصحف الجديدة ألا تنافس التليفزيون بل تقلده. وفى الولايات المتحدة اليوم تباع فى الشوارع الصحف فى صناديق تشبه أجهزة التليفزيون. وعلى سبيل المثال يوجد بأمريكا أيضاً صحيفة صدرت فى سبتمبر عام ١٩٨٢ اسمها «يو. اس. ايه توداى» ومعناه الولايات المتحدة اليوم.. وهى تقلد التليفزيون تقليداً أعمى فى كل شىء حتى فى حجمها. وكان ذلك من بين أسباب انتشارها فأصبحت الجريدة الثالثة على مستوى أمريكا كلها.

ويؤكد المؤلف غزو التليفزيون وسيطرته القوية فى كل بلدان العالم وفى كل ميادين الحياة ليس فى أمريكا وحدها بل فى كل بقاع الدنيا الواسعة.. ويكفى أن نسمعه يقول مشبهاً إياه بالامبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس. وكان الاستعمار البريطانى عن طريق الجيش والبحرية ونظام التعليم. الآن طريقة الاستعمار الأمريكى مختلفة. الولايات المتحدة لا ترسل قوات بل ترسل برامج تليفزيونية، وهى لا تحتاج إلى مقاومة ولا تسيل فيها دماء وأخيراً فهو استعمار ممتع!! لقد أصبح يقال الآن ــ الشمس لا تغرب عن جهاز يعرض برامج التليفزيون الأمريكى! وقد تعاقدت الصين على شراء البرامج الأمريكية.. وفى موضع آخر من هذا الفصل

والذى أطلق عليه عنوان «صاحب الجلالة» يقول محسن محمد: «لقد كان لقب صاحب الجلالة يطلق على الصحافة من قبل. الآن يستحق هذا اللقب عن جدارة «صاحب الجلالة التليفزيون» ويرى البعض أن الملك الحقيقى هو المشاهد لأنه يستطيع بلمسة زر أن يغلق هذا الجهاز. ولكن المشاهد لم يعد يستطيع ذلك بل أصبح مدمناً للشاشة الصغيرة يقضى معظم ساعات فراغه أمامها ويتحدث عن نجومها وبرامجها أكثر مما يتحدث فى السياسة وغيرها من شئون الحياة. وصار الناس جميعاً مشاهدين من سن الثانية إلى ما فوق السبعين».

من الفهرس نبدأ رحلتنا كل أسبوع:

كنت سوف أشرع فى إشعال وقود الحبر.. وإعداد القلم للانطلاق عبر رحاب كلمات وأوراق المؤلف. من أجل بداية رحلة ثقافية موفقة. ولكن سرعان ما تراجعت وأطفأت النار. حتى نستعد جميعاً.. ونكون متأهبين للقراءة.. وخير استعداد لنا دائماً يبدأ من حيث استعراضنا لما فى الفهرس من رءوس موضوعات.. وها أنا ذا أبدأ معكم كما تعودنا.. نقول ما فى الفهرس ثم من بعده ننطلق عبر الفصول والأبواب.. نبحث معاً عن كلمة تدخل إلى قاموس حياتنا. يقول فهرس الكتاب أنه يحوى سبعة وعشرين فصلاً.. سطرها مؤلفنا الكبير الأستاذ محسن محمد.. بأسلوبه الصحفى السهل الممتع، الذى لا يجعلك تفر من بين قلمه إلا حينما تخلص من قراءة ما يمليه عليك بأمانة. هكذا تعودنا منه دائماً.

وعناوين فصول الكتاب كما يقول الفهرس هى: كلنا شرق ــ معجزة تتكرر ــ كل يوم ــ المفاجأة للجميع ــ معرض فنى فى الحوارى ــ وجهاً لوجه ــ رسائل حب ــ العالم تحت أقدامهم ــ رحلة «ميمى» ــ مقعد ساخن ــ مذيع كفيف ــ العدالة التليفزيونية ــ نقابة المشاهدين ــ الباب المفتوح للثراء ــ جامعة الفن ــ القناة السوداء ــ عنترة.. يحارب الطائرة ــ اضحك من نفسك ــ حرب النجوم والفكر ــ الأيدى الناعمة ــ فى بلاد القياصرة ــ فى مستشفى المجانين ــ صندوق الشيطان ــ فى غرفة النوم ــ انتحار ــ لكل مواطن فيلم ــ وأخيراً ــ جاسوس فى حجرة الجلوس.

سرقوا الفيلم المصرى فى تليفزيون اليابان:

ــ لصوص.

هكذا صرخت وأنا أجلس فى غرفتى بالفندق ــ حديث على لسان المؤلف ــ فى مدينة طوكيو أثناء مشاهدة الحلقة الأخيرة من حلقات «حياة التشرد» فقد أحسست بأن اليابانيين يسرقون أو يقتبسون الأفكار القديمة للسينما المصرية ويقدمونها على شاشتهم الصغيرة. البطلة سيدة فقيرة جميلة اسمها «ريوكو» تزوجت شاباً غنياً وعاشت معه ومع حماتها أيضاً.. وفى كل حلقة

نرى التغيير فى حياة البطلة . كانت لا تجد الطعام فى بيت أبيها ، فأصبحت تواجه الثراء فى بيت زوجها . لم يكن لديها فستان واحد ترتديه فضم دولابها أحدث الموضات من باريس .. ومن كل بيوت الأزياء الكبرى .

كان لديها عدد محدود من الصديقات ، فأصبحت تعرف كل سيدات المجتمع . وكان أهلها يعانون الحرمان فأصبحت تعاونهم بالمال . إن عملية الانتقال من الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش ظهرت فى كل لقطة . ومع ذلك لم تستمتع البطلة « ريوكو » بشىء من هذا كله ؛ لأن حماتها تكفلت بحرمانها ــ نفسياً ــ من السعادة فأيامها جميعاً سوداء . فى كل كلمة وهمسة حرصت الحماة على أن تبين لزوجة ابنها كيف عاشت فقيرة ولولا الزوج لظلت فقيرة لا تأكل . وتبيت البطلة تفكر . تحدثت إلى زوجها عما تقاسيه فلم يهتم أو لم ينتبه وظنها تبالغ . وبدأت الزوجة من جانب آخر تكرر الشكاوى ولكن الزوج أعطاها أذنا لا تسمع وعقلاً لا يريد أن يعى التغير الذى طرأ على زوجته ، ووجدت الزوجة أنها لا تستطيع الاستمرار فودعت ابنها فى إحدى الليالى وهى تبكى ثم انصرفت إلى الطريق ليس معها إلا مال قليل !! ولم يكن لديها بيت يأويها ولذلك تشردت بكل ما فى التشرد من معاناة . ولم تفكر فى العودة لزوجها لأن التقاليد تمنع ذلك . ويتابعها رجل كان يعرفها فى ثرائها ويفكر فى ابتزاز المال القليل الذى تجمع لديها . ويأخذ فى مطاردتها ويهددها بأنه سوف يذيع سرها على الجميع . ولا تعرف البطلة ماذا تفعل . ولا تجد البطلة المشردة إلا حلاً واحداً وهو قتل معذبها الجديد . فيقبض عليها وتقدم لمحكمة الجنايات تندب المحكمة محامياً شاباً يدافع عنها ، لا تعرفه فى البداية ثم تكتشف فى النهاية أنه ولدها الذى يعرف قصتها ويسدل الستار على الحلقة الأخيرة التى رأيتها عشرات المرات على شاشة السينما المصرية . وعندما ذكرت ذلك للمخرج اليابانى قال :

وماذا فى ذلك .. كلنا شرق وما يحدث عندكم يتكرر عندنا . ولكن المهم أن تكون الحلقات من وحى البيئة المحلية !!

مقلب ظريف والسبب عدسات التليفزيون :

وقف رئيس التحرير مذهولاً أمام كشك بائع الصحف . لقد انتهى قبل لحظات من الإشراف على عدد الصحيفة الذى سيصدر بعد ساعات قليلة ليباع فى الصباح للناس . ولكنه وجد أمامه نسخة أخرى من الصحيفة ذاتها بعنوان مختلف تماماً .. إن المانشيت العريض للصحيفة التى أمامه يقول :

ــ صدمة فى الشارع الصحافة لرئيس تحرير صحيفة .

وجد رئيس التحرير أن الصدمة له شخصياً.. أخرج من جيبه عشرين قرشاً دفعها للبائع وأخذ النسخة يطالعها فى لهفة ليجد تحتها عدداً آخر من صحيفة يقول عنوانه: «هذه حياتك». استبدت الدهشة الطاغية برئيس التحرير الذى فقد أعصابه تماماً.. فهذان عددان من صحيفة لا يعرف عنها شيئاً. ولكن الدهشة لم تطل فقد وجد أمامه فى الشارع «ايمون اندروز» مقدم أشهر برامج التليفزيون البريطانى وهو يقترب منه ضاحكاً وظهرت فجأة عدسات التليفزيون عندئذ أدرك رئيس التحرير أنه كان ضحية مقلب ظريف وأن البرنامج التليفزيونى قد أعد طبعات خاصة ومزيفة من صحيفته لهذه المناسبة!! ولكن رئيس التحرير لم يستطع الشكوى لأن البرنامج يذاع على الهواء مباشرة فى شارع الصحافة بلندن، ووجد رئيس التحرير أفراد أسرته وأصدقاءه القدامى والجدد يخرجون من مبانى دور الصحف المجاورة للقائه والحديث معه وعنه خلال نصف ساعة. وفى آخر البرنامج قدم له «ايمون اندروز» مجلداً ضخماً أحمر فيه صور كثيرة عنه وقصة حياته كاملة. وعلى المجلد كان هذا العنوان «هذه حياتك». وقال اندروز إنه سيحتفظ بالعشرين قرشاً التى دفعها رئيس التحرير ثمناً لنسخة الصحيفة المزيفة كتذكار!! أما عن حكاية هذا البرنامج فيقول الأستاذ محسن محمد فى موضع آخر من هذا الفصل: فى كل برامج التليفزيون يعرف الضيف أنه سيظهر على الشاشة ويعرف الجمهور مقدماً اسم الضيف إلا فى برنامج «هذه حياتك» الذى يقدم من لندن. هذا البرنامج وحده دون غيره الذى لا يعرف جمهور المشاهدين اسم الضيف ولا يعرف الضيف نفسه أنه سيظهر على الشاشة بل إن مدير التليفزيون نفسه لا يعرف!! والحكاية تبدو لغزاً ولكنه أنجح ألغاز التليفزيون وأكثرها تشويقاً.

رسائل الأديب العجوز على الشاشة الصغيرة:

تحت عنوان فصل «رسائل حب» يقول مؤلفنا محسن محمد: «هو كاتب مسرحى ناجح فى السابعة والستين من عمره حائز على جائزة نوبل، وهى ممثلة مسرحية فى الثالثة والثلاثين من العمر. كتب إليها يقول: «إذا تركتنى إلهامى لحظة فإنى لن أستطيع كتابة كلمة واحدة، أرجوك ساعدينى حتى النهاية.. لا تهجرينى.. وإذا فعلت فإن عملنا معاً سيموت. أنت المؤلفة وأنا مجرد يد تكتب. ما فى قلبك هو الذى يملى على ما أخطه على الورق.

على خشبة المسرح. وتتوالى الرسائل من أديب عجوز يحب، أصيبت زوجته بالجنون ونقلت إلى مصحة عقلية فرأى فى بطلة أغلب رواياته الحلم الجميل. وهكذا ظهرت على الشاشة الصغيرة لقطات من ٥٢٦ رسالة تركها أديب إيطاليا الشهير لويجى بيراندو إلى مارتا. أبا الممثلة الإيطالية التى أهدت هذه الرسائل إلى جامعة برنستون الأمريكية فاختار المخرج بعضاً منها فى برنامج «رسائل حب» على شاشة التليفزيون.

والبرنامج يعرض من خلال هذه الرسائل قصة غرام استمرت تسع سنوات بين الكاتب والفنانة لم تنته إلا بوفاته.. وأمضت زوجته أربعين عاماً في مستشفى الأمراض العقلية وعاشت ٢٣ عاماً بعد رحيل زوجها فإن الرسائل لا تكشف إلا عن عذاب الكاتب المسرحي الذي لا تدرى زوجته شيئاً عنه. أما الفنانة فإنها بلغت السادسة والثمانين من عمرها، عاشت في إيطاليا أثناء الحرب لتلتقي بديكتاتورية إيطاليا موسوليني. وأقامت بعد الحرب في أمريكا. لقد وجدت أن هذه الرسائل تكشف جانباً من حياتها وقصة الكاتب لذلك أهدتها للجامعة، كما يستعين بها الباحثون الذين يريدون الكتابة عن الفن المسرحي في إيطاليا. لقد فكر مخرج البرنامج ووجد أنه ما دامت الرسائل العاطفية هي السلعة الرائجة في سوق الكتاب فلم لا تكون السلع الرائجة على شاشة التليفزيون. وقد اختار «بيرانديللو» باعتبار أن رسائله تمثل موضوعاً إخبارياً يتحدث عنه الناس. ومن بعده قام المخرج كثيرين. ولكنه رأى أن يجدد ويبتكر فدعا المشاهدين إلى المشاركة في تقديم البرنامج.

العالم تحت أقدام هؤلاء.. وهؤلاء:

لولا التليفزيون لانتهت الدورات الأوليمبية الرياضية، أو لأصبحت هذه الدورات مقصورة على عدد محدود من المشاهدين يزيد بطبيعة الحال على الذين شهدوا بداية ومقدمة هذه الدورات عام ٧٧٦ قبل الميلاد، ولكنه لا يصل إلى مئات الملايين الذين يحضرون هذه الدورات في الملاعب ويتابعونها في البيوت عبر القارات بواسطة الأقمار الصناعية، والغريب في الأمر أنه كانت هناك مقاومة عنيفة من الاتحادات الرياضية لإذاعة المباريات على الشاشة الصغيرة عامي ٣٨ و١٩٣٩ في سباق الدربي الشهير في بريطانيا، ولكن هذه المقاومة كانت محدودة نأذيعت المباريات.. وقد تعطل الإرسال التليفزيوني في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية فلما استؤنف بعد انتهائها شكلت عام ١٩٤٦ اتحادات رياضية متعددة هدفها حماية الحقوق الرياضية مثل حماية حق الكاتب والموسيقي، واستطاعت هذه الاتحادات من إذاعة الأحداث الرياضية ومنها كرة القدم، وكان الخوف من نقص عدد المشاهدين في الملاعب بسبب عرض المباريات والمسابقات على شاشة التليفزيون هو العامل الوحيد وراء كل الاعتراضات، ولم تكن محطات التليفزيون تدفع أجراً مقابل إذاعة المباريات، وعندما أنشئت شبكة التليفزيون الأوروبية، قررت إذاعة مباريات كأس العالم عام ١٩٥٤ من سويسرا ولم تدفع الشبكة سوى ٣ آلاف جنيه استرليني للجنة المنظمة رغم أن التليفزيون أذاع ٦ مباريات شاهدها ٦٠ مليون نسمة في ٨ دول، وهناك بورصة خاصة لأسعار إذاعة المباريات.. إذ كان الإقبال الشديد من جانب المتفرجين هو العامل الحاسم في رفع بعض المحطات لمحاولة احتكار إذاعة الدورات الأوليمبية وكأس العالم، فقد رفضت محطة «سي. ب أس» الأمريكية خمسين ألف دولار عام ١٩٦٠، لإذاعة المباريات

الشتوية من كاليفورنيا و٣٩٤ ألف دولار للدورة الأوليمبية فى صيف ذلك العام من روما ، ومع ظهور الأقمار الصناعية لنقل المباريات ارتفع الرقم عام ١٩٦٤ إلى ١,٥ مليون دولار للدورة الأوليمبية من طوكيو، وفى دورة سول التى افتتحت عام ١٩٨٨ قالت محطة «أ. ب. سى» إنها ستدفع مبلغاً يتراوح ما بين ٣٠٠ و ٥٠٠ مليون دولار!!

هل شاهدتم .. هذا المذيع الكفيف!! :

دخلا الاستديو معاً فقال لها أحد العاملين فيه :

ـــ الاختبار يجرى لكل متقدم على حدة ، أحدكما يجب أن يخرج وينتظر دوره ، خرج الأول فتقدم المساعد إلى الرجل الثانى وأراد أن يسلمه نص البرنامج ولكن الرجل لم يمد يده لاستلامه وبقيت يد المساعد ممدودة فترة قصيرة ، وأخيراً علا صوته فقال :

ـــ ألا تريد الاشتراك فى الاختبار.

فقال المتسابق :

ـــ نعم ..

قال المساعد بصوت فيه حدة وغضب : ولم ترفض استلام النص حتى تستطيع أن توجه الأسئلة إلى ضيوف البرنامج ؟!

ـــ قال المتسابق : وأين هو؟!

قال المساعد بدهشة : ألا ترى يدى الممدودة به إليك ؟!

قال المتسابق ونظارته السوداء تغطى عينيه : لا !!

قال المساعد : غريبة !!

قال الرجل : وما وجه الغرابة !! إنى كفيف .

فقد المساعد النطق لحظات ، ولم يعقب بشىء عن تسليم الأوراق للمتسابق وخرج إلى المخرج قائلاً : بين المتسابقين كفيف !!

علت الدهشة وجوه كل العاملين فى الاستديو وتجمعوا يناقشون الأمر وعلى ألسنتهم جميعاً سؤال واحد يقول : هل نسمح لمتسابق كفيف بأن يقدم برنامجاً تليفزيونياً !! وأخيراً انتصر رأى المخرج حيث قال : من المصلحة أن نعطى المتسابق فرصة فإذا نجح يكون ذلك أفضل دعاية للبرنامج ، وتجمع كل العاملين فى البرنامج فى الاستديو يعلمون أيان ماكرى ٣٤ سنة كيف يتكلم ويلقنونه الأسئلة التى يوجهها للضيف !!

مليون جنيه فقط أجر المذيعة :

منذ سنوات اهتزت الأوساط التليفزيونية فى العالم لأن مذيعة التليفزيون الأمريكى الشهيرة « بربارا والترز» انتقلت من محطة إلى أخرى لأن أجرها فى عملها الجديد مليون جنيه !! أقصد

مليون دولار فى السنة فأصبحت بذلك أعلى المذيعات أجراً على الإطلاق.. ولكن مع احتجاج زملائها ومع التضخم وحدة المنافسة زاد أجر بعض المذيعين على المليون دولار سنوياً وخاصة أن «بربارا والترز» لم تحقق النجاح المنتظر، وفى انجلترا يربح «تيرى واجون» مقدم برنامج المنوعات ٣٥٠ ألف جنيه استرلينى سنوياً كما أن قارىء نشرة الأخبار الصباحية فى التليفزيون البريطانى يكسف ٧٥ألف جنيه سنوياً، أما المذيعون العرب فإن مرتباتهم لا تكاد تذكر، فهم يعملون طبقاً للكادر الحكومى بالإضافة إلى بعض البدلات المحدودة مثل بدلات الملابس وبعض الحوافز، وترى محطات التليفزيون العربية أنه يكفى هؤلاء المذيعين تمتعهم بشهرة لا يصل إليها كبار الموظفين والمسئولين.. ويرون أن هذه الشهرة تعوض أصحابها عن المال!!

القناة السوداء بين ألمانيا الشرقية والغربية:

بين ألمانيا الغربية والشرقية محاولات للتقارب السياسى وتبادل الزيارات، بين محطتى التليفزيون فى البلدين وقعت اتفاقات لإنتاج برامج مشتركة، وتغاضت السلطات فى برلين الشرقية عن «ايريال» التليفزيون الذى يرتفع فى بعض البيوت ليتسنى للأهالى مشاهدة البرامج التى تقدمها محطات التليفزيون فى ألمانيا الغربية وبالذات فى برلين الغربية، ولكن هذا كله لم يجعل سلطات ألمانيا الشرقية تفكر لحظة فى إلغاء البرنامج الذى يقدمه رجل عجوز فى التاسعة والستين من عمره يقدم مساء الاثنين من كل أسبوع برنامجاً هو الأول من نوعه فى العالم واسمه «القناة السوداء» مادة البرنامج تقدمها ألمانيا الغربية وهى لا تقدمها مختارة أو متنوعة ولا تقصد أبداً أن تقدمها فى تليفزيون ألمانيا الشرقية ومع ذلك فهى موضوع برنامج «القناة السوداء»، ولا يفعل مقدم البرنامج سوى اختيار الفقرات وتقديم بعض التعليقات القصيرة عليها.. أو بعبارة أخرى يقدم تفسيره الشخصى للفقرات وهو تفسير قد لا تقصده ولا تعنيه أبداً ألمانيا العربية.. إن مقدم البرنامج يتابع أسبوعياً البرامج التى تقدمها كل محطات التليفزيون فى ألمانيا الغربية، سواء كانت سياسية أو اقتصادية وحتى المنوعات.. ويعيد إذاعة اللقطات التى تعجبه ويجد أنها تناسبه وتناسب برنامجه!!

الاتحاد السوفييتى ينجح فى غزو أمريكا تليفزيونيا:

اثارت محطة تليفزيون أمريكية دوياً عالمياً عندما عرضت برنامجاً اسمه «اليوم التالى» يصور ما يحدث فى مدينة فى قلب أمريكا بعد حرب نووية بين روسيا وأمريكا!! يومها قال الأمريكيون المتشددون: أن البرنامج دعوة انهزامية لصالح السوفييت هدفه منع الأمريكيين من زيادة تسلحهم النووى لأنهم سيهزمون فى النهاية، بينما قال السوفييت إنه برنامج إنسانى يصور الدمار الذى يلحق بأية مدينة من جراء السباق النووى أو حرب النجوم.

وبعد ٥ سنوات أثارت المحطة دويا كبيراً بحلقات مسلسلة «أمريكا» مدتها ١٤ ساعة تعرض على مدى أسبوع كامل وتصور نجاح السوفييت فى غزو الولايات المتحدة والاستيلاء عليها دون حرب أو قتال؛ لأن الغزاة يرتدون ملابس قوات السلام التابعة للأمم المتحدة!! أحداث المسلسل تجرى فى قرية أمريكية بعد عشر سنوات من الاحتلال السوفييتى أى فى أواخر التسعينيات، إن الحلقات تصور الحياة اليومية عندما يصبغ كل شىء باللون الأحمر فى ظل الاحتلال السوفييتى لأمريكا بعد أن يكون السوفييت قد استولوا على تركيا واليونان وباكستان وإيران، وقد كتب هذه الحلقات مستشار سابق اسمه بن شتاين وكان يكتب خطب الرئيس، والكاتب يقول إن الحلقات أشبه برواية عام ١٩٨٤ التى ألفها الكاتب البريطانى جورج أورويل وتبين للعالم ما يحدث عندما يسيطر الحاكم على الرعية فى بيوتهم من خلال شاشة التليفزيون تطلعه على كل ما يجرى فى حياة الناس الخاصة، ولم يتحقق ما توقعه أورويل ولا يريد الكاتب الأمريكى أن تتحقق نبوءاته!!

احذر.. التليفزيون يصورك فى غرفة النوم:

أعلنت محطة التليفزيون أنها تحتاج إلى عروسين لمدة عام لتقديمها فى برنامج تسجيلى جديد، واشترط التليفزيون موافقة العروسين على السماح للعدسات أن تنقل كل ما يدور بينهما خلال عام كامل، وأن يكون للتليفزيون وحده الحق فى إذاعة البرنامج مقابل مصروفات شخصية تمنح للعروسين.

ورغم غرابة الإعلان فقد بلغت الطلبات التى قدمت للبرنامج ثلاثة آلاف قال أصحابها: سنضع أنفسنا تحت تصرف المنتج والمخرج قبل إتمام الزواج وخلال السنة التالية له، وأعلن الجميع موافقتهم على كل شرط وأنهم لن يعترضوا على أى قرار يصدره المخرج، وقد أجرى اختبار للجميع استغرق عدة شهور لمعرفة ظروف الزواج وكيف التقى العروسان، ومشروعاتهما ليوم الزفاف وحفلته وشهر العسل!! وأخيراً وقع الاختيار على شاب وعروسه يعمل فى عيادة نفسية يقدم التليفزيون العروسين فى عدة لقطات فى نشرات الأخبار وفى مجلة التليفزيون المطبوعة وسط دعاية ضخمة بأن البرنامج سيكون تسجيلياً واقعياً، ولكنه سيكون فى الوقت نفسه أشبه بحلقات «ديناستى» الشهيرة رغم أنه سوف يقتصر على نجمين اثنين العريس والعروسة، لقد اختفت صورتا البطلين ستة عشر شهرا ثم ظهرت فى ست حلقات تعتبر الأولى من نوعها فى تاريخ التليفزيون كله.

وبعد.. هذه عدة لقطات حيوية، أو إن شئت فسمها مجموعة نادرة من الأزهار اليانعة حاولنا اقتطافها من بستان الأستاذ محسن محمد.. أو بعض الصور النادرة من الصندوق السحرى

الذى بات يحكم العالم.. وحصر سكانه بين دفتى الصوت والصورة، إن الكتاب ملىء بغير ما حكينا من روايات وأخبار ولقطات تستحق منا الوقفة وراء الأخرى حتى نضع أيدينا على أحدث ما وصل إليه العلم فى مجال الصورة المرئية أو الشاشة الصغيرة.

بين الواقع والأحلام .. والبديل(١)

هذا العمل القيم الذى تصدى له اثنا عشر أستاذاً من أساتذة الاقتصاد والتنمية فى مصر، لاشك يستحق منا كل التقدير خاصة إذا كان يتعلق بمصير حياتنا ومستقبلنا أو بمعنى آخر بخطط التنمية التى هى أساس التطور والتقدم فى كل دول العالم. هؤلاء الدكاترة الذين ضموا أصواتهم فى تقرير واحد بحثوا فيه خطة التنمية الحكومية ــ الأحلام والواقع والبديل الجاد ــ قد نشروه فى كتيب صغير.. أصدرته جريدة الأهالى وحرره الأستاذ الدكتور إبراهيم العيسوى. وقد صدر يحمل نفس العنوان، ضمن سلسلة كتاب الأهالى كما يقول الغلاف. واستعراضنا لهذا الكتاب ليس معناه أننا نوافق كحزب على كل ما جاء به.. بل هناك لقطات نختلف فيها، بل وسعدنا لما جاء به من انتصار للقطاع الخاص فى خطط التنمية.. وهو مالم يسعد كثيراً من هؤلاء المتخصصين. إن الكتاب هو تشريح حيوى للخطتين اللتين بدأتهما مصر فى عهد الرئيس مبارك. الأولى قد انتهينا منها والثانية مازالت سارية المفعول. والكتاب هام وقيم لذا رأينا تقديمه وعرضه من خلال صفحتنا الأسبوعية هنا تقول مقدمة الكتاب:

انتهت فى ٣٠ يونيو عام ١٩٨٧ الخطة الخمسية الأولى فى عهد الرئيس مبارك والتى غطت الفترة ١٩٨٣/٨٢ ــ١٩٨٧/٨٦.

---

(١) خطة التنمية الحكومية ــ د. إبراهيم العيسوى ــ نشر بالوفد فى ٢٩ نوفمبر ١٩٨٩.

وبدأت فى أول يوليو ١٩٨٧ خطة خمسية جديدة تغطى الفترة ٨٨/٨٧ ــ ٩١/١٩٩٢ التى تشمل معظم سنوات الفترة الرئاسية الثانية للرئيس مبارك وهى التى بدأت فى أكتوبر عام ١٩٨٧. ولما كانت الخطط تحدد اتجاهات العمل الوطنى فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية التى تنوى الحكومة السير فيها، فإنه يصبح من أوجب الواجبات الوقوف عند هذه الخطط لتقييم نتائج ما انتهى منها والتعرف على محتوى الخطط التى تنوى الحكومة العمل وفقاً لها، وتقييم ما يرتبط من سياسات اقتصادية واجتماعية وتحديد مدى ملاءمتها للمرحلة الراهنة، ومسئولية العمل الوطنى تفرض عدم الاكتفاء بنقد الخطط والسياسات وإنما تتطلب التقدم بمقترحات إيجابية تتكفل للمجتمع وللاقتصاد بحركة أسرع وأسلوب أكثر كفاءة وعدالة نحو حل المشكلات الحالية ومواجهة التحديات المستقبلية.

نعود لنسرع الخطى حتى نصل إلى آخر صفحات الكتاب.. تلك الورقة التى تحمل عنوان الفهرس.. ومنها نبدأ الطريق، ونفسر محتويات الكتاب لمن يريد الاستزادة. نستعرض ما جاء به لنختار ما يمكن أن نقدمه هنا لنقرأه معاً دون تعجل.

يقول الفهرس.. إن الكتاب مقسم إلى: القسم الأول بعنوان «تقييم نتائج الخطة الخمسية الأولى ٨٢ ــ٨٧ وهذا القسم بدوره مقسم إلى: تمهيد: أولاً: أثر الخطة على نمو الاقتصاد المصرى ومستوى المعيشة.

ثانياً: مدى مساهمة الخطة فى إصلاح الاختلالات الاقتصادية والاجتماعية من حيث: الاختلال فى هيكل الناتج ــ الاختلال فى هيكل الاستثمارات ــ الاختلال فى توزيع الدخل ــ الاختلال فى سوق العمل ثم الاختلال بين الادخار والاستثمار.

ثالثاً: أداء الخطة فى أهم قطاعات الإنتاج السلعى مثل قطاع الزراعة والصناعة.

رابعاً: أداء الخطة فى بعض قطاعات الخدمة مثل التعليم والإسكان والصحة.

خامساً: الاعتماد على الخارج وتفاقم أزمة الديون كالعجز فى ميزان المدفوعات والاعتماد على الخارج ثم الديون الخارجية.

أما القسم الثانى من الكتاب: ويحمل عنوان: الخطة الخمسية الجديدة ٩١/٨٧ وهو مقسم أيضاً إلى:

أولاً: الاستراتيجية الصريحة والاستراتيجية الضمنية للخطة الخمسية الجديدة.

ثانياً: حول بعض الركائز والأهداف الأساسية للخطة مثل: الأهداف العامة ــ معدلات النمو ــ التركيز على الإنتاج السلعى ــ الاعتماد على الذات ــ العدالة الاجتماعية.

ثالثاً: الزراعة والصناعة فى الخطة الخمسية الجديدة.
رابعاً: الخدمات فى تلك الخطة كالصحة والتعليم والإسكان.
خامساً: ميزان المدفوعات وسياسات التجارة الخارجية والنقد الأجنبى.
أما القسم الثالث فيشمل هذه الموضوعات: نعم هناك بديل أفضل لخطة الحكومة وسياستها.

أولاً: زيادة الإنتاج بالاعتماد على الذات.
ثانياً: معالجة عجز ميزان المدفوعات.
ثالثاً: معالجة عجز الموازنة العامة.
رابعاً: زيادة الخدمات الأساسية ورفع مستواها.
ثم يتلو ذلك الخاتمة وملحق يحدثنا عن إمكانات رفع نسبة الاكتفاء الذاتى من القمح.

التقرير.. وهؤلاء هم المعدون:

قبل الخوض تفصيلياً فى حديث الخطتين الأولى والثانية.. أود أن أسوق إليكم أسماء السادة الدكاترة الأفاضل الذين سطروا هذا التقرير. وهم الدكاترة: إبراهيم سعد الدين — إبراهيم العيسوى — إبراهيم برعى — الفونس عزيز — جودة عبدالخالق — سمير فياض — عبدالعظيم أنيس — عثمان محمد عثمان — محمد أبو مندور — محمد سيد على — محمود عبدالفضيل — محمود منصور عبدالفتاح.. وكلهم وكما يقول الكتاب فى مقدمته.. من خبراء الاقتصاد فى حزب التجمع. وإننى أؤكد هنا من جديد.. أن كل ما جاء بهذا الكتاب وشمله التقرير ليس بالضرورة معبراً عن حزب الوفد بل هناك وجهات نظر مخالفة تماماً لسياسة حزب الوفد، خاصة فيما يتعلق بجانب القطاع الخاص ولسوف نلاحظ هذا الخلاف من خلال المزيد من استعراضنا لموضوع الكتاب. فهيا بنا نبدأ الرحلة من هذه اللحظة.

الجوانب السلبية فى الخطة الخمسية الأولى:

التقييم الموضوعى للخطة الأولى فى عهد الرئيس مبارك قد أفضى إلى نتيجة جوهرية بالغة الخطورة. فمن جانب ارتفع معدل النمو الاقتصادى بصورة رسمية بمعدل ٦,٨٪ سنوياً. ولكنه باستبعاد أثر التضخم نتبين أن الناتج المحلى كان يتناقص فى المتوسط بمعدل يقرب من ٢٪ سنوياً خلال سنوات الخطة. أى أن معدل النمو الاقتصادى ينقلب إلى معدل بالناقص مقداره ٢٪ سنوياً. كان معنى ذلك من جانب آخر أن متوسط دخل الفرد قد تناقص سنوياً بأكثر من ٤٪. وقد ترتب على هذه النتيجة الجوهرية أن تفاقمت كافة الجوانب السلبية فى الاقتصاد المصرى. زادت ديون مصر بنحو ١٠ مليارات دولار. انخفض نصيب قطاعات إنتاج السلع ولم يرتفع، تدهور نصيب الأجور فى الدخل القومى، وارتفعت نسبة البطالة السافرة وغير السافر

وأصبح لدينا لأول مرة مليونا متعطل. بجانب ذلك فإن تقييم منجزات تلك الخطة سيتم من منطلقين رئيسيين: الأول منهما يتعلق بمدى تحقيق الخطة للأهداف التى حددتها وثيقة الخطة ذاتها، ويتعلق الثانى بمدى نجاح الخطة فى مواجهة المشاكل الحقيقية التى يعانيها المجتمع المصرى. لقد شاءت الحكومة أن تبدأ خطتها فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى عجلة، وأن توضع الخطة الجديدة قبل أن تتخذ أى خطوات أو تتبنى مجموعة سياسات لمعالجة الاختلالات السائدة ولم يكن أمام المخططين فى مثل هذه الظروف بُدٌّ من أن يستمروا فى تكريس بعض الاتجاهات غير المرغوب فيها، والتى كانت سائدة من قبل بدلاً من العمل على إصلاحها، فاستمر اعتماد الخطة بل تزايد الاعتماد على سياسة بيع الموارد الطبيعية وعلى مصادر لا تخضع لسيطرة المخطط أو الاقتصاد الوطنى لتمويل الخطة، واعتمد على قطاع النفط لتحقيق ما كانت تتطلع إليه الخطة من تغيير محدود فى هيكل الإنتاج لصالح القطاعات السلعية ومن زيادة فى التصدير والحد من العجز فى ميزان المدفوعات، وصدرت الخطة حاوية لمجموعة من المشروعات الاستثمارية دون أن تتضمن أهم مقومات التخطيط السليم، وقد حملت الخطة بذلك من البداية بذور ضعفها وبرز ذلك الضعف بوضوح بعد أن ظهرت الأزمة الشديدة فى الموارد.

معدلات النمو خلال سنوات الخطة:

بالنسبة لمعدلات النمو، فقد استهدفت الخطة تحقيق معدل نمو اقتصادى قدره ٨,١٪ سنوياً فى المتوسط بالأسعار الثابتة وتشير بيانات المتابعة إلى أن معدل النمو المتحقق كان فى حدود ٦,٨٪ فى المتوسط رغم التقلبات التى لحقت بهذا المعدل من عام لآخر، ولكن هذا المعدل للنمو الحقيقى للناتج المحلى الإجمالى ينطوى على مبالغ كبيرة تعود إلى احتساب معدل متدن للتضخم، وباستخدام تقديرات أكثر واقعية لمعدلات الارتفاع فى الأسعار نجد أن الناتج المحلى الإجمالى لم يكن يتزايد وإنما يتناقص فى المتوسط بمعدل ٢٪ سنوياً خلال السنوات الخمس الماضية، كما يعنى أن متوسط الفرد الحقيقى قد نقص هو أيضاً فى المتوسط بأكثر من ٤٪ سنوياً خلال سنوات الخطة دون الاستعانة بالمصادر الداخلية والخارجية من تحويلات العاملين وغيرها، ومع الاعتماد المتزايد على الاقتراض الخارجى زادت ديون مصر الخارجية المدنية خلال سنوات الخطة بنحو عشرة مليارات من الدولارات والاستيراد بالدين هو الذى حال دون تحول نقص الإنتاج فى بعض القطاعات إلى أزمات حادة فى بعض السلع.

أداء الخطة فى أهم قطاعات الإنتاج السلعى:

يعتبر قطاع الزراعة من أسوأ القطاعات من حيث معدلات نمو الإنتاج خلال سنوات الخطة مقارناً بغيره من القطاعات، كذلك يتضح من فحص مكونات الإنتاج الزراعى أن أعلى معدلات للنمو قد تحققت فى منتجات أقل أهمية من منظور الأمن الغذائى، الأمر الذى جعل

المحصلة النهائية فشل الخطة فى السيطرة على التركيب المحصولى وتوجيهه نحو تحقيق هدف الأمن الغذائى كما تجاهلت تقارير متابعة الخطة الإشارة إلى تدهور الثروة الحيوانية، أما فى قطاع الصناعة فلم تقدم تقارير الخطة تفسيراً لأسباب تدهور الإنتاج الصناعى وعدم كفايته للاستهلاك المحلى ولاسيما الإنتاج للسلع الهامة مثل الأسمنت وحديد التسليح وإطارات السيارات والبطاريات والأجهزة الكهربائية، أما فى جبهة الخدمات الأساسية «التعليم ـ الصحة ـ الإسكان» فيسجل تقرير إنجازات الخطة الأولى التزايد المستمر فى نسبة المقبولين بالتعليم الثانوى الفنى بحيث بلغت نسبة المقبولين بالتعليم الفنى ٦٠٪ من جملة المقيدين بالتعليم الثانوى عموماً، ناهيك عن زيادة متوسط كثافة الفصول فى المرحلة الابتدائية وتدهور حالة الأبنية التعليمية فتبين ضعف الإمكانات المخصصة لقطاع التعليم، وفى مجال الخدمات والرعاية الصحية، يلاحظ انخفاض عدد الأسرة لكل ألف من السكان مع تدهور مستوى الأداء وسوء التوزيع الجغرافى وكذلك تجمد مستويات خدمات التأمين الصحى.. وفى مجال الإسكان يتضح من إطار الخطة أنه كان المستهدف هو التركيز فى بناء الوحدات السكنية الجديدة على الإسكان الاقتصادى والمتوسط بالمقارنة بالإسكان الفاخر وفوق المتوسط.

العجز فى ميزان المدفوعات وتفاقم أزمة الديون:

توضح بيانات المتابعة ارتفاع العجز فى الميزان التجارى بنسبة ٦٥٪ ويرجع تزايد هذا العجز إلى الهبوط فى قيمة الصادرات بالأسعار الجارية بنحو ٥٪ سنوياً.. والواقع أن معدل الانخفاض فى الصادرات يكون أعلى بكثير من نسبة الـ ٥٪ إذا ما أخذنا فى الاعتبار الارتفاع فى الأسعار العالمية.. وقد انعكس تزايد الاعتماد على الخارج فى ارتفاع نسبة الواردات السلعية إلى الناتج المحلى الإجمالى، فقد كانت لا تتعدى ١٢٪ فى أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات ولكنها قفزت إلى ٢٤٪ أى إلى الضعف فى معظم السبعينيات ثم استمرت فى التزايد حتى بلغت ٣٨٪ فى عام ٨٣ ـ ٨٤، ولقد انعكس تزايد الاعتماد على الخارج أيضاً على مديونيات مصر الخارجية، فقد ترتب على زيادة العجز الجارى ارتفاع الديون الخارجية من ١٧,٦ مليار دولار فى عام ٨١ إلى ٢٧,٥ مليار دولار فى عام ١٩٨٦ بزيادة نسبتها ٥٦٪، ومن الواضح أن أكثر من ٤٠٪ من القروض الخارجية العامة قد استخدمت فى تجديد وتوسيع البنية الأساسية والمرافق العامة وهى مجالات لا تدر عائداً مباشراً أو سريعاً فى معظم الحالات.

أهداف الخطة خيالية ومبالغ فيها:

فى ضوء كل هذه الاعتبارات، فنحن لا نميل إلى أخذ أهداف النمو الإجمالية والقطاعية الواردة فى الخطة مأخذ الجد لعدم واقعيتها وميلها للمبالغة. مثال ذلك التركيز على الإنتاج السلعى، إذ أن المستهدف هو مجرد الإبقاء على نسبة مساهمة القطاعات السلعية فى الناتج المحلى

الإجمالي.. كذلك فإن نسبة التمويل الأجنبي للقسم الأكبر من استثمارات الخطة الجديدة هي ٢٥,٢٪، كما كان الحال في الخطة السابقة، فكيف إذن يمكن الحديث عن زيادة درجة الاعتماد على الذات خلال فترة الخطة الجديدة؟ من ناحية أخرى، لعله ليس من المستغرب ألا تظهر العدالة الاجتماعية باعتبارها ضمن الركائز الأساسية أو حتى النوعية للخطة الجديدة بل هناك تعمية متعمدة حول مستقبل رقم «الدعم» إذ تم دمجه مع بند «الضرائب غير المباشرة» الوصول إلى «صافي الضرائب غير المباشرة» أي بعد الخصم من قيمة الدعم المجهلة. كذلك لا توجد إشارات صريحة حول اتجاه نسبة الأجور إلى الناتج المحلي الإجمالي أو غيرها من المؤشرات التوزيعية.

وتستهدف الخطة تعديل التركيب المحصولي بحيث تزيد مساحة القمح بنحو ١٩٪ ومساحة الذرة بنحو ٥٧٪ والقطن ١٢٪ والفاكهة ٢٩٪. وفي المقابل تهدف الخطة إلى إنقاص مساحة البرسيم المستديم بنحو ١٧٪ والخضر نسبة ١٦٪.. وثمة شكوك كثيرة تساورنا بشأن إمكانية تحقيق هذه الأهداف في ظل السياسات الزراعية والسلعية المطبقة والمتوقعة خلال فترة الخطة. كذلك فإن هدف استصلاح ٦٢٧ ألف فدان الوارد في الخطة الجديدة يبدو صعب التحقيق بالنظر إلى إنجاز الخطة السابقة والذي لم يتجاوز ٢٥٠ ألف فدان «٤٠٪» من المساحة المستهدفة.

قطاعات أخرى.. والمستقبل غير واضح:

كذلك يلاحظ أن هدف استصلاح الأراضي قد يصطدم بقيد الماء.. فتقديرات ما يتوقع توافره من المياه تشوبها مبالغات شديدة خاصة في مجال المياه المعاد استخدامها من المصارف والمياه الجوفية بالدلتا والوادي. وبالطبع في ظل التناقص المستمر في إيراد النيل لسنوات عديدة تصبح الزراعة مهددة بأخطار جسيمة في الأراضي المراد استصلاحها. ورغم خطورة الوضع المائي الحالي والمستقبلي، فإن قراءة الخطة لا تظهر إدراكاً كافياً لمدى الخطورة ولا استعداداً ملائماً لمواجهتها.

وبالنسبة للقطاع الصناعي، تهدف الخطة إلى تحقيق معدل نمو للناتج المحلي في قطاع الصناعة والتعدين قدره ٨,٤٪ سنوياً مقابل ٩,١٪ متحقق في الخطة السابقة حسب البيانات الرسمية كما تهدف الخطة إلى رفع نصيب هذا القطاع في الناتج المحلي الإجمالي من ١٧٪ في ٨٦ ــ ٨٧ إلى ١٩,٢ في ٩١/ ٩٢. وقد خصصت الخطة للقطاع الصناعي ٢٦,٦ من جملة استثماراتها خلال السنوات الخمس، مقابل ٢١,٤٪ في الخطة السابقة. وهي تبلغ حوالي ١٢ مليار جنيه يخص القطاع العام منها ٥٧٩٠ مليون جنيه ويخص القطاع الخاص ٦٤٠٠ مليون جنيه، أي أن نصيب القطاع العام ٤٧,٥٪ مقابل ٥٢,٥٪ للقطاع الخاص. معنى ذلك أن

الخطة الجديدة تلقى بمسئولية جسيمة على القطاع الخاص فى مجال التنمية الصناعية. فالمطلوب مضاعفة النسبة التى يخصصها القطاع الخاص من استثماراته فى قطاع التعدين والصناعة، كما أنه من المطلوب أن تزيد نسبة مساهمة القطاع الخاص فى الاستثمارات المستهدفة لقطاع الصناعة إلى أكثر من الضعف أى من ٢٢٪ إلى ٥٢٪.

التعليم والصحة والإسكان ووعود براقة فقط:

فى قطاع التعليم، نجد أن من العيوب الواضحة للخطة الجديدة أنها لا تحوى أى تصور عن تلافى العجز فى إعداد المدرسين القائم حالياً فى مراحل التعليم الأساسى أو الثانوى أو الفنى أو الثانوى العام. كذلك لا تحوى أى تصور حول القضاء التدريجى على الازدواجية الراهنة للنظام التعليمى القائم بوجه عام. كما لا توجد فى الخطة مناقشة جادة لسبل إصلاح الجامعات من حيث الازدحام وقصور المدرجات والمعامل.

وفى مجال الصحة كذلك تهدف تلك الخطة إلى تغطية ٨٦٪ من الاحتياجات الدوائية من الإنتاج المحلى مع قصر الاستيراد على مالا يمكن توفيره محلياً، وتخصيص ٥٪ من الإنتاج المحلى للتصدير. إلا أنه يلاحظ أنه لم يتحدد مستهدف القطاع العام الدوائى، كذلك يلاحظ غياب أى تحديد رقمى مستهدف للمعدات والأجهزة المقترحة من أجل تزويد المستشفيات بها خلال سنوات الخطة.

وإذا انتقلنا إلى قطاع الإسكان، نجد أن الاستثمارات المخصصة للإسكان فى الخطة تتحيز للحضر على حساب الريف.. ولكن فى الحضر نجد الخطة تساهم فى زيادة حدة مشكلة الإسكان.. حيث نجد أن توزيع الاستثمارات بين المستويات الثلاثة للإسكان هى على النحو التالى ٥٥,٤٪ للاسكان الاقتصادى و٤٥,٦٪ للمستويين فوق المتوسط والفاخر كذلك نجد أن دور القطاع العام فى زيادة عرض الوحدات السكنية محدود للغاية طبقاً لأرقام الخطة. فهو لا يتجاوز بناء ٢٦ ألف وحدة سكنية خلال خمس سنوات منها حوالى ٢٠ ألف وحدة فى قطاع الحضر أى مالا يزيد على ٢٪ من عدد الوحدات فى هذا القطاع. وهذا جهد لا يتناسب مع ضخامة حجم مشكلة الإسكان فى مصر.

أهداف الصادرات والتحفظ على أهداف الواردات:

إن الخطة الجديدة تستهدف فى قطاع التجارة الخارجية تحقيق معدل نمو للصادرات السلعية قدره ٥,٦٪ ومعدل نمو للواردات قدره ١٥٪، وبالتالى نخفض العجز فى الميزان التجارى من ٤,٧٪ مليار جنيه فى عام ١٩٨٦ ــ١٩٨٧ إلى ٤,٣٪ مليار جنيه فى عام ٩١/١٩٩٢ كذلك

تهدف الخطة إلى خفض العجز فى ميزان المعاملات التجارية من ١٦٠٠ مليون جنيه فى بداية الخطة إلى ٧٠٠ مليون جنيه فى نهاية الخطة.

ونحن نعتقد أن استهداف معدل نمو للصادرات قدره ٥,٦٪ سنويا فى المتوسط هو هدف غير واقعى، نظراً لعدم توقع حدوث طفرة فى الصادرات الزراعية والصناعية المنظورة. ومن ناحية أخرى تتسم أهداف نمو الواردات باللغط الشديد، فإذا كان المعدل المستهدف لنمو الناتج المحلى الإجمالى هو ٥,٨٪ فى المتوسط سنوياً فمن غير المعقول أن يكون معدل نمو الواردات السلعية فى حدود ١٪ سنوياً فى ظل هيكل الإنتاج السائد حالياً. ولذا فإنه فى ضوء المغالاة فى أهداف الصادرات والتحفظ فى أهداف الواردات فإن الأرقام المتوقعة للعجز فى الميزان التجارى من المحتمل أن تزيد كثيراً عما هو مستهدف فى الخطة، وينطبق ذلك على ميزان التعامل التجارى مع العالم الخارجى. ومن المدهش أن الخطة لم تذكر شيئاً عن الحجم المتوقع للديون الخارجية فى نهاية الخطة ولكنها تكتفى بتوضيح أن الفوائد على الديون من المتوقع أن تمثل أكثر من نصف قيمة الصادرات فى السنة النهائية للخطة. وهذا يعد قيداً هاماً على عملية التنمية.

نعم هناك بديل أفضل لخطط سياسات الحكومة:

وفى ضوء الانتقادات والتحفظات السابقة، يجب أن نتساءل.. وهل توجد حقاً سياسات بديلة تدفع بالاقتصاد المصرى بعيداً عن دائرة الأزمة وتضعه على طريق النمو المتواصل والعدالة الاجتماعية وهذه السياسة تتضمن البنود الآتية:

- زيادة الإنتاج الوطنى بالاعتماد على الذات.
- إعادة ترتيب أولويات الاستثمار والإنتاج لصالح تنمية قدرات الإنتاج فى القطاعات السلعية.
- تنفيذ سياسة متكاملة لاصلاح القطاع العام ورفع إنتاجيته.
- حفز القطاع الخاص على توجيه استثماراته نحو القطاعات الإنتاجية ولاسيما مجالات الزراعة والصناعات التمويلية.
- العمل على زيادة الحد الأدنى للأجور.
- توفير المتطلبات اللازمة لزيادة الإنتاج دون زيادة ضخمة فى الإنفاق الجارى والاستثمارى.
- السيطرة على العجز فى ميزان المدفوعات.
- معالجة العجز فى موازنة الدولة.

الفصل السادس

أوراق عسكرية

ـ الحرب المحدودة والحرب الشاملة .

اللواء الدكتور أحمد أنور زهران

ـ ترسانة اسرائيل النووية .

بيتر براى

.. إفناء العالم فى لحظات ! (١)

قد تندهش عزيزى القارىء من تلك المفارقة العجيبة ، التى جعلتنا هذا الأسبوع نقدم لك كتاباً عن الحرب والتدمير !! وكنا معاً ومنذ أيام بالضبط على نفس هذه الصفحة .. فى حديث ودى وشيق عن الحب !! وشتان بين اللفظتين ، الحب والحرب .. ولكنها الحياة ، التى جعلت الإنسان المسكين يعيش بين فكى هذه الحكمة التى رأسها الحب بمظهره الطيب .. وذيلها الحرب .. ذلك الدمار الذى فى لحظات يقضى على كل شىء ، إننا نعتذر مرة أخرى لإدخالك فى مثل هذه الدوامة .. ولكن ماذا نفعل ؟ إنها الثقافة التى من أجلها نخوض فى المستحيل !!

وقبل البدء فى مصاحبتك فى رحلتنا هذا الأسبوع خلال كتاب الحرب الشاملة والمحدودة ، نود أن نقولها كلمة فى أذنك وفى قلبك : إن الحب هو الأقوى لو حكمنا العقل .. وبه نستطيع أن ندمر أى سلاح يواجهنا ، ولكنه مع ذلك لا غنى أبداً عن الحرب والسلاح الذى هو عنوان القوة .. والوسيلة الغالبة فى عصرنا الذى نعيشه معاً ، وخير مؤيد لحديثى هذا قول المؤلف اللواء الدكتور أحمد أنور زهران «تكفل القوات المسلحة للدولة ، احترام إرادتها فى المجتمع الدولى » .

---

(١) الحرب المحدودة والحرب الشاملة ـــ د. اللواء أحمد أنور زهران ـــ نشر بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٨٩ .

لا مفر من أن نبدأ الحديث عن الحرب المحدودة والشاملة .. رغم وجع القلب مما سوف نقرؤه بعد حين .. وقبل الدخول في تفاصيل هذه الحرب بشقيها المحدود والشامل نود أن ننوه إلى المؤلف ونشير إلى الجهد الذى بذله .

من أجل إخراج هذا الكتاب.. يقول الغلاف الأخير والذى يحمل صورة الكاتب اللواء ركن الدكتور أحمد أنور زهران: إنه من مواليد القاهرة عام ١٩٣٢ وحاصل على بكالوريوس العلوم بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٥٢ وعلى الماجستير عام ١٩٦٢ وعلى الدكتوراه عام ١٩٦٤.. التحق ضابطاً بالقوات المسلحة عام ١٩٥٤، تقلد مراكز قيادية متعددة فى مجال التدريس والبحث العلمى العسكرى والتسليح والإنتاج الحربى.

وبعد هذا التعريف الواجب يقول المؤلف فى المقدمة التى تجعلنا بعد قراءتها نحبس الأنفاس ونتلمس الصمت، أصبح فى مقدور الجنس البشرى فى القرن العشرين إفناء العالم بأسره عدة مرات فى ظل منجزاته التكنولوجية من أسلحة التدمير الشاملة النووية والكيماوية والبيولوجية التى بمقدورها قتل ملايين البشر من مختلف الأعمار والأجناس، إنه يوجد الآن فى حيازة الدولتين العظميين آلاف الرءوس النووية التى يكفى واحد منها فقط لابادة مدينة بأسرها، كما أن بعض كيلوجرامات قليلة من المبيدات الكيماوية والبيولوجية كفيلة بإفناء الجنس البشرى من الكرة الأرضية.

محتويات الكتاب بقلم المؤلف:

ومؤلفنا الدكتور زهران.. رغم حديثه عن هذا الكم الهائل من الرعب الناتج عن هذا التطور المذهل فى مجال السلاح بأنواعه.. فإنه أبداً لا يفقد الأمل فى تحكيم العقل واللجوء إلى المنطق من أجل إبعاد شبح الفناء عن الإنسان فهو يقول: قد يسود صوت العقل فى المستقبل، فالخوف من الدمار الشامل سوف يقلص دور أسلحة التدمير الشاملة ويقصرها على الردع النظرى وحسبما يعنى استمرار إدارة الصراع فى مناطق التوتر بأساليب تقليدية وبأدوات الحرب المحدودة فى ظل تحسبات التدخل النووى والحرب الشاملة عند اختلال الموازين.

وبعد فإن هذا الكتاب يلقى الضوء على الجوانب المختلفة لكل من الحرب المحدودة.. التى تنشب فى مناطق متفرقة من أنحاء العالم ويستخدم فيها السلاح التقليدى.. والحرب الشاملة التى باستخدام سلاحها الرئيسى من الذرة والبيولوجى والنووى، يفنى العالم فى لحظات، كل

ذلك بغرض تعريف القارىء بوسائل وإمكانات كل منها ومواطن القوة والتأثير فيها، ويستعرض الكتاب فى الجزء الأول منه العناصر الرئيسية التى تحكم التخطيط والإعداد لعمليات الحرب المحدودة وهو يشتمل على الأبواب من الأول إلى الخامس بالترتيب التالى: السياسة والتكنولوجيا والحرب ـ حرب المدرعات ـ الحرب الجوية ـ الحرب البحرية ـ ثم الباب الخامس الحرب الاليكترونية..

ويتناول الكتاب فى الجزء الثانى منه عناصر القوة والردع التى تتحكم فى استراتيجية الحرب الشاملة التى تخطط لها الدولتان العظميان وهو يشتمل على الأبواب من السادس إلى العاشر، فيستعرض الباب السادس إمكانات كل من الحرب الكيماوية والبيولوجية، أما الباب السابع فيعالج امكانيات الحرب النووية، ويتناول الباب الثامن البعد الجديد لمسرح حرب الفضاء.. ويتعرض الباب التاسع لتطور القوة الاستراتيجية الدولية ونموها فى ظل سباق محموم للتسلح.

وأخيراً يأتى الباب العاشر إطلالة على أسلحة التسعينيات التى يستقبل بها العالم القرن الحادى والعشرين.

حديث الحرب المحدودة:

يوجد فى العالم اليوم حوالى ١٧٨ دولة مستقلة، تمارس سيادتها على أراضيها بما يكفل لها توفير الحماية والأمن لرعاياها إزاء أى تهديد داخلى أو خارجى وفى سبيل ذلك تقوم الدول ببناء القوات المسلحة وتزودها بالسلاح لكى تصبح القوات المسلحة هى درع الدول الذى يذود عن حماها ويكون اللجوء إليها مشروعاً أثناء الأزمات وفى الظروف الحرجة التى تهدد أمن الدولة، ومن المعروف أن معظم الحروب المعاصرة تنشب لأسباب سياسية غالباً، والحرب مصدر تهديد للدول الضعيفة عنها للدول القوية المجهزة عسكرياً لمواجهتها.

بين السياسة والحرب:

اعتنق كثير من الساسة الأوروبيين فى القرنين الماضيين مبدأ الفيلسوف الألمانى «كارل فون كلاوزفتز» أن الحرب أداة من أدوات السياسة وامتداد لها وفى سبيل ذلك تم بناء الجيوش كوسيلة للدفاع أو التدخل أو التوسع، وقد شهد العالم حربين فى النصف الأول من هذا القرن.. هما الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية حيث قضت على نظم سياسية ديكتاتورية غاشمة حكمت دولتى المحور فى أوروبا وفرضت الديمقراطية والاشتراكية كنظم سياسية بديلة، كما فرضت قيام الأمم المتحدة، وبانتهاء هذه الحرب أيضاً وبروز أمريكا وروسيا

كقوتين عالميتين تمتلكان القنبلة الذرية، أصبح المسرح السياسى الدولى نهبا للتهديد باستخدام القوة النووية، وبدلاً من أن تخضع الحرب للسياسة انقلبت الموازين وأصبحت السياسة تخضع لميزان القدرات التكنولوجية للقوى العظمى.

السلاح النووى بين أمريكا وروسيا:

أثبتت الصراعات التى تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية تعذر استخدام السلاح النووى فى الحرب الحديثة، وأصبح دور السلاح النووى ينحصر فى مجرد الردع، وظلت القوى التقليدية هى الأدوات التكنولوجية الفعالة لتنفيذ أهداف السياسة الدفاعية لكلا الحلفين، وإن كان قيامها بهذا الدور يستند لدعامة نووية قوية يحسب لها ألف حساب. ولقد تميزت الستينيات باعتماد أمريكا على تفوقها نووياً واستراتيجياً على الاتحاد السوفييتى مما دعاها لإغفال الاعتماد على القوى التقليدية، إلا أن الموازين تبدلت بعد ذلك وكثف الاتحاد السوفييتى تطوير قواته النووية والتقليدية بشكل جعل الولايات المتحدة تعيد الاهتمام بتطوير قواتها التقليدية تحسباً لاحتمال التورط فى صراعات الحرب المحدودة فى أى جزء من العالم، وبنهاية الستينيات تحقق توازن القوى بين المعسكرين وتوازن الخط السياسى والتكنولوجى لكل منهما. حيث وصل الاتحاد السوفييتى فى نهاية الستينيات إلى نقطة التعادل العسكرى والتكنولوجى بمعدل تقدم يوازى ٥٪ فى العام بالنسبة لقواته التقليدية، وبمعدلات أسرع بالنسبة لقواته النووية.

العدد فى الليمون:

بحلول السبعينيات تحقق التكافؤ النووى بين الدولتين، فقد أصبح فى حوزة الاتحاد السوفييتى «١٥١٠» صواريخ عابرة للقارات علاوة على ٤٤٠ صاروخاً بالستيكيا للغواصات مقارنة بما لدى الولايات المتحدة من «١٠٥٤» صاروخاً عابراً للقارات و«٦٥٦» صاروخاً بالستيكيا للغواصات، الأمر الذى حدا بتحول السياسة الدفاعية للولايات المتحدة من انتهاج سياسة الردع المتبادل إلى انتهاج سياسة الوفاق والدخول فى مباحثات للحد من الأسلحة الاستراتيجية «سولت» مع الاتحاد السوفييتى.

التنولوجيا والحرب:

فى إجراء عاجل للرد على المد السوفييتى وانحسار الهيبة الأمريكية فى السبعينيات أعلن الرئيس ريجان فى بداية توليه الرئاسة عام ١٩٨١ زيادة الإنفاق العسكرى لتحديث القوات الأمريكية.. فقد بلغ الإنفاق العسكرى الأمريكى عام ١٩٧٠ فى أوج الحرب الفيتنامية ٧٧ بليون دولار تضاعف عام ١٩٨٥ ليصل إلى ٣٧٦ بليون دولار من منطلق الإصرار على مواجهة

التحدى السوفييتى وتصعيد حجم قواته التقليدية فى أوروبا بتحديث الدفاعات الغربية فى أوروبا وتزويدها بأسلحة تكنولوجية متقدمة تتمثل فى نوعيات حديثة من الدبابات والمقاتلات القاذفة والمقاتلات الاعتراضية والصواريخ النووية طراز «كروز» و«بيرشنج» مع التركيز على استخدام الأسلحة النيترونية فى المسرح الأوروبى.

ما بين حرب المدرعات والحرب الالكترونية:

فى نطاق حديث المؤلف عن الحرب المحدودة وأهم الأسلحة المستخدمة فيها.. يخصص خمسة أبواب للمدرعات والحرب الجوية والبحرية ثم حرب الألكترونيات.. وليسمح لنا القارىء فى اقتطاف زهرة من كل باب أو فصل.. رغم أن لفظ زهرة ليس من المناسب أبداً استخدامه هنا حيث مجال النيران والموت والفناء.. ولكن لامفر.. إننا نريد أن نزف المعلومة العسكرية مغلفة بالأمل، حتى لا يكون الاستخدام إلا فى نطاق ضيق.

وبالنسبة للحرب المدرعة فهو يحدثنا من خلال بابه الأول عن أنواع المدرعات من حيث كونها مركبات مدرعة ودبابات رئيسية ثم الصواريخ المضادة للدبابات بأنواعها وأشكالها ومراحل تطورها. كذلك المدفعية والألغام المضادة للدبابات والقصف المساحى للمدرعات.. وهو يبدأ حديثه المفصل عن هذه الأنواع بقوله «تمثل المدرعات مكاناً بارزاً فى جيوش معظم الدول من منطلق كونها سلاح الحسم فى المعارك البرية سواء فى مسارح الحرب التقليدية أو النووية. من أجل ذلك نجد أن دول حلف وارسو تولى اهتماماً كبيراً بالمدرعات، وقد تفوقت على حلف الاطلنطى بنسبة ٢ إلى ١.. كما قدر خبراء حلف الاطلنطى قدرة مدرعات حلف وارسو فى القطاع الأوسط للمسرح الأوروبى فى منتصف الثمانينيات بحوالى ١٨ ألف دبابة بما يوازى ثلاثة أضعاف القوة المدرعة لحلف الاطلنطى. هذا عن الحرب المدرعة إما الحرب الجوية فينقسم حديث المؤلف عنها إلى:

- القوى الجوية الكبرى.
- عمليات الحرب الجوية.
- القصف الجوى الموجه.
- الدفاع الجوى الأرضى.

وعن هذه القوات يقول الكاتب الدكتور أحمد زهران: إن احراز النصر فى المعارك الجوية يتطلب إعداد وإمداد القوات الجوية بالمعدات والأسلحة كما يمثل نظام الدفاع الجوى تهديداً متصاعداً للقوات الجوية بقدر ما تمثل القوات الجوية تهديداً مباشراً للتشكيلات البرية بوجه عام والتشكيلات المدرعة بوجه خاص.. وكمثال على ذلك يوجد تحت إمرة قيادة قوات حلف

الاطلنطى الجوية فى أوروبا ثلاثة آلاف طائرة قتالية تعمل فى حوالى ٢٠٠ قاعة جوية منتشرة فى وسط وشمال وجنوب أوروبا الغربية. أما بالنسبة للقوات الجوية للاتحاد السوفييتى فإن الخبراء يقدرون قوات المواجهة فى وسط أوروبا بحوالى ٢١٠٠ طائرة قتالية و٩٠٠ هليوكوبتر.. ومعظم القوات الجوية السوفييتية مصمم للقيام بمهام القتال الجوى والقصف الأرضى.

وبالنسبة للقوات البحرية أو حرب البحرية فإن الترسانة البحرية لحلفى الأطلنطى ووارسو تزخران بالعديد من المتنوع من السفن البحرية والأسلحة البحرية المقطورة التى تشكل أدوات الصراع البحرى للسيطرة وبسط النفوذ على البارد وقت اشتداد الأزمات واندلاع الحرب.

ويأتى الحديث عن الحرب الالكترونية بوسائلها وأساليبها ومسارح وقوعها.. فقد استخدمت هذه الحرب فى صور عديدة منذ بداية هذا القرن بدءاً باستخدام الاتصال باللاسلكى فى الحرب العالمية الأولى ومروراً باستخدام الرادار فى الحرب العالمية الثانية حتى استخدام نظم الاتصالات الكترونية المتطورة المحمولة جواً وبالأقمار الصناعية اليوم.

حرب أكتوبر ١٩٧٣ والحرب الألكترونية:

أبرزت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ فاعلية الحرب الالكترونية، فقد نجح المصريون فى أقلمة نظام دفاع جوى متقدم يضم الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات الموجهة راداريا استغل بكفاءة مما أدى إلى تداعى محاولات الاختراق الجوى الإسرائيلى بادىء الأمر. كما سجلت حرب أكتوبر أيضاً استخدام الزوارق الحربية الإسرائيلية للعواكس كوسائل للإعاقة الالكترونية حجبتها عن رادارات توجيه المقذوفات المضادة للسفن، وكان هذا انعكاساً لعملية إغراق المدمرة إيلات عام ١٩٦٧ بصاروخ بحرى مصرى موجه فى أول استخدام للصواريخ الموجهة فى الحرب البحرية لقد قفزت حرب أكتوبر بالحرب الالكترونية إلى مقدمة الفكر العسكرى المرتبط باستخدام وتطوير الأسلحة بشكل عام. والموجهة اليكترونياً بشكل خاص. إن الانفاق على شراء وتطوير معدات الحرب الالكترونية يحتل المركز الثالث فى ميزانية أسلحة ومعدات الدفاع الأمريكى وهى تحتل نفس الأهمية فى ميزانيات المعدات الدفاعية لكثير من الدول المتقدمة وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى.

الحرب الشاملة وأنواعها المدمرة:

نأتى إلى الحديث خلال هذا الحيز ـ عن الجزء الثانى من الحرب الحديثة ونقصد بها الحرب الشاملة بأنواعها العديدة مثل الحرب الكيماوية والبيولوجية والحرب النووية ثم حرب الفضاء وتطور القوى الاستراتيجية ثم أسلحة التسعينيات.. وبنفس أسلوب الاقتطاف الذى اتبعناه فى

الجزء الأول .. سوف نواصل حديثنا هنا مع هذا الجزء باقتطاف بعض المعلومات التى تشفى غليل المعرفة بداخلنا .. وبما تسمح به المساحة المتاحة ، محاولين إلا نخل بالمضمون والمعنى الذى يقصده المؤلف .

تدمير أشكال الحياة على الأرض :

تستغل الحرب الكيماوية والبيولوجية المعاصرة التقدم الكبير فى علم الأحياء والكيمياء لابتكار أسلحة قتالية فعالة ذات قوة تدميرية شاملة لكل أشكال الحياة على الأرض . ويرجع استخدام الأسلحة الكيماوية هذه بالشكل والأسلوب المتعارف عليه حالياً إلى الحرب الأولى حيث استخدم الألمان ٢٠٠ طن من غاز الكلور السام ضد الدفاعات البريطانية فى فرنسا حملتها الرياح لتؤدى إلى وفاة ٥ آلاف جندى بريطانى وتسببت فى فتح ثغرة واسعة فى دفاعات القوات البريطانية . ولم يسجل استخدام الأسلحة الكيماوية منذ الحرب العالمية الأولى إلا فى حالات معدودة . وبقدوم عام ١٩٧٢ وقعت ١٠٩ دول من الشرق والغرب اتفاقية دولية مكملة ومؤكدة لاتفاقية جنيف عام ١٩٢٥ تقضى بالامتناع عن إنتاج وتطوير أسلحة الحرب الكيماوية باعتبارها أسلحة للتدمير الشامل . وللأسف لم تتعرض هذه الاتفاقية لإنتاج وتخزين الأسلحة الكيماوية حيث يمتلك الاتحاد السوفييتى حالياً ترسانة ضخمة من الأسلحة الكيماوية كما تعيد الولايات المتحدة بناء ترسانتها من الأسلحة الكيماوية بعد توقف دام عشر سنوات من عام ١٩٦٩ حتى نهاية السبعينيات على أساس إنتاج أسلحة كيماوية ذات النظام الثنائى المتطور . ويجرى على قدم وساق سباق غير معلن بين هاتين الدولتين لتطوير تلك الأسلحة .

المخزون الاستراتيجى :

تعتبر غازات الأعصاب والغازات الكاوية أهم الغازات الحربية .. وهى تؤثر على الجهاز العصبى وتحدث الوفاة بعد وقت قصير من دخولها الجسم . ولا يوجد سوى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وفرنسا لديها مخزون استراتيجى من مواد الحرب الكيماوية جاهز للاستخدام الفورى ويقدر هذا المخزون فى أمريكا بحوالى ٤٢,٠٠٠ طن نصفها من غاز المستارد والنصف الآخر غازات الأعصاب . وتحتفظ الولايات المتحدة بنصف مخزونها تحت الأرض ، كما يقدر المخزون الاستراتيجى للاتحاد السوفييتى لمواد الحرب الكيماوية بحوالى ٣٥٠ ألف طن إلا أنه لا توجد معلومات مؤكدة عن كميات وأنواع تلك الأسلحة .

هذا عن الأسلحة الكيماوية .. أما الاسلحة البيولوجية فإنه يوجد أكثر من ثلاثين نوعاً من الفيروسات والميكروبات والفطريات والتوكسيفينا السامة .

بين الحرب النووية وحرب الفضاء:

لا يزال حديث الحرب وأنواعها وآثارها المدمرة فارضاً نفسه علينا بحكم المرحلة وعلى دول العالم بحكم السباق المسلح لفرض سياسة القوة. وإن لم نكن قادرين على الاطلاع لعلى الأقل نعرف.. حتى نعيش العصر الحديث بكل مساوئه وحالات الرعب التي من الممكن أن تصيبنا في لحظات. لقد اقتربنا كثيراً من أحدث وسائل الحروب وأشدها فتكاً بالبشر.. إننا هنا على أعتاب حديث مرعب يدور في فلك السلاح النووي وتطويره الهائل فوقنا في فضاء الكرة الأرضية الواسع، إن مؤلفنا وكما عرفنا قد خصص بابين كبيرين لحديث القوة النووية ومركبات الفضاء.. أما بالنسبة للحرب النووية فيحدثنا عنها من خلال الأداء التدميري النووي وسباق التسلح النووي ثم ترسانة الأسلحة النووية، وأخيراً حديث العمليات النووية التكتيكية.. والدافع نحو الحديث عن هذه الحرب الملعونة قول المؤلف أن الكثيرين يعتقدون أن هناك احتمالات متزايدة لنشوب حرب نووية مبعثها السباق بين الدولتين العظميين. لذا يصبح من الأهمية بمكان تفهم طبيعة الصراع النووي والتعرف على الكيفية التي تؤدي إلى نشوب تلك الحرب وإطلاق السلاح النووي المدمر!!

ويكفي فقط أن نعلم أن أي انفجار نووي يؤدي فور وقوعه لوميض وحرارة وضغط وإشعاع ونبض كهرومغناطيسي، وتمثل موجة الضغط الناجمة عن الانفجار ٥٠٪ من قوته، وتمثل الحرارة ٣٥٪ والإشعاع ١٥٪ وهذه كلها تتسبب في الحروق والعمى للأفراد حتى مسافة ٢٥ كيلو متراً من مركز الانفجار.

الأقمار الصناعية والمهام العسكرية:

إن الأقمار الصناعية لم تستخدم بعد كأسلحة أو منصات لحمل الأسلحة ولكنها تؤدي مهام عسكرية حيوية في كشف ومراقبة تمركز وتحركات الأسلحة والقوات على الأرض وفي الجو وفي داخل أعماق المحيطات.. وتقوم الأقمار الصناعية الأمريكية والسوفييتية بالمراقبة المستمرة واستطلاع كل الأنشطة العسكرية على الأرض، وخير دليل على ذلك تمكن القمر الصناعي السوفييتي «كوزمرس» والأمريكي «ڤيلا» من اكتشاف تفجير نووي بجنوب أفريقيا عام ١٩٧٧.

محاولات تدمير الأقمار:

تؤدي الأقمار الصناعية على اختلاف أنواعها مهام على جانب كبير من الأهمية خاصة أثناء الحرب؛ ولهذا تركزت جهود القوتين العظميين لابتكار وسائل تكنولوجية متقدمة تتيح اعتراضها وتدميرها، فقد أجرى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٦ تجربة فضائية لاعتراض وتدمير الأقمار

الصناعية ، تنحصر فى إطلاق قمر صناعى فى مدار ثابت حول الأرض ، تبعه بعدة أيام إطلاق قمر صناعى آخر، اعترض عن طريق المناورة مسار القمر الأول ودمره بشحنة متفجرات تقليدية ، كما تبنى الولايات المتحدة برنامجاً لاعتراض وتدمير الأقمار الصناعية فى الفضاء بصواريخ ASAT يتضمن البرنامج إطلاق صاروخ موجه من المقاتلة F. 15 نحو قمر صناعى فى مدار قريب من الأرض .

دول أخرى فى النادى النووى :

وقبل الختام يحدثنا المؤلف عن القوى النووية الصاعدة قائلاً : استتبع تطوير أمريكا وروسيا ، أسلحتها النووية الاستراتيجية ، قيام دول أخرى باللحاق بها فى النادى النووى كبريطانيا وفرنسا والصين وغيرهم فبالنسبة لبريطانيا تعد العضو الثالث فى هذا النادى حيث تم تجربة تفجير أول قنبلة ذرية بريطانية عام ١٩٥٢ . ثم تأتى فرنسا كعضو رابع وقد بدأت بها التجارب النووية بعد الحرب العالمية الثانية حيث استعانت بتكنولوجيا الصواريخ الألمانية وبالعلماء الألمان لإنتاج الصاروخ الفرنسى «فيرونيك» كما نجحت فى إنتاج أول قنبلة نووية ثم تفجيرها بنجاح عام ١٩٦٠ . أما الصين فهى القوة النووية الخامسة ، حيث فجرت قنبلتها النووية الأولى فى ٦ أكتوبر عام ١٩٦٤ .

جيل جديد من الأسلحة :

تصوروا .. رغم كل ما ذكرناه وبالتفصيل عن أنواع أسلحة التدمير فى أنحاء العالم .. هناك ولا يزال العلماء عاكفين على البحث عن أسلحة جديدة أكثر فتكاً وتدميراً !! ولنسمع حديث المؤلف عن هذه المصيبة الكبيرة التى مُنى بها البشر فى عصرنا الحديث .. يقول الدكتور زهران فى بابه الأخير عن أسلحة التسعينيات .. هناك يجرى على قدم وساق فى مراكز البحوث فى الشرق والغرب بحوث مكثفة فى الثمانينيات لابتكار جيل جديد من الأسلحة يتسم بكفاءة الأداء المتمثل فى سهولة الاستخدام ودقة التوجيه والحاق إصابة محققة بالأهداف .. بمأمن من الأسلحة المتقدمة للاستخدام على المستوى الاستراتيجى والتكتيكى على النحو الذى يرتفع بسباق التسلح إلى آفاق لا يمكن التكهن بمداها فى المستقبل .. وتنظيم أسلحة التسعينيات التى يتم ابتكارها أو تطويرها فى الثمانينيات والتى سيدخل بها العالم القرن الحادى والعشرين تسع مجموعات لحوالى مائتين من نظم الأسلحة والمعدات المتطورة ..

مواجهة الأسلحة الذرية الإسرائيلية(١)

●● لايستمد هذا الكتاب أهميته فقط من كونه يثير موضوع امتلاك إسرائيل للسلاح الذرى، وهو الموضوع الذى يشكل منعطفاً هاماً فى قضية الصراع العربى الإسرائيلى، ليست هذه فقط أهمية الكتاب، ولكن أهميته تعود كذلك إلى أن مؤلفه ليس عربياً، ولا ينتمى لدولة من الممكن اعتبارها صديقة للعرب، بل هى عون لإسرائيل عليهم فالمؤلف أمريكى! لكنه فى كتابه هذا «ترسانة إسرائيل النووية» قد بذل جهداً مضنياً فى تتبع ورصد كل ما يمكن من معلومات متاحة حول قوة إسرائيل النووية، ومؤلفه «بيتربراى» لا يطرح المعلومات فقط، بل يربط بينها ويحلل، بحيث يصل إلى شبه نتيجة مؤكدة أن لدى إسرائيل سلاحها النووى، الذى تفضل أن تلوح به من بعيد، وأن تسرب أحياناً المعلومات عنه، حتى يظل العرب ــ فى الصراع الحتمى بينهم وبينها ــ فى حالة شك خائف، فالتلويح بالسلاح ربما كان فى كثير من الأحيان أكثر فعالية من استخدامه مهما كان مدمراً! والكتاب يحاول الإجابة عن تساؤلات حول القوى الدولية التى تساعد إسرائيل فى برامجها النووية، ومدى قدرة إسرائيل على استخدام سلاحها النووى، وإلى أى الأهداف أى مدى يمكن توجيهه، وإلى أى حد تسمح موازين القوى الدولية لاسرائيل بإعمال ما تملكه إسرائيل من القنابل الذرية.

إنها دراسة بالغة الأهمية تؤكد فضل مترجمها «منير غنام» إلى العربية، والجهد الذى بذله الدكتور محجوب عمر فى مراجعة الدراسة وتقديمها.

(١) ترسانة إسرائيل النووية ــ بيتر براى ــ نشر بالوفد فى ٢٨ يونيو ١٩٨٩.

يرى المؤلف أنه «لسوء الحظ ليس من شيء معروف على وجه اليقين عن قوات إسرائيل النووية فالإسرائيليون متعمدون الغموض فيما يتعلق بوضعهم الذرى ، بحيث يصبح من غير الممكن لنا ـــ أى المؤلف ـــ حتى مجرد الجزم بأن إسرائيل تمتلك ترسانة نووية أصلاً ، ويرغب الإسرائيليون فى الحصول على الأمن الذى يوفره لهم امتلاكهم لعامل الردع النووى ، ولكنهم يرفضون الإقرار بامتلاكهم لذلك السلاح خشية أن يثير مثل هذا الإقرار إدانة عالمية لهم ويؤدى إلى فرض عقوبات دولية عليهم » .

ويقدم المؤلف أمثلة كثيرة على الغموض الإسرائيلى المتعمد فيما يتعلق بأوضاع إسرائيل النووية أن « افراهام كاتزير» الرئيس الإسرائيلى السابق يؤكد فى عام ١٩٧٤ «أن إسرائيل لن تكون البادئة بإدخال الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط ولكن اسرائيل تمتلك القدرة على صنع مثل تلك الأسلحة ، بل وفى مقدورها أن تفعل ذلك فى فترة زمنية معقولة » !!

وعلى نفس المنوال من الإلغاز والتمويه جاءت تصريحات لموشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى الراحل لصحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية فى يونيو ١٩٨١ ، ثم الحديث الذى أجراه مؤلف الكتاب مع مستشار مقرب لرئيس الوزراء الإسرائيلى السابق «مناحيم بيجن » فى نوفمبر ١٩٨٣ « صامويل كاتسى » .

لكن كثيراً من الأدلة العرضية ـــ كما يقول المؤلف ـــ قد أقنع غالبية الخبراء العسكريين بأن إسرائيل هى الآن قوة تمتلك أسلحة نووية ، كما أعلنت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٧٦ عن اعتقادها بأن إسرائيل قد صنعت فعلاً أسلحة نووية ، ويتعرض المؤلف بعد ذلك فى إسهاب لتفاصيل قصة الكيفية التى حصلت بها إسرائيل على القنبلة النووية فقد تراكم كم من المعلومات اليوم يجعل من الممكن إعطاء بعض الاستنتاجات الواقعية عن طبيعة الأسلحة الذرية الإسرائيلية .

البداية ..

يرى المؤلف أن هناك الكثير من الأسباب التي تجعل إسرائيل في حالة قلق دائم على أمنها واستمرار هذا الأمن. فهي تواجه عرباً تفوقوا في العدد فضلاً عن امتلاكهم لثروات بترولية ضخمة وأموال كذلك، ولأنها دولة صغيرة سكاناً ورقعة فهي دائماً تدرك خلل ميزان القوى بينها وبين العرب، رغم ما تتلقاه من عون اقتصادي وعسكري دائم من الولايات المتحدة كقوة عظمى في العالم. إن هذا البحث الدائب عن الأمن هو ما جعل إسرائيل ـ طبقاً للمؤلف ـ تقرر منذ بدأت ولادة الدولة في عام ١٩٤٨ أن تبدأ برنامجها النووي الخاص بها! لقد ذهب الخبراء الجيولوجيون الإسرائيليون إلى صحراء النقب للبحث عن أي وجود محتمل لمادة «اليورانيوم» المادة الأساسية في أي نشاط نووي، كما أرسلت إسرائيل ألمع تلاميذ جامعاتها ـ بتشجيع أول رئيس إسرائيلي «حاييم وايزمان» إلى سويسرا وهولندا والولايات المتحدة للتخصص في ميدان الذرة، وفي عام ١٩٥٠ أنشأت وزارة الدفاع الإسرائيلية قسماً للبحوث والتطور النووي في معهد «وايزمان» في «راحبوت» وهو مهد العلوم الذرية الإسرائيلية ويذكر المؤلف أن مجموعة الباحثين في هذا المعهد قد حققت تقدماً مذهلاً! وقامت بمسح لمناطق النقب أسفر عن اكتشاف مخزونات ضخمة من الفوسفات التي يمكن استخلاص مادة «اليورانيوم» منها ـ وهي بنسبة ضئيلة ـ بابتكار أساليب جديدة لهذا الاستخلاص! ومع حلول عام ١٩٥٥ قرر رئيس وزراء إسرائيل «ديفيد بن جوريون» التحرك نحو الخيار النووي، بعد أن كانت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية قد أصبحت طرفاً في الجهود النووية المبكرة في عام ١٩٥٢، إذ أنشئت سراً لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية تحت إشراف وزارة الدفاع، ثم سرعان ما أصبحت اللجنة ووزارة الدفاع شيئاً واحداً!.

أيزنهاور.. هل كان حسن النية؟!:

يرى المؤلف أن الرئيس الأمريكي الأسبق «دوايت ايزنهاور» قد قدم المساعدة لإسرائيل في أبحاثها الذرية عن غير قصد، عندما أدرجها ضمن الدول التي تشترك في برنامجه «الذرة من أجل السلام» كمعونة أمريكية في مجال الطاقة! وقد كانت هذه البداية الأمريكية في نشاط إسرائيل الذري هي المدخل الذري الصغير في «مستعمرة سوريك» بشرط وجوب إنشاء إجراءات احتياطية معينة تضمن عدم استخدام هذا المفاعل في صنع الأسلحة!! ولما كان الإسرائيليون لا يحترمون تعهداتهم دائماً، فإن مفاعل «سوريك» هذا قد أصبح الآن قادراً على إنتاج ٣ إلى ٤ رءوس نووية من النوع الذي ألقي على هيروشيما اليابانية في الحرب العالمية الثانية!! رغم الاتفاقية الامريكية التي تتيح للولايات المتحدة ووكالة الطاقة الذرية الدولية التفتيش على مفاعل «سوريك» وضمان عدم إنتاجه للسلاح مع إشارة المؤلف إلى أن مفاعل

« سوريك » يمكنه انتاج قنابل نووية ! وتذهب بعض التحليلات الأمريكية إلى القول بأن الولايات المتحدة ــ على عهد ايزنهاور قدمت عوناً ذرياً لإسرائيل فى مجال تطوير سلاحها النووى كتعويض لها عن انسحابها من سيناء عام ١٩٥٦ .

فرنسا صاحبة الدور الرئيسي :

هكذا سمى المؤلف فرنسا ــ ليس بالاجتهاد بل طبقاً للمعلومات ــ صاحبة الدور الرئيسى فى الأخذ بيد إسرائيل ذرياً حتى تحصل على القنبلة ! فقد تعاونت فرنسا مع إسرائيل على مدار ١٤ عاماً بدأت من ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٦٧ فى مجال التكنولوجيا النووية سراً ، فرئيس وزراء فرنسا الأسبق « جى موليه » كان يرى تقوية إسرائيل ذرياً ، حتى يكون التهديد الذرى الإسرائيلى عاملاً حاسماً فى تهديد الرئيس المصرى الراحل عبد الناصر الذى كان يساعد الثوار الجزائريين فى حرب فرنسا اليائسة ضدهم وكانت لفرنسا منفعة مقابل مساعدتها لإسرائيل ذرياً ، إذ قدمت الثانية للأولى أسرار « الكمبيوتر » الأمريكى ، وهو ما كان يساعد على تحقيق رغبة فرنسا فى الاستقلال نووياً عن أمريكا ، وهو الأمر الذى جعل المساعدة الفرنسية لإسرائيل ذرياً مستمرة من عهد « جى موليه » وحتى عهد الرئيس الراحل « شارل ديجول » الذى كان يريد لفرنسا قدرتها النووية العسكرية المستقلة . وهو الأمر الذى كانت الولايات المتحدة تقاومه . من هنا ظل التعاون الفرنسى لإسرائيل وثيقاً دائماً حتى كانت حرب يونيو ١٩٦٧ ، والتى غيرت من الموقف الفرنسى ، بإدانة ديجول الشهيرة لعدوان إسرائيل على العرب ، ويرى المؤلف أنه لا توجد معلومات مؤكدة على أن إسرائيل قد أجرت تفجيرات نووية فى الصحراء الجزائرية على عهد احتلال فرنسا للجزائر ، لكن فرنسا قد بنت للإسرائيليين مفاعلهم الذرى الهام فى « ديمونة » الذى دخل فى طور العمل الفعلى فى عام ١٩٦٣ ، والذى يعتمد فى إنتاجه على مادة « اليورانيوم » الطبيعى كوقود ، وقد طورت إسرائيل مواردها الذاتية منه ، وتمكنت به من التحرر من الرقابة الأمريكية على برنامجها النووى ، وقد أصبح مفاعل « ديمونة » بؤرة للجزء الأعظم من نشاطات إسرائيل الذرية . وتمضى إسرائيل فى نشاطها الذرى بلا أى رقابة دولية تذكر !! بل إنها قد حظرت أى تفتيش ــ ولو محدود ــ على منشآتها الذرية أو نشاطها فى هذا المجال !

ركائز السياسة النووية الإسرائيلية :

يرى المؤلف أن هذه الركائز تتلخص فى أن الإسرائيليين ــ أولاً ــ سوف يستخدمون قنبلتهم الذرية كعامل ردع ، ولكنهم لن يستخدموها ضد العرب لتنفيذ ضربة أولى وقائية ، وثانياً أنهم سيستخدمونها فعلاً لتوجيه ضربة انتقامية عند الضرورة ، وثالثاً أن إسرائيل سوف تنكر أنها قامت بصنع أسلحة نووية ، ولكنها ستشير بصورة ضمينة إلى وجود مثل هذه الأسلحة لديها وذلك

من خلال القنوات الرسمية وغير الرسمية ، ورابعاً أن إسرائيل ستسعى إلى منع أعدائها من الحصول على أسلحة نووية حتى لو تطلب منها الأمر القيام بعمل عسكرى كما فعلت بضرب المفاعل الذرى العراقى عام ١٩٨١ ، وتذهب بعض التحليلات إلى أن إسرائيل قد درست عام ١٩٧٣ ــ بعد نشوب حرب أكتوبر وميل الميزان لصالح العرب ــ استخدام سلاحها النووى ، لكن الذى حال دون ذلك اعتدال الميزان السريع بالعون لإسرائيل ، ويرى المؤلف أن سلاح إسرائيل النووى الذى ترى فيه عامل ردع لم يحل دون استمرار هجمات الفلسطينيين على الأهداف داخل إسرائيل ، كما أن وجود عامل الردع هذا لم يحل دون قيام مصر وسوريا بشن الحرب ضد إسرائيل ، لكن إسرائيل فيما يبدو تفضل ادخار سلاحها النووى لضربة انتقامية رداً على بدء العرب بالضربة الأولى ، كما أن إسرائيل ترى فى سلاحها النووى واستمرار نشاطها فى هذا السبيل عامل ضغط على الولايات المتحدة الأمريكية فى مجالات المساومة . ووضع هذا فى الحساب عند أى محادثات بين السوفييت والأمريكيين . كما أن إسرائيل حتى الآن تعتبر المحتكر الوحيد للسلاح الذرى فى الشرق الأوسط ، وإن كان المؤلف يذكر أن هناك دولاً عربية أخرى كليبيا والعراق تعملان جاهدتين لصنع سلاحهما الذرى ، فلو ظهرت القنبلة الذرية العربية إلى حيز الوجود لانتهى احتكار إسرائيل لهذا السلاح فى المنطقة ، ولم يعد سلاحها النووى أداة ردع كما أرادت .

جونسون يكذب على وزرائه :

إذا كانت بعض الآراء تذهب إلى حد الزعم بأن السلاح النووى الإسرائيلى هو مجرد إشاعة وراءها إسرائيل ذاتها ! فإن أحداً فى الولايات المتحدة لايمكنه إنكار أن إسرائيل قد ذهبت فى تجاربها النووية إلى أبعد الأشواط ، وفى الكتاب الإشارة إلى تقرير سرى للمخابرات المركزية الأمريكية ذكر فيه أن رئيس هذه المخابرات « ريتشارد هيلمز » على عهد الرئيس الأمريكى « ليندون جونسون » أبلغ الرئيس أن إسرائيل تمتلك قنابل ذرية ! وأن جونسون طلب إلى « هيلمز » أن يخفى هذا الخبر ويتكتمه ، حتى على وزيرى الخارجية والدفاع ! وعلى العكس .. فقد ظلت إدارة جونسون تنفى منذ تاريخ هذه الواقعة عام ١٩٦٨ ــ وكذلك الإدارات الأمريكية التى تلتها ــ علمها بأن إسرائيل قد صنعت فعلاً أسلحة نووية !! ، تجنباً لردود الفعل العربية ثانياً والسوفييتية أولاً بالطبع ! لكن أمريكا تكتفى بأنها تعلم ، وتعلم تفاصيل التعاون الإسرائيلى مع ألمانيا العربية وجنوب إفريقيا وتايوان فى مجال السلاح الذرى !

هل أجرت إسرائيل تجارب نووية تحت الأرض ؟ :

يطلعنا المؤلف على أن إسرائيل قد استفادت من نتائج التفجيرات الذرية الفرنسية ، وأن بإمكان إسرائيل أن تجرى تجارب نووية مكتومة تحت الأرض فى صحراء النقب ، لكن إسرائيل

لم تضبط حتى الآن متلبسة بإجراء تجارب كهذه ، والأصوب الذهاب إلى افتراض أن إسرائيل لم تجر حتى الآن تجربة نووية ، وليس هذا تعففاً من إسرائيل عن التجربة ، بل لأن كافة تجارب التفجير النووى المكتوم تحت الأرض يمكن كشفها ورصدها ، ليس بعد إجرائها فحسب ، بل وفى حالة الاستعداد لها وتهيئة مسرحها ، وتذكر صحيفة « الواشنطن بوست » الأمريكية عام ١٩٧١ أن العلماء حالياً قد أصبح بإمكانهم التمييز بين الهزات الأرضية والتجارب النووية مهما صغر حجمها .

قنابل صغيرة أم كبيرة ؟! :

إن الكتاب يناقش أنواع « اليورانيوم » و « البلوتونيوم » وغيرهما من المواد اللازمة لصناعة القنابل الذرية ، ويورد الكتاب الكثير من التفاصيل العلمية الدقيقة حول صناعة الأسلحة الذرية ، وفى هذا المعرض يشير الكتاب فى موضع هام إلى أن إسرائيل لديها من مادة « البلوتونيوم » مخزوناً يكفى لبناء قنبلة ذرية كبيرة أو عدة قنابل صغيرة أقل قوة ، ومن المؤكد أن الإسرائيليين استخدموا هذا المخزون لإنتاج الكثير من الأسلحة النووية المتدنية القوة بدلاً من قنبلة أو بضع قنابل عملاقة ذات قوة هائلة ، فعندما تكون القنابل أكثر عدداً وأصغر حجماً ، فإنه يتيح لإسرائيل ضرب عدد من الأهداف أكبر ، وهذه القنابل الصغيرة عامل ردع أكثر مرونة من عامل الردع الذى توفره قنبلة واحدة عملاقة .

كم تملك إسرائيل القنابل الذرية ؟ :

يتناول الكتاب مختلف التقديرات لعدد ما تملك إسرائيل من قنابل ذرية ، هناك تقديرات تتسم بالمعقولية ، وهناك تقديرات تتسم بالشطط ، ومن حيث النوعية فقد ذهب الشطط إلى مداه حين روج البعض لفكرة أن إسرائيل لديها قنابل هيدروجينية تفوق القنابل الذرية الإسرائيلية الصغيرة تدميراً وردعاً . لكن الخبراء الأمريكيين ينفون هذا نفياً باتاً ، أما عدد ما تملكه إسرائيل من قنابل ذرية فقد تراوح من ١١ ــ ٢١ وحدة فى الحد الأدنى ، ومن ٣١ ــ ٤١ قنبلة ذرية بحد أقصى ، كما أن « شاى فيلدمان » من مركز الدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب يبدى اعتقاده بأن إسرائيل تملك ما بين ٣٠ ــ ٤٠ جهازاً للتفجير الذرى . أما أعلى تقدير فقد أعطته نشرة « فورن ربورت » الصادرة فى لندن . إذ ادعت النشرة عام ١٩٨١ أن إسرائيل تمتلك ٢٠٠ جهاز نووى ، وفى اعتقاد للصحفيين « هوارد كوهن » و « باربارانيومان » أن إسرائيل تملك ١٥٠ رأساً حربية نووية ، وقد رتبا هذا على ما أمكن لإسرائيل أن تسرقه من كميات اليورانيوم من مختلف أنحاء العالم ، لقد اختفت سفن بحمولاتها من اليورانيوم فى أعالى البحار ! ، وفى لصوصية بالغة التنظيم والدقة اختفت كميات أخرى من دول تعتبر صديقة

لإسرائيل بواسطة عملاء نشطين لجهاز «الموساد» الإسرائيلي، ثم يتناول الكتاب بعد ذلك أنظمة نقل الأسلحة الذرية وطرق تخزينها، مما يتوافر لدى إسرائيل، وإن كانت إمكاناتها في هذا الصدد يحيط بها الغموض كذلك.

«فانونو» والأسرار الذرية الإسرائيلية:

فجأة نشرت صحيفة «التايمز» البريطانية في ١٥ أكتوبر من عام ١٩٨٦ تقريراً عن صناعة الأسلحة النووية في إسرائيل، وكان مصدر المعلومات «موردخاي فانونو» الإسرائيلي البالغ من العمر ٣١ سنة، وهو الذي عمل في مجال التكنولوجيا النووية لمدة قرابة العشر السنوات في «ماخون ٢»، وهو بناء محصن قائم تحت الأرض، وبالغ السرية أقيم لتوفير الأجزاء الحيوية اللازمة لإنتاج الأسلحة في مفاعل «ديمونة» مؤسسة الأبحاث النووية الإسرائيلية، ويقول الكتاب أن المعلومات التي أوردها فانونو قد أدهشت خبراء الأسلحة النووية الذين اتصلت بهم «التايمز» البريطانية، إن هذه المعلومات لا تظهر فقط أن إسرائيل تملك القنبلة النووية، بل أن إسرائيل قد أصبحت قوة نووية رئيسية!! لقد أرفق «فانونو» معلوماته بما يزيد على ٦٠ صورة التقطها سراً داخل المصنع السري، وقد درس العالم الأمريكي «تيودور تايلور» وهو أحد أشهر خبراء الأسلحة الذرية والدارس على يد «روبرت أوبنهايمر» ــ أبو القنبلة الذرية ــ لقد درس «تايلور» صور «فانونو» ومعلوماته فقال بعدها: «لم يعد هناك أي مجال للشك في أن إسرائيل قد أصبحت دولة نووية بالمعنى الكامل منذ ما لا يقل عن عقد من الزمان»! أما مدير المعهد السويدي لأبحاث السلام «فرانك بارنابي» وهو عالم فيزيائي انجليزي شهير، فقد استدعته «التايمز» لاستجواب «فانونو» فقال «بارنابي بعد الاستجواب: «إن شهادة فانونو مقنعة تماماً».

•

لقد ثارت الشكوك حول «فانونو» من حيث إنه عميل إسرائيلي لمخابرات إسرائيل «الموساد» وإن ما دفع به من معلومات إلى الصحيفة البريطانية كان متعمداً من إسرائيل، لكن «بارنابي» قد نفى أن يكون هذا هو دور «فانونو» فهذا اليهودي المغربي الأصل لم يتقاض أموالاً من الصحيفة البريطانية لقاء ما قدم من معلومات!، كما أنه كان على صلة ببعض العرب المتشددين فلم يعطهم معلوماته! المهم أنه قد أعيد من لندن إلى إسرائيل، وحوكم على إفشائه هذه الأسرار النووية الإسرائيلية وعوقب بثمانية عشر عاماً سجناً، بتهمة الخيانة والتجسس، لكن المعلومات التي أوردها «للتايمز» كانت دقيقة ومعقولة، فهل سربت المعلومات عمداً بهدف إرهاب العرب وبث الرعب في قلوبهم، حتى تضمن إسرائيل أمناً محسوباً يغطي بردع العرب سياستها العدوانية في المنطقة؟!

كيف يتصرف العرب؟ :

في المقدمة للطبعة المترجمة لهذا الكتاب، والتي كتبها الدكتور محجوب عمر يرى كاتب المقدمة أن الحوار بين العرب متخصصين وغير متخصصين ــ قد بدأ منذ أمد حول ما الذى يجب على العرب عمله فى مواجهة حقيقة امتلاك إسرائيل للقنبلة النووية، وهناك أغلبية عربية ترى أن العرب لابد لهم من ملكية السلاح النووى. وهذه ليست ضرورة عربية فقط، بل إن العالم كله يقدر هذه الضرورة. فالدوافع إلى هذا استرتيجية عسكرية وأمنية كردع خصم نووى. ثم النفوذ والمكانة من أجل تحقيق وضع إقليمى ودولى متميز، وتقوية المعنويات العسكرية والعلمية داخل الوطن العربى، ويرى صاحب المقدمة كذلك أن سعى العرب إلى امتلاك السلاح النووى يجب أن يواكبه إعداد الجماهير العربية وتهيئتها لمواجهة نووية مع إسرائيل. ويجب فى النهاية ألا تؤدى قراءة هذا الكتاب إلى الخوف من العربى المواجهة النووية. فليست هناك مشكلة لا يمكن حلها ولا سلاح لا يمكن امتلاكه. وليس لنا من تعليق على كلمات المقدمة هذه سوى أن نقول: ليكن لنا فيا فعل العدو فى هذا الصدد أسوة وعبرة.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

كتب للمؤلف

●● سؤال للبيع ــ مجموعة قصصية ــ طبعة أولى عام ١٩٨٠ .
●● الحب فى سوق السلطان ــ مجموعة قصصية ــ طبعة أولى عام ١٩٨٠ .
●● إستقالة عشماوى ــ رواية قصيرة ــ طبعة أولى عام ١٩٨٣ .
●● الخروج من الباب العالى ــ رواية طويلة ــ طبعة أولى عام ١٩٨٦ .
●● الانتحار مرة أخرى ــ مجموعة قصصية ــ طبعة أولى عام ١٩٨٨ .
●● وقال الحب ــ روايتان قصيرتان ــ طبعة أولى عام ١٩٨٩ .

رقم الإيداع : ٧٦٥٣ / ١٩٩٠ .
الترقيم الدولى : ٩-٠٧-٥٠٨٤-٩٧٧ .

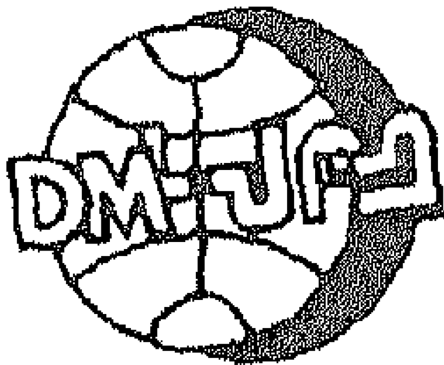
عربية للطباعة والنشر
١٥ ش نابلس ـ ميدان موسى جلال ـ المهندسين
من ش شهاب ـ أمام مسجد طارق بن زياد
ت : ٣٤٦٥٣٧٦

أوراق فى السياسة والحب والحرب

هذا الكتاب الذى بين يديك قام نيابة عنك بدور كبير، بذل فيه من الجهد والوقت ما لا يقوم به إلا الكاتب المخلص الأمين؛ إذ اصطفى لك من المكتبات أحدث وأشهى ما قدمته من كتب هامة فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والوطنية والتاريخ و...، ولخصه لك تلخيصاً لا هو بالطويل الممل، ولا هو بالقصير المخل، فوفَّر لك من الوقت والجهد ما أنت فى أشد الحاجة إليه لبذله فى مجال آخر، كما ادّخر لك ثمن هذه الكتب الثلاثين، وفوق ذلك وفَّر لك مكاناً فسيحاً فى مكتبتك، فأصبحت تضع فيها هذا الكتاب وحده بدلاً من ثلاثين كتاباً ربما ضاقت بها، أو ناءت بحملها..

فلعله بهذا يكون قد وفق فيما قصد إليه، ونال رضاك، لأنه أثمن ما يحصل عليه الكاتب، والله وحده هو ولى التوفيق.

الناشـــــر



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت ـ تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣ برقيا : دار شادو ـ ص . ب . ٢٠٢٢ ـ القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING-PUBLISHING-DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT st p.o Box 2022- CAIRO- EGYPT PHONE: 3936743-3923525 CABLE. DARSHADO